دراسات أدبية

المقامات الأندلسية

(من القرن الخامس حتى القرن التاسع الهجري)

دراسة استقصائية.. تأريخية.. تحليلية.. أسلوبية

تأليف

الدكتور شريف علاونه

قسم اللغة العربية / كلية الآداب

جامعة البترا

طبع بدعم من وزارة الثقافة

2008

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م

المملكة الأردنية الهاشمية

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبات والوثائق الوطنية

٢٠٠٧/١٠/٣٠٩٤

٨١١,٦٣

علاونه، شريف راغب

المقامات الأندلسية/ شريف راغب علاونه.- عمان:

المؤلف، ٢٠٠٧

(٣٢١) ص.

ر.أ.: (٢٠٠٧/١٠/٣٠٩٤).

الواصفات: /الشعر العربي//المقامات//العصر الأندلسي/

* أعدت دائرة المكتبة الوطنية بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية

طُبع بدعم من وزارة الثقافة

2 0 0 8

إهداء

إلى

الذين أحبّوا الأندلس،

وكتبوا عن تاريخها وحضارتها

إلى

الباحثين في الأدب الأندلسي،

والدارسين له

أهدي هذا العمل

شريف علاونه

المحتويات

الفصل الأول
القاميّون الأندلسيون
(تراجمهم وأخبارهم)

الفصل الثاني
المقامات الأندلسية
(نصوص وتحليل)

الفصل الثالث
المقامات الأندلسية
(الدراسة الفنية)

مقدّمة

لم تَلْقَ المقامات الأندلسيّة اهتماماً من الباحثين والدارسين كما لقيت فنون النثر الأندلسي الأخرى من رسائل وخطب وأدب رحلات وغيرها، ولعل ذلك يرجع -فيما نرى- إلى نزرة المقامات الأندلسية المتوافرة بين أيدينا من جهة، وإلى أنه لم يظهر في الأندلس كتّاب مختصّون بهذا الفن عرفوا به وعرف بهم، كما هو الحال عند بعض المقاميّين المشارقة من جهة أخرى. فنجد من الكتّاب الأندلسيين من لم يؤلف سوى مقامة واحدة أو اثنتين، على أن أكبر عدد هو سبع مقامات، إذا استثنينا مقامات أبي الطاهر السّرقسطي (ت٥٣٨هـ)، وهي خمسون. وقد يكون لهم مقامات أخرى ما زالت مطمورة أو ضائعة. يضاف إلى ذلك أنّ المعلومات المتوافرة لدينا عن أكثر المقاميين الأندلسيين ومقاماتهم نزرة يسيرة، لا تغني الباحث، ولا تضع بين يديه مادة كافية للدرس والتحليل.

بَيْد أننا نشير هنا إلى أنّ بعض دراسات المحدثين، التي تناولت الأدب الأندلسي بعامة، أو تلك التي تناولت الأدب الأندلسي في فترة من فتراته قد توقفت عند بعض المقامات الأندلسية، وسردت قوائم بأسماء بعض المقاميين الأندلسيين، دون أن تترجم لهم، أو تعرّف بهم. ومن الدراسات الرائدة في هذا المجال دراسة الدكتور إحسان عباس في كتابه (تاريخ الأدب الأندلسي: عصر الطوائف والمرابطين) حيث خصّص ثلاثاً وعشرين صفحة لدراسة المقامات الأندلسية في القرنين الخامس والسادس للهجرة.[1]

أمّا الرسائل الجامعية، التي اتخذت من النثر الأندلسي موضوعاً لها، فبعضها أغفل المقامات الأندلسية[2]، وكأنها ليست من ألوان النثر الأندلسي وفنونه، في

(١) تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين)، دار الثقافة، بيروت، ط٧، ١٩٨٥، ص٣٠٣ – ٣٢٦.

(٢) انظر: النثر الفني في عهد الموحدين بالمغرب والأندلس، يوسف عروج، جامعة دمشق، ١٩٨٣.

حين نجد بعضها الآخر يمر بفن المقامة سريعاً، ويجعل همّه وغايته في الحديث عن فن الرسالة. والرسائل الجامعية التي دارت حول المقامات لا تكاد تختلف عن الدراسات السابقة، إذ عرضت للفن المقامي عند الأندلسيين من خلال سَرْد موجز لبعض المقامات وذِكْر لأسماء أصحابها، كما أنها وقفت عند دراسة د. إحسان عباس، ولم تضف إليها.[1]

وإذا كانت الدراسات السابقة قد تناولت النثر الأندلسي، أو المقامات الأندلسية في فترة من فترات الأدب الأندلسي، فإن دراستنا هذه تتناول بالاستقصاء والتأريخ والتحليل المقاميين الأندلسيين ومقاماتهم خلال الفترة من القرن الخامس الهجري حتى القرن التاسع. فهي تتناول المقاميين ومقاماتهم في مدى خمسة قرون، أي من بداية نشأة المقامة في الأندلس حتى آخر أيام بني الأحمر في غرناطة.

وقد جعلتُ هذه الدراسة في ثلاثة فصول، خصّصت **الفصل الأول** منها للحديث عن المقاميّين الأندلسيين، والتعريف بهم بالقَدْر الذي أسعفتْنا به المصادر. فترجمْتُ لأصحاب المقامات ممّن وصلتْ إلينا مقاماتهم، أو ممن وصلت إلينا أسماء مقاماتهم دون نصوصها وشخوصها، آخذاً بعين الاعتبار سنيّ الوفاة لأولئك المقاميين، سواء أكانت تلك السنوات قد نصّت عليها المصادر، أو أنها أزمان تقريبية تَوصَّلْنا إليها بعد متابعة أخبارهم، وربطهم بمعاصريهم. فالدارس لفن المقامات عند الأندلسيين تواجهه صعوبة التحقق من تراجم بعض المقاميين، ووفياتهم، وتاريخ إنجازهم لمقاماتهم؛ فتصير متابعة الرجال وربطهم بآخرين من معاصريهم، أو بحوادث عصورهم أمراً لا غنى عنه للوقوف على زمن تقريبيّ لعصر مقاميّ أو آخر.

---

(١) قصي الحسيني: فن المقامات بالأندلس، دار الفكر للطباعة والنشر، عمّان، ١٩٩٩. وانظر أيضاً: أحمد أبو موسى، النثر الفني في عهد الموحّدين بالأندلس: ص١٤٠-٢٠٠، ود. حسن عباس: نشأة المقامة في الأدب العربي، ص١٠٤-١١٦، ود. يوسف نور عوض: فن المقامات بين المشرق والمغرب: ص٢٧١-٣١١.

ولا بأس في الإشارة هنا إلى أن دارسي الأدب الأندلسي بعامة، ودارسي المقامات الأندلسية على وجه الخصوص قد أغفلوا التعريف بالمقاميين الأندلسيين، وكانوا يكتفون غالباً بسرد أسماء بعض المقاميين، والوقوف عند الأعلام المشهورين في هذا الفن. فالدكتور إحسان عباس سرد قائمة بأسماء (٢١) من المقاميين الأندلسيين، نقلها عنه من جاءوا بعده. وقد أورد أحد الباحثين[١] قائمة بأسماء خمسة وسبعين من أصحاب المقامات في اللغة العربية، لم يورد فيها من أسماء المقاميين الأندلسيين سوى اسم السّرقسطي، الذي كان مَعْنيّا بفن المقامات عناية برّز فيها عن غيره من أصحاب هذا الفن، في حين نجد أكثر كتّاب المقامة في الأندلس قد عرفوا بنظم الشعر، أو اشتهروا بكتابة الرسائل، أكثر من شهرتهم بكتابة المقامات.

وقد استدركْتُ على دارسي النثر الأندلسي ممن تناولوا فن المقامات بعضاً من أعلام هذا الفن، وكشفت النقاب عن عدد ممن مارسوا كتابة المقامات، من أمثال: ابن غالب الرصافي (ت٥٧٢هـ)، وأبي عبد الله الجوني (من أدباء القرن السادس)، وأبي علي بن كسرى (ت٦٠٣ أو ٦٠٤)، وأبي بكر الكُتُندي (من أدباء القرن السادس الهجري)، وأبي البقاء الرندي ، وأبي عامر بن أرقم، وغيرهم، ممن سيرد ذكرهم في موضعه من بحثنا هذا.

أمّا **الفصل الثاني** فقد جعلْتُه لنصوص المقامات الأندلسية التي استخرجْتُها من بطون المصادر وقسّمتُ تلك النصوص إلى قسمين، **أولهما**: المقامات التي حُقّقت ونُشِرتْ في كتب خاصة كمقامات السّرقسطي، ولسان الدين بن الخطيب، وابن أبي الخصال وغيرهم. **وثانيهما**: المقامات التي حُقّقتْ نصوصها، وبقيتْ في بطون المصادر، كالذخيرة، والمُغْرِب، والإحاطة، وغيرها. ولم نورد في هذا الفصل نصوص المقامات التي نُشرتْ، وحققّت تحقيقاً دقيقاً، وإنما اكتفينا بتحليلها، والتعقيب عليها، واقتبسنا فقرات منها للاستشهاد بها على المعاني والأفكار.

---

(١) فكتور الكك: بديعات الزمان، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٦١م، ص١٢٩-١٣٧.

واهتممنا بغير المنشور فقدّمناه في هذا العمل عساه أن يضيف جديداً إلى النثر العربي عامة، والأندلسي خاصة، ويفيد المهتمين بدراسة المقامات الأندلسية.

وقد رجّح لديّ أن أثبت نصوص المقامات غير المنشورة ثلاثة أمور، **أوّلها:** أنها ليست بالكثيرة، فكثير من المقاميين الأندلسيين، تأدت لنا أسماؤهم دون نصوص مقاماتهم وشخوصها. **وثانيها:** أنّ الذين درسوا النثر الأندلسي، ووقفوا عند المقامات لم يوردوا نصوصها كاملة، وإنما كانوا يكتفون بإيراد فقرات من بعض المقامات يستشهدون بها على المعاني التي يريدونها. فرأيت أن أجمع ما وصل إلينا من مقامات غير منشورة في هذا الفصل، بحيث يكون النص المقامي وتحليله في سياق واحد، مّما يسهّل على المطالع والمراجع والمتابع. والأمر **الثالث:** أن هناك نصوصاً مقامية كشفت عنها هذه الدراسة لأول مرّة، وكان ينبغي أن نثبت نصوصها لنضعها بين أيدي الدارسين والباحثين.

وقد أتيح لهذه الدراسة أن تقف على نصوص مقامية نشرت حديثاً فتناولتُها بالدراسة والتحليل في حين اكتفت الدراسات السابقة بالإشارة إليها، وإصدار أحكام عليها، تقوم على الخلط والظن. ومثال ذلك «المقامة القرطبية»، التي أفاض الدارسون في الحديث عنها، دون أن يطّلعوا على نصّها، فخلطوا بينها وبين المقامة البلنسية للفتح بن خاقان. وقد أثبتْنا نصّ هاتين المقامتين لما أحاط بهما من غموض وخلط لدى بعض الباحثين المتخصّصين من أمثال د. إحسان عباس، وبروكلمان وغيرهما ممن تابعوهما، وساروا على نهجهما[1].

ومن المقامات المنشورة التي أثبتْنا نصّها في هذا الفصل أيضاً المقامة «الشّلبية»، التي بناها صاحبها على نمط المقامة القرطبية، وهي من المقامات التي لم تتناولها الدراسات السابقة بالتحليل والنقد، حتى إن أكثر الدارسين لم يشيروا

---

(١) انظر ص ١٦٨-١٦٩ من بحثنا هذا.

إليها، ولم يذكروها، والذين أشاروا إليها اكتفوا بذكر اسمها دون أن يفصّلوا القول في مضمونها.

وقد حاولْتُ في نصوص المقامات الأندلسية أن أقدّم الشرح الضروري والتعليق الذي ظننتُه مفيداً، في اختصار وإيجاز، كي لا تكون الشروح عبئاً إضافياً يطيل البحث بلا فائدة، وبخاصة أنني أتبْعْتُ كل نصّ بتحليل يلقي الضوء على عناصره وأفكاره الرئيسة. وربما عمدتُ إلى شرح بعض المفردات الغامضة مستعيناً بما ورد من شروح وتعليقات في المصادر التي وردت فيها النصوص المقامية.

وقد كشفت هذه الدراسة النقاب عن نصوص مقامية لم تشر إليها الدراسات السابقة، فأوردناها في هذا الفصل من مثل «المقامة المحسنية»، ومقامة ابن غالب الرصافي في وصف القلم، ومقامة أبي حفص بن برد في وصف النخلة، والمقامة السّينية للسان الدين بن الخطيب، ومقامتين لابن قزمان الزجّال، وقطعة من مقامة للوزير الكاتب ابن أبي أرقم، وغيرها ممّا أوردنا نصوصها، أو ما وصل إلينا من نصوصها.

وإذا كان الكثيرون من المقاميين الأندلسيين قد عرفنا أسماءهم دون أن تصل إلينا نصوص مقاماتهم وشخوصها؛ لأن أكثر تراثنا في هذا الفن ما زال مطموراً أو ضائعاً، فإن الكشف عن بعض المقامات، أو أجزاء منها، يحتفظ لهذه الدراسة بلون من السبق والريادة.

أمّا **الفصل الثالث** فقد خصّصته لمضامين النصوص المقامية وأشكالها الفنية، وهي نصوص - في جملتها - تكشف عن الحياة الفكرية والأدبية والسياسية والاجتماعية في خمسة قرون متتابعة، من (القرن الخامس إلى التاسع الهجري)، كما أنّها تقدّم للباحثين صورة واضحة عن تطور النثر الأندلسي في تلك القرون من الناحيتين الفنية والموضوعية. وتكمن أهمية هذا الفصل في أنه تصدّى للنصوص المقامية، وواجهها مواجهة مباشرة، عندما درس مضامينها وخصائصها الفنيّة.

وبعد، فإن هذا البحث يتناول المقامين الأندلسيين ومقاماتهم، سواء أكانت من إبداعهم، أم معارضة لما كتبه البديع والحريري، ويدرسها دراسة لا تقف عند حدود البحث التاريخي عن المقامات وأصحابها، ولا عند حدود استخراج نصوصها وتقديمها، بل تنطلق لدراسة مضامينها وترصد اتجاهاتها الوعظية والنقدية والوصفية، ثم تلج في أعماقها لتستخرج خصائصها وسماتها الفنية.

والله ولي التوفيق

د. شريف علاونه
رمضان ١٤٢٨هـ
تشرين أول ٢٠٠٧م

١

الفصل الأول

المقاميّون الأندلسيون

(تراجمهم وأخبارهم)

عبد الرحمن بن فتّوح
(كان حيّاً سنة ٤٣٠هـ)

خصّص ابن بسام الشنتريني (ت٥٤٢هـ) في كتابه «الذخيرة» فصلاً لأخبار الأديب ابن فتوح، وأورد جملة من شعره في الغزل والمديح[١]، وكنّاه أبا المطرف[٢].

وترجم له ابن الأبّار (ت٦٥٨هـ) في«التكملة لكتاب الصلة»، وكنّاه أبا الحسن[٣].

ولابن فتوح عدّة مؤلّفات في الأدب، ذكر منها ابن بسام:«الإغراب في رقائق الآداب»، وكتاب«الإشارة إلى معرفة الرجال والعبارة»، وكتاب «بستان الملوك»[٤].

وكان ابن فتوح شاعراً، نعته ابن بسام بقوله:«من مشاهير الأدباء، وله شعر كثير»[٥]، كما أنه أورد جملة من أشعاره في النسيب منها قوله:

وَقَفَ العِذار بخدّه فَحَسبْتُه ... ليلاً توقّف وسْطَ ضوءِ نهارِ
وتوردّت وجناته فَحَسبْتُها ... ناراً تَلَظّى فوق ماءٍ جارِ

وقوله:

خَلَع الجمالُ عليكَ ثوبَ بهائه ... فَغَدَوت تسحب ذيله مُتبخترا
فكأنّ خدّك والعذار بصحنه ... صبحٌ جرى فيه دُجى فتحيّرا

---

(١) الذخيرة: ق١/ م٢/ ص٧٧١-٧٨٥.

(٢) المصدر نفسه : ق١/ م٢/ ص٧٧١.

(٣) التكملة : ٢/ ص٥٤٩ (رقم الترجمة ١٥٥٢).

(٤) هذه الكتب ذكرها ابن بسام في الذخيرة: ق١م٢ ص٧٧٠، وهي غير مطبوعة.

(٥) الذخيرة : ق١/ م٢/ ص٧٧٠.
لمزيد من شعره انظر : المصدر نفسه : ق١/ م٢/ ص٧٧١-٧٨٥.

واستحسن له صاحب «المطرب» بيتيه[1]:

ومُدامـةٍ صـفراء علّلـني بهـا قمـرٌ كغـصن البـان في حركاتـه
صفراءُ تغـرب إن بـدت مـن كفّـه في فيـه ثـم تلـوح مـن وجناتـه

أمّا مقاماتـه فلـم نعثـر منهـا سـوى علـى مقامـة واحـدة، أوردهـا صـاحب «الـذخيرة»[2]، ولأجلـها عـدّه د. إحـسان عبـاس مـن المقـاميين الأندلـسيين في عصر الطوائف [3].

لم تحدد المصادر سنة لوفاة ابن فتّوح، ولكننا نستطيع القول: إنه كان من أعيـان المائة الخامسة للهجرة؛ فقد كتب مقامته كما ذكر سنة ٤٣٠هـ[4]، وكان على اتصال بالمأمون بن ذي النون، الذي كان أميراً على طُلَيْطلة، وتوفي سنة ٤٦٧هـ. [5]

(١) المطرب من أشعار أهل المغرب : ص٧٦.
(٢) انظر نص المقامة في الذخيرة : ق١/ م٢/ ص٧٨٦ – ٧٨٨، وانظر أيضاً ص ٦٥ من دراستنا هذه.
(٣) تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين) : ص٣٠٥.
(٤) الذخيرة: ق١ م٢ ص٧٨٦.
(٥) د. شوقي ضيف: عصر الدول والإمارات (الأندلس)، ص٣٧.

أبو حفص عمر بن الشهيد

(القرن الخامس الهجري)

ترجم له الحميدي (ت٤٨٨هـ) ترجمة موجزة في كتابه «جذوة المقتبس»، على الرغم من أنه كان معاصراً له، والتقاه في مدينة الْمريّة سنة ٤٤٠هـ[١]. قال الحميدي:«عمر بن الشهيد، أبو حفص التُّجيبي، لا أحفظ اسم أبيه، وهو رئيس، شاعر مشهور بالأدب، كثير الشعر، متصرّف في القول، مقدّم عند أمراء بلده، والشهيد صفة نُسِبَ إليها فغلبت عليه».[٢]

وعبارات الحميدي هذه نقلها بنصّها الضبي (ت٥٩٩هـ) في كتابه «بغية الملتمس»[٣]، ولم يضف إليها شيئاً.

وهذا المقامي لم يذكر مترجموه تاريخ وفاته، ولكنه -فيما يبدو لنا- من أدباء القرن الخامس الهجري؛ لأن الحميدي التقاه بالمرية سنة ٤٤٠هـ، يضاف إلى ذلك أنه كان من شعراء المعتصم به صمادح، المتوفى سنة ٤٨٤هـ.

أمّا ابن بسام فقد خصّص فصلاً لابن الشهيد[٤]، أورد فيه رسالة موجّهة إلى أحد أصدقائه[٥]، وفصولاً من مقامة له[٦]، وإشعاراً في مديح المعتصم بن صُمادح[٧]. وقد أتى كلّ هذا بعد مقدّمة موجزة، لا تفيدنا في تصنيف ترجمة لهذا الأديب. يقول ابن بسام: «وأبو حفص هذا في وقتنا كان فارس النظم والنثر، وأعجوبة القران والعصر، ونهاية الخَبر و الخُبر، رقم

(١) جذوة المقتبس: ص٢٨٣.

(٢) المصدر نفسه: المكان نفسه.

(٣) بغية الملتمس: ص٣٩٤.

(٤)الذخيرة: ق١ م٢ ص٦٧١-٦٩٠.

(٥)المصدر نفسه: ق١ م٢ ص٦١٧ - ٦٤٧ .

(٦)المصدر نفسه: ق١ م٢ ص٦٧٤-٦٨٥، وانظر دراستنا هذه ص ٧٥-٨٣.

(٧)المصدر نفسه: ص٦٨٦-٦٩١. والمعتصم بن صمادح من أمراء المريّة، وهي من إمارات شرقي الأندلس تقع على البحر المتوسط مَلَك إحدى وأربعين سنة،وهو ابن أربع عشرة سنة، وتوفي سنة ٤٨٤هـ، وجيش المرابطين يحاصره.(المغرب: ٢/ ص١٩٥).

برود الكلام، ونظم عقود النثر والنظام... وقد أخرجتُ في هذا الفصل من بارع كلامه في نثره ونظامه ما يشهد برسوخ أعلامه، وشهرة أيامه»[١].

وقد التقاه الحميدي -كما أسلفنا- وكتب عنه من أشعاره قوله: [٢]

في صحبة الناس في ذا الدهر معتبرٌ ... لا عين تونق منها الا ولا أثرُ
كأنّ ميثاقهم ميثاقُ غانية ... يُعطيك منه الرضى ما يسلب الضجرُ
فلا يغرّنك من قول طلاوتُه ... فإنما هي نُوّار ولا ثمرُ
لكنهم ونفوذ القول جارية ... على مقادير ما يقضي به الوَطَرُ
تسابق الناسُ إعجاباً بأنفسهم ... على مدى دونه الغايات تَنْحَسِرُ
فللتسامي ضباب في صدورهم ... وللتكبر في آنافهم نُعَرُ
وما عذلتُهُمُ إلا عَذَرْتُهُمُ ... فالجهلُ ليس له سمعٌ ولا بصرُ

ولنا أن نتساءل: لماذا سكتت المصادر بعد «الذخيرة»، عن ذكر مقامات ابن الشهيد؟ كما أنها لم تُشِرْ إلى نص المقامة التي أوردها كتاب «الذخيرة»،. فصاحب كتاب «أدباء مالقة» ترجم لابن الشهيد[٣]، وذكره ابن سعيد في كتاب «المغرب»[٤]، وأورد المقّري في «نفح الطيب»[٥] مختارات من شعره، وأشاد ثلاثتهم بشاعريته، وعدّوه شاعر المريّة في زمانه، ولكننا لا نجد أحداً منهم يشير إلى مقاماته، أو يورد شيئاً من نصوصها.

---

(١) الذخيرة: ق١ م٢ ص٦٧١
(٢) جذوة المقتبس: ص٢٨٣.
(٣) أدباء مالقة: ص٣٤٤.
(٤) المغرب: ٢/ ص٢٠٩.
(٥) نفح الطيب: ٣/ ص٤١٣.

أبو محمد بن مالك القرطبي

(عاش في المائة الخامسة للهجرة)

لا نجد في كتب التراجم حديثاً مفصلاً عن حياة هذا الأديب، حتى إن مصادر ترجمته لم تذكر اسمه، وإنما ذكرته بكنيته.وكان ابن بسام الشنتريني من أوائل الذين ذكروه، فقد خصص فصلاً لذكره، وإيراد جملة من نظمه وشعره[١]. ولكنه لم يذكر تاريخاً لوفاته. ومن الثابت أنه من شعراء المائة الخامسة؛ لأن ابن بسّام في «الذخيرة» يسميّه شاعر ابن صُمادح، الذي كان أميراً للمريّة في القرن الخامس الهجري، وتوفي -كما أسلفنا- سنة ٤٨٤هـ[٢].

وينبئنا ابن بسام أنّ أبا محمد أقام مدّة بالمرية تحت ضنك معيشة، مما دفعه إلى التصريح بالسؤال في عدّة مدائح رفعها لأميرها المعتصم بن صُمادح، منها قوله[٣]:

أمعتصماً بالله يا خير موئل ... وأكرمَ مأمولٍ وأفضل واهب
مضى الفطر والأضحى ولا نيلُ يُقتضى ... فكم أخفقتْ وحدي عليك مطالبي
سأرحل عنكم دون زادٍ لبلغة ... وتلك لعمري سُبّةٌ في العواقب

ويضيف ابن بسام قائلاً: «وما زال يعلن باضطراره، ويشكو الفقر في أشعاره، حتى أعياه ذلك، فجعل بعد يصف الغنى واليسار هنالك، تعريضاً وتطييباً، فمن ذلك قوله من قصيدة:

وما نذكر الإعْدامَ إلا تخيّلاً ... لكثرة ما أغنى نداه وما أقنى
وأكثرُ ما نخشاه طغيان ثروةٍ ... فإنا نرى الإنسان يطغى إذا استغنى

---

(١) الذخيرة: ق١/ م٢/ ص٧٣٩-٧٥٤.

(٢) انظر ترجمته في قلائد العقيان: ص ١٤٦-١٥٦.

(٣) الذخيرة: ق١ م٢ ص٧٤٠.

فقال له بعض أصحابه: ومن أين هذا الغنى وقديماً تشكو الفقر ؟ ومضوا معه إلى منزله فما وجدوا عنده غير قُلّة فخار وقدح للماء، ونحو ثمانية أرطال دقيق في مخلاة»[١].

أما مقاماته فقد احتفظ لنا صاحب «الذخيرة» بعدة فصول من مقامة طويلة له في مدح ابن صُمادح، جاءت في إحدى عشرة صفحة من كتابه، بعد أن اقتضبها ابن بسام لطولها وساق بعض فصولها[٢].

(١) الذخيرة: ق١ م٢ ص٧٤٠.

(٢) انظر المقامة في الذخيرة: ق١/ م٢/ ص٧٤١-٧٥٢، وانظر ص ٨٧-٩٤ من دراستنا هذه.

أبو الوليد محمد بن عبد العزيز بن المعلم

(من أدباء القرن الخامس الهجري)

ذكره صاحب «جذوة المقتبس» فقال: «محمد بن عبد العزيز بن المعلم أديب شاعر، روى عنه ابنه عبد العزيز»[١]. ونقل عنه ذلك الضبّي في «بغية الملتمس» ولم يضف شيئاً[٢].

وأوفى ترجمة لابْن المعلّم نجدها في كتاب «الذخيرة» حيث نعته ابن بسام بقوله: «بديع ذلك الزمان، أحد وزراء المعتضد الكتّاب الأعيان، وممن اشتهر بالإحسان في صناعة النظم والنثر... وقد كتبتُ له منهما ما يشهد أنه كان من أهل الرواية والعلم، وذوي الدراية والفهم».[٣] ونقل عبارات ابن بسّام هذه صاحب كتاب «المغرب»[٤]. ثم أورد ابن بسام في سبع صفحات فصولاً من إحدى مقاماته[٥]، أتبعها بمختارات من شعره[٦]، منها قوله في مديح المعتضد بن عباد:[٧]

رأى البرقَ نجديّاً فحنّ إلى نجد ... وباتَ أسيرَ الشّوق في قبضة البُعْدِ
يعالج قلباً قلّبته يد النّوى ... على جمرة التوديع في لهب الوجد
ولا مسعدٌ إلا زفيرٌ وَأنّة ... تَقُدُّ شِغاف القلب منه ولا تُجدي
وما أنطقَته البارقاتُ تشوّقاً ... لنجدٍ ولكن للمقيمين في نَجْدِ

---

(١) جذوة المقتبس: ص٧٠ (ترجمة رقم ١٠١).

(٢) بغية الملتمس: ص ١٠٢ (ترجمة رقم ٢٠٤)، وَوَرد ذكره في موضع آخر من بغية الملتمس: (ترجمة رقم ١٥٧٩).

(٣) الذخيرة: ق٢/ م١/ ص١١٢. والمعتضد هو عبّاد بن محمد بن إسماعيل، أمير إشبيلية، تولى الحكم سنة ٤٣٦هـ، وتوفي سنة ٤٦١هـ. انظر ترجمته في (أدباء مالقة: ص٢٨٣-٢٨٦).

(٤) المغرب: ١/ ص٢٥٢.

(٥) الذخيرة: ق٢/ م١/ ص١١٣-١٢٠.

(٦)المصدر نفسه. ق٢/ م١/ ص١٢٠-١٢٤.

(٧) الذخيرة: ق٢ م١ ص١٢٠. ووردت هذه الأبيات أيضاً في: جذورة المقتبس: ص٧٠، وبغية الملتمس: ص١٠٢.

الفتح بن خاقان

(ت ٥٢٩هـ)

وهذا الأديب أشهر من أن يذكر، فهو أبو نصر الفتح بن محمد بن عبد الله القيسي الإشبيلي، ويعرف بابن خاقان، يُردُّ أصله إلى قلعة الواد من قرى يحصب من أعمال غرناطة.

أحد الكتاب المصنفين في الجزيرة الأندلسية، بل هو من أشهرهم في هذا الميدان من التأليف. نظم الشعر، وأنشأ الرسائل، وألّف في التاريخ والتراجم، وقد طارت شهرته، وذاع صيته بكتابيه «قلائد العقيان»، و «مطمح الأنفس».

ترجم له الكثيرون من أصحاب كتب التراجم، كالمقريّ في «نفح الطيب»، ولسان الدين بن الخطيب في «الإحاطة»، و ياقوت في «معجم الأدباء»، وابن سعيد في «المغرب»، وابن خلّكان في «وفيات الأعيان»، وغيرهم ممن أسهبوا في الحديث عنه، وذكر أخباره ومصنفاته.

وأوفى ترجمة له نجدها في مقدمة كتابه «مطمح الأنفس»[1]، فقد استوفى محقق الكتاب أخبار الفتح وآثاره معتمداً في ذلك على المصادر التي ذكرناها.

ولا نجد أحداً من أصحاب كتب التراجم يحدد تاريخاً لولادة الفتح، ولكنهم اتفقوا على أن وفاته كانت سنة ٥٢٩هـ، بمدينة مراكش، أشار بقتله علي بن يوسف بن تاشفين أمير المسلمين، وهو أخو أبي إسحق إبراهيم بن يوسف بن تاشفين الذي ألف له الفتح كتابه «القلائد».

وليس من غايتنا في هذا المقام أن نترجم بإسهاب للفتح بن خاقان، أو أن نفيض في الحديث عن أخباره ومؤلفاته، وإنما يعنينا - من آثاره - تلك المقامة[2] التي صنعها على شيخه أبي محمد البطليوسي والتي من أجلها، عددناه في المقاميين الأندلسيين.

---

(١) مطمح الأنفس (تحقيق محمد علي الشوابكة): مقدمة المحقق ص١٨-٦١.

(٢) انظر نص المقامة والتعليق عليها ص ١٠٣-١١٢ من بحثنا هذا.

أبو عبد الله بن أبي الخصال
(ت ٥٤٠ هـ)

وهذا الأديب ممن يُصَنَّفون في الطبقة الأولى من كتّاب النثر الأندلسي، فهو أبو عبد الله محمد بن مسعود المشهور بابن أبي الخصال. كانت ولادته سنة ٤٦٥هـ في قرية فُرْغُليط من أعمال شَقُورَة. وفيها تلقى علومه الأولى، ثم تردّد على غيرها من المدن ؛ للاستزادة من أنواع الثقافة والمعرفة[١].

وأسرة ابن أبي الخصال أسرة موصولة بالعلم، أصيلة فيه، وقد ظهر منها في وقت واحد ثلاثة من الرجال هم: أبو عبد الله، وأخوه أبو مروان، وأخوهما أبو جعفر. وتذكر المصادر من أبنائهم بعض الأسماء ممن كان لهم صيت ومكانة، ولكن شهرة أبي عبد الله غطّت على شهرة من عُرفوا من أسرته.

وأفاضت كتب التراجم في الحديث عن الفقيه الكاتب أبي عبد الله بن أبي الخصال، فسردت أسماء شيوخه، وتلامذته النابهين، وذكرت مؤلفاته[٢]، وأوردت أطرافاً من أخباره ومجريات حياته.

ولسنا في هذا المقام بصدد إيراد ما ذكرته المصادر من تفصيلات بشأن حياته ومؤلفاته وإنما سنكتفي بإيراد بعض العبارات التي تدل على فضل الرجل وعلوّ منزلته. قال فيه صاحب «الذخيرة»: «هو اليوم لا تشير الأصابع إلاّ إليه، ولا تنطوي الأضالع إلا عليه... وله بيان لا يتعاطاه ناظم ولا ناثر، وإحسان لا يبلغ مداه أوّل

---

(١) استوفى د. محمد رضوان الداية دراسة شخصية ابن أبي الخصال، وآثاره وأدبه في كتابه "ابن أبي الخصال – رئيس كتاب الأندلس" في سلسلة أعلام الفكر. العدد ٥.

(٢) انظر مؤلفاته في: المطرب: ص١٨٧، وانظر أيضاً: رسائل ابن أبي الخصال: مقدمة المحقق: (د. محمد رضوان الداية): ص١٤ وما بعدها.

ولا آخر...» [١]. ووصفه ابن سعيد بأنه «رئيس كتّاب الأندلس» [٢]، وذكر ابن الخطيب أنه «لم يكن في عصره مثله مع دين وفضل وورع» [٣] وذكر المراكشي في «المعجب» أن لابن الخصال ديوان رسائل يدور بأيدي أدباء الأندلس، قد جعلوه مثالاً يحتذونه، ونصبوه إماماً يقتفونه [٤].

ولابن أبي الخصال تاريخ حافل في الخدمة السلطانية، والحصول على الجاه والمكانة، فكتب لعلي بن يوسف بن تاشفين، وهو والٍ على غرناطة، وكتب له- عندما صار أميراً للمسلمين - رسائل تدل على طول مدة خدمته في دولته. وتولّى كثيراً من الأعمال الإدارية والكتابية لأمراء المرابطين، وبقي في الخدمة السلطانية إلى أن توفي مقتولاً سنة ٥٤٠هـ. [٥]

واشتغل أبو عبد الله بالتأليف، وبرع في كتابة الرسائل الديوانية والإخوانية، وشارك في نظم الشعر، ولكن شهرته غلبت في النثر، وعلا ذكره في الترسّل، فكتب الرسائل، وألّف المقامات، وأنشأ الخطب. وحظيت رسائله بعناية كبيرة في زمانه، وبعناية أجيال أتت بعده. حتى إن الشُّقُندي فاخر به في تفضيل الأندلس والدفاع عنها قائلاً: «وهل لكم في بلاغة النثر كالفتح بن عبيد الله... ومثل ابن أبي الخصال في ترسيله» [٦].

وإذا كان ابن أبي الخصال قد اشتهر برسائله، فإنه قد وصل إلينا في مجمل آثاره مقامة عارض بها الحريري، وصبّ فيها على قالبه. وهذه المقامة هي موضع اهتمامنا في هذا البحث [٧].

(١) الذخيرة: ق٣/ م٢/ ص٧٨٦.
(٢) رايات المبرزين: ص ٧٤ .
(٣) الإحاطة: ٢/ ص٣٨٨.
(٤) المعجب: ص٢٤٠.
(٥)بغية الملتمس: ص١٥٢ (رقم الترجمة ٢٨٢)، ومعجم ابن الأبار: ص ١٥٢ (رقم الترجمة ١٢٥).
(٦) نفح الطيب: ٣/ ص١٩٣.
(٧) انظر نص المقامة في: رسائل ابن أبي الخصال ص ٤٢٠-٤٤٩. وانظر تحليلنا لها ص١٢١ من بحثنا هذا.

محمد بن يوسف السَّرَقُسطي
(ت ٥٣٨)

هو أبو الطاهر محمد بن يوسف بن عبدالله بن إبراهيم التميمي السّرقسطي الإشترَكويي نسْبَة إلى اشتركوية، وهو حصن قرب تطيلة في شمال الأندلس، وولد بسرقسطة ونشأ بها، ثم سكن قرطبة فنسب إليها أيضاً(١).

والسّرقسطي أديب مغمور، لم يعرّف به القدماء، ولا عرفه المحدثون إلاّ أخيراً، فابن بسام (ت ٥٤٢) لم يترجم له في «الذخيرة»، وكذلك الفتح بن خاقان (ت٥٢٩هـ) لم يذكره في «قلائد العقيان» وكلاهما كان معاصراً للسّرقطي.

وكان السرقسطي، كاتباً، وشاعراً، ومن علماء العربية في زمانه. ومن كتبه المطبوعة (المسلسل)، وهو كتاب في غريب اللغة، و(المقامات اللزومية) التي تعدّ نصوصها من عيون التراث في فن المقامات.

وعندما تذكر المقامة في الأندلس، يتبادر إلى الذهن مقامات السرقسطي، وهي خمسون مقامة عارض بها مقامات الحريري، ودليل معارضته لها عبارة جاءت في مقدّمتها، ونصّها: «...فهذه خمسون مقامة أنشأها أبو الطاهر محمد بن يوسف التميمي السّرقسطي بقرطبة من مدن الأندلس عند وقوفه على ما أنشأه الرئيس أبو محمد الحريري بالبصرة، أتعبَ فيها خاطره، وأسهر ناظره، ولزم في نثْرها ونظْمها ما لا يلزم، فجاءت على غاية من الجودة، والله أعلم»(٢).

---

(١) انظر ترجمة السرقسطي في الصلة لابن بشكوال رقم ١١٧٥، والتكملة لابن الأبار رقم ٥٥٤، والإحاطة: ٢/ ص٥٢١، وتاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين): ص٣١٧.

(٢) المقامات اللزومية: ص٣.

ولا تحدّد المصادر تاريخاً لكتابة المقامات اللزومية، ولكن من الثابت أنّ الحريري انتهى من كتابة مقاماته سنة ٥٠٤هـ، وأنّ السّرقسطي توفي سنة ٥٣٨هـ، فيكون تاريخ تأليفها بين سنتي ٥٠٤هـ و٥٣٨هـ.

وقد نشر مقامات السرقسطي د. بدر أحمد ضيف نشرة علمية محقّقة بعنوان «المقامات اللزومية»[١]، قدّم لها بتعريف بصاحب المقامات[٢]، وذكر عدداً من شيوخه الذين أخذ عنهم، ونوّه بأستاذيته لكثير من علماء الأندلس. وكان صدور المقامات اللزوميّة سنة ١٩٨٢ لأول مرّة، حدثاً مُهماً، جاء ليثري مادة المقامة في الأندلس، وينشط النقاش حولها.

وقد أثنى د. شوقي ضيف على المقامات اللزومية، وقال فيها: «إنها أروع آثار السّرقسطي، وإنها أروع ما قدّمت الأندلس للأدب العربي من أعمال أدبية»[٣].

ويرى أحد الباحثين أنّ فروغ السّرقسطي من تأليف مقاماته اللزومية كان مرحلة أفول المقامة الأندلسية؛ لأنه كان آخر من تقيّد بقواعد هذا الجنس الأدبي، وحافظ على جوّ الكدية فيه[٤].

ويبدو لنا أنّ هذا الرأي مبالغ فيه. فمقامات السّرقسطي، لكثرتها من جهة، والتزامها بأصول الفن المقامي المشرقي من جهة أخرى، تُعَدّ علامة بارزة في مسيرة الفن المقامي في الأندلس. ولكننا نجد في ما بين أيدينا نصوصاً تمثل حكايات الكدية بالأندلس، كتبت بعد مقامات السّرقسطي بقرون من مثل مقامة ابن المرابع الأزدي، ومقامة الفقيه عمر الزجّال، وقد يكون هناك أيضاً مقامات أخرى لم تصل إلينا.

---

(١) نشرتها الهيئة المصرية العامة للكتاب (فرع الإسكندرية)، ١٩٨٢م.

(٢) المقامات اللزومية: ص١١-٢٨.

(٣) تاريخ الأدب العربي (عصر الدول والإمارات: الأندلس): ص٢٢٢.

(٤) محمود طرشونة: حوليات الجامعة التونسية، عدد ٢٨، سنة ١٩٨٨، ص١٦٣.

محارب بن محمد بن محارب الوادي آشي
(ت ٥٥٣هـ)

وأخبار هذا المقامي نزرة في كتب التراجم، لا تتجاوز ذكر اسمه وكنيته، فقد ذكره ابن عبد الملك المراكشي في كتابه «الذيل والتكملة» وترجم له في سطرين، بقوله: «محارب بن محمد بن محارب من أهل وادي آش، يكنى أبامحمد، كان أديباً فقيهاً، وله مقامة في القاضي عياض بن موسى»(١). ومقامته هذه لم نعثر على شيء منها في المصادر التي بين أيدينا.

أمّا مقامته الأخرى في مدح القائد أبي عبدالله بن ميمون وَوَصْف شجاعته في الحروب البحرية، فقد وصلت إلينا وأثبتْنا نصّها وتحليلها في الفصل الثاني من دراستنا هذه(٢).

وكان محارب الوادي آشي شاعراً، أورد له ابن الأبّار قصيدة يمدح بها القاضي عياض، منها قوله:(٣)

وَوَجْدُ بني عياضٍ بالمعالي — مدى الدّنيا حديث يُستَفاضُ
إذا قُصِدوا أثاروا الجودَ بحراً — وسالوا بالمكارم ثم فاضوا
فقُلْتُ لها: وَمَن منهم عياذي — فقالت: ذاك سيّدُهم عياضْ
إمامٌ زانه عِلْمٌ وحِلْمٌ — له بالخطة العليا انتهاضُ

---

(١) الذيل والتكملة: ٢/ ص٧٣٦ (رقم الترجمة ١٨٥٩). وعياض بن موسى من علماء الشريعة في المائة السادسة وهو من أهل سبتة، وولي القضاء بغرناطة، توفي سنة ٥٤٤هـ. انظر ترجمته في: رايات المبرزين: ص١٠٨، وقلائد العقيان: ص٦٨٣-ص٦٩١. أمّا وادي آش التي ينسب إليها محارب فهي مدينة بالأندلس قريبة من غرناطة، تقع على ضفة نهر ينحطّ من الجبل (الروض المعطار).

(٢) انظر دراستنا هذه ص١٣٥-١٤٦.

(٣) المقتضب من تحفة القادم: ص٨٥.

ابن قزمان الزجّال[١]

(٤٨٠ – ٥٥٥ هـ)

اسمه محمد بن عيسى بن عبد الملك بن قزمان، وكنيته أبو بكر[٢]. وقد خلطت بعض المصادر بينه وبين عمّه أبي بكر محمد بن عبد الملك بن عيسى، الذي كان من الزجّالين أيضاً، ولذا أطلقوا على صاحبنا اسم ابن قزمان الأصغر، ليميزوه عن عمّه ابن قزمان الأكبر.

وترجع شهرة ابن قزمان إلى أنه – كما ذكر ابن سعيد– كان إمام الزجّالين بالأندلس. وعلّل ابن سعيد ميل ابن قزمان إلى الزجل « بأنه كان في أوّل أمره مشتغلاً بالنظم المعرَب، فرأى نفسه تقصر عن أفراد عصره، كابن خفاجة وغيره، فعمد إلى طريقة لا يمازجه فيها أحد منهم، فصار إمام أهل الزجل المنظوم بكلام عامة الأندلس»[٣].

وقد درس د. عبد العزيز الأهواني ابن قزمان من أزجاله دراسة دقيقة تفصيلية[٤]، وصورته الشخصية فيها أن كان طويل القامة، أبيض الوجه، أشقر اللحية، أزرق العينين، وهذا قد يوحي بأنه كان جميلاً، ولكن صاحب «المغرب» يذكر أنه كا قبيح المنظر.[٥]

اشتهر ابن قزمان بأزجاله في الغزل والمديح ووصف الخمر وغيرها من الأغراض التي وردت في ديوانه.[٦] ولكننا أوردناه هنا في المقاميّين الأندلسيين، لأنّ لسان الدين بن الخطيب أورد له مقامتين في الدعاء. إحداهما في استهلال شهر رمضان، والأخرى في استهلال شهر شوال[٧].

---

(١) انظر ترجمته مفصلة في كتاب الزجل في الأندلس للدكتور عبد العزيز الأهواني. ص ٦٧-١٠٥ .

(٢) المغرب : ١/ ص١٠٠.

(٣) المصدر نفسه : المكان نفسه.

(٤) الزجل في الأندلس : ص٦٧ – ١٠٥.

(٥) المغرب : ٢/ ص١٢١.

(٦) هذا الديوان مطبوع، نشره المعهد الإسباني العربي للثقافة، مدريد، ١٩٨٠ .

(٧) الإحاطة : ٢/ ص ٤٩٨ – ٥٠٤ وانظر دراستنا هذه ص ١٢٤-١٢٩.

علي بن جامع الأوسي
(توفي بعد ٥٦٧هـ)

أوفى ترجمة لهذا الأديب نجدها في كتاب «الذيل والتكملة» لابن عبد الملك المراكشي (ت٧٠٣هـ)، فقد ذكر اسمه وكنيته، وعدّد شيوخه وتلاميذه، فقال: «علي ابن جامع الأوسي: مالقي أبو بحر وأبو الحسن، روى عن أبي الحسن شريح، وأبي الحسين بن الطراوة (ت ٥٢٨هـ) وروى عنه أبو بكر: عتيق بن قنترال (ت٥٤٨هـ)، ويحيى بن أحمد الهوادي، وأبو الحسن بن علي النفزي، وأبو الحسين عبيد الله بن محمد المذحجي، وأصبغ بن علي بن أبي العباس»[(١)]. وفي كتاب «أدباء مالقة» تحريف «الأوسي» إلى «المرسي»[(٢)].

وكان ابن جامع - كما ذكر المراكشي- نحوياً ماهراً أديباً كاتباً بليغاً متفنّناً، عالي الرواية، مكفوف البصر، أقرأ القرآن ودرس العربية بمسجد القاضي ابن حسّون بمالقة مدّة، ثم انتقل عنها إلى باغُه، فأقام بها نحو ثلاثين سنة مكرّماً مبروراً معاملاً بما يليق بأمثاله، وكان سبب خروجه من مالقة أنّ مقامة صنعت في ثلب بعض أعيان مالقة فنسبت إليه فخاف على نفسه مما عسى أن ينجر إليه منهم بسببها، ثم عاد إليها محترماً متلقّى بأزيد مما أمّل إجلالاً وتعظيماً، وعكف بها على شأنه من الإقراء والتدريس إلى أن توفي بها»[(٣)].

(١) الذيل والتكملة: ق١/ ص٢٠٢-٢٠٣ (رقم الترجمة ٣٩٦).

(٢) أدباء مالقة: ص٣٣١.

(٣) الذيل والتكملة: ق١/ ص٢٠٣، وانظر أدباء مالقة: ص٣٣٢.

باغُه: مدينة بالأندلس من عمل غرناطة (الروض المعطار : ص١٢٢).

وترجم له صاحب كتاب «أدباء مالقة» وأورد قطعة من نثره ومختارات من شعره[1]، وأشار إلى المقامة التي نُسبتْ إليه في ذمّ بعض أعيان مالقة ولكنه لم يورد نص تلك المقامة أو شيئاً منها[2].

أمّا ابن الزبير فقد ترجم لعلي بن جامع في كتابه «صلة الصلة»[3]، وعدّد شيوخه وتلامذته، ولكنه لم يذكر شيئاً عن تلك المقامة، ولا نجد في كتابه ما يشير إلى أن ابن جامع كان من أصحاب المقامات.

(١) أدباء مالقة: ص٣٣٢-٣٣٤، وانظر أيضاً: مختارات من الشعر المغربي والأندلسي: ص٢٥١.

(٢) المصدر نفسه: ص٣٣٢.

(٣) صلة الصلة: ص١٠٢، ترجمة رقم (٢١٩).

ابن غالب الرصافي

(ت٥٧٢هـ)

وهو – كما عرّف به صاحب «أدباء مالقة»-: «أبو عبد الله محمد بن غالب الرصافي[١]، فحل الشعراء، ورئيس الأدباء، أصْله من رصافة بلنسية، واستوطن مالقة واتخذها دار إقامة إلى أن توفي بها رحمه الله يوم الثلاثاء التاسع عشر لشهر رمضان سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة»[٢].

ولعل أول حادثة تاريخية كبيرة في شبابه هي ذهابه مع زمرة الشعراء الذين استدعاهم أمير الموحدين، عبد المؤمن على جبل الفتح (جبل طارق)، وأنشده الرصافي يومئذ قصيدته التي مطلعها[٣]:

لو جئت نار الهُدى من جانب الطور   قبستَ ما شئت من علم ومن نور

واشتهر الرصافي في مجال الشعر، ولذلك عدوه فحلاً من فحول الشعراء[٤]، وقد شبّهه بعضهم بابن الرومي ؛ لأنه حاول استخراج صور جديدة، ومال إلى توليد المعاني واختراعها[٥].

وليس من غاية بحثنا هذا أن يقدّم ترجمة مفصّلة لابن غالب الرصافي، فقد أسهبت مصادر ترجمته في الحديث عن سيرته وشعره، ولكنّ الذي يعنينا في هذا المقام

---

(١) له ترجمة مفصّلة في: تحفة القادم: ص٧٥-٧٩، والإحاطة: ٢/ص٥٠٥-٥١٥، ووفيات الأعيان: ٤/ص٣٣٢، والوافي بالوفيات: ص٣٠٩-٣١٢، وبغية الملتمس: ص١١٩-١٢١، ونفح الطيب: ٤/ص١٥٩-١٦١، وكتاب أدباء مالقة: ص٦٨-٨٥. جمع شعره د. إحسان عباس، ونشرته دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٣.

(٢) أدباء مالقة: ص٦٨. وأكثر المصادر على أن وفاته سنة ٥٧٢هـ، انظر: وفيات الأعيان: ٤/ص٣٣٢، والتكملة لكتاب الصلة: ٢/ص٥٢٠ ومقدمة ديوانه: ص١٥.

(٣) القصيدة في ٦٢ بيتاً، ديوانه: ص٧٧-٨٦.

(٤)الإحاطة: ١/ص٥٠٦.

(٥) انظر مقدمة ديوانه: ص١٥.

أنّ هذا الشاعر كان من الأندلسيين الذين مارسوا كتابة المقامات، فقد أورد صاحب «الإحاطة» جزءاً من مقامة له في وصف القلم، وطّأ لها بثلاثة أبيات شعرية.[١]

ولا بأس في الإشارة هنا إلى أن د. إحسان عباس جمع شعر ابن غالب الرصافي، وترجم له ترجمة مفصّلة في مقدمته لمجموع شعره، ولكنه لم يورد اسمه في قائمة المقاميين الأندلسيين الذين سرد أسماءهم في كتابه: «تاريخ الأدب الأندلسي: عصر الطوائف والمرابطين»[٢]. وسبب ذلك – في رأينا أنه لم يرجع إلى كتاب «الإحاطة»، الذي أورد جزءاً من مقامة الرصافي، بدليل أنه لم يذكره في المراجع التي اعتمد عليها في جمع أشعار الرصافي وتخريجها[٣]. ولا بأس في الإشارة أيضاً إلى أن دارسي المقامات الأندلسية من المحدثين[٤] لم يذكروا ابن غالب الرصافي ضمن المقاميين الأندلسيين ؛ لأنهم اعتمدوا دراسة د. إحسان عباس، ووقفوا عندها.

ويبدو لنا أن لابن غالب الرصافي مقامات أخرى غير تلك المقامة التي أورد صاحب «الإحاطة» جزءاً منها، نستدل على ذلك بما رواه صاحب «أدباء مالقة» من أنه «كانت بين ابن غالب الرصافي وبين أدباء مالقة مقامات أدبية، ومجالس شعرية، وارتجالات نبيهة»[٥].

(١) الإحاطة: ٢/ ص٥١٤، وانظر هذه القطعة من مقامته ص١٣٢ من دراستنا هذه.

(٢) تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين): ص٣٠٥-٣٠٨.

(٣) ديوان الرصافي البلنسي: ص٢٣.

(٤) من هؤلاء الدارسين: د. عباس حسن في كتابه: نشأة المقامة، ود. قصي الحسيني في: فن المقامات بالأندلس، ود.يوسف نور عوض في كتابه: فن المقامات بين المشرق والمغرب.

(٥) أدباء مالقة: ص٨٥.

محمد بن خلف الهمذاني الغرناطي
(٤٩٣هـ - ٥٧٣هـ)

وهذا المقامي لم تورد مصادر ترجمته شيئاً من مقاماته، فصاحب «الذيل والتكملة» ترجم له قائلاً: «كان أديباً شاعراً فاضلاً زاهداً، جمع الله له محاسن جمّة من العلوم والمعارف والآداب **والمقامات**»[(١)].

ولكونه من أهل اللغة والنحو فقد ذكره السيوطي (ت٩١١هـ) في «بغية الوعاة» فقال: «محمد بن خلف الهمذاني يعرف بابن أُقَيلال، من بيت علم ودين، وكان عارفاً بالفقه والحديث والنحو واللغة والأدب والشعر والكتابة والطب مع كرم خُلُق»[(٢)]. ويضيف السيوطي قائلاً: «وكان من جملة الكتّاب والأدباء والشعراء، صنع مقامة حسنة في أهل بلده، وانتقل إلى مالقة، ثم عاد إلى بلده، وبها توفي سنة ٥٧٣هـ»[(٣)].

وهذا الأديب صاحب المعارف الجمة، لم تورد مصادر ترجمته شيئاً من نظمه ونثره، كما أن مقامته، التي وصفها السيوطي بأنها حسنة، لا نعرف عنها شيئاً.

أمّا د. إحسان عباس - عندما عدّد المقامين والمقامات الأندلسية- فقد اكتفى بالقول: «مقامة في أهل غرناطة لمحمد بن خلف الهمذاني الغرناطي»[(٤)].

---

(١) الذيل والتكملة: ١/ ص٢١٠.

(٢) بغية الوعاة: ١/ ص١٠١.

(٣) المصدر نفسه: المكان نفسه.

(٤) تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين): ص٣٠٦.

عبد الرحمن بن أحمد بن القصير
(ت٥٧٦هـ)

ترجم له المقّري في «أزهار الرياض»، فقال: «عبد الرحمن بن أحمد بن محمد الأزدي من أهل غرناطة من بيت شورى وجلالة، وكان صاحب رواية ودراية، وله تواليف وخطب ورسائل **ومقامات**...»[(١)].

وكان كما يذكر صاحب «جذوة الاقتباس»: «من بيت وجاهة وعلم ونباهة، عارفاً بصناعة الحديث معتنياً بالرواية، فقيهاً، حافظاً للمسائل، أديباً بارعاً مولعاً بإنشاء الخطب والرسائل **والمقامات**...»[(٢)].

واختلفوا في كنيته فهو أبو جعفر كما نقل المقرّي عند كتاب «صلة الصلة» لابْن الزبير[(٣)]، وأبو القاسم أو أبو زيد عند آخرين، ممن نقل عنهم المقّري[(٤)].

وعدّد المقّري كثيراً من شيوخ ابن القصير[(٥)]، الذين روى عنهم وصحبهم، نذكر منهم: أبا عبد الله بن أبي الخصال (ت ٥٤٠ هـ)، وأبا الوليد بن رشد (ت ٥٢٠هـ)، وأبا بكر بن العربي (ت ٥٤٣ هـ)، وأبا الفضل القاضي عياض بن موسى (ت٥٤٤هـ).

وينبئنا المقّري عن وفاة ابن القصير بقوله: «... ثم ركب البحر قاصداً الحج، فتوفي شهيداً في البحر، قتلته الروم بمرسى تونس، مع جماعة من المسلمين، صبح يوم الأحد في آخر سنة ست وسبعين وخمسمائة»[(٦)].

---

(١) أزهار الرياض: ٣/ ص١٥.

(٢) جذوة الاقتباس: ص٣٩٥.

(٣) أزهار الرياض: ٣/ ص١٥، وجذوة الاقتباس: ص٣٩٤.

(٤) انظر أزهار الرياض: ٣/ ص١١-١٢.

(٥) أزهار الرياض: ٣/ ص١٥، وانظر أيضاً: جذوة الاقتباس: ص٣٩٤.

(٦) أزهار الرياض: ٣/ ص١٥، نقلاً عن القسم الضائع من صلة ابن الزبير.

وإذا كانت المصادر قد أفاضت في الحديث عن سيرة ابن القصير، فذكرت شيوخه وتصانيفه وتلاميذه، فإنها لم تورد شيئاً من تلك المقامات التي كان بارعاً بإنشائها. ولا ندري إن كانت تلك المقامات التي ذكرها المقّري وغيره قد ضلّت طريقها إلينا، أم أنها فقدت واندثرت. ولنا أن نتساءل لماذا انفرد المقّري (١٠٤١هـ) صاحب «أزهار الرياض»، وابن القاضي (١٠٢٥هـ) صاحب «جذوة الاقتباس» وهما من المتأخرين بنسبة تلك المقامات إلى ابن القصير ؟ أمّا سابقوهم ممن نقل عنهم المقّري وابن القاضي ترجمة ابن القصير وأخباره من أمثال ابن الزبير (ت٧٠٧هـ) في «صلة الصلة»، وابن عبد الملك المراكشي (ت٧٠٣هـ) في «الذيل والتكملة»، فلم ينسبا لابن القصير مقامات، ولم يذكرا ما يشير إلى ذلك.(١)

ونجد الدكتور إحسان عباس يذكر ابن القصير في قائمة المقاميين الأندلسيين، ويكتفي بقوله: «مقامات لابن القصير عبد الرحمن بن أحمد»(٢).

(١) ترجم ابن الزبير لابن القصير في القسم المفقود الذي لم يصل إلينا من كتابه «صلة الصلة» وقد نقل ما في صلة ابن الزبير المقّري في أزهار الرياض: ٣/ ص١٥.
(٢) تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين): ص٣٠٧.

أبو بكر يحيى بن محمد الأركشي
(٥٠٧ -٥٨٦هـ)

ترجم له ابن الزبير (ت٧٠٧هـ) في كتابه «صلة الصلة»، فقال: «يحيى أبو جعفر، ويعرف بالأركشي، روى عن أبي الطاهر محمد بن يوسف التميمي، وكان كاتباً أديباً جليلاً»[(١)]. وترجم له صاحب «المغرب»، ولكن كنيته عنده أبو زكريا، [(٢)] وذكر أيضاً أن الأركشي هذا أخذ عن أبي إسحق بن خفاجه شعره سنة ٥٢٦هـ.

أما ابن عبد الملك المراكشي فلم يترجم للأركشي، ولكنه ذكره في ترجمته لواحد من فقهاء الأندلس وهو علي بن عبد الله بن خلف (ت٥٦٧ هـ)، فقال: «وقد وصفه (أي ابن خلف) الكاتب الأبرع، أبو بكر يحيى بن محمد الأركشي في مقامته التي سمّاها «قسطاس البيان في مراتب الأعيان»[(٣)].

ويذكر ابن الزبير أن هذا المقاميّ من تلاميذ محمد بن يوسف السرقسطي صاحب «المقامات اللزومية» المتوفى سنة ٥٣٨هـ. وقد يكون الأركشي في مقاماته التي وصلت إلينا قطعة منها، قد تأثر بأسلوب أستاذه في كتابة المقامات ؛ فهو قد روى عن السرقسطي مقاماته اللزومية[(٤)]. ولكن هذا الأمر يبقى مجرد رأي، لا يمكن إصدار حُكْم قاطع بشأنه، ما دام لم يصل إلينا قدر كافٍ من مقامات الأركشي.

وذكر ابن الأبار في «المعجم» أن أبا بكر الأركشي من تلاميذ الفتح بن خاقان وممن رووا عنه النوادر والأخبار[(٥)].

---

(١) صلة الصلة: ص١٨٤ (رقم الترجمة ٣٦٥).

(٢) المغرب: ١/ ص٣١٦.

(٣) الذيل والتكملة: ق١ (رقم الترجمة ٤٥٥).

(٤) انظر: صلة الصلة ص١٨٤ (رقم الترجمة ٣٦٥)، ومقدمة المقامات اللزومية: ص٢٥.

(٥) المعجم: ص٣١٣. وانظر أيضاً: أزهار الرياض: ٥/ ص٩٩.

وكان الأركشي من حفّاظ الأدب، جرت بينه وبين ابن الزقاق البلنسي[١] (ت٥٣٠هـ) مخاطبه بالشعر، ومن شعره قوله[٢]:

لا تبكيَنّه لإخوان تفارقهم … فإنني قبلك استخبرت إخواني

فما حَمَدْتهم في حال قربهم … فكيف في حال إبعاد وهجرانِ

وطال عمر الأركشي، كما يذكر صاحب «المغرب» إلى أن قتل بقرطبة في داره سنة ٥٨٦هـ.[٣]

---

(١) هو علي بن عطية أبو الحسن، ابن أخت بن خفاجة، له ديوان شعر مطبوع. انظر ترجمته في مقدمة ديوانه.

(٢) البيتان في: المغرب: ١/ ص ٣١٦، ونفح الطيب : ٤/ ص٦٢.

(٣) المغرب: ١/ ص٢٥٢.

ابن رضا الكاتب

(ت بعد ٥٩٠ هـ)

أبو عَمْرو رِضيّ بن رِضا الكاتب، من أهل مالقة[١]، وفي «الوافي بالوفيات» (أبو عُمَر)[٢]، وكنّاه صاحب «المغرب» أبا الحسن[٣].

ولابْن رضا مقامة احتفظ ابن الأبّار بأبيات طريفة منها، وذكر الظروف التي أحاطت بكتابتها، فقال: «أنشد لبعضهم هذه القطعة، وهي:

أَرادوا بِعادي فَأدْنَيْتُهم ... فقالوا: عجيبٌ عجيبٌ عجيبْ
فَأهملتُ دمعي على وجنتي ... فقالوا: مُريبٌ مريبٌ مريبْ
فناديتُ في الحيّ يا غُربتي ... فقالوا: غريبٌ غريبٌ غريبْ
فقلتُ متى الوصلُ يا سادتي ... فقالوا: قريبٌ قَريبٌ قريبْ
فسلّمتُ تسليم صَبّ بهم ... فقالوا: حبيبٌ حبيبٌ حبيبْ

واستغربتْ بمالقة، فصنع في ذلك مقامة تدلّ على مكانه من الأدب، وقال يعارضها:

نَسَبْتُ بها في الهوى مُعْلِناً ... بِذِكري فقالوا نسيبٌ نسيبْ
وأغربْتُ في حبّها طالباً ... رضاها فقالوا غريبٌ غريبْ
أهابَ التصابي فلبّيتهُ ... وهبتُ فقالوا مهيبٌ مهيبْ
وكمْ قد كُذِبْتُ فلم أنخدعْ ... لِقيل فقالت كذيبٌ كذيبْ
أرابوا وإني لذو ريبةٍ ... وإربٍ فقالت أريبٌ أريبْ
عسى وطن سمعت منشداً ... بقول فقالت حبيبٌ حبيبْ»[٤]

---

(١) ابن الأبار: تحفة القادم: ص ١١٠، والمقتضب من تحفة القادم: ص١٣٢.

(٢) الوافي بالوفيات: ١٤/ ص١٣١.

(٣) المغرب: ١/ ص٤٢٦.

(٤) تحفة القادم: ص١١٠.

ويبدو أنّ ابن رضا كان مولعاً بهذا اللون من الشعر الطريف، ومنه قوله[1]:

ولمّا التقينا نسيتُ النّسيبَ ... فقالت نسيبٌ نَسي بي النّسيبا
وحَقّقْتُ أنّي مُغْرىً بها ... فقالت غريبٌ غُري بي غريباً
كَنَتْ عن مُحِبٍّ بغير اسمْه ... فقالت مُنيبٌ مُني بي مُنيباً

أمّا تاريخ وفاته ومكانها ففيهما رأيان، أولهما: ما ذكره ابن الأبّار (ت٦٥٨هـ) من أنه استشهد براية من نواحي بطليوس بعد التسعين وخمسمائة[2]، وثانيهما: ما ذكره الصلاح الصفدي (ت ٧٦٤هـ) من أنه استشهد بدانة من نواحي مالقة بعد السبعين وخمسمائة.[3]

---

(١) وردت الأبيات في : تحفة القادم: ص١١٠ – ١١١.

(٢) تحفة القادم: ص١١١. لم يرد في معاجم البلدان موضع في الأندلس باسم (راية). أمّا بَطَلْيوس فهي مدينة كبيرة بالأندلس غرب قرطبة، ينسب إليها خلق كثير، منهم أبو محمد البطليوسي صاحب التصانيف والشعر (معجم البلدان).

(٣) الوافي بالوفيات: ١٤/ ص١٣١. ورد في معاجم البلدان دانية، وهي مدينة بشرق الأندلس، لها سور حصين، وهو من ناحية المشرق في داخل البحر، ومن هذه المدينة كان يخرج الأسطول إلى الغزو (الروض المعطار).

عبد الرحمن بن محمد السُّلمي المالقي
(ت٥٩١هـ)

ذكره ابن عبد الملك المراكشي (ت٧٠٣هـ) بقوله: «كان شديد العناية بالآداب، وأحسنَ المشاركة في قرض الشعر، وله **مقامات** في أغراض شتّى»[(١)].

ويبدو أنّ هذا المقاميّ كان من اللغويين والنحاة، ولذلك ذكره السيوطي في كتابه «بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة »، وترجم له بقوله: «كان عارفاً بضروب الآداب واللغات، ذاكراً لأيام العرب وفرسانها، بارع الكتابة، جيد النظم ينشئ الرسائل اللزومية، وله رسائل جليلة، ومفاخرة بين السيف والقلم، مات بمراكش سنة ٥٩١هـ»[(٢)].

وهذا الأديب صاحب الكتابة البارعة، والنظم الجيد، لم نعثر – في المصادر التي ذكرته – على شيء من نظمه ونثره. أمّا مقاماته التي تناولت أغراضاً شتى فلا ندري إن كانت قد ضاعت، وفقدت فيما ضاع وفقد من تراثنا الأدبي، أم أنها ما زالت في مصادر مخطوطة لم يتح لها رؤية النور بعد؟

(١) الذيل والتكملة: ٢/ ص٩٠.

(٢) بغية الوعاة: ٢/ ص١٠٢.

صفوان بن إدريس التّجيبي[١]

(ت ٥٩٨ هـ)

يكنى أبا بَحْر، وهو من «فحول شعراء الأندلس، وأدبائها، شاعر مفلق وكاتب بارع، تُضْرب ببراعة كتبه الأمثال، وله رسائل عجيبة، **ومقامات** غريبة، وأشعار رائقة»[٢].

لم يصل إلينا شيء من مقامات ابن صفوان التي نعتها صاحب «كتاب أدباء مالقة»، بأنها غريبة. ولكن صاحب «نفح الطيب» أورد رسالته التي كتبها إلى الأمير عبد الرحمن بن يوسف بن عبد المؤمن، والتي تقوم فكرتها على أساس إعجاب مدن الأندلس وتنافسها في دعوته للإقامة فيها؛ لأن الله ألقى محبته حتى على الجماد، والحوار تبدأ به إشبيلية فقرطبة، فغرناطة، فمالقة، فَمُرسية فبلنسية، ثم تُدمير، التي تكون آخر المتحدثات فتدعو للأمير بالتوفيق المؤزر، وتختم الرسالة بالسلام[٣].

والرسالة -بما قامت عليه من سجع، وما فيها من اقتباس كثير- ، تقترب من المقامات، ولذلك أدرجها بعض الباحثين ضمن مقامات الأندلسيين،[٤] ولكننا نرى أن أسلوب الرسالة تميز بالرقة والسهولة، ولم يجنح كاتبها إلى التعقيد اللفظي، وتعمّد المحسنات البديعية المتكلّفة بقصد إظهار البراعة اللغوية. يضاف إلى ذلك أن صاحبها لم يختر لرسالته أن تكون مقامة وإلاّ لصرّح بذلك، كما أن المقّري سمّاها «رسالة»[٥] ولم يسمّها «مقامة». وجعلها أحد الباحثين في المحاورات والمناظرات في الأدب الأندلسي، وسمّاها «مناظرة بين بلدان الأندلس»[٦]، وهذا أقرب إلى الصواب.

---

(١) انظر في ترجمته: تحفة القادم: ص١١٩-١٢٣، والمغرب: ٢/ ص٢٦٠-٢٦١، ورايات المبرزين: ص٢٠١، والإحاطة: ٣/ ص٣٤٩-،٣٥٩ ونفح الطيب: ٤/ ص٥٧-٧٤.

(٢) كتاب أدباء مالقة: ص٢٠٧.

(٣) انظر الرسالة في نفح الطيب: ١/ ص١٧٠-١٧٥، وزاد المسافر: ص١٤ — ١٨.

(٤) د. قصي الحسيني: فن المقامات بالأندلس، ص٤٢.

(٥) نفح الطيب: ١/ ص١٧٠.

(٦) د. مصطفى السيوفي: ملامح التجديد في النثر الأندلسي، ص١٢٩-١٣٤.

الوزير الكاتب أبو عامر بن أرقم

(من أدباء القرن السادس الهجري)

وهذا الكاتب من رجالات كتاب «القلائد»، فقد خصّه الفتح بن خاقان بفصل أورد فيه مختارات من شعره، ورسائله، وقطعة مبتورة من مقامة له[(١)]. وقد استهلّ الفتح هذا الفصل بأسلوبه المسجوع، فقال: «فريد وَقْتِه وابنُ فريده، وعميد الكلام وابن عميده، وكان أبوه الوزير الكاتب أبو الأصبغ، قد أبرَّ على أهل أوانه، واستقرّ كتّابة زمانه، فنبت أبو عامر في تربة العلم ونشأ في حجره، وشدا بين سِحْر البيان ونحْره، فلم يزل على كدّ طلب الأدب وتعبه، وأصْبَرَ من عَوْدٍ قد عضّت جَنْباه بخلبِهِ، حتى ارتوى من صافي الأدب وغيره»[(٢)].وانتقل الفتح بعد ذلك إلى الإشادة بشعر أبي عامر ونثره، فقال: « ... وله شعر ونثر يُفصحان بسَعة باعه، ورحب ذراعه، ويشهدان أنّه يغرف من عجّاج، ويدعُ مُحاربه يعْمَه في عجاج».[(٣)]

أمّا ابن بسّام – وهو من معاصري صاحب « القلائد» فلم يترجم لأبي عامر ابن أرقم في «ذخيرته» وإنما ذكر اسمه، وأورد مختارات من نثره وشعره في سياق الفصل المطوّل،.الذي خصّصه لذكر أبيه الوزير الكاتب بن أصبغ بن أرقم[(٤)]. ولكنّ ابن بسّام لم يشر إلى مقامة أبي عامر التي أورد الفتح بن خاقان قطعة منها.

---

(١) قلائد العقيان: ص٣٦٧ – ٣٧٦.

(٢) المصدر نفسه: ص٣٦٧.

(٣) المصدر نفسه: ص ٣٦٨.

(٤)الذخيرة: ق٣ م١ ص٣٦٠ – ٤٠٨. وأبوه هو عبد العزيز بن محمد بن أرقم الوادي آشي، وَزَرَ للمعتصم بن صُمادح (ت٤٨٤هـ)، ترجم له ابن بسام، ونعته بقوله: «أَحَدُ كُتّاب الجزيرة المهرة، والنّقدة الشّعرَه، ممن نهض بالصناعة بالباع الأسَدّ، وأخذ فيها بالسّاعد الأشدّ..... ».

ولم يترجم المقّري، صاحب موسوعة «نفح الطيب» للوزير الكاتب أبي عامر، وإنما اكتفى بذكر اسمه وإيراد بيتين من شعره، وهما[١]:

فتـــى الخيـــلِ يقتادهـــا دُبَّــلاً ... خفافــاً تبــاري القنــا الــذابلا
تــرى كــلّ أجــرد ســامي التليـــ ... ـــل تحـــسبه غـــصناً مـــائلا

وهذان البيتان كان الفتح بن خاقان قد ذكرهما بالرواية ذاتها ضمن سبعة أبيات من شعر أبي عامر في مقامته[٢]، ولكن المقّري لم يشر إلى تلك المقامة.

وقد عدَدْنا أبا عامر بن أرقم في المقاميين الأندلسيين؛ لأن الفتح بن خاقان – كما ذكرنا – احتفظ بقطعة مبتورة من إحدى مقاماته، مهّد لها بالعبارة: «ومن كلامه في مقامة أنشأها ... »[٣].

وكان أبو عامر كاتباً وشاعراً، فقد أورد له الفتح من خاقان، وابن بسام قطعاً من رسائله، ومختارات من شعره[٤].

ولا نجد في المصادر تحديداً لسنة وفاة ابن أرقم، ولكننا نرجح أنه عاش في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري، وأوائل القرن السادس، فقد مدح الأمير المرابطي تاشفين بن يوسف بن علي الذي توفي سنة ٥٣٩هـ.

---

(١) نفح الطيب: ٣/ ص٤٩٩.

(٢) قلائد العقيان : ص٣٧٤.

(٣) انظر هذه القطعة من المقامة في: قلائد العقيان: ص ٣٧٢ – ٣٧٤، وانظر دراستنا هذه ص١٤٧.

(٤) انظر: القلائد: ص٣٦٨ – ٣٧١، ٣٧٤ ، ٣٧٦، والذخيرة : ق٣ م١ م٣ ٤٠٣ – ٤٠٨.

محمد بن عياض القرطبي

(القرن السادس الهجري)

لا تساعدنا المصادر التي ترجمت لهذا المقامي على تحديد سنة ولادته أو سنة وفاته، ولكننا ندرك أنه عاش في بداية عهد الموحدين، يدلنا على ذلك ما رواه ابن سعيد في كتابه «المغرب» إذ قال: «كان نحوياً أديباً، مصدَّراً للإقراء في قرطبة في صدر دولة بني عبد المؤمن»(١).

أمّا ابن الأبّار فقد ذكر اسمه وكنيته، فقال: «محمد بن عيسى بن عياض، ويكنّى أبا عبد الله»(٢).وصنّفه ابن سعيد في «المغرب» بين علماء (لبلة)، فقال: «اللّبْلي»(٣)، بينما جعله في «رايات المبرّزين» في القسم المخصص لقرطبة، فقال: «القرطبي»(٤)، وكان ابن الأبّار قد تردد من قبل فأخذ بالنسبتين فقال: «القرطبي»، ويقال «اللّبْلي»(٥).

وعُرف ابن عياض بين المقاميين الأندلسيين بمقامته التي احتفظ ابن سعيد بقطعة منها، وسمّاها «المقامة الدَّوحية»(٦)، وسماها صاحب «التكملة» المقامة «العِياضية الغزلية».(٧) وفي كتاب «كشف الظنون» لحاجي خليفة (ت١٠٦٧هـ) تحريف اسم المقامة «الدوحية» إلى «الروحية» وتحريف «اللّبلي» إلى «الليثي»(٨).

(١) المغرب في حُلى المغرب: ١/ ص٣٤٤.
(٢) التكملة لكتاب الصلة: ١/ ص٥١٥.
(٣) المغرب: ١/ ص٣٤٤. لبلة: مدينة في غرب الأندلس، تعرف بالحمراء (الروض المعطار).
(٤) رايات المبرزين: ص٧٦.
(٥) التكملة: ١/ ص٥١٥.
(٦) المغرب: ١/ ص٣٤٤، والتكملة: ١/ ص٥١٥، وانظر ص ١٣٠ من دراستنا هذه.
(٧) التكملة: ا/ ص٥١٥.
(٨) كشف الظنون: ٢/ ص١٧٩٢.

أبو الحسن سَلام بن سلام المالقي
(القرن السادس الهجري)

ذكره ابن سعيد في «المغرب» نقلاً عن أبيه فقال: «قال والدي: هو سَلاَم بن سَلاَم مخفّف اللام، وكان أديباً، وله **مقامات سبع مشهورة**»[١].

وذكره ابن خير الإشبيلي (ت ٥٧٥هـ)، وهو يعدّد ما رواه عن شيوخه، فقال: «وكتاب المقامات السبع من إنشاء الوزير الأديب الفاضل أبي الحسن بن عبد الله بن سلام، رحمه الله، روايتي لذلك عنه، قراءة مني عليه بلفظي بمنزله أيام كوننا بمدينة شِلْب حرسها الله»[٢].

وكرّر ابن خير ذكر هذه المقامات في موضع آخر من «فهرسة ما رواه عن شيوخه»، مؤكداً أنه رواها عن صاحبها ابن سلام، فقال: «تواليف الشيخ الفاضل الأديب أبي الحسن بن سلام بن عبد الله بن سلام المقامات السبع وغيرها، وماله من منثور الكلام ومنظومه، وجميع ما رواه عن شيوخه – رحمهم الله – روايتي لذلك عنه»[٣].

ورواية ابن خير -بالإضافة إلى ما فيها من الدقة والتوثيق- فإنها تدلّنا على الفترة الزمنية التي عاش فيها هذا المقاميّ، فهو معاصر لابن خير، الذي كان من تلاميذه، وممن رووا عنه مقاماته السبع، ولذا فقد سلكناه في أدباء القرن السادس الهجري.

---

(١) المغرب: ١/ ص٤٣٤.

(٢) ابن خير الإشبيلي: فهرسة ما رواه عن شيوخه، ص٣٨٦. وشلب: مدينة بالأندلس، مبناها على نهر يُمَدّ من البحر المحيط، وهي مدينة مستحسنة مشهورة بالأدباء (المغرب: ١/ ص٣٨١).

(٣) المصدر نفسه: ص٤٥٠.

أمّا المقري (ت١٠٤١هـ) صاحب موسوعة «نفح الطيب» فلم يترجم لابن سلام، ولم يشر إلى مقاماته، ولكنه أورد بيتين من شعره، استجادهما ؛ لأن قائلهما اهتدى فيهما إلى معنى في لثم الخد ورشف رضاب الثغر لم يهتد إليه أحد غيره، وهما قوله[1]:

لَمّا ظفِرتُ بليلة مِنْ وَصله ... والصَّبُّ غير الوصل لا يشفيه
أنضجتُ وردة خدّه بتنفسي ... وطفقتُ أرشُف ماءها من فيه

وهذه المقامات السبع التي رواها ابن خير عن مؤلّفها أبي الحسن المالقي، وذكرها صاحب «المغرب»، شأنها شأن غيرها من مقامات الأندلسيين التي وصلت إلينا أسماؤها دون نصوصها، ولا ندري إن كانت ما زالت في المصادر المخطوطة، التي لم يتح لها رؤية النور بعد، أم أنها ضاعت واندثرت.

(١) نفح الطيب: ٢/ ص١٣٨، والبيتان في المغرب: ١/ ص٤٣٤.

أبو البقاء الرندي
(ت٦٨٤هـ)

وهذا الأديب ذو شهرة واسعة، فقد عُرف بقصيدة قالها في رثاء مدن الأندلس بعد توالي سقوطها في النصف الأول من القرن السابع، وتوالي نكبات المسلمين بعد ذلك.

والرندي – كما عرّف به صاحب «الذيل والتكملة» –: «هو صالح بن يزيد ابن صالح بن موسى بن أبي القاسم بن علي بن شريف من أهل رندة»(١). وتختلف كنيته عند أصحاب المصادر، فهو أبو البقاء عند بعضهم(٢)، وأبو الطيب عند آخرين(٣).

وقد غطّت قصيدته المذكورة على كلّ ما عنده من آثار أخرى، وهي قصيدة طويلة، يقول فيها(٤):

لكل شيء إذا ما تمّ نُقصانُ ... فلا يُغرَّ بطيب العيش إنسانُ
هي الأمور كما شاهدتُها دُولٌ ... من سرّه زمنٌ ساءته أزمانُ
وهذه الدار لا تبقي على أحدٍ ... ولا يدوم على حال لها شانُ
أينَ الملوك ذوو التيجان من يمن ... وأين منهم أكاليل وتيجانُ
وأينَ ما حازه قارون من ذهب ... وأين عادٌ وشدّادٌ وقحطان
أتى على الكلّ أمرٌ لا مَرَدّ له ... حتى قضوا فكأن القوم ما كانوا

---

(١) الذيل والتكملة: بقية السفر الرابع ص١٣٦. ورُندة: معقل حصين بالأندلس، بين إشبيلية ومالقة، وهي مدينة مبنيّة على نهر جارٍ (معجم البلدان).

(٢) نفح الطيب: ٥/ ص٢٣٢.

(٣) الذيل والتكملة: بقية السفر الرابع ص١٣٧، والإحاطة:٣/ ص٣١٠، وأزهار الرياض: ١/ ص٤٧.

(٤) وردت القصيدة كاملة في نفح الطيب: ٤/ ص٤٨٦-٤٨٨، وأزهار الرياض: ١/ ص٤٧، نقلاً عن الإحاطة: ٣/ ص٣٦٠.

وقد أعجب الناس بالقصيدة، فأضافوا لها زيادات مختلفة في عصور لاحقة، تصور سقوط مدن أخرى كانت إسلامية في عهد الرُّندي. قال المقرّي: «ويوجد بأيدي الناس زيادات فيها ذكر غرناطة وبسطة وغيرهما مما أخذ من البلاد بعد موت صالح بن شريف، وما اعتمدته منها نقلته من خط من يوثق به، فكأن بعضهم لمّا أعجبته قصيدة صالح بن شريف زاد فيها تلك الزيادات»(١).

ولكن الكثيرين لا يعرفون أن أبا البقاء الرندي صاحب تآليف(٢)، وكاتب رسائل، وله - كما ذكر ابن عبد الملك المراكشي (ت٧٠٣هـ) - **مقامات بديعة** في أغراض شتى(٣). وعبارة المراكشي لها أهميتها في موضوع دراستنا، فهو معاصر لأبي البقاء، وعندما ينسب له مقامات فهذا يعني أنه قد يكون سمع عن تلك المقامات، أو اطّلع عليها.

أمّا ابن الزبير - وهو من شيوخ أبي البقاء وأساتذته - فلا يذكر شيئاً عن مقاماته، وإنما تحدّث عن مشاركته في أنواع متعدّدة من الثقافة فقال فيما نقله عنه المقّري: «وعنده مشاركة في الحساب والفرائض، وله تواليف أدبية، وقصائد زهدية، وكان في الجملة معدوداً في أهل الخير، وذوي الفضل والدين، تكرّر لقائي إياه، وقد أقام بمالقة أشهر أيام إقرائي، وكان لا يفارق مجالس إقرائي، وأنشدني كثيراً من شعره»(٤).

ومما تجدر الإشارة إليه أنّ لسان الدين ابن الخطيب خصّص فصلاً مطوّلاً في كتابه «الإحاطة» ترجم فيه للرندي، اعتمد فيه على كتابيْ «صلة الصلة» و «الذيل

(١) نفح الطيب: ٤/ ص٤٨٨.

(٢) من كتبه التي بين أيدينا: الوافي في نظم القوافي منه نسخة خطية بخط مغربي قديم على ميكروفيلم، مركز الوثائق بمكتبة الجامعة الأردنية شريط رقم: ٩٦٥.

(٣) الذيل والتكملة: بقية السفر الرابع ص١٣٦. انظر ترجمة الرندي في الإحاطة: ٣/ ص٣٦٠-٣٧٤.

(٤)انظر نفح الطيب:٤/ ص٤٤٦ وما بعدها، وأزهار الرياض ١ :٤٧ وما بعدها.

والتكملة» ولكنه لم ينسب للرندي مقامات، ولم يشر إليها، وإنما أورد أبياتاً من شعره، وقطعة من إحدى رسائله.

ونجد المقرّي لا يترجم للرندي في أي من كتابيه «نفح الطيب» أو «أزهار الرياض»، ولا يشير إلى أن له مقامات، على الرغم من أنه –كما أشرنا– أورد قصيدته النونيّة كاملة في كلا الكتابين. أمّا الذين تصدّوا لذكر المقامات الأندلسية وكتّابها من الدارسين المحدثين فلا يشيرون إلى مقامات الرندي، ولم يذكروا اسمه ضمن كتّاب المقامات.

ابن المرابع الأزدي
(ت٧٥٠هـ)

خَصّص ابن الخطيب فصلاً مطوّلاً في كتابه «الإحاطة»، ترجم فيه لمعاصره ابن المرابع الأزدي، استهله بقوله: «شابَ في الأدب وشبّ، ونشق ريح البيان لـمّا هبّ، فحاول رقيقه وجزله، وأجاد جدّه وأحكم هزله، فإن مدح صَدَحَ، وإنْ وصَف أنصف، وإنْ عصف قصف... حتى برز في أبطال الكلام وفرسانه، وذُعِرت القلوب بقوّة لسانه»[١].

وينبئنا ابن الخطيب عن اسم ابن المرابع وكنيته، وسنة وفاته فيقول: «عبد الله ابن إبراهيم بن عبد الله الأزدي، يكنى أبا محمد، ويُعرف بابن المرابع، توفي أواخر سنة ٧٥٠هـ بمدينة بلّش بمالقة»[٢].

ولابن المرابع مقدرة على النظم والنثر، مما جعل ابن الخطيب يقول فيه: «وله اقتدار على النظم والنثر، وله **مقامات** تشهد باقتداره»[٣]. وعبارة ابن الخطيب (وله مقامات تشهد باقتداره) لها أهمية خاصة في هذه المقام فهو معاصر لابن المرابع، وحديثه عن مقاماته إنما هو حديث عيان ومشاهدة، لا حديث خبر وسماع، فقد عاشا زمناً في بلاط سلاطين بني نصر بمملكة غرناطة في القرن الثامن الهجري وهذا يعني أنه اطّلع على قدر كاف من مقاماته، مما جعله يشهد له بالاقتدار على كتابة المقامات. ولكنه لم يورد من مقاماته سوى مقامة واحدة، كتبها يستجدي أضحية

---

(١) الإحاطة: ٣/ ص٤٢١.

(٢) المصدر نفسه: ٣/ ص٤٢١.

(٣) المصدر نفسه: ٣/ ص٤٢٤.

بمناسبة العيد.[(١)] وكان ابن المرابع نفسه شاعراً مكدّيا، عاش في مملكة غرناطة، وعرف البؤس، ومذلّة السؤال.

ونحن نرجّح أن لابن المرابع مقامات أخرى، يدلنا على ذلك عبارة ابن الخطيب التي ذكرناها. هذا بالإضافة إلى أننا نجد في كتاب «الإحاطة» أبياتاً من شعر ابن المرابع، وصفها صاحب «الإحاطة» بأنها مقطوعة سهلة، مما وقع له أثناء مقامات تشهد باقتداره»[(٢)]. وهذه المقطوعة ليست من نصّ المقامة التي بين أيدينا، مما يدلّ على أنها من مقامة أخرى لم تصل إلينا.

ولا بأس في الإشارة هنا إلى أن المقّري ترجم لابن المرابع نقلاً عن كتاب «الإحاطة»، ولكنه لم يذكر شيئاً عن مقاماته[(٣)]، كما أنه لم يشر إلى المقامة التي أسلفنا ذكرها والتي أورد صاحب «الإحاطة» نصّها.

(١) انظر الفصل الثاني من هذا البحث.

(٢) الإحاطة: ٣/ ص٤٢٤.

(٣) نفح الطيب: ٦/ ص٢٥٥. ونفح الطيب: ٦/ ص٢٥٥.

لسان الدين بن الخطيب [(١)]

(ت ٧٧٦هـ)

أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد، أكبر كتّاب غرناطة والأندلس في القرن الثامن الهجري، وشخصية من أصحاب الثقافة الموسوعية المعروفة في ميادين العلم والسياسة. كان لمدة طويلة وزيراً ذا شأن، وشغل منصب كاتب، ثم صار رئيس كتّاب، وهو أحد شعراء الأندلس، وله موشحات كثيرة.

ولد لسان الدين بالقرب من غرناطة سنة ٧١٣هـ، عمل أبوه بدواوين غرناطة عند أمرائها بني الأحمر الذين ألحقوا لسان الدين بدواوينهم، فعمل عند السلطان أبي الحجاج يوسف (ت ٧٥٥هـ)، وابنه الغنيّ بالله (ت ٧٩٣هـ) الذي نشبت ثورة ضدّه، اضطرته إلى اللجوء إلى فاس، وصحبه لسان الدين، الذي استقر بمدينة «سلا» زمناً، ثم عاد الغني بالله إلى سلطانه ثانية، فاستدعى لسان الدين، وألقى إليه بمقاليد الأمور، ولكنّ خصومه وفي مقدمتهم تلميذه ابن زمرك (ت٧٩٦هـ) وقاضي غرناطة أبو الحسن النباهي (ت٧٩٣هـ) حرّضوا عليه السلطان، ووصموه بالزندقة، فأودع السجن بفاس، وقُتل في سجنه سنة ٧٧٦هـ.

للسان الدين مؤلفات في التراجم والتاريخ والأدب وغيرها، ومن أعماله المنشورة: «الإحاطة في أخبار غرناطة»، وديوان شعر، ومشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس، وغيرها مما عدّده ابن الخطيب نفسه في كتابه «الإحاطة».[(٢)]

---

(١) انظر في ترجمة لسان الدين:
أزهار الرياض: ١/ ص١٨٦، والجزءين الخامس والسادس من نفح الطيب، والتعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً: ص٨٥.
وأصدر د.محمد عبدالله عنان كتاباً مفرداً عن (لسان الدين بن الخطيب) بعنوان: لسان الدين بن الخطيب، حياته وتراثه الفكري.

(٢) الإحاطة: ٤/ ص٤٥٧.

والذي يعنينا من جوانب ثقافة لسان الدين وإنتاجه في بحثنا هذا هو أنه كان من كتّاب المقامات. فقد ذكره د. إحسان عباس في المقاميين الأندلسيين، وعدّد من مقاماته[1]: مقامة السياسة، ومقامة وصف البلدان، ومعيار الاختبار في أحوال المعاهد والديار، وخطرة الطيف ورحلة الشتاء والصيف.

وفي رأينا أن اسم مقامة ينطبق على واحدة فقط من هذه المقامات الأربع وهي «مقامة السياسة»، أمّا «معيار الاختبار» -وإن كانت مستهلة بذكر الراوي والبطل، وهما من عناصر المقامات- فهي عبارة عن وصف نثري مسجَّع لأهم مدن المغرب الأقصى مع وصف (٣٤) مدينة من مملكة غرناطة، ويتخلّل هذا وذاك ذكر محاسن وعيوب لكل مدينة[2]. و«خطرة الطيف» رحلة رسمية قام بها سلطان غرناطة أبو الحجاج يوسف ابن نصر، ومعه وزيره ابن الخطيب لتفقد أحوال الثغور الشرقية لمملكة غرناطة[3].

ونحن نوافق د.شوقي ضيف، الذي ذهب إلى أن «معيار الاختبار» و «خطرة الطيف» أشبه بالرحلات منهما بالمقامات، ولذلك تحدّث عنهما بين رحلات الأندلسيين، ولم يتحدّث عنهما بين المقامات الأندلسية،[4] في حين عدّهما غيره من الباحثين في رسائل ابن الخطيب[5]. ومقامات ابن الخطيب -كما ذكر د.إحسان عباس- تدور حول الرحلات ووصف البلدان، وليس فيها ما يشير إلى تطور ما في طبيعة المقامة أو موضوعها[6].

---

(١) تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين): ص٣٠٧.

(٢) انظر مشاهدات لسان الدين بن الخطيب: ص٦٩-١١٥.

(٣) انظر المصدر نفسه: ص٢٥-٥٣.

(٤) تاريخ الأدب العربي (عصر الدول والإمارات: الأندلس): ص٥٢٠، ٥٣٠.

(٥) انظر: د. أحمد مختار العبادي: مشاهدات لسان الدين بن الخطيب: ص٧، ٢٥، ٦٩.

(٦)تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين): ص٣٢٦.

وإذا كان أسلوب ابن الخطيب في هاتين الرحلتين مليئاً بالصّنعة اللفظية والمحسنات البديعية، فإن هذا الأسلوب كان سائداً في العالم الإسلامي في ذلك الوقت حتى في الكتابة التأليفية، وهذا ليس سبباً كافياً كي نعدّهما في المقامات.

ومقامة «وصف البلدان»، التي ذكرها د. إحسان عباس نقلاً عن المقّري في «أزهار الرياض»[(١)]، هي مجرد وصف في صفحتين لمدينة «سبتة»، فلا تلتزم أي شكل فني مقامي، ومدلولها لا يعني أكثر من القيام بغرض الوصف، ولا ندري من الذي سمّاها مقامة، أهو ابن الخطيب؟ أم المقّري؟ الذي أوردها بعنوان «مقامة وصف البلدان»[(٢)].

وبالتدقيق في هذه القطعة التي أوردها المقّري بعنوان «مقامة وصف البلدان» تبيّن لنا أنها جزء من «معيار الاختبار في أحوال المعاهد والديار»، [(٣)] التي أشرنا إليها، وهذا يعني أنه لا توجد لابن الخطيب مقامة بعنوان «وصف البلدان»، اللهم إلا إذا كان المقّري أراد بقوله «من مقامة وصف البلدان»، رسالة «معيار الاختبار».

وبعد، فإن ما يصح أن نطلق عليه اسم مقامة من آثار ابن الخطيب هو مقامة «السياسة»، ومقامتان في أدب الوزارة وقدْر رتبتها، بالإضافة إلى مقامة أخرى في المديح، جعل في كلّ كلمة منها حرف «السين» ولذلك أسميناها «المقامة السّينية». وهذه المقامات الأربع سوف نورد نصوصها ونحلّلها في الفصل الثاني من هذه الدراسة.

(١) تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين): ص٣٠٧، نقلاً عن أزهار الرياض: ١/ ص٣٠.

(٢) أزهار الرياض: ١/ ص٣٠.

(٣) انظر أزهار الرياض: ١/ ص٣٠، وقابل: مشاهدات لسان الدين بن الخطيب ص١٠١-١٠٢

أبو الحسن النباهي المالقي
(٧١٣هـ- بعد ٧٩٢هـ)

وهذا المقامّي من رجال الدولة وأعيانها المرموقين في مملكة بني نصر بغرناطة في القرن الثامن الهجري. واسمه في صورته الكاملة: أبو الحسن علي بن عبد الله بن محمد بن الحسن الجذامي المالقي النُّباهي، ويُقْتصر غالباً على تسميته بأبي الحسن النباهي.[١]

ولد أبو الحسن بمالقة سنة ٧١٣هـ، وَوَلِيَ القضاء بغرناطة، وأُرسل مرتين في سفارة سياسية من غرناطة إلى فاس سنتي ٧٦٠هـ و ٧٨٨هـ. وكان صديقاً للسان الدين بن الخطيب (ت٧٧٦هـ)، الذي عرّف به في كتابه الشهير «الإحاطة في تاريخ غرناطة»[٢] أحسن تعريف، وترجم له ترجمة مطوّلة أثنى فيها عليها ثناءً، يكاد يكون إطراءً، وقد نقلها المقّري بجملتها تقريباً في كتابيه «نفح الطيب»[٣] و«أزهار الرياض»[٤].

ولكن العلاقات ما لبثت أن توتّرت بين الرجلين، وأظلم الجوّ بينهما فانقلبا عدوّين، ونال منه ابن الخطيب ولقبّه بالجعسوس (أي القصير) ازدراءً به[٥]، وخصّص له ترجمة قاسية في كتابه «الكتيبة الكامنة»[٦]، ولم يكتف بذلك حتى ألّف رسالة خاصة في هجائه سمّاها «خلع الرسن في وصف القاضي أبي الحسن»[٧]،

(١) تاريخ قضاة الأندلس: مقدمة المحقق (ح).

(٢) الإحاطة: ٤/ ص٨٨ وما بعدها.

(٣) نفح الطيب: ٣/ ص٤٩٦.

(٤) أزهار الرياض: ٢/ ص٥ وما بعدها.

(٥) أزهار الرياض: ٢/ ص٦، ونفح الطيب: ٥/ ١٢١.

(٦) الكتيبة الكامنة: ص ١٤٦-ص١٥٢.

(٧) ذكرها المقري في نفح الطيب: ٥/ ص٣٨، ٦/ ص١١٩، ٧/ ١٠١.

وقد أقذع في الهجاء، حتى وصفه المقرّي بأنه أشد مّن وقع النبال[١]. وليس من شأننا في هذا المقام أن نبحث عن أسباب الخلاف بين الرجلين.

والنباهي قاضٍ وأديب ومؤرخ، نعته المقري في «نفح الطيب» نقلاً عن لسان الدين بن الخطيب بأنه «عَفّ النشأة، طاهر الثوب، مؤثر للوقار والحشمة...حافظ مقيّد طُلعَة، إخباري، قائم على تاريخ بلده، وهو حسن الخط، ناظم ناثر...»[٢].

وأهم آثار النباهي المطبوعة كتاب «المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا» سمّاه ناشره: «تاريخ قضاة الأندلس»[٣]. وذكر له الزركلي كتاب «نزهة البصائر والأبصار»[٤]، الذي تناول فيه تاريخ الدولة النصرية بغرناطة.

والذي يعنينا من جوانب نثر النباهي في بحثنا هذا هو أنه مارس كتابة المقامات، فقد وصلت إلينا مقامته في «تفضيل النخلة على الكرمة»[٥]، التي من أجلها عددناه في المقامين الأندلسيين.

---

(١) نفح الطيب: ٥/ ص٣٨.

(٢) نفح الطيب:٦/ ص١١٩.

(٣) ليفي بروفنسال، القاهرة، ١٩٤٨.

(٤) الأعلام: ٤/ص٣٠٦.

(٥) حققتها حسناء الطرابلسي ونشرتها بحوليات الجامعة التونسية العدد ٢٧ ص١٩٨٨، تونس. وانظر نصّ المقامة أيضاً في دراستنا هذه ص ٢٣٢-٢٤٠.

الفقيه عمر الزجّال
(القرن التاسع الهجري)

عاش هذا المقامي في أيام الأندلس الأخيرة، واشتهر أمره حوالي منتصف القرن التاسع الهجري.

قال فيه المقّري: «أمّا الفقيه عمر فهو أشهر من نار على علم، وأزجاله ومنظوماته ومقاماته عند العامة محفوظة، وعند الخاصة مرفوضة»[١]. ويسميه عمر المالقي تارة[٢]، والأديب الفقيه عمر تارة أخرى[٣]. ولا نجد المقري يفصّل القول في نشأة هذا الأديب وحياته، كما أنه لم يحدد تاريخ وفاته، ولكنه ذكر أنه كتب واحدة من مقامتيه عام أربعة وأربعين وثمانمائة[٤]، مما يجعلنا نقول: إنه من أدباء القرن التاسع الهجري.

ويبدو أن الفقيه عمر كان مشهوراً بأزجاله؛ لذلك نعته المقّري بـ « الزجّال»، وقال: «أديب الأندلس، الفقيه عمر صاحب الأزجال، إذ هو من فرسان هذا المجال»[٥].

وقد روى له المقّري مقامتين أولاهما بعنوان «تسريح النصال إلى مقاتل الفصّال»[٦]، وثانيتهما بعنوان «مقامة في أمر الوباء»[٧]. وأورد أبياتاً من شعره، منها قوله[٨]:

---

(١) أزهار الرياض: ١/ ص١١٦.

(٢) المصدر نفسه: المكان نفسه.

(٣) نفح الطيب: ٥/ ص٤٠، وأزهار الرياض: ١/ ص١١٧.

(٤) أزهار الرياض: ١/ ص١٢٥-١٣٢.

(٥) نفح الطيب: ٥/ ص٤٠.

(٦) أزهار الرياض: ١/ ص١١٦-١٢٤، وانظر أيضا ص٢٤٤-٢٥٠ من دراستنا هذه.

(٧) المصدر نفسه: ١/ ص١٢٥-١٣٢، وانظر أيضا ص ٢٥١-٢٥٦ من دراستنا هذه.

(٨) أزهار الرياض: ١/ ص. ١٣٢.

عقيدة دين الحق أنّ محمداً ... له الفضل إطلاقاً على كل مخلوقِ
وإن سبقتْ رُسْلٌ بكُتْبٍ وبعثةٍ ... فما هو في مَجْدٍ وفَضْلٍ بِمَسْبوقِ
فهذا إذا ما عشتُ أُولى عقيدتي ... وهذا إذا ما متُّ آخر منطوق

وقوله:

جئتك يا ربٌ ولا عذر لي ... وهل لعبد السوء من معذرةْ ؟
أرجوك فيما أنت أهلٌ له ... فأنتَ أهلُ العَفو والمغفرةْ

وبالإضافة إلى هؤلاء المقامين، الذين ترجمنا لهم، فهناك مقاميّون آخرون، تدفعنا الرغبة في الاختصار إلى أن نكتفي بذكر أسمائهم، منهم: عبد الرحمن بن عبد العزيز بن أبي العافية، المعروف بالكُتُندي[١] (ت٥٨٣هـ)، وأبو علي بن كسرى[٢] (ت ٦٠٣ أو ٦٠٤هـ)، وكانا -كما يذكر صاحب كتاب «أدباء مالقة»- صاحبين لمحمد بن غالب الرصافي «وكان بينهم بمالقة **مقامات أدبية** ومجالس شعرية وارتجالات نبيهة»[٣]. ومنهم أيضاً ابن خفاجة الأندلسي (ت٥٣٣هـ)، فإنّ له مقامة لم يبق منها إلا أبيات في ديوانه[٤].

ومن المقامين الأندلسيين أيضاً ابن سيّد أمير، صاحب «المقامة الشّلْبيّة»[٥]، وهذا المقاميّ غفلت كتب التراجم الأندلسية عن ذكره، فندرت لذلك أخباره، وقَلّت التفاصيل عن حياته، وكلّ ما نعلمه عنه ما انفرد بذكره ابن الأبّار من أنه عبد الله بن

---

(١) وردت ترجمته في: رايات المبرزين: ص١٥٧، والمغرب: ٢/ ص٢٦٤، وكتاب أدباء مالقة: ص٨٥-٩٠.

(٢) هو أبو علي الحسن بن محمد بن علي الأنصاري ابن كسرى شاعر مشهور في زمن الخليفة الموحدي يوسف بن عبدالمؤمن، توفي بمالقة سنة ٦٠٣هـ أو ٦٠٤هـ انظر ترجمته في التكملة: ١/ ص٢٦٤-٢٦٥، وتحفة القادم: ص٩١، ومختارات من الشعر الأندلسي والمغربي: ص٧٠، والإحاطة: ٤/ ص٤٦٩-٤٧٢.

(٣) كتاب أدباء مالقة: ص٨٥.

(٤) تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والرابطين): ص ٣٠٦.

(٥) انظر نص المقامة ص ١٧٠-١٨٠ من دراستنا هذه، والشلبية نسبة إلى شِلْب وهو حصن بقرب قرطبة (معجم البلدان)

سيّد أمير اللخمي، يكنى أبا محمد، من مدينة شِلْب، برع في الحديث والنحو، وكانت له مشاركة في علم الطب[١]. ونرجح أنه من أدباء القرن السادس الهجري؛ لأنه صاغ مقامته وكتبها على نمط «المقامة القرطبية»، التي كتبت في القرن السادس الهجري، وقد ذكر المقامة القرطبية باسمها في مقامته.

أمّا ابن بُرْد الأصغر (ت بعد ٤٤٠هـ)[٢]، فقد أُلحق بترجمته في كتاب «الذخيرة» قطعة أدبية تتحدث عن النخلة، وهذه القطعة أقرب إلى المقامات من كثير من النصوص، التي أوردها ابن بسّام تحت هذا الاسم، ولذلك فقد أوردناها في نصوص المقامات الأندلسية.

(١) التكملة: ص٨٦٢ (ترجمة رقم ٢٠٧٥).

(٢) هو أبو حفص أحمد بن محمد بن برد الأصغر، أقام بالمريّة عند أميرها معن بن صمادح (٤٣٢هـ - ٤٤٣هـ)، الذي عرف له فضله، فاتخذه وزيراً له، ذكره ابن بسام في «الذخيرة» وخصّص له فصلاً، استهلّه بقوله: «كان أبو حفص في وقته فلك البلاغة الدائر، ومثّلها السائر، نفث فيها بسحره، وأقام من أودها بناصع نظمه وبارع نثره» الذخيرة ق١ م١ ص٤٨٦. وانظر في ترجمته: جذوة المقتبس: ص١٩٢، وبغية الملتمس: (ترجمة رقم ٣٥٥)، والأعلام: ١/ ص٢١٣.

٢

الفصل الثاني

المقامات الأندلسية

(نصوص وتحليل)

مقامة
لأبي المطرف عبد الرحمن بن فتّوح[1]

وحدَّثَ ابنُ فتوح عن نفسه قال: كنتُ ليلةً في رمضانَ أطوفُ بالمسجد الجامع بالمَرِيَّة سنة ثلاثين، وإذا فتى حَسنُ المنظر، فسلّم عليَّ سلاماً ارتاحت لهُ نفسي، وانشرح له صدري، فرددتُ عليه ردَّ من توسّم فيه سمة الفهم، فقال لي: بحرُمة الأدب إلاَّ ما أعدتَ عليَّ البيت، فأعدتُه، وأنشدت سائر الأبيات، فقال: الشِّعر لك؟ قلت: أجل، ثم قال لي: إنما أخذته من قول العباس بن الأحنف:

وأحسنُ أيّام الهوى يومُك الذي تُروَّعُ بالهجران فيه وبالعتبِ
إذا لم يكن في الحُبِّ سُخطٌ ولا رضىً فأين حلاواتُ الرَّسائل والكتبِ

فقال: وَرِيَتْ بك زنادي، فأَخْبِرْني عن السّبب الموجب لترديدك البيت، قلت له: مُنيتُ بِخِلٍّ مولعٍ بالخلاف، مائلٍ إلى قِلّةِ الإنصاف، إنْ لاينْتُه غَضِب، وإن استعتبته عتب، وقد عَلِمَ اللهُ شفقةَ نفسي لفرقته، فقال: قلّبَ اللهُ لك قَلْبه، وجنّبك عتبه. ثم ولّى عني وقد غرس في كبدي ثمرة ودِّه، فبتُ اللّيلةَ مستأنساً بخياله، جذلان بوصاله، حتى رأيتُ غُرّةَ الفجر تلمعُ في كفل الدُّجى، فخلته بحراً تسرَّب فيه جدول، أو عجاجاً سُلَّ من تحته مُنْصُل، فقمتُ ثابتاً على قصده، فلم ألبث أن سمعتُه يَنشُدُ ويطلُب منزلي، فقرعَ الباب وأذنت له فدخل، فرحبّتُ به، وقمتُ إليه، وأقبلت عليه، فقال لي: يا ابن الكرام، إنَّ هذا يومٌ قد بكى ماءُ غيمه، ونبض عِرْقُ برقه، وخفق قلب رعده، واغرورقت مقلة أُفقه، ونحن لا نجد الخمر، فبمَ نقطع تأويبه؟ فقلت: الرأيُ إلى سيدي أبقاه الله، فقال لي: كيف ذِكْرُك لرجال مِصْرِك، ووقوفك على شعراء عصرك؟ قلت: خيرُ ذكرٍ. فقال: مَن

(١) ورد نصّ المقامة في الذخيرة: ق١ م٢، ص٧٨٦-٧٨٧.

أعذبُهم لفظاً، وأرجَحُهم وزناً؟ قلت: الرقيقُ حاشية الظرف، الأنيق ديباجة اللطف، أبو حفص ابن بُردٍ. قال: فمن أقواهم استعارات، وأصحُّهم تشبيهات؟ قلت: البحرُ العجاج، والسراج الوهاج، أبو عامر ابن شهيد. قال فمن أذكرهم للأشعار، وأنظمهم للأخبار؟ قلتُ: الحلو الظريف، البارع اللطيف، أبو الوليد ابنُ زيدون. قال فمن أكلفهم بالبديع، وأشغفهم بالتقسيم والتّتْبيع؟ قلتُ: الرائعُ في روضة الحسب، المستطيل بمرجة الأدب، أبو بكر إبراهيم بن يحيى الطُبني، فأنشد:

وخاطبَ قُسّاً في عُكاظ محاوراً على البُعد سحبانٌ فأفحمُهُ قُسُّ

التحليل

أورد ابن بسام هذه القطعة في «الذخيرة» على أنها حديث من أحاديث ابن فتوح عن نفسه، ولم يسمّها مقامة، مع أنها لا تخرج عن المقامة في طابعها ورسومها، ولذلك عدّها الباحثون والدارسون ضمن مقامات الأندلسيين[1].

في هذه المقامة يقصّ ابن فتوح حادثة وقعت له وهو يطوف بالمسجد الجامع بالمريّة ذات ليلة من رمضان سنة ٤٣٠هـ. وخلاصة الحادثة أنه كان أثناء طوافه يردّد بيتاً من الشعر، فسمعه فتى حسن المنظر، فسلّم عليه سلاماً ارتاحت له نفسه، فردّ عليه ردّ من توسّم فيه الفهم، فاستحلفه الفتى إعادة بيت الشعر، ثم سأله عن سبب ترديده البيت، فأخبره أن ذلك كان لفراق حبيب، فدعا له الفتى وانصرف، «وقد غرس في كبده ثمرة ودّه». وعاد ابن فتوح إلى بيته وذكرى ذلك اللقاء لا تفارقه. وفي فجر اليوم التالي جاء

(١) د. إحسان بن عباس في كتابه: تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين): ص٣٠٥-٣١٢، ونقل عنه آخرون، منهم: د. عبدالعزيز عتيق: الأدب العربي في الأندلس: ص ٤٨٥، ود. حسن عباس: نشأة المقامة في الأدب العربي: ص٩٥.

الفتى وكان الجو ماطراً، فلم يجدا خمراً ليقطعا به يومهما فتسليا بتذاكر شعراء بلدهم وأدبائه، وهنا كان الفتى هو السائل وابن فتوح المجاوب، فوضَّح رأيه في أربعة من أدباء مصره وعصره. وتنتهي المقامة بإنشاد الفتى بيتاً من الشعر يعترف فيه بعلم ابن فتوح وتفوقه.

وقد بُنيت هذه المقامة على موضوع النقد الأدبي، ولكن النقد فيها مقصور على أربعة من شعراء الأندلس معاصرين لابن فتوح، وهم: أبو عامر بن شهيد (ت٤٢٦هـ)، وأبو حفص بن برد (٤٤٥هـ)، وأبو بكر يحيى بن إبراهيم الطبني (٤٦١هـ)، وأبو الوليد ابن زيدون (ت٤٦٣هـ).

وهكذا فإن حديث ابن فتوح قد اتخذ شكل مقامة نقدية، ألقى فيها أحكاماً نقدية عامة على الشعراء الذين ذكرناهم، محاولاً أن يميّز كل واحد منهم عمّن سواه بصفة غالبة عليه. فابن برد أعذبهم لفظاً، وابن شهيد أقواهم استعارات، وأصحهم تشبيهات، وابن زيدون أقدرهم على نظم الأخبار، وأبو بكر الطبني أكلفهم بالبديع وفنونه.

وأهمية هذه المقامة تظهر في أننا نجد فيها اهتماماً بأدباء الأندلس، فقد تصدّى ابن فتّوح -كما قدّمنا- لأربعة من أدباء عصره وبلده، في حين نجد السّرقسطي في «مقامة الشعراء» لا يجري للأندلسيين ذكراً.(١)

ولابن فتوح أيضاً قطعة أخرى أوردها ابن بسام في «الذخيرة»، وقدّم لها كسابقتها بقوله: «وحدّث ابن فتوح هذا عن نفسه قال»(٢)، وتدور كسابقتها في المسجد، حيث كان

(١) انظر المقامات اللزومية: ص٣٥٣-٣٨٤.

(٢) الذخيرة: ق١م٢ ص٧٨٨.

ابن فتوح بصحبة غلام معذّر كان قديم الامتزاج به، فلقيه بعض إخوانه، وعاتبه على المضيّ في حبه، فما كان منه إلاّ أن دافع عن موقفه بقطعة بليغة من النثر، وأبيات من الشعر، ويبدو الطابع المقامي في هذه القطعة القصيرة من حيث ظهور الشخصيات، ووجود الحوار، والمراوحة بين الشعر والنثر، ولذلك رأينا أن نوردها هنا:

«وحدّث ابن فتوح هذا عن نفسه قال: ماشيتُ غلاماً معذّراً كنتُ قديم الامتزاج به، والكلف بقربه، فلقيني بعض إخواني معه في جوف المسجد الجامع فَسلَّم عليّ مضمراً خبراً ثم قال لي: مثالك في عصرنا مثالُ ذي الرُّمة في وقته، تقنعك الأطلال، وما شخص من آثار الديار، ففهمت عنه، وأنشدته قبل أن يستتم كلامه:

ما ربعُ ميّة معموراً يطيف به … غيلانُ أبهى ربأً من ربعها الخرب

فقال: إلى متى يدوم غرامُك بهذا الغلام، وهذه بنود عزله قد رُفعت، وعُقدات خلعه قد عُقدت ؟ فقلتُ: لا والله ما أرى بنود عزله، ولا عقدات خلعه، وإنما أرى لامات مِسكٍ في صحيفة كافور، وسُطور دجى في مهارق نور، فولّى عَنّي، وكتبت إليه:

أيّها العاند المفنّدُ جهلا … في هوى من قِوام نفسي هواهُ
أنت تلحى على قضيب لجينٍ … عطفتني عن غَيره عطفاه
كان صبحاً لعاشقيه فلمّا … بقلت صفحتاه أُغشي سناه
مثل ضوء الهلال يزدادُ ضعفاً … نوره إن دجتْ لهُ أُفقاه»[1]

---

(١) الذخيرة: ق١م٢ ص ٧٧٨-٧٧٩ .

المقامة النخلية (١)

لأبي حفص بن بُرد

جعلك الله من المؤثرين على أنفسهم والموقِّين شُحّها، والمنجزين لمواعيدهم والمعْطَين صِدْقَها، فقد علمتَ ما سلف لنا في العام الفارط من عتابك، ولبسنا شكته من ملامك، لمّا كَتمْتَنا صرام النّخلة التي هي بأرضنا إحدى الغرائب، وفريدة العجائب، هرباً من أن نلزمك الإسهام في رُطَبِها، وحرصاً على تمام لذة الاستبداد بها، وقلت- وقد سألناك من جناها قليلا، ورجونا أن تنيلنا منها ولو فتيلاً-: لو علمتُ أنّ لكم به هذا الكلف، وإليه هذا النزاع، لأَمسكْتُه عليكم، وجعلت حكم جداده إليكم، ولكنها إن شاء الله في العام الآنف غَلّتكُم، عتاد نفيسٌ لكم، وذُخْرٌ حبيس عليكم.

فَأَمّا نحن فرسمنا تلك العدة في سويداوات قلوبنا، ووكلنا بها حفظة خواطرنا، وَأَمّا أنتَ فهِلت عليها التراب، وأسلَمْتَها إلى يد البلى. حتى إذا أخذت الأرض زخرفها، وازّينّتْ زينتها، وبلغت غايتها، وأشبع القمر صبغها، وأحكمت الشمسُ نضجها، دببتَ إليها الضراء بصرامك، ومشيت نحوها الجهر بجرامك، على حين نام السّمّار، وغفلت الجارة والجار، وأُبْتَ بها إيابة الأسد بفريسته، وتحكّمت فيها تحكّمه في عنيزته.

ولما رأينا على ذلك طلائع الرُّطَب في الأسواق، والجنيَّ من بكر النخيل على الأطباق، هزّت جوانحنا ذِكْرُ العدّة، وقلقل أحشاءنا حذر الخيبة، فركضنا الهماليج إلى حرمتك، وجعلنا نشتدُّ طمعاً في لقائك، فلما غشينا الجهة تَلَقّانا فتى وضّاح الجبين، آخذٌ بالعيون، في وجهه للأدب شاهد، وبين عينيه من الظرف رائد، فقال: بأبي أنتم، وعين الله تكلؤكم حيث كنتم، أراكم ناشدي ضالة أو مستدركي سَيْبٍ فائت، فاسألوا فربّما

(١) انظر نصّ المقامة في الذخيرة: ق١ م١ ص٥٢٨-٥٣١.

سقطتم على الخبير، وشاوروا فالمشورة تفتح غلق الأمور. فقلنا له: بآبائنا أنت، إنا لنرجو بيُمْن لقياك ظفراً بالمطلب، ونُجْحاً في المذهب. جارُك وصديقنا الذي نحن تلقاء منزله، وفي حاشية محله، وَعَدنا منذ عام بأن يُسْهِم لنا في جنى نخلة لديه، لم تتفقأ تربة هَجَرَ عن مثلها، ولا أَوَتْ قماريُّ بُصرى على شكلها، فجئناه لنأكل منها وتطمئنّ قلوبنا، ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين.

قال الفتى: يالإخواني في الخيبة، وشركائي في فوت الأمل؛ أنا ساكن المحلة التي منبت هذه النخلة في ساحتها، وقد صرمها منذ خمسة عشر يوماً؛ ولقد كنت قبل صرامها أمنحها نظر العاشق إلى المعشوق، فإذا رأت الطير وهي على سعفها ما أُواصل إليها من لحظاتي، وأتابع عليها من زفراتي، رمَتْني بأفرادٍ من رُطبها أحلى من شفاه العذارى. وأنا اليوم أبكي منها رَبْعاً خالياً، وبعد ثالثة أغدو عنها جالياً.

فما هذا الخيس أبا عبد الله بعهدك، وما هذه الزُّبْدَةُ في وجه عدوّك، وما هذا الاستئثار على إخوانك المؤثرين لك ؟ إن كنت لم تحضرنا يوم صرامها لنحتكم على قولك فيها، ونأخذ معك بأجزل الأقسام منها، فالعذر لا يضيق عنك، واللوم لا ينبسط إليك. هات مما ذخرته لساعات تفكّهك، أَسْهِمْ لنا فيما اعتدته ليوم نوروزك. لم يكن جناها بنزر فيتَقسّمه الإهداء، ولا بدونٍ فتطيب عنه النفس. ولا تخش منا ما أفسد به ابنُ الزبير عماله حين قال لهم: " أكلتم تمري وعصيتم أمري "، إذا نحن أكلنا منها فمُرنا نناصب عنك أعداءك برّاً وبحراً، ولا نعص لك أمراً.

جعلنا الله فداك: نحن عصابة نتحلى بأدب، وننتمي إلى حفظ غريب وصياغة قريض. وربما لم تصدق في هذا الطريق مضاءنا، ولا قبلت يقيناً غناءنا ؛ فأردنا أن نصف لك شيئاً من كلام العرب في النّخل وبدء نباته، والتمر وتلوّن حالاته، فإن سَرّك ما جئْنا به، وراقَك ما أفضنا فيه، جعلت جوائزنا تمراً، وكان ذلك لنا أجراً.

نعم، تقول العرب لصغار النخل: الجَثيث، والودي، والهراء، والفسيل، والأَشاء، والكافور، والضَّمْدُ، والإغريض. فإذا انعقد سمّته السيَّاب، فإذا اخضَرّ قبل أن يشتد سَمّتْه الجَدال، فإذا عظم فهو البُسر، فإذا صارت فيه طرائق فهو المُخَطّم، فإذا تغيرت البُسْرة إلى الحمرة فهي شُقْحَة، فإذا ظهرت الحمرة فهي الزّهو وقد أزهى، فإذا بدت فيه نقطة من الإرطاب قيل قد وكّت، هي بسرة مُوَكَّتة، فإذا أدرك حَمْلُ النخلة فهو الإناض، فإذا أتاها التوكيت من قبل ذنبها فهي مَذنِّبَة، فإذا بلغ الإرطاب نصفها فهو المجزِّع و المجزَّع، لغتان، فإذا بلغ ثلثيها فهي حُلقانة، فإذا جرى الإرطاب فيها كلها فهي مُنْسَبِتَة.

فيا أبا عبد الله أَمجَدْنا رُطَباً، نُمْجِدْك خُطَباً. هذا قليل من كثير، وثِماد من بحور، وليس يطيب وصفنا نظماً ونثراً لمناقب هذه النخلة إلاّ بعد اختيارنا منها، وفوز قداحنا بها. إذا أنت فَعَلْتَ فكلّفنا فيها خاصة ما تكلّفه عمرو بن بحر الجاحظ في نخل الدنيا عامة نأتك به، ونربي فيه عليه. ولعلك تحب أن تسمع شيئاً من منظوم الكلام في النخل يذيب من جمودك، ويولد عقيم جودك، فالمنظوم خَدّاع بحسنه، مُستميلٌ بِطَنّه. أنشد الأصمعي لأبي غفار الرياحي:

غَدَتْ سلمى تعاتبني وقالت ... رأيتك لا تريغُ لنا معاشا
فقلتُ لها أما تكفيكِ دُهْمٌ ... إذا أمحلتِ كُنْ لنا رياشا
بَوارِكُ ما يبالين اللّيالي ... ضَرَبْن لها وللأيام جاشا
إذا ما القارياتُ طُلِبْنَ مَدّتْ ... بأسبابٍ ننالُ بها انتعاشا
ترى أمطاءها بالبُسْرِ هُدْلاً ... من الألوان ترتعشُ ارتعاشا

هذا وإنا لنخشى أنك أزْيَدُ تمادياً في أمرك، وأعظَمُ شُحّاً على تمرك، إراغة المعاش ومعالجة الاقتيات. فقال لها: في النخل التي رزقنا الله كَفافٌ من العيش كاف، وبُلْغة من القوت مقنعة. ثم أعظمَ من أمرها بدنوّ طعامها في الجدوب، وصبرها لتصرف الليالي والأيام. وما ترى أرسل هذه الأبيات على ألسنتنا إلا شيطانٌ قد شكا إليك عسرة فأنلته بسرة، فهو يحب إبقاءنا عندك، ودفع متطفلي الإخوان عنك ؛ فلعن الله الشيطان وأعاذنا منه، وصلى الله على محمد ولا صدنا عنه، فإنه يقول: «نعمت العَمّةُ لكم النخلة»، والخطاب لجميع المسلمين. وأنت قد استوليت على عمّة من عَمّاتهم، تستبد بخيرها دونهم، وتُمسك معروفها عنهم. ونحن رجالٌ من بني أخيها أتينا نعتفيها، فإن أنت سويتنا مع نفسك فيما تدرُّ به عليك، وتملأ منه يديك، وإلا نافَرْناك إلى السلطان، وألَّبْنا عليك أبناء الزمان. ونستغفر الله ونسأله أن يبدلنا من بخلك نوالاً، وبمطلك إعجالاً.

تحليل المقامة النخلية

وهذه الرقعة لأبي حفص بن برد الأصغر، لم يسمّها ابن بسام مقامة، بل إنها لم ترد أصلاً في كتاب «الذخيرة» وإنما أُدخِلت على النص -كما قال محقق الكتاب-[1] مع مجموع من الرقاع، عدّها من أضافها إلى نص كتاب «الذخيرة» من بدائعه العقم، المستنزلة للعُصْم، وارتأى أن أبا الحسن لم يتجاف عنها غاضاً منها، لكن قدر أعجله، أو زمن لم يسمح له...»[2].

ونحن نوافق أحد الباحثين حيث رأى أن هذه القطعة أكمل من الناحية الفنية، وأجمع لمقومات الفن المقامي من كثير من النصوص التي أوردها ابن بسام تحت عنوان

(١) الذخيرة ق١ م١، ص٥٢٣.

(٢) المصدر نفسه: المكان نفسه.

«المقامة»[١]، وسنتحدث عن خصائصها الفنية التي جعلتنا نضمها إلى المقامات الأندلسية في موضع آخر من هذا البحث.

تبدأ المقامة بدعاء موجّه إلى مخاطب لا نعرفه، لأن صدر الرقعة محذوف، يقول فيه: «جعلك الله من المؤثرين على أنفسهم، والموقين شُحها، والمنجزين لمواعيدهم، والمعطين صدقها». وهاتان العبارتان في الدعاء تتضمنان معنى الشح، ومعنى الوعد. وبهما يضعنا الكاتب في سياق القصة التي يبدأ بروايتها. وهي – بإيجاز – كما يلي:

جماعة من الناس تلوم أحداً لأنه حين جنى تمر نخلته – وهي نادرة عجيبة في البلاد – كتم ذلك الأمر حتى لا يطمع في نيل نصيب منه طامع. فيعتذر صاحب النخل بأنه لم يكن يعلم بكلفهم هذا بتمرها. وأنه في العام القادم سيبذل لهم قسماً منه. وتحل السنة المضروبة موعداً، فتأتي الجماعة مستنجزة للوعد، ولكنهم يلقون فتى يبلغهم أن من يقصدونه قد صرم نخلته منذ خمسة عشر يوماً. وهذا الفتى نفسه كان من المغرمين بالتمر، ولم يكن يحظى منه وهو الذي يراقبه صباح مساء، ويتطلع بشوق إلى النخلة في كل وقت إلاّ بما تشفق به عليه العصافير، حين تساقط عليه تلك الرطب الجنية.

ويقبل الجماعة على أبي عبد الله وهو صاحب النخلة يلومونه على عدم الوفاء بوعده، وعلى الشح المتمكن من نفسه، والاستئثار الراسخ فيها. ثم يناشدونه أن يجعل لهم نصيباً مما استبقاه لنفسه، مقابل إمتاعه بما لديهم من غريب اللغة، وأبيات الشعر، ويقترحون عليه أن يسمعوه شيئاً من كلام العرب في التمر والنخل، على أن يجعل جوائزهم من التمر إذا راق له كلامهم وأعجبه إنشادهم...

---

(١) د. علي بن محمد في كتابه: النثر الأدبي الأندلسي في القرن الخامس، ص٥٨٠.

ويبدأ الكاتب، من هنا، في عرض كلام العرب عن النخل والتمر: فهي تُسمي صغار النخل «الجثيث، والوديّ، والهراء، والفسيل... فإذا انعقد سمّته السيّاب، فإذا اخضَرَّ قبل أن يشتد سمّته الجَدال، فإذا عَظُم فهو البسر... ».

وكأنما هم يعدّون هذا الكلام مجرد إغراء لأبي عبد الله، وطُعْمٍ يستدرجونه به إلى شِباكِهم، وهم يقولون له: «أَمْجِدْنا رُطَباً نُمجِدْك خطَباً»... ويزيدون في تشويقه بقولهم: «ولعلك تحب أن تسمع شيئاً من منظوم الكلام في النخل يذيب من جمودك، ويُولِّدُ عُقْمَ جودِك...».

وربما لم يشاهدوا بوادر الإقبال على كلامهم، والانسياق إلى مخططهم، فلذلك ينتقلون إلى الترهيب بعد الترغيب، ومخاطبته بالتهديد الصريح: إما أن يعطيهم حقهم وإمّا لم يبق لهم إلا أن ينافروه إلى السلطان، ويؤلبوا عليه الناس... وتنتهي المقامة بالاستغفار والدعاء: «نستغفر الله ونسأله أن يبدلنا من بخلك نوالاً، وبمطلك إعجالاً».

هذه هي مقامة أبي حفص وهي عمل رصين، يدل على نضج أدبي، وإحساس بالجمال، أتاحا له أن يتناول غرضاً تعلمياً بحتاً: وهو الحديث عن النخلة، وأوصافها، وبعض ما قيل فيها من أشعار، في إطار خيال بسيط جذّاب.

فصول من مقامة[1]
لعمر بن الشهيد

قال في صدرها: إنّ صناعة الكتابة مِحنةٌ من المحن، ومهنة من المهن، والسعيدُ مَن خَدَمتْ دولة إقباله، والشقيُّ من كانت رأس ماله، والعاقل من إذا أخرجها من مثالبه لم يُدْخلها في مناقبه، لا سيما وقد تناولها يد كثير من السُّوَق، وباعوها بين الخَلَق، فسلبوها تاج بهائها، ورداء كِبريائها، وصيّروها صناعة يكاد الكريم لا يعيرها لحظه، ولا يفرغ في قالبها لفظه، إذ الحظُّ أن يعثُرَ الكرامُ إذا وَلِيَ الأعلاج، وأن تَسْتَنِعْج الآساد إذا استأسدت النِّعاج، غير أنّه من وُسِم بِسمتها، وظهر في وسْمتَها، فغيرُ مجهول مكانُه، ولا مُسلَّمٍ له كتمانُه، وما عسى أن يصنع بذي مكانة وحَسَب، إذا اتفق يومُ سرور وطرب، ورغب رغبةَ كريم، أن يُؤرِّخ له بمنثور ومنظوم؟ أُقْسِمُ لو كان وجه الإنسان في صفاقة نعله، أو وقاحة حافر بغله، لما وَسِعَه غير الإسعاف، على حُكم الإنصاف وإلاّ لزِمهُ اسم التبريد و الجمود. وبهذا السبب دُفعنا إلى النّصب فيما تسمعه، وربما تستبدعه. ولئن مرت بك كلمات مُحاليّات، تنظمها سلوك هَزْلِيات، فإنما هي أوصاف طابقت موصوفاتها، وحُليً على أقدار محلّياتها، والبليغ كالجوهري واجد التعب، في نظم الدر أو المخْشلب، وكالصائغ واجد العناء، في سَبك الصُّفر أو الفضة البيضاء، وكالعقاب واجد الانهواء، على الصقر أو المُكّاء، والعاقل من برز يوم السرور في زيّ الأعياد، ويوم الحزن في ثياب الحداد، وسيان في الفجاجة والبرد، من جدَّ عند الهزل أو هزل عند الجد، ولا أوضح في القياس، من حركات الناس، كحركات الشموس والأقمار، في الفَلَك الدوّار، كلما انتقلتْ في المنازل والبروج، عُدِّلت بالأسطرلاب والزِّيج، ووُقف على حقائقها، بثوانيها

(١) انظر نص المقامة في: الذخيرة ق١ م٢ ص ٦٧٤ – ٦٨٥.

ودقائقها، محصورة بالحدود، في القريب والبعيد، كحركات الفقيه ابن الحديد، فإنّ أيامه على مناكب الأيام أرديةُ شباب، وفي مفارقها تيجان نخوةٍ وإعجاب.

وفي فصل منها: فَدُونَكها عذراء، مُحجّلة غراء، كما رُفع عنها سجفُ الإبداع، وأُبرزت من كِناس الاختراع، تنظر بعين الغزال رُوِّع، وأويس بعدما أطمع. نعم، اتّفَقَ من الربيع وقتُ حلول الشمس في الحَمَل، وقام وزن الزمان واعتدل، وأخذ آذارُ على ما اعتاد، فحلَّى الوهاد والنِّجاد، وخلع على ظهور المروج، ضروب الدبابيج، وأثقل صدورَ الأشجار، بحُلى النُّوّار واطَّبى نفوس الأطيار، بنضارة الثمار، فبعثت أشجانها، تُرَجع ألحانها، فما شئت من رمان تملأ كف العميد، من أمثال النّهود، تحت القلائد والعقود، وتفتق عن أمثال الجمر، إن وُصفت فكاللِّثات الحُمر، أو ارتُشفتْ فكالرُضاب الخَصِر أو الخمر. ولما انتظمت للزمان هذه المحاسن، حنّت نفسُ الفقيه بسيادتها، إلى كَرَم عادتها، من الإحسان إلى الأتباع، والتسلية لنفوس الأُلآفِ والأشياع، فلما صعق[1] الدِّيكُ وصاح، واستغفر كلُّ عبدٍ منيبٍ ربَّه وسبّح، وهمَّ بشن الغارة كمينُ الصبح من المشرق، واهتز الفجر اهتزاز الرُّمح في يمين الأفق، أطلق لسانه الفصيح، بالتهليل والتسبيح، ثم دعا بماء طهور، وأفرغه نوراً على نور، فوضَّأ وجهاً وضّاء، يملأ العيون بهجةً وسناء.

وفي فصل منها: وملنا إلى منزل بَدَوِي، ذي هيئة وزِيّ:

لـه منـزلٌ رَحْـبٌ عـريضٌ مُـزرَّبٌ ... بـأعوادِ بلّـوطٍ وطَـوْجٍ مُفَتَّـلِ[2]
«تـرى بعـر الآرام في عَرَصـاتِهِ ... وقيعانِـهِ كأنَّـهُ حـبُّ فُلفُـلِ»

(١) صعق: أتى بصوت شديد.

(٢) مزرّب: محاط بزرائب. الطّوج: الحلفاء.

فهشَّ وبَشَّ، وكنس منزله ورشّ، وصيّر عياله إلى ناحية، وجمع أطفاله في زاوية، وجعل يدور كالخُذْروف أمام الصفوف، يتلقى الواحد منا بعد الواحد، يأخُذُ بركابه، ويكشر عن نابه، ويتمثل:

أَخْذي كذا بركاب الضَّيف أُنزلُه ... أَلَذُّ عندي من الإسفنج بالعسلِ[1]

أو من رغائف كانون مُلَهْوجَةٍ ... أو رائبٍ بقري جيِّد العَمَلِ

أو من خُوار عُجولٍ في مسارحها ... أو من ركوبِ الحمير الفره في الكفل

ثم مال بنا إلى بيت مكنس، منوَّعٍ مُجَنَّس، قد جلَّله حُصُراً بلدية، وغشاه بُسُطاً بدوية، ومدَّ فيه شرائط وحبالاً، كأنّه يريد أن يخرج خيالاً، وعَلَّق منها غلائل ومُلاءات، وهمايين وسراويلات، وكم شِئت من خِرَقٍ معصفرة، وعصائب مزعفرة، حتى المقنّعة والخمار، والدلال المستعار، وقد اتخذ في الحائط كُوَّةً وثانية، وملأها حقاقاً وآنية، وأودعها من عتادِ العروس فاخره، ومن طيب البادية أَوّله وآخره، مثل حراقة الورد بالبان، وعصارة العصفر بالزعفران، وشيء من الإثْمِد والإسفيذاج، ومراود الزجاج، وحبات المصطكي واللبان.، وغبار العفص وقشور الرمان، وكثير من سنون ذلك المكان، فقلتُ: ياصاحب المنزل، هَنِئْت وهَنّيت، لقد أُوتيت وأوتيت، وجعلتُ أرقق عن صبوح[2]، وأقول:

«متى كان الخيامُ بذي طُلوح»[3]

من أين للبداوة، بهذا الرونق والطّلاوة، وكيف حتى أغرتَ على حانوت العطار، ومتى نُقِلَ سوق البزِّ إلى هذه الدار؟ لقد قرَّت بك الأعين، وسُرَّت الأنفس، هذا زي العروس فأين العُرس؟ فضحك البدويُّ ملء فيه، وتوسَّمتُ الازدراء فيه، وأنشد:

---

(١) الإسفنج: عجين لدن راب بالتخمير، يلقى بالزيت ويفرك بالبيض ثم يحشى بالجوز أو ما أشبه.

(٢) من المثل «أعَنْ صبوح ترقق» يُضرب مثلاً لمن كنى عن شيء، وهو يريد غيره.

(٣) صدر بيت لجرير وعجزه: {سُقيت الغيث أيتها الخيام}.

يـــا أخـــي نحـــن عـــلى آنّـــ ـــــا نَتَـــاجٌ بـــــدويٌّ
ســـادةٌ نـــاسٌ لنـــا في هــــذه الــــدنيا دَوِيُّ
عنــدنا إن جـــاءَ ضـــيفٌ شِــبَعٌ جَـــمٌ ورِيُّ
وسريــــرٌ حــــشوه ريـــ ـــشُ الفـــراريجِ وَطَـــيُّ
وكرامــــــاتٌ كثـــيرا تٌ وهيئـــــاتٌ وزِيُّ

ثم قام من مكانه، ودعا بصبيانه، وأغراهم بديك له هرِم، ليذبحه في طاعة الكرم، فَأَجْرَوه لأمّهم الهاوية، من زاوية إلى زاوية، حتى سقط الديك سقوط طليح،جسماً بلا روح، فأقبلوا إليه، متهافتين عليه، وهو يضطرب اضطراب المخنوق، ويستغيث بالخالق والمخلوق، واتفق لفرط حنقه، ومُؤلم تقلّقه، أن عضَّ على أيديهم عضّة، وانتفض منهم نفضة، وصعد في بعضِ الجوائز[1]، وحمد الله حَمْدَ الفائز، وتمثَّل:

إذا غَرِقـــتَ ببحـــرِ مـــن الــــردَّى فيـــاضِ
فـــلا يَكُـــنْ بهـــلاكِ عليـــكَ ظنُّــك قـــاض
فلـــيسَ في كـــلِّ وقـــتِ ســـيفُ المنيَّـــةِ مـــاض

وحان وقتُ الظَّهيرة، فصفّق بجناحيه ثِنْتَين، وصرخ صرختين، واقتدى به المؤذِّنون، وتجمهر المؤذَنون، حتى إذا قُضيت الصَّلاة استصرخهم فأصرخوه، وتواثبتْ إليه السادةُ والوجوه، فقال لهم الدِّيك: أيها السَّادة الملوك، فيكم الشاب مُتِّع بالشباب، والأشيبُ نوَّر شَيْبُه مع الكواعبِ والأتراب، وقد صَحِبْتُكم مدة، وسبَّحتُ الله تعالى على رؤوسكم مراراً عدَّة، أوقظكم بالأسحار، وأؤذّن بالليل والنهار، وقد أحسنتُ لدجاجكم سفاداً، وربّيْتُ لكم من الفراريج أعداداً، فالآن حين بَلي في خدمتكم تاجي،

(١) الجوائز: جمع جائزة وهي خشبة السّقْف.

أُنعى إلى دجاجي، وتُنحى الشَّفرَةُ على أوداجي؟ وحين أدركني الشَّيَخُ، يُمزَّق لحمي ويُطبخ؟ ياللكرام، من ذُلّ هذا المُقام! وجعلَتْ دموعه تسفَحُ من دمه، والحُزنَ يُطبِقُ على فمه، ثم غُشي عليه، فاجتمعت البداوة من كل ناحية إليه، يضربون وجهه بالماء، ويخلصون له في الدعاء، ثم أفاق من غشيته وأنشد:

عَلامَ يُقتل شيخٌ ... من كلِّ ذنبٍ بريٌّ؟
مُحقّقٌ مُتحرٌّ ... مُوحّدٌ سُنيٌّ
هل نصَّ هذا كتابٌ ... أو قال هذا نَبيٌّ
لا ذَنْبَ لي غير أنّي ... مؤذّن بَدَوِيٌّ

فَرقّتْ له أنفسُ القوم، وأقبلوا على صاحب المنزل باللوم، فقال: ويحكم، إنّ هذا الديك ذو فخذٍ وصُدْرة، وقد أصابتني عليه ضجرة، ولي في ذبحه سِرّ، ولا بُدَّ أن تزيَّنَ به قِدْر، وتُضرمَ تحته النِّيران، ويشبعَ من لحمه الضِّيفان، أما ترونه قُرّةَ العين والقلوب، سَبيكة لُجينٍ مُحْكَمَة التّذهيب؟ وتمثّل:

ومن شيمتي مهما تَزَيَّن منزلي ... بضيفٍ أن اقريه بأحسن ما عندي
لَوَ أنَّ دمي خمرٌ لَروَّيتُه به ... ولو صَلحَتْ كبدي شويت له كبدي
بذلك أوصاني أبي مُذ عَقَلْتُه ... وقد كان أوصاه بذا قبلَه جدّي

فقال الدِّيك: لا أكذبُ، الحقُّ طريقٌ مستبين، واتّباعُه مروءةٌ ودين، أما إنّه لعلى خلق عظيم، كريم ابن كريم، غير أنه لَؤُمَ في أمري وَأَفْرَطَ، وغلَط ما شاء أن يغلط، أما علم أنَّ هَرمات الديوك، ليستْ من مطاعم الملوك، وأنّها بالأدوية، أشبَهُ منها بالأغذية؟ وأُقسمُ لو اتّخذَ بُرْمَةً من فؤادِ مهجور، ووضعني من مِثْله على تَنوُّر، لا قضى بي حاجة، ولا عَدِم مني نُيوءاً وفجاجة، وإنَّ له في بَنيّ ما لا يجده فيَّ، من طيب المَشَمِّ . ولذة المَطعَم،

والتّوليد لأحمر ما يكون من الدَّم. وأنّى كالفرُّوج اسفيدِباجا[1]، لمن أراد أن يَعدِلَ مزاجا؟ فزكّى قَولَه، كُلُّ مَنْ حولَهَ، لم يألوه تعظيماً، واتخذوه من ذلك اليوم حكيماً. وصرفَ البدويُّ من ألطافه، ما أحسنَ به قِرىَ أضيافه، وخَتَمَ نوبة بِرّه، بالرغبة في بَسْطِ عُذْرِه، فسمعنا منه ، ورحلنا سَحراً عنه.

وفي فصل منها: ولم تزل الجيادُ تمعَجُ بكُماتها، والشمس تنتقل في درجاتها، حتى أشرفنا على عين كالدّينار، كأنما هُندست بالبرُكار، ذات ماء رَيّان من الشّنَب والخَصر، وحصباءَ كالأسنان ذوات الأشر، وقد حفَّ بها النباتُ حفيفَ الشارب بفم الأمرَد، وتزيَّنَتْ بخضرةٍ كالمرآة الصقيلة طُوِّقتَ بالزَّبرَجد.

ومنها: فأصغْيتُ فإذا بصوت ناقوس، في دير قِسّيس، وقريةُ آنة، كلّها حانة، دار البطاريق، وملعب الكأس والإبريق، سائمتُها الخنازير، وحياضها المعاصير، ومياهها الأنبذةُ والخُمور، وشكلُها مُثلّثٌ مسطوح، هَنْدَسَتْه حواريُّو المسيح، نباتُها غصون من قدود، تهتزُّ في أوراقٍ من برود، وتثمر رُمّاناً من نهود، وتفاحاً من خدود، وعقاربَ من أصداغ، وأفاعي من أَسْوِرةَ وعقود، وفيها مدام من رُضاب، وسُقاةٌ من كواعبَ أتراب، وغَيَدٌ لمهوى قُرْط، وارتجاجٌ لكثيبٍ في مِرْط، وَجوَلان لنطاق، وغَصَصٌ لخلخال في ساق، وخَنَث في ألفاظ، ومواعيدُ بألحاظ، وقلوب تكلَفُ وتُشْغَف، ونفوسٌ تنشأ وأخرى تَتْلف. فلما أكثر محدّثنا بحضرة الفقيه، من هذا التشبيه، ومن هذه المحاسن، المُحرِّكات لكثير من السواكن، قَطَّبنا له وجوهَ الاستكراه، وعضضنا له على الشفاه، فبينا نحن كذلك نُكثر لغطاً، ونرى الحلولَ بالمسيحيين غلطاً، إذ نظرنا إلى اطِّراد صفوف، من أعطاف خَنِثَة وخصور هيف، وشموسٍ وأقمار، على أفلاك جيوب وأزرار، لا سيوف إلاّ

(١) الاسفيدباج: نوع من الطعام، قطع من لحم الضأن تقطع قطعاً صغيرة، وتخلط ببعض التوابل واللوز المقشر، وتنضج على نار لينة.

من مُقَل، ولا دَرَقَ إلاَّ من خَجَل، ولا عارضَ إلاَّ من خَلوق، ولا صناعة غير تَخليق، ولا أسم غير عاشق ومعشوق، فَتشَفَّعَ القِسّيسُ بحسن خدودهم، وأقسم بنعمة قدودهم، إلاَّ أجزلتم المنّة، وَثَنَيْتُم الأعِنّة. تعريجاً إلينا، وتحكُّماً في المال والولد علينا، فكرمت الشفاعة، وقلنا السمع والطاعة، وجُلنا جولان الزنانير، على هِيف الخصور، نغصُّ بما بقي من الطريق، غصَّ الدماليج بخدال السوق، حتى وافينا الباب، وأنخنا الركاب، وتولّى تَولّي الحُرِّ، ضروباً من البِر، غير أنه قنَّع بالدن وجه مدامه، تقنُّع الورد بأكمامه، وقضانا من الإكرام نافلة وفرضاً، وشددنا الجياد عنه ركضاً، وسرنا حتى رُفع لنا في طريقنا جُدُر، فإذا كنيسة عارية الأطلال من الجمال، إلاّ تعلة المتوسِّم، للتخيُّل والتوهُّم، كالثوب الكريم أَخْلَقَه ابتذاله، أو كخدّ الأمرد تغشّاه سِبالُه، فهيّج ذِكراً، وأجدَّ فِكراً، فأنشدتُ:

وكنيسةٍ أخذ البلى منها كما ... أبصرت فيئاً في مُغارٍ يُنْهَبُ
نَمّتْ علينا في السَّفارة نفحةٌ ... من ماء كَرْمٍ كان فيها يُسكبُ
أهوى إليها بالمطيِّ تخيلٌ ... مِنّا بريءٌ والأماني تكذبُ
فتواقف الرَّكْبان في عَرصاتها ... كلٌ بها متحيِّزٌ مُتَعجّبُ
أنّى تأتت لابن آدم قدرةٌ ... حتى استقام وتمَّ ذاك المنصب
ومن أَيِّ أرضٍ كان رائع مَرمرٍ ... كسواعد الغزلان فيها يُجلب
كم صاد إبليس بها من تائب ... بحبائل ألقى بهنَّ تَرَهُّب
وكم ابتنى القِسّيسُ فيها منبراً ... من جؤذرٍ وبدا عليه يخطبُ
سقياً لها من دار غَيٍّ لم يزل ... فيها كريمٌ بالملاح مُعذّب
كلاّ وما زالت نجومُ مُدامة ... فيها بأفواه النَّدامى تغرُبُ
بئس المُصلى إنْ أردتَ تَعبداً ... فيه ولكن كان نِعمَ المَشربِ

ثم أَغْذَذْنا سيراً، وكأننا نُنفّرُ طيراً، حتى نظرنا من السائمة تسرح في مروجها، كالعذراى تميس في دبابيجها، كلأٌ نضير، وماء نمير، وما زلتُ أُروى هناك بالرائب والمَيس[١]، حتى كاد كياني ينقلب إلى كيان التيس، ثم رحلنا وتذَّكْرنا الطراد، فمشت الجياد، وتواثبت آساد، واستُعدَّ ببازٍ وكلاب، فإذا بحر من برِكٍ، يخرقه سفين من بُرَك[٢]، وفي السيور صقور إذا نظرت، وليوثٌ إذا جُرِدّت، تنظر من أمثال الدنانير، وتتخطّف بأشباه المرهفة الذكور، فأرسلناها إرسال سهام الأحداق، إلى قلوب العشاق، فلم نَرَ إلاّ ريشاً محلوجاً، ومِنسراً يُحْسِنُ توديجاً[٣]، ووردنا ماءَ في رقَّة النسيم، ولذاذة بنت الكروم، فشربنا وطعمنا، وقَرينا سباع الفلاة، ممّا فضل عن الكُماة، ونقشتُ على مِرْمرةٍ بيضاء، ساعة وردنا ذلك الماء:

يــاربَّ مــاءٍ عــازب مَجّــه — مُــزنٌ هــزيمُ الــودق في سَبْسبِ
زَبَرْجَــدٌ جَلَّلــه مُكثُــهُ — غــشاءَ ديبــاج مــن الطُحلُــبِ
إن كــان فــيها قــد مــضى مَــوْرِداً — فللعطــاش الأُســد والأذؤُبِ
باكرتُــهُ مــع كُــلِّ ذي هِمَّــةٍ — لا يرتــضي الأفــلاكَ عــن مركــبِ
ولَغَــط الطّــيرِ بأرجائــه — كلَغَــط الــصبيّة في المكتــبِ
فــانقضَّ مــن أيماننــا كوكــبٌ — ذو نــاظرٍ أنْــوَرُ مــن كوكــب
مُكَحّــل الآمــاقِ ذو منــسرِ — يــسترزق الــرَّحمن مــن مخلــب
فاستــشعر الطــير هروبــاً وهــل — عــن نــازل المقــدور مــن مَهــربِ
فــصاد مــا أوســع صَــحْبي قِــرىً — وفــاض في الأبعَــدِ والأقــربِ
صــيدٌ لعمــري لم يعبــهُ ســوى — أنْ لم يكــن نُقْــلاً عــلى مــشرَب

(١) الميس أو الميص: مصالة اللبن.

(٢) البرك:: جمع بركة، طائر مائي صغير أبيض.

(٣) التوديج: الفصد.

ثم لم نزل نسري سُرى النجوم في الدياجي، إذ تَلّقانا شاب كما ذُهِّبِ عقيق خدَّيـه، ونمَّ شاربه بالتذكير عليه، متقلّد حسامٍ كأنما طُبع من لَحْظِهِ لا من لَفْظِهِ، على جواد ظمآن الأسافل كَخَصْرَيه، ريّان الأعالي كردفيه ، تستعيذُ عيون البررة من النظر إليه، وتـزدحمُ أطماع الفجرة حواليه:

ذو مقلـــة شـــهلاء روميَّـــة وذو لـــسان عـــربيٍّ مُبـــينْ

قلـــتُ وقـــد عِيـــبَ بتثليثـــه مقـــالَ ذي رأيٍ وعقـــل رصـــين

طَلعتُـــه الـــدنيا ويـــا قلّـــما يُجمـــعُ للإنـــسان دنيـــاً وديـــن

فلما بلغنا، قَبَّلَ عُرْفَ جواده، وعبراته تنسكب على نجاده. قلنا: مالك لا أبالـك؟ فقال: مُنفِلتٌ من السجن، وآبقٌ من أهل الحـصن، وعائـذٌ مـن ظلـمات الغوايـة، بنـور الهداية، ومن ذُلِّ عبادة الأوثان، إلى عزّ عبادة الرَّحمن، ولي خبرٌ أريـد أن أقُـصَّه، ويمـتَنُّ الفقيه وفَّقه الله أن يسمع نصّه، فخرج إليه الإذن، وقيل لـه اذنُ، فقـضى فـرض التحيـة ونافلتها، ثم قال: أيها الفقيه، للأشياء غايات تنتهي إليهـا، ومقـادير تجـري عليهـا، أمـا الخلاّق العليم، والفاطر الحكيم، الذي أسـعد قومـاً بالهِدايـة، وأثـابهم عليهـا، وأشـقى آخرين بالضلالة وعذَّبهم بها، لقد أنحلَتْني عبادة الطواغيت فعبدتُ الـصليب وقرعـت الناقوس، وفعلتُ كل ما قرّت به عينُ إبليس، قَدَرٌ لم يكن ليُخطئني ولا يتخطّاني، إلى أن استنقذني ربّي وهداني، وأنا أشهدُ أيها الأشهاد أن الله إله واحدٌ، ليس له ولـدٌ ولا والـد، كان ولم تكـن الأكـوان، لا أرضٌ ولا مـاءٌ ولا دُخـان، مخـترعُ الكـل ومنـشئُهُ، ومعيـده ومُبدئه، له المثلُ الأعلى، والأسماء الحَسنى.

تحليل لمقامة

تدور هذه المقامة حول وصف رحلة قام بها ابن الشهيد وبعض إخوانه في رفقة الفقيه ابن الحديد، وهذه المقامة لم تصل إلينا كاملة، فقد اكتفى ابن بسّام، كما ذكر، ببعض فصولها، وحذف بعضها الآخر لطولها، وقد جاءت بعد الحذف في إحدى عشرة صفحة.

تحدّث ابن الشهيد في صدر مقامته عن صنعة الكتابة الديوانية، وكيف أن تَقَلُّب الأيام جعل كثيراً من السّوقة الضعاف يتبؤون هذا المنصب، فزال عن الصنعة رونقها. وعرض في فقرة أخرى إلى ما تتطلبه صنعة الكتابة، فيشبه البليغ بالجوهري والصائغ، ويصف ما يعانيه الكاتب البليغ من الجهد في إخراج عمل فني جيد، فيقول: «والبليغ كالجوهري واجد التعب، في نظم الدر أو المَخْشلب، وكالصائغ واجد العناء، في سَبكِ الصُّفر أو الفضة البيضاء، وكالعقاب واجد الانهواء، على الصقر أو المُكَّاء، والعاقل من بَرَزَ يومَ السرور في زي الأعياد، ويوم الحزن في ثياب الحداد، وسيان في الفجاجة والبرد، من جدَّ عند الهزل أو هَزَلَ عند الجد».

وخرج أبو حفص إلى غرضه الأصلي من المقامة، وهو وصف الرحلة فينبئنا أنها كانت في زمن الربيع الذي فيه « قام وزن الزمان واعتدل، وأخذ آذارُ على ما اعتاد، فحلَّى الوهاد والنِّجاد، وخلع على ظهور المروج، ضروب الدبابيج، وأثقل صدورَ الأشجار، بحُلى النوَّار واطَّبى نفوس الأطيار، بنضارة الثمار، فبعثت أشجانها، ترّجع ألحانها، فما شئت من رمان تملأ كف العميد، من أمثال النّهود، تحت القلائد والعقود، وتفتق عن أمثال الجمر، إن وُصفت فكاللِّثات الحُمر، أو ارتشفت فكالرُضاب الخصر أو الخمر».

وتبدأ الرحلة في وقت الفجر، وفي المرحلة الأولى منها طالعهم «منزل بدوي، ذي هيئة وزي، فهشَّ وبشَ، وكنس منزله ورش، وصيّر عياله إلى ناحية، وجمع أطفاله في زاوية». ثم يصف المنزل على بساطة ما فيه، وصفاً يُشْعِر بأنه قَصْر، فيقول: «ثم مال بنا

إلى بيت مكنس، منوّعٍ مُجنَّس، قد جلَّله حصراً بلدية، وغَشاه بُسطاً بدوية، ومدَّ فيه شرائط وحبالاً، كأنّه يريد أن يخرج خيالاً، وعَلّق منها غلائل ومُلاءات، وهمايين وسراويلات، وكم شئت من خرقٍ معصفرة، وعصائب مزعفرة، حتى المقنّعة والخمار، والدلال المستعار، وقد اتخذ في الحائط كُوَّةً وثانية، وملأها حقاقاً وآنية، وأودعها من عَتادِ العروس فاخره، ومن طيب البادية أوّله وآخره». ثم يذكر أن البدوي دعا صبيانه ليمسكوا بديك هرم، فيستغيث بهم الديك ويتشفع بهرمه، وأنه أصبح – لضعفه ونحوله – أشبه بالأدوية منه بالأغذية، فيرقّون له، ثم قام من مكانه، ودعا بصبيانه، وأغراهم بديك له هرِم، ليذبحه في طاعة الكرم. فأجروه لأمهم الهاوية، من زاوية إلى زاوية، حتى سقط الديك سقوط طَليح، جسماً بلا روح، فأقبلوا إليه متهافتين عليه، وهو يضطرب اضطراب المخنوق، ويستغيث بالخالق والمخلوق. فقال لهم الديك: أيها السادة الملوك، فيكُم الشاب مُتّع بالشباب،ولأشيبُ نوّر شيبه مع الكواعب والأتراب، وقد صَحِبتكم مدة، وسبَّحتُ الله تعالى على رؤوسكم مراراً عدَّة، أوقظكم بالأسحار، وأُؤذّن بالليل والنهار، وقد أحسنتُ لدجاجكم سفاداً، وربّيْتُ لكم من الفراريج أعداداً، فالآن حين بلي في خدمتكم تاجي، أُنعى إلى دجاجي، وتُنحى الشفرةُ على أوداجي؟ وحين أدركني الشيخ، يُمزّق لحمي ويُطبخ؟ ياللكرام، من ذُلّ هذا المقام! وجعلتْ دموعه تسفحُ من دمه، والحُزنُ يُطبقُ على فمه، ثم غُشي عليه». وبعد هذا الحوار الطويل يقدّم البدوي لهم عذره، فيرحلون عنه وقت السحر.

وينزل أبو حفص مع صحبه قرية مسيحية، فيأخذ في وصفها بقوله: «فأصغيتُ فإذا بصوت ناقوس، في دير قسيس، وقرية آنة، كلها حانة، دار البطاريق، وملعب الكأس والإبريق، سائمتُها الخنازير، وحياضها المعاصير، ومياهها الأنبذة والخمور، وشكلُها مثلث مسطوح، هندسته حواريُّو المسيح، نباتها غصون من قدود، تهتزُّ في

أوراق من برود، وتثمر رماناً من نهود، وتفاحاً من خدود، وعقارب من أصداغ، وأفاعي من أسورة وعقود، وفيها مدام من رضاب، وسُقاةٌ من كواعب أتراب». فنزلوا في القرية وشربوا من الدّنان ما أسكرهم، ثم شدّوا الجياد فمرّوا بكنيسة متهدمة، فيبكي ابن الشهيد على أطلالها، وينشد أبياتاً من الشعر. ويفضي مع صحبه إلى مروج بها قطعان من السائمة، ويصيدون كثيراً من طير البرك، وينقش على صخرة بيضاء مقطوعة شعرية، يصوّر فيها البركة وماءها، وما صادوه من طيورها.

ويستأنفون السير ليلاً، فيلقاهم شاب فارس ممتطياً جواداً، ومتقلداً سيفاً، وهو من أهل حصن النصارى، فأعلن إليهم أنه عَبَد الصليب، وقرع الناقوس، إلى أن أسعده الله بهداية الإسلام، ويشهد أن الله إله واحد، ليس له ولد ولا والد، « ثم لم نزل نسري سُرى النجوم في الدياجي، إذ تلقانا شاب كما ذُهِّب عقيق خدَّيه، ونَمَّ شاربه بالتذكير عليه، متقلّد حسام كأنما طُبع من لحظه لا من لفظه، على جواد ظمآن الأسافل كخصريه، ريّان الأعالي كردفيّه، تستعيذُ عيون البررة من النظر إليه، وتزدحمُ أطماع الفجرة حواليه». وبذلك تنتهي المقامة.

فصول من مقامة (١)
لأبي محمد بن مالك القرطبي
في مدح المعتصم بن صُمادح

يقول في فصل منها: إن تَطَلَّع -لا زال طالعاً نجمُ سعوده- إلى نبأ من أنباء عبيده، فإنّي أُنبئُه، ولا أنبئُ إلا حقّا، وأُخْبِرُه، ولا أخْبرُ إلاّ صِدْقاً، أمّا الأفئِدةُ من بعده فمفؤودة، وأمّا الأكباد لبُعدِه فمكبودة، والدَّهرُ من بعده ليلةٌ ليلاء، والنّاسُ جِبلّة دهماء.

وفي فصل: بُشْرى لنا ولدولته الغرّاء، وهنيئاً لنا ولحضرتهِ الزَّهراء، فتحٌ تفتحتْ له أزاهيرُ النّجاح، وبِشْرٌ تباشَرتْ به تباشيرُ الفلاح، ورواءٌ أشرقَ منه جبينُ الصّباح، وخَبَرٌ تضوَّعتْ به نوائجُ الرياح(٢)، يومٌ هزَّ له الزمانُ ثِنْيَيْ عِطْفِه، وشَمَخَ عِزَّةً بأنفه، فالآن حين انصدع جَوْنُ الهزيع، عن جَوْن الصَّديع(٣)، فوجْهُ الزّمان ضحيانُ مُشْرِق، وعُودُ الدّهرِ فنيانُ مورق، والعيشُ غضَّةٌ مكاسِرُه، عذبَةٌ مواردُه ومصادره، طاب كما لذَّت لشاربها الشّمولُ، وتضوّعَ كما خطرتْ على الرَّوضِ القَبول.

وفي فصل: فللّهِ يومُنا بالأمسِ، ما أجلَبه لألطافِ الأُنس، حينَ طَلع علينا مَنْ كان طلوعه أَلَذَّ إلى الأعْيُنِ من وسَنِها، وأوقَعَ في القلوبِ من سكنها، طلع طلوع الصباح المتهلّل، وجاءَ مجيءَ العارض المُسبل، دَلَفْنا إليه كالقَطا الأَسراب، فبَهَرنا الأمرُ العُجاب، وكادت الأفئدةُ ممّا وجَفتْ، والألبابُ ممّا رَجَفتْ، ألا يرجع نافرُها، ولا يقع طائرُها.

---

(١) وردت هذه الفصول من المقامة في الذخيرة: ق١ م٢ ص٧٤١-٧٥٢.

(٢) النوائج: الرياح الشديدة المرور والهبوب.

(٣) انصدع جون الهزيع عن جون الصديع: انشق سواد الليل عن بياض الصبح، والصديع: انصداع الصبح.

وفي فصل: لا تسمعُ إلاَ هَمهمةً وصهيلاً، وقعقعةً وصليلا، فخلتُ الأرضَ تميلُ مميلاً، والجبالَ تكونُ كثيباً مهيلاً، لا تعلمُ لأصوات تلك الغماغم، وَضَوْضاة تلك الهماهِم، مِن وَهْواهِ صَهيل، ودَرْدابِ طُبول، أَزئيرُ ليوثٍ بآجام، أم قعقعةُ رعدٍ في ازدحام غمام؟ فتزاحم في الأفق الهميمُ والهديد[١]، وتلاطَمَ في الجوّ النئيمُ والوئيد[٢]، فكادت الدنيا بنا تميد، لا تُبصرُ غيرَ ململمةٍ جأواء[٣]، وموَّارةٍ شهباء، قد ضعضعت التلال، ودكدكت القلال، إذا فرعت من ذات نيق، أو صوبّتْ من فجّ عميق، أو تطالعت من أفقٍ سحيق، حسبتها تجيشُ على البلاد بحاراً، أو تَسحُّ على الوهاد مدراراً، قد نسجت فوقها من القتام، ظُللاً كَتَراكُم الغمام، فكأنّها رفعت سماءً من عجاج، وأطلعت نُجوماً من زُجاج.

ومنها: حتى لاحَ لنا من مَلكِ الأملاك، وثالث القمرين في الأفلاك، وجهٌ جلّى هبوة ذلك العثير، والعجاج الأكدر، فحين جَلَتْ غرَّته الغراءُ جلابيب الغُبار، لم ندرِ أبدرُ الليلِ، أم شمس النهار. فلله ما ضَمّت أطنابُ ذلك السرادق، وما أظلّت أفياء تلك الخوافق، من مال المُسيف وعنبر المُستاف[٤]، وليث العرين وبحرِ الاغتراف، ومن نزّال الهواجر، وبذّال الجواهر، فلما جَلتْ غرَّةُ وجهه المُتَهلل، غيابةَ ذلك القسطل، جعلتُ أتأمل ضراغم فوق قُبٍّ صلادم، فَمِنْ كُمْتٍ تسبحُ بكُماة، ومن حمٍّ تردي بحماة، قد تحلّت بحلي لبّاتها وألجمها، تحلّي الغياهب بأنجمها، يرفلن في العبقريّ ويحملن جنة عبقر، ويسفرنَ عن مثل الصبح إذا أسفر، من الجياد اللواتي تضمن أقوات النسور القشاعم، وتقري سراحين الفلاة بالطّلى والجماجم، أنجادٌ كأنها أسنّتُها، وجيادٌ كأنها أعنتُّها، فما ترى غير محارب يهزُّ حراباً، وأعاريب تُركِضُ عراباً.

---

(١) الهميم: الصوت الخفي. والهديد: الدويّ.

(٢) النئيم: الصوت الضعيف الخفي. الوئيد: الصوت العالي الشديد.

(٣) الكتيبة الجأواء: التي يعلوها السّواد لكثرة الدروع.

(٤) المسيف: الذي ذهب ماله. المستاف: الشامّ، يقال: ساف الطيب يسوفه، واستافه يستافه.

وفي فصل: كلٌّ قد أخذ عتاد اليوم للبأس الشديد، يُظاهرُ بالحديد على الحديد، تلبّب بالسابرية وتدرّع، وتعصّب بالصقال وتقنّع، حتى اليلامقُ والدروع سواء، وحتى المقلة النجلاءُ والحلقة الحوصاء، من كلّ مسرود الدَّخارص، متألّقٍ دُلامص، كأنما جلّلتْه بحبكتها السّحابُ، أو خَلَعَ بُرْده عليه الحُباب، أو غُمس في ماءٍ فجمد عليه الحَباب، وكأنما باض على رؤوسهم نعام الدَّوّ، وبرقت في أكفهم بوارقُ الجوّ، لكنها إذا هُزّت فبوارق، وإذا صُبّت فصواعق، من كلّ ذي شُطَب كأنما أهل قرى نملٍ، علون منه قرا نصلٍ، فإذا أصاب فكلُّ شيء مقتل، وإذا حزّ فكلُّ عضوٍ مفصل، أمضى في الأشباح، من الأجلِ المتاح، عَضْبُ الحدّ صقيل، يكادُ إذا انتضى يسيل، ويكادُ مُبصره يغنى عن الورد، إذا اخترط من الغمد، ما لم يخلْه ريعانَ سرابٍ، في صحصحان يباب، لاشتباه فرنده بحباب في شراب، أو حُبابٍ في سراب، فلما رأيت جفنه قد انطوى على جمر الغضا، وماء الأضا[1]، وانضمّ على خضرة الجُنح، ورَونْق الصُّبْح، قلت: سبحان مكوّر الليل على النّهار، والجامع بين الماء والنار.

وفي فصل: ومن كلّ مثقف الكعوب، أصم الأنبوب، كأنما سَلَبَ من الروم زُرْقتها، واجتلبَ من العرب سمرتها، وأخذ من الذّئب عَسَلانَهُ، ومن قلب الجبان خَفَقَانَه، ومن رقراق السراب لمعانه، أو استعار من العاشق نحوله، ومن العليل ذبوله.

فكررتُ الطّرف خلال تلك الجياد، فرأيتُ مُقربَات خيلٍ يتخايلن تخايُلَ العذارى الرُّود، ويتهادين تهادي المهارى القود، فكأنما يتوجسن عن أطراف أقلام، ويتشاوسن عن مُقَلِ آرام: فمِنْ مُبيضّ شطرٍ كابيضاض المُهرق، ومسوّد شطرٍ كاسوداد العوهق[2]، كأنما اختلس نصفُهُ الفَلَق، واحتبس بنصفه الغسق، مُقابلُ الخلق بين الشمس والقمر،

(١) الأضا: جمع أضاة وهي البركة.

(٢) العوهق: الخطاف الأسود. وقيل: الصبغ شبه اللازورد.

ومُقسّمُ السّربال بين الجُنحِ والفجر، إذا توجس عن رقيقتين، كأنما صيغتا من لُجين، حسبتَه من شهامة نفس، ولطافة حسّ، يُحسّ وطء الرزايا، ويعلم مغيّبات الخفايا، ومن وردٍ كأنما جُلل بورد، أو خُلعت عليه من الصبّاح المسفر، حُلة فجره المُعصفر، أو شُقت عنه كمائم شقيق، أو سُلّت عقيقته من أديم عقيق، أو كسي خدود الغانيات، فرمي بعيون الرانيات فأخجلنه حياءً، وضَرَّجنه دماءً، واستعار بُردَ الأفق، في حُلة أصيل، أو كأنما كسفت في أديمه الشمس، أو ذرَّ على نُقبته الورس، حتى ليكاد الجاديُّ، يجري من ماء عطفيه، ويُجنى الحوذانُ من روض متْنيه، ومن ذي كمتةٍ قد نازع الخمر جرْيالها، فسلبها سربالها، ومن محجلٍ هملاج، كأنما سوّر بوقف عاج، أو شُكّل بشكالين، صيغا له من ناصع لجين، أو من خوافق برق وشيج، تسير بها متون عناجيج، إذا أهوت بها سراعا، خلتها سفناً تحمل شراعا، تثني متونها هبّات الرياح، كما تثني أعطاف النشاوى نشوة الرّاح، فكان أعطافها أعطاف سكارى، وكأنَّ قدودها قدودُ عذارى.

وفي فصل منها: وعَلِمَ -لا زال مؤيّداً- أن الدّاءَ يبرأُ إذا حُسم، والخطبَ يستشري كلّما قَدُمَ، وأنّهم إن تُركوا في اليوم كراعاً، صاروا في الغد ذراعاً، فرماهم ببديهاتِ عزمٍ كالنجوم العواتم، وماضيات رأيٍ كالسيوف الصوارم، وآراءَ تصدّع صفا الجلمود، وعزماتٍ تنقُبُ في الصخرة الصيَّخود(١)، فغدَت أمانيهم نقماً وكانت نِعماً، وعادت أراجيهم هموماً وقد كانت همماً، فقرَع السّنَ من النَدَم، «وزلةُ الرأي تُنسي زلّة القدم»، وأيقن أنَّ مَن خطبَ بنات النّصرِ بالسّعدِ زُوّج، ومَن ألقحَ الرَّأيَ بالعزمِ أنتَج.

ومنها: ولمّا علم أنه إمّا شَرَقٌ أو غَرَقٌ، وعاين الموت مُحمرَّةً أظافره، مُوفيةً موارده ومصادرُهُ، ووصلت له دؤلول ابنةُ الرَّقم(٢)، في أعلى تلك القمم، فحينئذ انجلت عمايته

---

(١) الصخر الصّيخود: الصخر القاسي، الذي لا تعمل فيه المعاول.

(٢) الدّؤلول: الداهية، والرّقم كذلك.

وغياطله، واستخذى لحقّ مولاه باطله، وكان حرياً أن تئيم حلائله، وأوهم أنه لو ظلت بين منازل النجوم نوازله، لرأى أنّها عقّالاته لا معاقُلِه[1]، فرمى بيده صاغراً إلى السّلم ثقةً بعفوٍ كظلّ المزنَةِ الممدود، وكرمٍ كشطّ اللّجّة المورود. فلولا حلمٌ كالجبال رصين، وجودٌ كالسحاب هتون، لبادوا خلال تلك الديار كما بادت جديس في وبار، وَلَنَغلت تلك المنازل نَغَلَ الجلد، ومحَّت كما محَّتْ وشائعُ مِنْ بُرد[2]. وما دلاّهم في غدرهم الذي غدروا، وغرّهم في خترهم لذي ختروا، إلا العلمُ بأن سوف يعفو حين يقتدرُ، فقد اعتصموا بحبل معتصم بخالقه، وتوكلوا على رزق متوكلٍ على رازقه، واستوثقوا من عَقْدِ مَنْ لا عقاله بِأُنشوطة، ولا ميثاقُه بِأُغلوطة.

وفي فصل: فيا أيّها المغترّون بخُلُقه الفضفاض، وكرمه الفيّاض، لا يُجهلَنّكم تَحلُّمُه، ولا يغرّنكم تكرُّمُه فالبحر قد تردي غواربه وليس بطامٍ، والعارضُ قد تُصيبُ صواعقه وليس برُكام، والنصل قد يبري وهو غير مُؤَلَّل[3]، وأين نار ليس لها شرار، وأين خمر ليس لها خُمار؟ فهو جَدْبٌ وربيعٌ مُعرِق، وليلٌ ونهارٌ مُشرِق، فيه الصابُ والعسل، وفيه السهل والجبل، له خاطرٌ على خواطر الحوادث مُرْسَل، وطرفٌ بأطراف البلاد مُوَكّل. فأنّى بعناد من تميد الأرض إذا وجم، ويَرِقُّ نسيم الهواء إذا ابتسم؟ فلم يجتمع للملكِ -حاشاه- خِضابُ الصوارم، واجتنابُ المحارم، قَسمَ العدلَ بين البدو والحضر، كقسمة الغيث بين النبت والشجر، فلا غروَ أن يفوقَ جميعَ الأنام وهو من الأنام، فإن

---

(١) نثر هنا أبياتاً لأبي تمام.

(٢) الوشائع: خيوط الثوب. مُحّت: أُخلقَت وبَلِيَت.

(٣) مُؤَلّل: محدّد.

المسك بعض دم الغزال[1]، وإنَّ معدِنَ الذَّهب الرَّغام[2]. فهو الأبلج المتدفق، والأزهر المتألق، من جوهرة المجد وهو ماؤها، ومن مُهجة العلياء وهو سويداؤها، ولا يقتدي في سؤدد بغريب، بل يجري على سننٍ منهُ وأُسلوب، كالغيثِ شؤبوباً بشؤبوب، والرُمحِ أُنبوباً على أنبوب[3].

وفي فصل: فلله أيُّ مراد أردْتُه، وأي موردٍ وَرَدْتُه، لم أكُن ممّن غرَّه السراب، حين أعوزَهُ الشراب، ولا كنتُ كمن زجر الطير بالنّجم والدَّبران، ولا ممن سقط العشاءُ به على سرحان، ولا كمن قال مرعىً ولا كالسّعدان، كلاَّ، إنّ مملوكك ألقى أرواقه، حيثُ مدَّ المجدُ رُواقه، بحيثُ يُعتصرُ النّدى من عوده، ويُرتشفُ صِرفُ الجودِ من ناجوده، فانتقيتُ الجارَ قبل المنزل، وبوّأتُ رَحلي في المحلّ المُبقل، ورتعتُ في أثرِ الغمام المُسبل[4].

وفي فصل: ولولا ذلك لكان لي في الأرض العريضة مسارح، وفي أبناء الكرام منادح، غيرَ أنّي عن أكثر المراتع عَزوف، ولأكثر المشارع عيوف، وأنّي لكالسيف لا يحمد كلَّ من حمله، وكالرُّمح لا يُسرُّ بكلّ مَنِ اعتقله، وما كل عجيبٍ في عيني بعجيب، ولا كلُّ غريبٍ في نفسي بغريب. أنساني الله رشدي يومَ أنساه، وأبدلنيه يوم أستبدل سواه، ما وصل أو قطع،

---

(١) من قول المتنبي:

فإنْ تفق الأنامَ وأنت منهم ... فإنّ المسك بعض دم الغزال

(٢) من قول المتنبي:

وما أنا منهم بالعيش فيهم ... ولكن معدن الذهب الرغام

(٣) ينثر قول البحتري:

لا يحتذي خلق القصيّ ولا يرى ... متشبّهاً في سؤدد بغريب

شرفٌ تتابعَ كابراً عن كابرٍ ... كالرمح أنبوباً على أنبوب

(٤) نثر قول أبي تمام:

بَوّأْتُ رحلي في المراد المبْقل ... فرتَعْتُ في أثر الغمام المسْبل

من مبلغ أبناء يعرب كلّها ... أنّي ابتنيْتُ الجار قبل المنزلِ

ورفضَ أو اصطنع، وما ضرَّ أو نفع، ولئن أعقب يوماً من الدَّهر بحرمانٍ –وحاشاه– فلقد سبق بمعروف، وإن ساءني منه يوماً فعلةٌ –وخلاه– فإن اللواتي قد سررن ألوف. ولقد ألفى ودُّه صدري خلاءً من غيره فاستوطن، وصادف قلبي فارغاً فتمكّن(١).

وفي فصل: ما رأيتُ وجهاً أسمح، ولا حلماً ارجح، ولا سجية أسجح، ولا بشراً أبدى، ولا كفّاً أندى، ولا غرّةً أجمل، ولا فضيلةً أكمل، ولا خلقاً أصفى، ولا وعداً أوفى، ولا ثوباً أطهر، ولا سمتاً أوقر، ولا أصلاً أطيب، ولا رأياً أصوب، ولا فظاً أعذب، ولا عرضاً أنقى، ولا ثناءً أبقى، مما خصَّ الله به ثالث القمرين، وسراج الخافقين، وعماد الثقلين، المعتصم بالله ذي الرياستين، دامت راياتُه منصورة، وآياته منظورة، ومقاصير مُلكه بالسّعد معمورةً، ما هبّت صباً وجنوب، وما أقام يذبلُ وعسيب. وإنّي وإن أطنبتُ فأطيبت، وأسهبتُ فأعذبت، لخجلٌ أن يكون مثلي يثيرُ غباراً على جبينه، وينظمُ سواراً عن يمينه. فإنّ فكري بعدُ كالسيف الخشيب، والقدح المخشوب(٢)، فهذا لم تُذلّق ظُبتاه، وذاك لم يُخَلّق حقواه، فإنّه أوّل استعمال القريحة، ورياضة السّجيحة، وأوّلُ الضرّام سقطٌ ثم يلتهب وأول الغيث طَلٌّ ثمَّ يَنسكب.

وفي فصل: فإنّي غادرتُ بعدي لحماً على وضم، وجرحى بين عقبان ورَخَم، ستعلمُ أيَّ خَبرٍ أُنَمْنِمُ وأحبِّر، وأي دُرّ أنظمُ وأنثرُ، فإنّي وإن كنتُ الأخير زمانه، والسّكيت أوانه، لدلالة على الدلائل، ومخيلةٌ على المخايل، أنّي آتي بما لم تستطِعْهُ الأوائل(٣)، فأُفصّلُ كتفصيل الجواهر في العقد، وأُقدرُ تقدير داودَ في السّرد.

---

(١) ينثر أبياتاً من الشعر.

(٢) السيف الخشيب: الحديث الصنعة أو الذي برد ولم يصقل. المخشوب: الذي بُري البري الأول.

(٣) من قول المعري:

وإنّي وإن كنت الأخير زمانه لآتٍ بما لم تستطعه الأوائل.

وفي فصل: ويا لهفي ألا تكون معونتي له إلاَّ باللّسان، دونَ السّنان، أُطاعنُ أمامه دراكاً، وأُزاحمُ قُدَّامه الأقران لكاكاً[١]! ولولا أفرُخٌ كزُغْبِ القطا، يدبّون في نائِلِهِ عندي دبيب الكرى، فيستشفّون علالتي، ويستنزفون بلالتي، لامتطيتُ من جدواه السّابح اليعبوب[٢]، وتقلّدتُ من نداه الصَّارمَ الرَّسوب[٣]، واعتقلتُ من عطائه الصَّعدة السّمراء، وادّرعتُ من حبائه الفضفاضة الجَدلاء[٤]، فيبصر هنالك، مملوكه ابن مالك[٥]، يلاعبُ الأسنة كعامر بن مالك[٦]، فينظرُ أحسن منظر، ويبلو أفضل مخبر، ربَّ القصائد والقنا المتقصّد، فطوراً طعناً بالنبل، وضرباً بالمنصل، وطوراً ارتجالاً بالخطبة الفيصل، كخطبة قيس بن سنان[٧]، في حمالة عبسٍ وذبيان، خُطبةٌ تباري الريح في هبوبها، من لدُنْ طلوع الشمس إلى غروبها، حضاً على السلم والمحاجزة، ونهياً عن الحرب والمناجزة، فلو شهد هنالك لشهد أمراً معجباً، وأبصر خطيباً مُسهباً فيرى شقشقةً وقرماً مصعباً، يجنحُهم إلى السلم لمَّاً لمَّاً وثُباً ثُباً.

(١) اللكاك: الزحام.

(٢) اليعبوب: الفرس الطويل الكثير الجري.

(٣) الرسوب: السيف الماضي الذي يغيب في الضريبة.

(٤) الجدلاء: الدرع المحكمة النسج.

(٥) ابن مالك: صاحب المقامه محمد بن مالك القرطبي.

(٦) عامر بن مالك شيخ بني عامر، وكان يلقب ملاعب الأسنة، لمهارته في التصرف بالرمح.

(٧) المشهور هرم بن سنان الذي قام بالحمالات بين عبس وذبيان.

تحليل المقامة

هذه أجزاء من مقامة طويلة، ولكن صاحب «الذخيرة» -كما قال- اقتضبها لطولها، واختار فصولاً منها.[١] والفصول المختارة كلها مدح وثناء على أحد ملوك الطوائف وهو المعتصم بن صُمادح (ت٤٨٨هـ) عقب عودته منتصراً على أعدائه.

استهل ابن مالك مقامته بالدعاء للملك، ووصف البشرى التي عمت سائر المملكة بهذا الانتصار، فقال: «بُشرى لنا ولدولته الغراء، وهنيئاً لنا ولحضرته الزَّهراء، فتحٌ تفتحت له أزاهير النجاح، وبشرٌ تباشرت به تباشير الفلاح...»

وينتقل ابن مالك إلى وصف معركة من معارك ممدوحه، وهو يصف لنا جوّ المعركة وصفاً تفصيلياً، يدلّل فيه على مقدرته اللغوية، فيقول: «لا تسمع إلا همهمة وصهيلا، وقعقعة وصليلا، فخلتُ الأرض تميلُ مميلا، والجبال تكون كثيباً مهيلا، لا تعلم لأصوات تلك الغماغم، وضوضاة تلك الهماهم، من وهواه صهيل، ودرداب طبول، أزئير ليوث بآجام، أم قعقعة رعدٍ في ازدحام غمام ؟».

وينتقل إلى وصف ممدوحه بقوله:«حتى لاح لنا ملك الأملاك، وثالث القمرين في الأفلاك، وجهٌ جلّى هبوة ذلك العثير، والعجاج الأكدر، فحين جلت غرته الغراء جلابيب الغُبار، لم نَدْرِ أبدرُ الليل أم شمس النهار».

ويواصل وصفه للجيش وعتاده من سيوف ورماح وخيول، فيقول: «كلٌّ قد أخذ عتادَ اليوم للبأس الشديد، يُظاهرُ بالحديد على الحديد، تلبّب بالسابريّة وتدرّع، وتعصّب بالصقال وتقنع، حتى اليلامق والدروع سواء، وحتى المقلة النجلاء والحلقة الحوصاء، من كل مسرود الدخارص، متألق دلامص، كأنما جللته بحبكتها السّحاب، أو خلع برده

---

(١) الذخيرة: ق١ م٢، ص٧٤١.

عليه الحُباب، وكأنما باض على رؤوسهم نعام الدّو، وبرقت في أكفهم بوارق الجو، لكنها إذا هُزّت فبوارق، وإذا صُبّتْ فصواعق...»..

ويستفرد في مديحه لابن صمادح، ويقف مؤنّباً للذين ينالون من فضل جوده، فيخاطبهم ناعياً عليهم هذا السلوك المعيب، فيقول: «أيها المغترون بخُلقه الفضفاض، وكرمه الفياض، لا يجهلنكم تحلّمه، ولا يغرنكم تكرمه، فالبحر قد تردي غواربه وليس بطامٍ، والعارضُ قد تصيبُ صواعقه وليس بركام...».

ويعود إلى وصف ممدوحه بقوله: «ما رأيتُ وجهاً أسمح، ولا حلماً أرجح، ولا سجية أسجح، ولا بشراً أبدى، ولا كفّاً أندى، ولا غرّة أجمل، ولا فضيلة أكمل، ولا خلقاً أصفى، ولا وعداً أوفى، ولا ثوباً أطهر، ولا سمتاً أوقر، ولا أصلاً أطيب، ولا رأياً أصوب، ولا لفظاً أعذب، ولا عرضاً أنقى، ولا ثناءً أبقى، مما خصَّ الله به ثالث القمرين، وسراج الخافقين، وعماد الثقلين، المعتصم بالله ذي الرياستين، دامت راياتُه منصورة، وآياته منظورة».

ويختم ابن مالك مقامته، على الصورة التي رواها ابن بسام، بفصل يعرض فيه حاجته، ويشكو فاقته، معتذراً عن عدم اشتراكه في الحرب لمسؤوليات الحياة التي تلاحقه، ويتحدث عن عوزه وحرمانه وزوجته وأولاده فيقول: «ولولا أفرُخٌ كزُغْبِ القطا، يدبّون في نائِلِهِ عندي دبيب الكرى، فيستشفّون عُلالتي، ويستنزفون بلالتي، لامتطيتُ من جدواه السّابح اليعبوب، وتقلّدتُ من نداه الصَّارمَ الرَّسوب».

فصول من مقامة
لأبي الوليد محمد بن عبد العزيز بن المعلّم

قال في أوّلها: سقى عَهْدَك أيتها الدمنةُ الزهراءُ كلُّ عهد، وجاد قُطْرَك أيتها الرَّوضة الغنَّاءُ كلُّ قَطْر، وسال عليك من أدمعي كلُّ مُلِثّ هطَّال، وتناوحتْ عليك من أَضْلُعي كلُّ جنوب وشمال، منشّرةً أنوارك، لا مُعفّيَة آثارك، ومهدية أرَجَك ونسيمك، لا مُغيّرة أطلالك ورسومَك، فكم لنا في واديك من بُلَهْنَيةِ زمانٍ أنيق، وفي مغانيك من رفاهيةِ عيشٍ رقيق، نُعَلُّ بِكأسَيْ عتابٍ وإعتاب، ونرتعُ في جنبتي صباً وتصابٍ، غُدُوُّنا من عشيق إلى صديق، ورواحُنا من صَبوح إلى غَبوق، وخليلنا مساعد، وعدوُّنا مباعد، ورقيبنا أعمى، وزماننا أعشى، حتى إذا استيقظ الدهرُ من هجعته، وهبَّ من غطيط رقدته وسكرته، ضرب فوقنا بِجِرانه، وصرف إلينا لَهْذَمَ سنانه، ولبس لنا جِلْدَةَ النّمر، وقَلَب لنا ظهر المِجَنّ، وألقى علينا بَعاعَهُ، وطمس دوننا شعاعَهُ، مسترداً ما وهب وأعطى، ومكدّراً ما منح وأصفى:

أبداً تستردُّ ما تهبُ الدنـــيا فيا ليت جودها كان بخلا[1]

فما لبث أن صدَعَ مَرْوَتَنا، وفَصَمَ عُرْوَتَنا، وحلَّ عَقْدنا، ونَثَر عِقْدَنا.

وفي فصل منها: وكان لي أليف، وعقيد شريف، من صرحاء الإخوان وَصُيّابة الفتيان، ومُصاصِ أعيانِ الزمان، وحين سوّلت لي همتي ما سوّلَتْ، وخيّلتْ لي أمنيتي ما خيَّلت، أَجَلْنا قِداح الرأي، وأسهمنا بين القرب والنأي، شاور في أمري قريحَتَهُ، ونخل لي نصيحتهُ، وقال: أرى أن لا تريم بَيْضَتَك وأُرومَتَك، وأن توطن أرضك ولا تفارق

(١) البيت للمتنبي.

عشيرتك، وأَرْبَأُ بك عن مُضلاّت المنى، وأُعيذك من تُرَّهات لعلَّ وعسى، فتحسب كلّ بيضاء شحمة، وتظنُّ كلَّ سوداء تمرة [١]، وربما سقط العشاء بك على سِرحان [٢]، وكلُّ الناس بكر، وفي كل وادٍ بنو سعد: [٣]

والرفقُ يُمْنٌ والأناةُ سعادةٌ فاسْتَأْنِ في رفقٍ تُلاقِ نجاحا [٤]

وإن أبيتَ إلاّ التحولَ، فعليك من الرؤساء، بأحلم الحلماء، ومن القرباء بأشرف الشرفاء، ولا تغُرَّنك المناصب، دونَ المناسب، ولا المقولُ دون المعقول، ولا الدراهم دون المكارمِ، وازهد في أكثر كلّ عين، واذكر قول ابن الحسين:

وما رغبتي في عَسْجَدٍ أستفيده ولكنَّها في مَفْخَرٍ أستجدُّهُ

فلما سمعتُ ووعيتُ، ارتكنتُ وتولّيتُ، ثم أَبيْتُ قَبولاً، ليقضيَ الله أمراً كان مفعولاً، وناقضتُ نُصحه بقول حبيب:

وإنَّ صريحَ العزمِ والرأيِ لامرئٍ إذا بلغتْه الشمسُ أن يتحولا

ومغتراً بقول الثاني:

تلقى بكلِّ بلادٍ أنتَ نازلها أهلاً بأهلٍ وجيراناً بجيرانِ

وفي فصل منها: وصرَّح لي الدهرُ عن أهله، ووجدت الناسَ اخبُرْ تَقْلِهْ [٥]، من أميرٍ لا أسمِّيه، ووزيرٍ أُقحِمَت الواوُ فيه، وكاتب أمّي، وقاضٍ جَبُلّيّ [٦]، وأمة مبورة، في قرية مصورة، وإذا اختلفوا أنشدوا:

---

(١) من أمثال العرب، انظر مجمع الأمثال للميداني.

(٢) انظر المثل وقصته في مجمع الأمثال.

(٣) انظر مجمع الأمثال للميداني.

(٤) بيت الشعر للنابغة الذبياني.

(٥) هذا من الحديث، والهاء في "تقله" هاء السكت ، ولفظ الحديث لفظ الأمر ومعناه الخبر، أي من خبرهم أبغضهم

(٦) نسبة إلى جبل، وقاضيها يضرب به المثل في الجهل (ثمار القلوب: ص٢٣٦).

ومـــن تكـــنِ الحـــضارةُ أعجبتـــه فـــأيُ رجـــالِ باديـــةٍ ترانـــا[١]

فبينا أقرع السِّنَّيْن، وأعضُّ الكفَّين، وأخضبُ بلا حناء، وأنشد في الأمراء:

وإذا نظـــرتُ إلى أمـــيري زادني كَلفـــاً بـــه نظـــري إلى الأمـــراء[٢]

إذ قرع البشيرُ بابي، وَطَرَقَ المستأذِنُ حِجابي، قائلاً: رسولُ مولاك، وكتابُهُ وافـاك، فقمتُ أتساقَطُ من الجَذَل، وأعثر في دعاثرِ العجل، مقبّلاً فاه، وصائحاً:زاه.

وفي فصل منها: وأَفَضْنا في وصف معاليه، واستنشدني فأنشدْتُه ما قلته فيه، فقال: بزاعة الفصحاء، وبراعة الشعراء، دعني من زُخرُفِ شعرك، وصِفْهُ لي بمنـصف نثـرك، فللمنظوم رونق، وأنت فيه طَوْلَق، فقلت: على الخبير سقطت، وأنا الكفيـل بـما سـألت وشرطت، وأسمعته سجعاً لا نظما، ونثراً لا شعرا، فقلت: هو الإمام الطاهر، والكوكب الزاهر، والأسَدُ الخادرُ، والبحر الزاخر، أَوْهَبُ الملوك للذخائر، وأعفاهم عن الجرائـر، وأرفعهم قدراً، وأوسعهم صدراً، وأطيبهم ذكراً، أعْطَر من العنبر، في كلِّ منبر، وَأفْـوَحُ من المسك الذكيّ، في كل نديّ، الحليمُ فما يغضب، والجوادُ وما يرغب، والـشُجاعُ ومـا يرهب، والقوي وما يعنف، واللَّين وما يضعف، والرفيق إذا ساس، والمصيب إذا قاس، ينبوع كل جَذل، ودافعُ كل وجل، وحـسبك بي عنـده مـن جلـيسٍ رئـيس، أكلّـم منـه سحبان، وآخذ عن لقمان، وأستنزلُ كيوان:

لـــه كبريـــاء المـــشتري وســـعودُه وســطوةُ بهــرامٍ وظَــرْفُ عُطــارِد[٣]

(١) البيت للقطامي.

(٢)البيت لعديّ بن الرقاع العاملي.

(٣) البيت لأبي تمام.

وقمر إلا أنه بشر، وجبلٌ إلا أنه رجل، بحرُ علمٍ، وطَوْدُ حلم، وعالم في عالم، الأصمعيّ عنه ناقل، والجاحظ عنده باقِل، إذا ركب ضاق عنه الأفق، وإذا تَبدّى وسع الدهر ندى، وإن نطق بيّنَ وصدق، وإن كتب أبدع وأغرب، نداه سحائب، وكتبه كتائب، مشرفِياتُهُ من لسانه وبيانه، وخطِّياته من أقلامه وبنانه، تمشق فيها جياد فهمه، ويمري دِرَرَ أشوالها من آدابه وعلمه، ويسحبُ لها من فكره مضماراً، ويثير من مداده قسطلاً وغباراً، ويرتِّب به الحروفَ، ترتيب الصفوف، ويمشق بها في المهارق، مشقَهُ في الطلى والمفارق، هذا إلى روحانية مَلَك، في تَجِلّة مَلك، فاسْتُطير فرحاً، وازدهى مرحاً، وخفَّ فقام إليّ، ورفَّ يقبل بين عينيّ، وكأنه إنما نُشِرَ من قبر، أو صحا من سُكر، وقال: أصبت واللهِ القرطاس، وبنيتَ على أساس، وفُزتَ بالقدح المعلّى، وتحلَّيْتَ من الجلّى، والحديث ذو شجون: متى الحركة؟ وفيم التلوُّمُ والمقام؟ وكنت شاكياً فقلت: رويد الإبلال، وبعيد الإقلال، قال: فَسِرْ في كنف السلامة إلى وطن الكرامة.

تحليل مقامة ابن المعلم

هذه المقامة لأبي الوليد بن المعلم، وقد وردت في كتاب «الذخيرة» في الفصل الذي خصّصه ابن بسام للحديث عن نثره وشعره(١)، ووردت تحت عنوان «فصول له من مقامة»(٢). فابن بسام لم يورد المقامة كاملة، بل اختار فصولاً منها، دون أن يعلل سبب اختياره.

وابن المعلم، كما ذكر ابن بسّام، كان أحد وزراء المعتضد بن عباد(٣)، ولذا فقد رجح د. إحسان عباس أن هذه المقامة قيلت في المعتضد، أمير إشبيلية(٤).

افتتح ابن المعلم مقامته بالحنين إلى ماضٍ نَعِم فيه برفاهية العيش، فقال: «سقى عهدك أيتها الدمنة الزهراء كلُّ عهد، وجاء قطرك أيتها الروضة الغنَّاء كلُّ قطر، وسال عليك من أدمعي كل مُلث هطال، وتناوحت عليك من أضلعي كلُّ جنوب وشمال، منشِّرة أنوارك، لا معفية آثارك...».

وانتقل في فصل منها إلى استشارة أحد أصحابه في السفر والارتحال، فأشار عليه ألاّ يترك داره، ولا يهجر موطنه، فإن كان ولا بد فليختر من الرؤساء أحسنهم، ولكنه ركب رأسه، ولم يستمع لنصح صديقه، يقول: «وكان لي أليف، وعقيد شريف، من صرحاء الأخوان، وصيابة الفتيان، ومُصاص أعيان الزمان، وحين سولت لي همتي ما سولت، وخيّلت لي أمنيتي ما خيّلت، أجلنا قداح الرأي، وأسهمنا بين القرب والنأي، شاور في أمري قريحته، ونخل لي نصيحته، وقال: أرى أن لا تريم بيضتك وأرومتك،، وأنْ تُوطن أرضك ولا تفارق عشيرتك، وأربأ بك عن مُضلات المنى، وأعيذك من

(١) الذخيرة: ق٢ م١ ص١١٢-١١٧.

(٢) المصدر نفسه: ص١١٣.

(٣) الذخيرة: ق٢م١ ص١١٢، وانظر ص٢٣ من دراستنا هذه.

(٤) تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين): ص: ٣١٤.

تُرّهات لعلَّ وعسى، فتحسب كل بيضاء شحمة، وتظنُ كلَّ سوداء تمرة... وإن أَبَيْتَ إلا التحوُّل، فعليك من الرؤساء، بأحلم الحلماء، ومن القرباء باشرف الشرفاء، ولا تغرَّنك المناصبُ، دون المناسب، ولا المقول دون المعقول، ولا الدراهم دون المكارم...».

ولم يظفر من اغترابه وتنقله بغير الشقاء والندم، فصدمته الأيام، وخيّبت أمله، بعد أن رأى فساد الحكّام والمحكومين، يقول: «وصرّح لي الدهر عن أهله، ووجدت الناس اخْبرُ تقله، من أمير لا أسميه، ووزير أقحمت الواو فيه...».

وبينما هو على هذه الحال من الندم، بعد أن دار به الدهر من نعيم إلى شظف شديد، رسول مولاه، فسارع إليه، فاستنشده ذلك الرسول في مدح مولاه، فأنشده مدحه فيه، ثم طلب إليه أن يسمعه المنثور بعد المنظوم، فأسمعه سجعاً هو بين النثر والشعر، وكان مما قال فيه: «هو الإمام الطاهر، والكوكب الزاهر، والأسد الخادر، والبحر الزاخر، أوهبُ الملوك للذخائر، وأعفاهم عن الجرائر، وأرفعهم قدراً، وأوسعهم صدراً وأطيبهم ذكراً، أعطر من العنبر، في كل منبر، وأفوح من المسك الذكيّ، في كلّ نديّ، الحليم فما يغضب، والجواد وما يرغب، والشجاع وما يرهب، والقوي وما يعنف، واللين وما يضعف...».

ومضى في مثل هذا الثناء حتى استُطير الأمير فرحاً، وازدهى مرحا، وقام إليه فقبّل بين عينيه. وبذلك تنتهي المقامة.

وهذا الجزء من المقامة إنما هو قطعة مدحية، مهّد لها صاحبها كما يمهد الشاعر بأساليب مختلفة للوصول إلى غرضه المدحي في القصيدة. وكأن الجزء الأصيل من المقامة إنما يبتدئ من قدوم رسول ذلك المولى حاملاً إليه كتاب مولاه، وطالباً إليه أن يمدحه شعراً ونثراً.

مَقَامَةٌ صَنَعَها الفتحُ بنُ خَاقان على الأستاذِ أبي مُحَمَّد البَطَلْيُوسي[1]

قال عليٌّ بنُ هِشام:

قَدمتُ الأندلسَ مِن أرضِ الشَّامِ، أجوبُ البِقَاعَ، وأفْري الأصْقاعَ، وأصَاحِبُ أهْلَ الأدَبِ والسُّنن، وَأجَانِبُ أهْلَ الأهواءِ والظُّنَنِ، حرصاً على الثَّلاثِ التي تزينُ الغَريبَ، وتَنْفي التأنيبَ والتَّثْريبَ، وقِدْماً كنتُ يَشُوقُني الأُدَباءُ، وأقولُ: هم في الأوطانِ غُرَباء، فلي في البلادِ مِن هَواهُمْ نصيبُ، والغَريبُ للغريب نَسِيبُ،[2] وقبلَ ما وُصفَت لى بلنسيةٌ ببهاءٍ وَوِسام، وقيل لي: هي في ثَغر الجزيرةِ ابتسام، فأنختُ بها الجَمَل، وقد وافت الشَّمسُ الحَمَل،[3] وصدح القُمْريُ[4] وَهدل، وقامَ وزنُ النَّهارِ فاعتدَل، فرأيتُ أرضاَ عليلة الأرواحِ، ظَلِيلة الأدواحِ، صَقِيلةَ الجَوانِبِ، مُتْرعَةً المَذَانِبِ[5]، يفاوحُ

---

(١) انظر نصّ المقامة في رسائل أندلسية: ص٩٣ – ١٠٠. والبطليوسي هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن السيد البطليوسي، وصف في كتاب المغرب(١/ ٣٨٥) بأنه « أحد من تفخر بهم جزيرة الأندلس من علماء العربية وهو من شلب، ولازم مدينة بطليوس فعرف بالبطليوسي» وترجم له ابن بشكوال في الصلة ص٢٨٧ وقال: «كان عالماً باللغات والآداب يجتمع الناس إليه يقرؤون عليه». ومن مؤلفاته: كتاب الاقتضاب في شرح أدب الكتاب، وشرح كتاب الجمل. وتوفي سنة ٥٢١هـ.

(٢) ينظر إلى قول امرىء القيس:

أجارتنا إنّا غريبان هاهنا ... وكُلُ غريبٍ للغريبِ نسيبُ

(٣) الحمل: برج من بروج السَّماء، هو أول البروج.

(٤) القُمري: طائر يشبه الحمام، وقيل: هو ضرب منه.

(٥) المذانب (جمع مذنب): وهو مسيل الماء في الأرض.

بها المسك الدِّمَن، ويُجاوِبُ بها الظئرُ(١) الزَّمَن، تُسْلي عَنْ أَهْلِ وَأَوْطَانٍ، وتجتذبُ القلوبَ لها بأشْطَان(٢)، تُذهل بتماثيلها ذواتَ الأطواقِ عَنْ هَدِيلِها، لَوْ رَأى حَسَّانُ(٣) قَطْرَهَا المُتألِّقَ لما ذَكَرَ البريق ولا جُلَّق(٤)، أو مَرَّ غيلان(٥) بمياهها الزُّرق لما ألمَّ بحزواء ولا الرَّوق(٦)، فقلتُ أُخَيمُ بها العامَ وأربع، وأقفو أثرَ هَواي وأُتْبَع، فسألتُ حينئذٍ عن حَمَلَةِ الأدَبِ، ونقلة كلام العرب، فقيل لي: هنا الشيخ السَّرِيّ أبو محمد البطلْيَوسي، غُلَّةُ العِلل، وشِفَاءُ الظمآن العَلَل، مَطَافُ الطَّلَبةِ، وإمامُ الخَالَةِ الخَلَبة، فاتبعتُ أشواقِيَ إليه، والغريبُ مُغَطًّى عليه، فخرجتُ في قصر النَّهارِ، مُتَنزِّهاً على تلكَ الأنهَارِ، فإذا فَتىً له لألاءٌ وَرِوَاء، عِمامتُهُ بَيْنَ الرِّجال لواء، فَرْعُهُ أَفْرَع(٧)، وجيدُهُ أَتْلَع،(٨) وأَنْفُهُ مَمْطُول، وخَلْقُه مَجْدول،(٩) مَقْرونٌ بآخرَ واضحٍ بَسَّامٍ، تُقْرئُك صفحتُهُ أقسامَ الكَلام، تُعْلِنُ سِرَّ الحُسْنِ أَسِرَّتُهُ، وتطلع بدر التمِّ أزرَّتُهُ، وقد نَزَلا بفناء صَرْح، واستظَلاَّ بأفياءِ سَرْح، فازدوجا ازدواجَ الفرقدين، وحَكيا الظَّبْيين، وتوسَّدَا الأبردين، فتوسمتُ منهما النُّبلُ، ويَمّمتُ نحوهما المسالكَ والسُّبل ثم قعدتُ معهما أتناشَدُ الأشْعَارَ، ونشحذُ بالمذاكرةِ الأفكارَ،

---

(١) الظئر: العاطفة على غير ولدها، المرضعة له من النوق وغيرها.

(٢) الأشطان: (جمع شطن) وهو الحبل الشديد الفتل، يُستقى به.

(٣) هو حسان بن ثابتِ الأنصاري، شاعر الرسول (ﷺ)، توفي سنة ٥٤هـ، ويتردّد في شعره ذكر البريق وجلّق.

(٤) جلّق (بكسرتين مشددة اللام): اسم لكورة الغوطة أو هي دمشق نفسها. والبريق: موضع.

(٥) غيلان: هو غيلان ين عقبة من بني عدي، لقب بذي الرمة وكان يسلك مذهب شعراء البدو في قصائدهم. وقيل إنه توفي سنة ١١٧هـ

(٦) موضعان ذكرهما ذو الرمة في شعره.

(٧) الفَرْع: الشعر التام، وأفرع: كثير الشعر طويله.

(٨) الأتلع: الطويل العنق.

(٩) الجَدْل: شدة الفتل وإحكامه، ويقال: مجدول الخلق: أي حسن التكوين.

حتَّى إذا ورَّسَ الأصيلُ،(١) وحانَ مِن يومِنا الرَّحيلُ، سألتُهما عن الـشَّيخِ الجليـلِ، فقـال أحدهما – وهو أفعل من فَعِيل – قبح شـيخ دينُـه خـبءُ العـصا، وأورثنـي إتْيانُـهُ دَاءَ الحَصَى(٢)، لَبَس الأَيْرَ فَمَا رَشَد، وعبَّ في خَمرةِ الغيِّ فَعَربَد. يَأتي المَنَاكِرَ في كُلِّ نـادٍ، ويهـيمُ من العَمَه(٣) في كُلّ وَاد لا يُرْجى له ارعواء(٤)، ولا يأسو جرحه دواء، تسودُ أعَمالُـهُ، كُلَّـما اسودَّ سِبَالُهُ(٥)، ويشتدُّ قَرمُهُ(٦) كُلَّما زاد هرَمُه، يروم الزّاجرُ قَمْعَهُ فَتَمْتَلِكُ الـشهوةُ نـاظرهُ وسَمْعَهُ، ويجد في صَرْمِه وقَلْبِه، ما يجولُ بين فِكْرَهِ ولُبِّه، قد جعل الدفاترَ شَرَكاً، وقال: أنا البحرُ لا أعدمُ حَرَكاً، راكبُه راكبُ البحر والمُحيط، وجالـبُ صـحراءِ الغَبـيطِ(٧)، يَعْجَـزُ إقْليدِسُ(٨) عَن مِـسَاحَتِهِ، وَيـضِلُّ الـثَّقّلانِ(٩) في سـاحِته، ولا يـشْفي جَذْبـهُ الجُـذوعُ(١٠)، ولايُفَارِقُهُ الظَّمأُ والجُوعُ، فقلتُ: سيدي مهلاً! وَكِدتُ أقولُ: نَهْلاً نَهْلاً!! حَاشى لمثلـكَ حَاشَى، وما حَسبتُك فحّاشا(١١)، فقال: ياهذا إِنَّكَ لَحَديثُ العَهْدِ، دَوْنَـك صـبيانُ المَهْـدِ،

---

(١) ورّس الأصيل: اصفر لونه كناية عن الغروب.

(٢) الحصى: داء يقع بالمثانة، وهو أن يخثر البولُ فيشتدُ حتى يصير كالحصاة.

(٣) العمه: التحير والتردد في الضلالة ، والعَمَه في البصيرة كالعمى في البصر.

(٤) الارعواء: الرجوع والكفّ.

(٥) السَبَلة: الشارب، والجمع السِّبال، وقيل هو ما على الذقن إلى طرف اللحية.

(٦) القَرَمُ (بالتحريك): شدّة الشهوة.

(٧) الغبيط: اسم واد، ومنه صحراء الغبيط (اللسان: غبط).

(٨) إقليدس: عالم ياضيّات يوناني نشأ في الإسكندرية، وقد اشتهر في الهندسة والمساحة خاصة ، وكتابه (الأصول) أساس دراسة الهندسة.

(٩) الثقلان: الجن والإنس.

(١٠) الجذوع (جمع : جذع) وهو جذر النخلة وأصلها ، وقيل : ساقها.

(١١) فحاش: كثير الفحش.

سيُسِّرُون الخَفَاء، وُيعْطونَ الشَّفاءَ، وَيصْدعون الشكَّ بيقين، ويأتونك بسُلطانٍ مبين[١]. ثم أقبل كَالُمحيلِ، على صَاحِبِهِ ابن خليلٍ فأرْعَيتُ سمعي فَحْوَاهُ، رجاءَ تكذيبِ دَعْوَاهُ، فقال: استفتشتَ العالِمَ مِن وراءِ الزِّنادِ، واستفتيتَ حَافِظَ المَتْنِ والإسنادِ، لأقُومَنَّ بشرحِ الحديثِ ونصِّهِ، ولآتينّك بالأمرِ مِن فصِّهِ[٢]، الشيخُ علَّمني الكتِابةَ، وأمصعَنَي الكُبابة[٣]، ووصل معي مِن حُسْنِ التربية والاحتضان، أنْ مَسَّحَ إحْليلي بِلبنِ الضّان، ثم آواني بالضَّرَبِ والضريب[٤]، وَرَوَّاني حَسَنَ الشَّعْرِ والغَرِيب، وأَراني طُرُقَ الظَّرْفِ فسلكْتُها، وزفَّ إليَ أبْكَارَ معانيهِ فَمَلكْتُها،حتَّى إذا تَّم جمومُ النَّطَافِ[٥]، وقَالَ الوَصْلُ: حَي على القُطَاف، وعدتُ له كالصَّقرِ عَنَّ لَهُ الخَرَب[٦]، أو الفُحالِ نفى عن مَتْنه الكرَب، قالَ لِي: قد بلغتَ أَشُدَّك، فَامْحَضْ لي حُبَّك ودَّك، وأدركتَ استواك[٧]، فألِّف علَى مُوافقتي هَوَاك، الآنَ تَعُمُّ مُؤازِرَكَ، حِينَ أحْضَرْتَ مَآزِرَك، وعَذُبت مَشاربُكَ، إذ لاح عارضك، وطُرَّ شَارِبُك[٨] ليقْطفنا غُصْنُكَ جَنَاهُ، فَقَد كنا ناظرين أناة[٩]، وليشْفِ مَاؤُك مافِي الفُؤادِ، فلقد شَفَّنا طولُ الجُؤاد[١٠]، وجعلَ يُكثُر عَليَّ، ويصوّر لدَيَّ، أنَّ المجِدَ لا يُجْتَنَى مِن كِمَامِه،

---

(١) من قوله تعالى ﴿ وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ ﴾ (الدخان: ١٩).

(٢) فصُّ الأمر: أصله وحقيقته، يُقال: (أنا آتيك بالأمر من فصّه) أي من مخرجه الذي قد خرج منه.

(٣) المصع: الحركة والضرب، والمعنى مجازي.

(٤) الضرب: العسل الأبيض، والضّريب: الشّهد (اللسان: ضرب).

(٥) النطاف (جمع: نطفة وهو المنيّ).

(٦) الخرَب: الحبارى (الطيور البريّة).

(٧) استواك: استواءك، وقد خففت الهمزة لمراعاة السجع.

(٨) طُرَّ شاربك: طلع ونبت.

(٩) الأناة: التؤدة والتمهّل.

(١٠) الجؤاد (بالضم): جهد العطش. (اللسان: جَوَد).

حَتَّى يَسْمحَ المرءُ مِن وَرَائِه وَأمامِه، وَأنَّ السُّؤْدَدَ مِن عَهْدِ جَدِيس[١]، لا يَنَالُهُ إلا مَنْ دَاسَ وَدِيسَ، زخاريفُ مُخَنَّثٍ يُنَال، لا يَخْطُر مِثْلُهُ في بَال، وأسَاطيرُ شَيْخٍ خَرِب[٢]، طَبِنٍ[٣] بالاستشراءِ ذَرِبٍ[٤]. فلمّا أكثَرَ الخِلابَةَ[٥] والخَتْل، وأطَالَ في الذِّروةِ والغَاربِ الفَتْل، ورَآني فِي مَنَاط النَّجمِ، وألْفَانِي صُلْباً على العَجْم[٦] سعى في تسكين النِّفار[٧]، ببذلِ النُّضارِ[٨] والأسفار، وحاولَ إصلاحَ ذاتِ البَيْنِ، وإدغام الألِفِ في العَين، بإهداء الدَّفاترِ واللُّجين[٩]، ثُمَّ طَفِقَ أثْنَاءَ ذَلِكَ يَلِينُ البُرْس[١٠]،ويتزيَّن تزيُّنَ العِرس، ويُلحُّ بالطّرس بَعْدَ الطّرس، بما شئت مِن كُتبٍ لِطَافٍ، ومُبَالغةِ استرحامٍ واستعطاف، تأنفُ مِنها المُومِسَةُ العَاهِرُ، ويُساوي الباطِنُ فيها الظاهر، أدنى ألفاظِها تمويل، وأيْسَرُ معَانيها تسويل، وفَضَائِحُ ليسَ فيها تأويل.

فلم يَزَل يلْطفُ ويَكيد، ويُبدئُ في المرواذةِ ويُعيد، حتى أسعفتُه مِراراً، أستغفرُ الله مِمَّا أقول، وأسألُ العفَو عَمَّا اجترمتُ واقترفتُ، وأُوصي أهْلَ الغرارةِ[١١] من بَعْدي، وأعْلَمُ أنَّ قرينَ السّوءِ يُعْدِي.

---

(١) جديس، وأختها طسم: من قبائل العرب البائدة، كان موطنهما باليمامة، ولهما خبر مشهور في تاريخ الجاهلية.

(٢) يقال: خرِب الشيء: إذا ثقبه أو شقّه.

(٣) رجل طبن: فطن، حاذِق.

(٤) ذَرِب: مُجرّب.

(٥) الخِلابة: المخادعة، وقيل: الخديعة باللسان.

(٦) العجم: من: عجم الشئ: إذا عضّه ليعلم صلابته من ضَعْفه.

(٧) النفار: التفرق والمجانبة.

(٨) النضار: الذهب.

(٩) اللُّجين: الفضة.

(١٠) البرس: القطن، والمراد هنا: الفِراش.

(١١) أهل الغرارة: أهل المعصية الدين يُخدعون بالباطل ويغُرهم الشيطان.

ولمَّا سُقي ثراه، واستمرأ مامَرَاه، كَلَّفَني فَوْقَ الطَّاقة، وسَامَني سُرْعةَ الإنعاظِ[١] والإراقة، وذم الكَسَلُ شيمَهُ، وأحب العَمَلُ دِيمُه، ثَّم جَعَلَ يَدُبُّ الضِّرَاءَ[٢]، ويحبُّ العَوْدَ فِيها فَاءَ، فارتجع الديوان بعد الدِّيوان، ونعوذُ بالله من كَيْدِ النِّسوان، فعنـدَ ذلـك كَفَـرتُ بزيْدٍ وضَارِبه[٣]، وطرحتُ حَبْلَ الموف على غاربِه، وعـدلتُ عـن العَـسْبِ والـضرِّاب[٤]، ورددتُ الصارِمَ والقِرَاب[٥]، ورأيتُ اللَّحن أسلمَ مِن الإعراب، فـاهتزَّ لـذلك الوصـل النبيل، صاحبُهُ ابنُ الطَّويل، وَرَأىَ أنَّه قد سَلِم مِن وصْمِةِ القَذْف، وأجـرى مِـن كلامـه على التخفيف والحذف، ثمَّ أقبل يوسفُ بنُ خليل، عـلى صـاحبِه ابـن الطَّويـل، فقـال: سألتُك بحقِّ الجِوار، ألا ذَكَرْت حديث يومِ الدَّار، فالحديثُ ذو شُـجون[٦]، والكَـلامُ ذو إفكٍ وعفون، فقال: أُخبِركَ بغريبٍ، وأجْلو عَنك كُلَّ شَكٍّ مُريبٍ، فقدني الشَّيخُ الفاجِرُ في شَهْرِناجر[٧]، وقد لَفَحت الهَواجِر، وسَجَر الرَّمضاءَ سَاجِر[٨]، وقد خَلا المكانُ، وانفـرد بالأهِل البُسْتانُ، فَطَفَق يخضَعُ ويَضْرَعُ، وكَأنَّه مِن شِـدَّة الـشبَّقِ يُـصْرَعُ، فقلـتُ لَـهُ: تَبّـاً وأوسعُتهُ سَبّاً، فقالَ: وأدْهَشَهُ الدَّاءُ العَيَاءُ: أخالُك يَضعُك الحَيَاءُ، سـأتْركُكَ إلى المَساء، وأتَزَيّى لك بزيِّ النَّساء ، وأُحضِر لك الحُميّا، وأسترعنك المحيّا، وأعزِل لـك الأرداف،

---

(١) الإنعاظ: الشّبق واشتهاء الجماع، وإنعاظ الرجل: انتشار ذكره.

(٢)يقال للرجل إذا ختل صاحبه ومكر به هو يدبّ الضراء.

(٣) إشارة إلى قول النحاة: ضرب زيداً عمرو.

(٤) العسُب: طرق الفحل أي ضرابه، وقد يستعار للنّاس.
والضِّراب: النكاح. يقال: ضرب الفحل الناقة يضربها ضراباً : نكحها.

(٥) القراب: مقاربة الشيء والقِراب أيضاً: إذا قارب أن يمتلئ الدلو.

(٦) هذا مثل مشهور(الميدانى ١ : ٢٠٦) وذو شجون: طرق، الواحد: شجن(بسكون الجيم)، والشواجن: أودية كثيرة، ويضرب هذا المثل في الحديث يتذكر به غيره.

(٧) كل شهر في صميم الحر يقال له: شهر ناجر،لأن الإبل تنجر فيه، أي يشتدُ عطشها حتى تيبّس جلودها. (اللسان: نجر) .

(٨) السَّجْر: إيقادك في التنور تسجره بالوقود، والرّمضاء: شدة الحَرّ والرّمض: حّر الحجارة من شدة حر الشمس.

وأوطىء لك الأكناف، وأنشِدُك مِن الشِّعرِ الرَّقيق، وأحكي لكَ مِن أخبار العِّقيق، ما يستميلُ نفوسَ الوعّاظ، ويَبْعَثُ النّفس على الإنْعَاظ[١]، ويندبُ إلى الآثام، ويُقيمُ العَرَد[٢] أيّ قِيام، فعندَ ذَلِك عمرتُ التينَ بالجَزَر، وَرَميتُ الحجَر بالحَجَر، وظُنّ شرَّاً، ولا تَسَل عَنِ الخبَر[٣]، ثمّ نَدِمتُ عَلى غِشْيانِه، وخشيتُ الله في عِصيانِه، وأكثرتُ لعنَ الشيخِ الضِليل، واستشعرتُ حجارةً مِن سِجّيل[٤]، ورفضتُ القراءة إلى الآن، وَذَممتُ باب«إنَّ» و«كان».

قال عليٌّ بن هشام:

فَلَمّا وَلَجَ مَاوَلجَ، وانبلَجَ مِن أمْرِ الشَّيخِ ما انبلج، بَالغْتُ في الطَّعن، وأمْعَنْتُ في السِّبابِ واللَّعن، واستخْرتُ الله في الظَّعن، ويَمّمتُ حَضْرَةَ ابنِ مَعْن[٥]، ثُمَّ قُلْتُ إنَّ أرْضاً يُقْطَمُ[٦] شيوخُها وأُدباؤُها، لجديرةٌ أن لا يُشْرَب مَاؤُها، وأن لا يُلْمَحَ أرْضُها ولا سَماؤُها، ثم أنشدتُ بَلنْسِيَةً وقد وَلَّيْتُ، وأقسمتُ ألاَّ أُعاودُها وآليت:

مِمّا أضرَّ بأهلِ العِشْقِ أنّهمُ هَوَوْا وما عَرفوا الدُّنيا ولا فطنوا[٧]
تَفْنى عيونهمْ دَمعاً وأنفسُهم في إثرِ كُلِّ قَبيحٍ وَجْهُهُ حَسَنُ

---

(١) الإنعاظ: الشبق.

(٢)العرد: ذكر الرجل، وقيل: هو الذَّكر الصلب الشديد، وجمعه: أعراد.

(٣) يقتبس من قول الشاعر مع عكس المعنى «فظنّ خيراً ولا تسأل عن الخبر».

(٤) من قوله تعالى ﴿ وأرسل عليهم طيرا أبابيل، ترميهم بحجارة من سجيل﴾ (الفيل ٤) وحجارة من سجيل: حجارة من طين طُبخت بنار جهنم. (اللسان: سجل).

(٥) هو أبو يحيى محمد بن معن به صمادح ملك المرية عي عصر الملوك الطوائف ، وقد خلف أباه معن بن صمادح.

(٦) القطم(بالتحريك) شهوة اللحم والضّراب والنّكاح، ويقطم : يهتاج ويريد الضراب.

(٧) البيتان لأبي الطيب المتنبي.

تحليل مقامة

هذه مقامة صنعها الفتح بن خاقان على شيخه أبي محمد البطليوسي، وبطلها يسمى (علي بن هشام) قدم من أرض الشام إلى الأندلس، للتعرف على الأدب والأدباء، ومصاحبتهم، فيقول: «قدمتُ الأندلس من أرض الشام، أجوب البقاع، وأفري الأصقاع، وأصاحب أهل الأدب والسّنن، وأجانب أهل الأهواء والظُّنن...».

ويصل بطل المقامة (ابن هشام) إلى مدينة بلنسية من بلاد الأندلس، فيعدّد أوصافها الجميلة، فيقول: «وقبل ما وُصِفَتْ لي بلنسية ببهاء ووسام، وقيل لي هي في ثغر الجزيرة ابتسام، فأنخت بها الجمل، وقد وافت الشمس الحمل... فرأيت أرضاً عليلة الأرواح، ظليلة الأدواح...» ثم يسأل عن الأدباء فيها، فيقال له: «هنا الشيخ السري أبو محمد البطليوسي، غُلَّةُ العِلَل، وشِفاء الظمآن العَلَل، مطاف الطلبة، وإمام الحالة الخلبة...». ويذهب للقاء البطليوسي، فإذا به يلتقي في طريقه بفتى «له لألاء ورواء، عِمامته بين الرجال لواء، فَرْعُه أَفرع، وجيده أتلع...»، ومع الفتى صديق له، فقعد معهما ابن هشام يتناشدون الأشعار، ويشحذون بالمذاكرة الأفكار، ثم سألهما عن الشيخ الجليل، فأخذ أحدهما بذمه، فهو «يأتي المناكر في كل ناد، ويهيم من العمه في كل واد، لا يرجى له ارعواء، ولا يأسو جرحه دواء،...». ويتبارى الفتيان في إلصاق تهم الفسوق والفجور بالبطليوسي. وحدّثه كل واحد منهما بمنكرة من فعلاته الشائنة في أسلوب فاضح مكشوف، وهنا يثور ابن هشام ويستخير الله في الظعن قائلاً: «فلمّا ولج ما ولج، وانبلج من أمر الشيخ ما انبلج، بالغتُ في الطعن، وأمعنتُ في السباب واللّعن، واستخرتُ الله في الظعن، ويمّمتُ حضرة ابن معن...». (يعني المعتصم بن صمادح).

وقد تشكّك د. إحسان عباس في نسبة هـذه المقامـة إلى الفـتح بـن خاقـان ؛ «لأن الفتح ألّف كتاباً مستقلاً في ترجمة ابن السيد، أثنى عليه فيه كثيراً، ولا نعلـم أن الخـلاف دبّ بينهما قبل ذلك أو بعده»(١).

ورجّح آخرون(٢)صـحة نـسبة هـذه المقامـة إلى الفـتح بـن خاقـان، الـذي عُـرِف بـشدة تبذّلـه وبطبيعتـه المتقلبـة «وإسـاءة الأدب عـلى أهـل الأدب، وتحليـه مـن الخلاعة بما تعـزف عنـه نفـس كـل رصـين، وإسـفافه مـن الـدنايا إلى مـا يرضـاه أهـل المـروءة والـدين»(٣). فلـيس مـن المـستبعد أن ينقلـب الفـتح عـلى شـيخه لـسبب أو دونـما سـبب، تمـشياً مـع مزاجـه المتقلـب، وينـشئ فيـه هـذه المقامـة، لا سـيما وأن البطليوسي نفسه عرف بتبذله، وحبه للغلمان(٤).

وإذا صحّت نسبة هذه المقامة إلى الفتح، فإن صنيعه في هـذه المقامـة يمثـل عقوقـاً لشيخه من جهة، كما أنه يناقض نفسه من جهة أخرى، فقد تـرجم للبطليـوسي في كتابـه «قلائد العقيان» ونعته «بأنه شيخ المعارف وإمامها ومن في يديه زمامهـا»(٥)، وألـف فيـه كتاباً خاصاً، أثنى عليه فيه ثناءً عطراً. (٦)

---

(١) تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين): ص٣١٥.

(٢) د. فوزي سعد عيسى: رسائل أندلسية (مقدمة المحقق)، ص: ٣٩.

محمد الشوابكة: مطمح الأنفس (مقدمة المحقق): ص ٨٣.

د. مصطفى السيوفي: ملامح التجديد في النثر الأندلسي، ص ٢٩٥.

(٣)خريدة القصر (قسم شعراء المغرب والأندلس): ٢/ ص٦١٠، وانظر مطمح الأنفس: ص٤٠ (مقدمة المحقق).

(٤) المغرب: ١/ ص٢٤٣، وبغية الوعاة: ٢/ ص٥٥، وإنباه الرواة على أنباه النحاة: ٢/ ص١٤٣.

(٥) قلائد العقيان: ص١٩٣.

(٦) أزهار الرياض : ٣/ ص١٠٣.

ونحن نرجح نسبة هذه المقامة إلى الفتح بن خاقان ؛ لأن صاحب مخطوطة «رسائل أندلسية» نصّ في تصديره للمقامة على أنها من صنع الفتح، وليس في عبارته ما يحتمل الشك، إذ قال: «مقامة صنعها الفتح بن خاقان على الأستاذ أبي محمد البطليوسي»[1].

وقد اختلط أمر هذه المقامة لدى الباحثين، فخلطوا بينها وبين «المقامة القرطبية»، فالدكتور إحسان عباس، عندما علّق على هذه المقامة قال: «تسمّى أيضاً المقامة القرطبية»[2]، والصحيح أن المقامة القرطبية مقامة أخرى غير هذه تماماً. يضاف إلى ذلك أنّ مقامة الفتح هذه ليس فيها أيّة إشارة إلى قرطبة أو علمائها.

(١) رسائل أندلسية: ص ٩٣.

(٢) تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين): ص٣١٤.

المقامات اللّزوميّة للسّرقسطي

وهـي خمـسون مقامـة عـارض بهـا السّرقـسطي مقامـات الحريـري، وتـأثّر في طبيعـة سـجعها بطريقـة أبي العـلاء المعـري إذ بناهـا عـلى لـزوم مـالا يلـزم، فعرفـت بالمقامات اللزومية.(١)

ومقامات السّرقسطي مبنية على السجع مثل مقامات الحريري، غير أنه اقتدى --كما قدّمنا – بأبي العلاء، فالتزم في نسجه ما لا يلزم من تعدد قـوافي الـسّجع أو نهاياتـه مشترطاً على نفسه أن تكون على حرفين أو أكثر، بدلاً من حرف واحد كما هـو مـألوف، وربما التزم ثلاثة أحرف كالذي نجده في المقامة السادسة عشرة. وسـمّى المقامـة الثامنـة عشرة «المدبّجة»، لأنه جعل الكلمات في كل سجعتين تتقابل في نهاياتها وتتعادل، كقولـه في أولها: «قال: كنتُ في ريّان الحداثة والشباب، وريعان الدّماثة والحبـاب، قـد خلعـتُ الرّسن والعذار، وقطعتُ اللّسن والاعتذار........»(٢). والتزم في الثانية والثلاثين أن يختم سجعاتها بحرف الهمزة، وفي الثالثة والثلاثين أن يختم السجعات بحـرف البـاء. ولكـن سجعه في غير ذلـك « تـشيع فيـه العذوبـة والـسهولة والقـدرة عـلى التفـنّن في الـوعظ والوصف ونسج الكلام»(٣).

والشخصيتان الرئيسيتان في المقامات هما: السائب بن تمام، والـشيخ أبـو حبيـب، وهو رجل سدوسي محتال أصله من عُمان، وأحياناً يذكر في بعض المقامات شخص ثالث اسمه «المنذر بن حمام» ولادخل له في أحداث المقامة، وإنما هو راوية يتلقى حديث المقامة

---

(١) تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين) : ص٣١٧.

(٢) المقامات اللزومية : ص٢٣.

(٣) عصر الدول والإمارات (الأندلس) : ص٥٢٤.

عن السائب بن تمام الذي يكنّى بأبي الغمر، وقد يشترك في قصة المقامة أحياناً فتيان هما ابنا الشيخ أبي حبيب: غريب وحبيب.

وإذا استثنينا المقامتين الثلاثين والخمسين، وهما في الشعر والشعراء وفي النظم والنثر، وجدنا أن العقدة في أكثر المقامات الأخرى تقوم على تنكُّر الشيخ المحتال، وعلى مهارته في الوعظ والتذكير بالآخرة والموت، ثم انكشاف حال الشيخ للسائب بن تمام. وكثيراً ما يفرّ هذا الشيخ بعد أن يفوز بما يريد، لكنه في كل مَرة يترك رقعة، فيها شعر يشرح فيها حاله وحيله.

تلك هي شخصيّة المكدّي التي استغلّها الحريري وبديع الزمان، لم يغيّر السّرقسطي في طبيعتها شيئاً، وإنما غيّر في الحيل والأساليب، وجعل المقامة معرضاً للبراعة الأسلوبية كما فعل الحريري والبديع من قبل.

وقد جاء السّرقسطي بمقاماته مرقّمه من واحد إلى خمسين[1]، إلاّ أنه اتخذ لبعضها عناوين تدل على موضوعاتها (البحرية٧، الفارسية ١٢، الخمرية ١٩، والنجوميّة ٢٦، مقامة القاضي ٢٧، الحمقاء ٢٨، مقامة الشعراء ٣٠، مقامة الدب ٤١، الفرسية ٤٢، الحمامّية ٤٣، العنقاوية ٤٤، الأسدية ٤٥، البربرية ٤٦، في النظم والنثر ٥٠) واتخذ لبعضها الآخر عناوين تدل طريقة السجع التي سار عليها المثلثة ١٦، المرصّعة ١٧، المدبّجة ١٨، الهمزية ٣٢، البائية ٣٣، الجيمية ٣٤، الذليّة ٣٥، النونية ٣٦، على نسق الحروف ٣٧، على نسق الحروف أيضا ٣٨، على نسق حروف أبجد ٣٩، على حروف أبجد أيضاً ٤٠) واكتفى في الأربع والعشرين مقامة الباقية بمجرد ذكر أرقامها الترتيبية في المجموع (المقامة الأولى، المقامة الثانية، والمقامة الثالثة، ...).

---

(١) انظر المقامات اللزومية (مقدمة المحقق): ص٣٧.

وليس من شأن هذه الدراسة أن تحلّل مقامات السّر قسطي الخمسين وتخصّها بالدراسة الموضوعية والفنية، فذلك قد يحتاج إلى أكثر من بحث متخصّص، ولكننا سنتناول موضوعات تلك المقامات وسماتها الفنية بالقدر الذي يفيدنا في حديثنا عن المضامين والخصائص الفنية للمقامات الأندلسية، في الفصل الثالث من هذه الدراسة. وهذه مقامةٌ من مقامات أَبي الطاهر، نقدمها تامّة ليظهر للقارئ أُسلوبه وثقافته الواسعة.

المقامة الثانية(١)

حَدَّث المُنذِرُ بنُ حُمام، قال: حَدَّثنا السَّائبُ بنُ تمامٍ، قالَ: لَمَّا فارقتُ جُرْجانَ، أُريدُ أَرَّجانَ(٢) بَرَّحَ بِي الشَّوقُ، فَسِرْتُ أَسْتَصْحِبُ الرِّفَاقَ، وأَجُوبُ الآفاقَ، حَتَّى فارقتُ المأهُولَ، وركبتُ المجهُول، وإِذا أنا بِلُمَّةِ رِجالٍ(٣)، على نجائبَ(٤) عِجَالٍ، يَخُبُّونَ(٥) في أرضٍ نَطِيَّةَ(٦)، وينْطوون على عزْمةٍ وطِيَّةٍ(٧)، فعطَفُوا عليَّ الزِّمامَ، وبذلُوا التَّحيَّةَ والذِّمام(٨)، ثُمَّ قالُوا: «مَنِ الرَّجُلُ الوَحِيدُ؟ وإلى أَيْنَ عَنِ المَهْيَعِ(٩) تَحِيدُ؟» فقلتُ: «مَنْ قَذَفَتْهُ المَسَارِبُ،

(١) المقامات اللزومية: ص ١٦ – ٢٨، وأفدنا في شرح معاني المفردات من كتاب {في الأدب الأندلسي} للدكتور محمد رضوان الداية: ص ٢٦١-٢٦٦.

(٢) جرجان مدينة بين طبرستان وخراسان، وأرَّجان: مدينة قريبة من شيراز والأهوار بفارس.

(٣) لمّة: جماعة.

(٤) النجائب جمع النجيبة: الإبل الخفيفة السريعة.

(٥) يخبّون: من الخبب وهو نوع من السير السريع.

(٦) نطيّة: بعيدة .

(٧) الطيّة: النيّة.

(٨) الزمام: حبل الدابة تُقاد منه. والذّمام: العهد.

(٩) المَهْيع: الطريق الواضح الواسع.

ورمَتْ بِهِ المُشارِقُ والمغارِبُ». فقالوا: «رُزِقْتَ المُنى، ووُقِيْتَ المَنى[١]، ويُسِّرَ لَكَ الطَّريقُ، وُبشِّرَ بكَ المَعشَرُ والفريقُ، هَلْ لكَ عهدٌ بالعُذيبِ والغَميمِ[٢]؟ وهل لا قَيْتَ حَيَّيْ أسَدٍ وتَميمٍ؟ وهل مررتَ بالوَعساءِ[٣]، وعُجتَ على الأجارع والأَحْسَاءِ[٤]؟» فَقُلْتُ: «وسَقَطَ السَّائلُ على الخَبيرِ[٥]، وأتاهُ بالقَبيلِ والدَّبيرِ[٦]، تَركتُها والكلأ جميمٌ[٧]، والنَّبْتُ عَميمٌ، مِن أرضٍ صَفَتْ مِنها المَشَارِعُ، وضفتِ[٨] الأباطحُ والأجارِعُ، فتضاحكَتِ الأزهارُ والأنوارُ، وتألَّفَ الفِزْرُ والصِّوَارُ[٩]. وتصاحَبَ الآنِسُ والنَّوارُ[١٠]، وتَغايرتِ الأنجادُ والأغوارُ. يالَهُ مِن مرتعٍ خَصيبٍ، وحظٍّ لِرائِده مُصيبٍ، غيرَ أنَّ بها مِنْ أسدٍ وسُليْم[١١]، كُلَّ أَسَدٍ وأَيْم[١٢]، فقد تقصَّدت عليها الذَّوابلُ[١٣]، وتفانَتِ القبائِلُ والقنابِلُ[١٤]، فجُدِّدتْ عَلَيْها الذُّحُولُ[١٥]، وهانَتْ عِندَها المُحُولُ[١٦]، وتأكدتِ الأحقادُ، وتأبَّدتِ

---

(١) المني: القدر والموت.

(٢) العُذَيب: ماءٌ بين القادسية والمغيثة أو هو واد في بلاد بني تميم، والغميم موضع بين مكة والمدينة.

(٣) الوَعْساء: موضع.

(٤) الأجرعان: موضع باليمامة والأحساء مواضع كثيرة، ومنها مدينة مشهورة بالبحرين (شرق الجزيرة العربية).

(٥) في أمثال العرب: (على الخبير سقطت) .

(٦) أي أتاه بظاهر الأمر وباطنه.

(٧) جميم: مجتمع كثير.

(٨) ضفت: كثرت.

(٩) الفِزْر: القطيع من الغنم، والصّوار : القطيع من البقر.

(١٠) النوار: ما ينفر من الظباء والوحش.

(١١) أسد وسليم: من القبائل العدنانية.

(١٢) الأيم: الحيّة.

(١٣) تقصّدت: تكسرت ، والذّوابل: الرّماح.

(١٤) القنابل: الطّائفة من الناس والخيل.

(١٥) الذحول جمع الذحل: الثأر.

(١٦) المحول جمع المَحْل.

الأحْقاف[1] والأعْقادُ، وأُذِيلَ عَليها المَصُون[2]، واتُّخذتِ الصيَّاصيُ[3] والحُصُونُ، ففارقَتْ تَمِيمُ حِماهَا، ورَماها بِالصَّغار مَن رَماها، فتمَيَّزَ مِنهم فَتًى يرفُلُ مِنْ همَّتِهِ في كَرَمٍ[4]، وَيأْوي مِن بَأْسِهِ إلَى حَرمٍ، فهلَّلَ وكَبَّرَ، وأقبلَ وأدبرَ، وقال: لأُمِّ الرَّائدِ الهَبَلِ[5]، ولا جادَ القَطْرُ ولا السَّبل[6]، أللهِ إنَّ الفَوْزَ لأسدٍ، وما القَومُ مِنْ ليفٍ ولا مسَدٍ. لقد أهدَيتَ العَجبَ العجيبَ، وَبَعَثتَ الشَّجنَ والوَجيبَ، لقد أتَى الزَّمانُ بعَجَبه، وَأطلعهُ قبلَ رَجَبه[7]، فعوَّضَ مِنْ الرَّأْسِ بالرَّجلِ، ومِنَ التَّاجِ بِالحِجْلِ[8]، وغَلَّبَ الوشيظَ على الصَّمِيم[9]، والحَمِيدَ على الذَّميمِ، والمجْعَ عَلى الزَّمِيعِ[10]، والفذَّ[11] على الجَمِيعِ، والتَّوالي عَلى الهَوادِي[12]، والعَيْر[13] على الجَوادِ، والفِدانَ على البَاسِلِ[14]، والنابح على العَاسِلِ[15]،

---

(١) الأحقاف: مكان، وأصله جمع حقف: ما اعوَجَّ من الرمل، وتأبدت: توحَشت. والأعقاد جمع العقد: المتراكم من الرمل.

(٢) أُذيل: امتهن.

(٣) الصّياصي بمعنى الحصون.

(٤) أصله من رَفل في ثوبه جَرّه (لطوله) وفي الكلام استعارة.

(٥) الرائد: الذي يسبق القوم لمعرفة الطريق، والهَبَل: الثكل.

(٦) السَّبل: المطر .

(٧) إشارة إلى المثل: عش رجباً تر عجباً.

(٨) الحجل: الخلخال.

(٩) الوشيظ: الدخيل ، والصميم : الأصيل.

(١٠) المجعَ: الأحمق، والزميع: الشجاع القدام.

(١١) الفذّ: الفرد.

(١٢) التوالي: الأعجاز، والهوادي: الأعناق. والعرب تقول: ليس هوادي الخيل كالتّوالي.

(١٣) العير: الحمار.

(١٤) الفدان: الثور. والباسل: الأسد

(١٥) العاسل: الذئب.

والأنزل على الطَّامِحِ[١]، والأعزل على الرَّامحِ[٢]، وابْنَ اللَّبُون[٣] على العَوْدِ، والسَّبَلَ عَلى الجَودِ[٤]، والشَّاحِجَ عَلى الصَّاهِلِ[٥]، والظَّامِئَ عَلى النَّاهِلِ[٦]، وفاضلَ النَّبعَ بالغَرَبِ[٧]، والعَجمَ بالعَرَبِ.

فانبرى سيِّدُ القَوْمِ، فَقالَ: لقد ثَنيتَ العَزائِمَ، ونَبَّهتَ النَّوائِمَ، وأَبَّنْتَ الأحياءَ، وذمَرْتَ القَبائِلَ والأحْياءَ[٨]. ثُمَّ أشار إلى شيخٍ كالعُرجُونِ[٩]، يمزُجُ صَفواً بأُجُونٍ[١٠]، ووَقاراً بِمَجُون، فقال: وأنتَ يا أخا اللَّسنِ، والبيانِ الحَسَنِ، فما رَأْيُكَ وقد طَرحَتْنا الطَّوَارحُ، فيما جرتْ بهِ السَّوانِحُ والبوارح؟ فقالَ: أرَى أن تُحمِلَني جواداً، وترقبَ مِني عِواداً، وتَقدحني وارياً، وترسِلَني سارياً، وأنْتَابُ القومَ، وأُطِيلُ الحومَ، وأَتَخَلَّلُ القَبَائِلَ والشُّعُوبَ، وأستَخْبرُ الصَّادِحَ والنَّعُوبَ، وآتيكَ بالخَبرِ مِنْ فَصِّهِ[١١]، وبالحَديثِ على نَصِّهِ، وأُوشِكُ نحوكُمْ إياباً، ولا أُطيلُ عنكُم غِيابَا، فَتعلَمُ أينَ استَقَلَّت بعشائِرِكَ المَنازلُ، وعَمَّا انقلَبَ العدوُّ المُنازِلُ، فقال: إنَّ الرَّأْيَ رَأيُكَ، وإن شاقَنا بُعْدكَ ونَأْيُك، قال: فامتَطى

(١) الأنزل: المنخفض. والطّامح: العالي.

(٢) الرامح: ذو الرمح، وفي الكلام تورية بأسماء النجوم.

(٣) ابن اللَّبون من الإبل : الفتي. والعود: المسنّ.

(٤) السَّبل: المطر والجود الكثير منه.

(٥) الصّاهل: الحصان، والشاحج: الحمار.

(٦) النّاهل: الذي ارتوى.

(٧) النبع: شجر تتخذ منه السّهام والقسي، والغرب: شجر أضعف منه.

(٨) ذمره: حضّه وشجّعه.

(٩) العُرجون: عذق النخلة إذا يبس واعْوَجّ.

(١٠) الأجون: الماء المتغيّر الطّعم واللون .

(١١) أي من أصله. وفي أمثال العرب: يأتيك بالأمر من فَصّه.

اليَعْبُـوبَ(١)، ونَفَـضَ الجُيُـوبَ، وتَقلَّـدَ الحُسَامَ، وتَـوَفَّرَ الجِسَامَ، ومَـلأ المَـزادَ، واحتقَـبَ الـزَّادَ(٢)، وقـالَ: أسـتَودِعُ الله مِـنْكُم كِرَامـاً، وأسـأَلُهُ أن يُيَسِّرهُ مَرَامـاً. فَتَبِعْتُـهُ مُوَادِعـاً، وحَسِبْتُهُ مُخادِعـاً، فَأَرَابَـهُ مِنّـي مُرِيـبٌ، وقـالَ: حَنانيْـكَ يـا غَرِيـبُ وأَنْشَدَ:

أَمَـا تَـرَى الآلَ والسَّرابَا والـدَّهْرَ بِـالحُرِّ قَـدْ أَرَابَـا
إذَا أَرَاكَ الزَّمَـانُ وَجْهـاً فَـسِرْ عَـلَى وَجهِـكَ انْـسِرابا
ولا تُبَـلْ عَـنْ مَـلام قَـوْمٍ قَـدْ أَرْسَـلُوا نَحْـوَكَ الحِرابـا
وَلا تِكُـنْ عَـاجِزِ المَـسَاعِي وامْـلأ إذَا أَمْكَـنَ الجِرابـا
وَرِدْ بِـمَاءِ غَـدِيرَ خُـمٍّ تَـسْتعْذِبِ المـاءَ والـشَّرابَا
وَكُـنْ بِأَنْبَائِهـا عَلِـيماً والْـقَ بِهَـا الـذِّئْبَ والغُرَابَـا
ولا تَهَـبْ مِـنْهُمْ جُموعـاً واغْـنَ بِهَـا بَلْقَعـاً خَرابـا
كُـلٌّ عَـلى ظَهْرِهَـا غَرِيـبٌ فَكَيْـفَ تَـشْكُو بِهـا اغْتِرَابَـا؟
وَكُـلُّ مـا فَوْقَهـا تُـرابٌ فَـما لَنَـا نُمْـسِكُ التُّرابـا؟

فقلت: «الشَّيْخُ، والله، أبو حَبِيبٍ، ومَنْ لكَ بِـذلِكَ التَّشْبيب أو التَّسبيب؟ وكَـما راجَعَتْكَ الفُتُوَّةُ، هَلاَّ عَاوَدَتكَ المُروَّةُ، لَشَدَّ مَـا دَارَيْـتَ النُّصُولَ(٣)، وازْدَرَيْـتَ الـذوابِلَ والنُّصُولَ(٤)، فمضَى عَنّي وَهُوَ يَقُولُ:

---

(١) اليعبوب: اسم فرس مشهور، وهو في الأصل: الطويل السَّريع.

(٢) ملأ حقيبته.

(٣) نصل الشعر: زال عنه خضابه.

(٤) الذَّوابل: الرِّماح، والنُّصول: السُّيوف.

هَيهاتَ مِنكَ عوادي ... والدَّهْرُ جَمٌّ العَوادِي
وَذُو الحِزَامَةِ غَادٍ ... بِكُلِّ شِعْبٍ وَوَادِي
والمَرْءُ بَيْنَ سَبِيلَيْ ... رَوائِحٍ وَغَوَادِي
وَلِلْعَواقِبِ يَوما ... ظَواهِرٌ وبَوَادِ
قُلْ لِلْعِرَاقَيْنِ عَنِّي ... وَقُلْ لأهْلِ السّوادِ
مَا لِلْحَواضِرِ تُغْرِي ... بِكَيْدِ أهْلِ البوادِي
لله أبيضُ حرٌّ ... خدعتُه بسوادي
وَرُبَّ سَمْحٍ جَوادٍ ... رَزَأْتُهُ بِجَوَادِ
كَمْ ضَرَّ قُرْبُ وِسَادٍ ... وَغَرَّ طُولُ سِوَادِ(1)
هَلْ يَمْنَحُ الدَّهْرُ يوماً ... رِيَّ النُّفُوسِ الصَّوادي؟
فَقَدْ أطَالَتْ إليهِ ... شَكْوَى الجَوَى والجَوَادِ

---

(١) السّواد: المسارّة، وفي أمثال العرب: (قُرب الوساد وطول السّواد). وله قصة انظرها في أمثال الميداني .

تحليل مقامة ابن أبي الخصال في معارضة الحريري[(١)]

في رسائل ابن أبي الخصال مقامة واحدة مطوّلة، كتبها في معارضة مقامات الحريري. وقد استهلها ابن أبي الخصال بعبارة: «قال الحارث بن همام». فهو يتخذ الحارث بن همام وأبا زيد السّروجي بطلين لمقامته، أي أنه - في معارضته للحريري - لم يغير الاسمين اللذين أجراهما الحريري في مقاماته.

وتجري حوادث المقامة في الريف؛ فقد كان الجو ماطراً، والفلاحون يستشعرون السرور بنزول الغيث. ويمرُّ ببيت قد تحلّق فيه الناس، وصاحب البيت قد هشّ للمجتمعين، وقام يخدمهم بنفسه، وإذا الشيخ يتوسط الحلقة، يبهر الجمع بفصاحته، ويدعوهم لعطائه، ويستثير دوافع السخاء فيهم بفصاحته ونحيبه: «أيها الجَمْع الأريض، والسُّؤدد العريض، والنفر البيض، والنائل المستفيض، والهمم السامية والحفائظ الدامية، والسيوف الماضية، والليوث الضارية. حقاً إنكم لقطب الرجاء، وَرَحا الهيجاء، وكَشْفُ الغمّاء، وجلاءُ العمى والعماء، أما والذي كَلأَكم وأنبت كلأكم، وملأ بالخيرات ملأكم، إنّ للنِّعَم لشُكراً هو أوسع غاية، وأرفع راية، وأرقُّ أنفاساً، وأضفى لباساً، وأعلى مظاهر، وأزكى بواطن وظواهر»[(٢)].

(١) انظر نصّ المقامة محقّقاً تحقيقاً علمياً دقيقاً ومنشوراً في: رسائل ابن أبي الخصال، تحقيق د. محمد رضوان الداية، ص٤٢٠-٤٤٩.

والحريري هو أبو محمد القاسم بن علي الحريريّ البصري (٤٤٦-٥١٦هـ)، أديب كاتب مشهور، له عدد من المؤلفات منها درة الغواص في أوهام الخواص، ومقاماته التي طبعت مراراً، وشرحها لغويون وأدباء كثيرون. وكان لتلك المقامات صدى كبير في الأندلس، فدرسها الأندلسيون، وشرحوها. وعارضها السرقسطي في مقامات، وهذا ابن أبي الخصال يعارضها أيضاً.

(٢) انظر رسائل ابن أبي الخصال: ص٤٢٣. الأريض: أرض فلان، صار خيّراً متواضعاً فهو أريض.

ثم أخذت الصُّرر تُفتح، وأمطروا الشيخ منها بالدراهم: «فطلع سَعْدُه الغائب، وانثالت عليه الرغائب، فما شبّهتُ مطر عطائهم إلا بمطر سمائهم، والشيخ يتلّقف ولا يتوقّف، ويلتقط ما يسقط، ويدّخر ولا يؤخر، ويصطفي ما يعتفي، ويحتوي ولا يجتوي، ويلتوي طوراً ثم يستوي»(١).

وبعد انصراف الناس يتعرف الشيخ على الحارث بن همام، فيطلب إليه الحارث أن يبيت الليلة معه درءاً للصوص، فقال له: «إنك بمنزلة لصوص وفي خصاصةٍ وخصوصْ، وبأعينهم ما قَنْفَشْت، وتحت تحصيلهم ما جمعت وقمشت، ولا آمن هجومهم، ولا أضمنُ رجومهم، فحوِّل إلى منزلي رحلك، وأنزل بي محلك، فعندي خصب يملأ لهواتك، وصِرْفٌ تأتي على شهواتك»(٢).

ويبدو أن الحارث كان يزمع سرقة السروجي، ولكن السروجي ليس ممن يقع فريسة لغيره، فلم يقبل أن ينام في الفراش الوثير، بعد أن أكل الطعام الطيب، وقال للحارث: «السُهاد ولا هذا المهاد! والأرق ولا تلك السّرق! والمحاش ولا ذلك الفراش! كِلني للبداوة وحَمْل الإداوة، ما عرف جفني إلا الخطفة العجلى، ولا عهد جنبي إلا الحرّة الرَّجلى». (٣)

وفي الصباح استيقظ الحارث ليجد صاحبه قد غادر مرقده وقد ترك رقعة كتب عليها فيها ثلاث قصائد، فخفّ الحارث للسؤال عنه فوجده مرتهنا عند أحد الخمّارين؛

---

(١) رسائل ابن أبي الخصال: ص٤٢٥.

(٢) رسائل ابن أبي الخصال: ص٤٢٧. قنفش الشيء: جمعه سريعاً. وقمش الشيء: جمعه من ههنا وههنا. ما يرجم به من حجارة وغيرها.

(٣) انظر رسائل ابن أبي الخصال: ص٤٣٠-٤٣١.

المهاد: الفِراش. السّرق: الحرير (الواحدة سرقة). المحش: ما يوضع فيه الحديد كالكيس ونحوه.

لأنه شرب ولم يدفع النقود «وأنه بعد الصيانة ممتهن، وبما شرب مُرْتَهن، فخرجت أبوعُ الفضاء، وأُبادر القضاء، فلم يرُع الخمار إلا هجومي، وانكدارُ رجومي، فثار إلى الكلام، وألقى بالمودة والسلام».(١)

وتتحول المقامة بعد ذلك إلى وصف الحان والشاربين، ومن في الحان من غلمان وجوارٍ، وكيف ظل يتحيل على الخمار حتى عرف موضع صاحبه وعندئذ ذهب إليه واستخرجه، وجلسا معاً في الحان، فقضيا يوماً جميلاً طلب الحارث على أثره من أبي زيد أن يخلده في شعره «يا أبا زيد ! إن لهذه الأيام أوابد كأوابد الوحش فقيدها بالسهام، وخلّدها في الأوهام، واعقِلْها بالمأثور، ووكّل المنظوم بالمنثور، لِيُعرف يومُنا بسيماه، ولا يشتبه بِسواه». وتختم المقامة بمقطوعة من الشعر لأبي زيد السروجي.(٢)

---

(١) رسائل ابن أبي الخصال: ص٤٢٦. أبوع الفضاء: أقيسه بالباع. انكدر في سيره: أسرع وانقضّ. الرجوم: جمع رجْم، ما يرجم به من حجارة ونحوها.

(٢) رسائل ابن أبي الخصال: ص٤٤٨.

مقامتان لابن قزمان الزجال

١- مقامة في استهلال شهر رمضان[1]

«سلام على أُنْس المجتهدين، وراحة المُتَهَجِّدين، وقرَّة أعين المهتدين، والذي زيَّن الله به الدُّنيا، وأعزّ به الدين. شرَّف الله به الإسلام، وجعل أيامه رُقوما في عواتق الأيام، وشهوره غُرَراً في جِباه الأعلام، وحلَّ به عن رقاب الأمة قَلائد الآثام، ونزَّه فيه الأسماع عن المكاره، وصان الأفواه من رَفَثِ الكلام. أشهد أن الله أثنى عليك، وأدخل من شاء الجنَّة على يديك، وخصكَّ من الفضايل بما يمشي فيه التَّفسير حتى يَكلّ ويَسْأم، ذلك اللسان ويملُّ، وأبادت ذنوب الأمة بمثل ما أبادت الشمس الظِّلَّ، ذلك الذي يتهلل للسماء هلاله، ويهتزُّ العرش لجلاله، وترتّج الملائكة في حين إقباله، وتدخل الحُور العين في زينتها تكريماً، وتلتزم إجلالَه وتعظيماً، ويهتدي فيه الناس إلى دينهم صراطاً مستقيما، وتُغَلُّ الشياطين على ما خُيّلت، وتذوق وبال ما كادت به وتخيّلت، وثمِّر التقيّ لعبادة ربه ذيلا، وتهبط الملايكة إلى سماء الدنيا ليلا، وينتظم المُتقون في ديوانه انتظام السِّلك، ويكون خُلُوف فَم الصايم عند الله أطيب من ريح المِسْك، وتفتح الجنَّة أبواباً ، ويُغفر لمن صامه إيماناً واحتساباً، جزاءً من ربك عطاء حسابا، وبما فضَّلك الله على سائر الشهور، وقضى لك بالشَّرف والفضل المشهور، فَرَضَك في كتابه، ومدحك في خطابه، حيث قال ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ﴾. يعني تكبيرُ الناس عليك، وتقليبُ أحداقِهم بالنظر إليك، حين لُثِمت بالسحاب، ونظرتَ من تحت ذلك النِّقاب، وقد يمتاز الشَّيْب وإن استتر بالخِضاب،

(١) ورد نصّ المقامة في كتاب الإحاطة: ٢/ ص٤٩٨-٥٠٠.

حتى إذا وقف الأئمة منك على الصَّحيح، وصرحَّوا برؤيتك كلَّ التصريح، نَظَرت كل جماعة في اجتماعها، وتـأهبت القرَّاء لإشفاعها، واندفعت الأصوات باختلاف أنواعها، وتضرعت الألباب، وطلبت الموقف أواخر الأعشار والأحزاب، وابتدئت آلـم ذلك الكتاب، عندما أوقدت قناديل كأنها قد بَدَت من الصباح، ورقصت رقص النواهد عند هبوب الرياح، والله نُور السموات ولأرض، مثلُ نوره كمِشْكاة فيها مصباح، فأمّلك المسلمون في سرٍّ وجهر، وحُطَّت أثقال السيئات عن كل ظَهْر، والتُمست الليلةُ التي هي خيرٌ من ألف شهر، فنشط الصالحون لك صوماً، وهجر المُتَهجدِّون في ليلك نوماً، وأكْمَلْنَاك إن أذن الله ثلاثين يوما، فيا أيها الذي رَحَلَ. رحل بعد مُقامة، وقام للسَّفر من مقامه، ورأى من قضى حَقَّه، ومن قصَّر في صيامه، فمشى الناسَ إلى تَشْييعه، وبَكُوا لِفراقه وتوديعه، ونَدِم المُضَيعِّ على ما كان من تَضْييعه، ولم يثق بدوام العيش إلى وقت رجوعه، فعضَ على كفه ندما، وبكت عينه ماء وكبِده دماً، رويدا حتى أمرح في ميدان فِراقك، وأتضرع إلى حَنانك وإشفاقك، وأشفى من تَقْبيلك وعناقك، وأسَلُ منك حاجةً إن أراد الله قضاها، وشاء نفوذها وإمضاها، إذا أنت وقَفْت لربِّ العالمين، فَقَبلك من قوم، وردَّك في وجوه آخرين، إن تُثني جميلا، فعسى يصفح لعهده وإِن أسا، فعَلِم الله أني نويت التوبة أَوَّلاً وآخراً، وأَمُلْتُ الأداء باطنا وظاهرا، وكنتَ على ذلك لو هدَى الله قادراً، وإنما عُلِم، من تقصير الإنسان ما عُلِم، وللمرء ما قُضِيَ عليه به وحُكم، وإن النفس لأمَارةُ بالسُّوء إلا من رَحم، فإن غَفَر فبطَوْله وإحسانه، وإن عاقب فيما قدَّمتَ يدُ العبد من عصيانه، فيا وَحْشَةٌ لهذه الفرقة، ويا أسفا على بعد الشُّقة، ويا شَدَّ ما خلَّفْتهَ لنا بفراقك من الجَهْد والمشقة، ولطالما هَجَر الإنسان بك ذنبه، وراقب إعظاما لكربه، وشَرَحْتَ إلى أعمال البِرِّ قلبه. ومع هذا أتراك ترجع وتُرى، أم تُضَمُّ علينا دونك أطباق الثَّرى، فيا ويلتا إن حل الأجل، ولم أقضِ ديْنك، ورجعت وقد حال الموت بيني وبينك، فأغْرْب، لا جعله الله آخر التوديع، وأيّ قلب يستطيع.

٢- مقامة في استهلال شهر شوّال [(١)]

الله أكبر هذا هلال شوّال قد طَلَع، وكرَّ في منازله وقَطَع، وغاب أحد عشر شهراً، ثم رَجَع، مالي أراه رقيق الاستهلال، خَفِيّ الهلال، وروحاً تردّد في مثل أغلال، ما باله أمسى الله رْسمَه، وصحَّح جسمه، ورفع في شهور العام اسمه، على وجهه صُفْرةٌ بَيِّنة، ونار إِشْراقِه لَّينة، وأرى السحاب تعتمده وتَقِف، وتغشاه سُويَعْة وتنصرف، ما أراه إلاّ بِطُول ذلك المقام، وتوالي الأهوال العِظام. إصابة مرض في فصْلٍ من فصول العام، فعادته كما يُعاد المريض، وبكتهُ الأيام الغُرُّ والليالي البِيض، وقُلْنَ كلأك الله وكفاك، وحاطك وشفاك، وقُلْ كيف نجدك، لا فُضَّ فاك، هذا على الظَّن لا على التحقيق، ومجازٌ لا يحْكُم التَّصديق. وإِنه لَيَبعْدُ مثل هذا المقدار، أن يَقْدح فيه طول الغَيْب، وتواتُر الأسفار، أليس هو قد أَلِفَ مجالي الرِّياح، وصَحِب بَرْد الصَّباح، وشاهد الأهوِية مع الغَدْو والرَّواح، وطواها بتجربته طَّي الوِشاح، وذاك إلا أنَّه رأى الشمس في بعض الأيام ماشيةً، والحُسْن يأخذ منها وسَطاً وحاشيةً، ودلائل شبابها ظاهرةٌ فاشيةٌ، فوقع منها في نفسه ما وقع، وثَبَت على قلبه من النَّظر ما زرع، ووقع في شَرَكها، وحقَّ له أن يقع، فَرَثَتْ هي لحاله وأشفقت، ونَهَجت بوصالها وتأنَّقت، وقطعت من معدن نَيْلها وأنفقت، ورأت أنها له شاكلةٌ يبلغ أمَلَها، وتبلغ مَأْملَه، ولذلك ما مدَّت لذيذ السَّماح، فتعرَّضت بالعشِيِّ، وارتصدها في الصباح، مع ما أيقنّا به من الانقطاع، ويَمسُّنا من الاجتماع، كما نَفِذ القَدَر، وصدر الخبر، وقال تعلن لا الشمس ينبغي لها أن تُدْرك القمر، فَوَجَد لذلك وجْداً شديداً، وأذاقه مع الساعات شوقاً جديداً، وأصبح بها دنفاً وأمسى عميداً، حتى سَلَب ذلك بَهاه، وأذهب سَناه، وردَّه النحول كما شاه، ولقي منها مثل ما لقي غَيْلانُ منْ ميَّته، وجميلٌ من بُثَيَنته، وحنّ إليها حنين عُروة إلى عَفْرا، وموعدهما يوم وهَبَ ناقتة الصَّفراء،

(١) ورد نصّ المقامة في كتاب الإحاطة:٢/ ص٥٠٠-٥٠٤.

على رِسْلك أنى وَهَمت، وحَسِبت ذلك حقّاً وتوَهَّمت، والآن وقد فطِنت، وأصبت الفَصَّ فيما ظننت، إنه لقي رمضان في إقباله، وضَمَّه نقصان هلاله، وصامه فجأة ولم يَكُ في باله، فأثَّر ذلك في وجهه الطَّلْق، وأضعفه كما فعل بسائر الخَلق، و هاهو قد أقبل من سفره البعيد، فَقُل هو هلال الفِطْر أو قُلْ هو هلال العيد، فَلَقهَ صباح مَشى الناس فيه مَشْي الحباب، ولبسوا أفضل الثياب، وبرزوا إلى مُصَلاّهم من كل باب، فارتفعت هِمّةُ الإسلام، وشرُفَت أمة محمد ﷺ، وخَطَب بالناس ودعا للإمام، عندما طلعت الشمس بوجه كدَوْرِ المرآة، ولونِ كصفا المهراة. وخرج لا يُنْسيها ريمُ الفلاة. وقضوا السُّنَّة، وبذلوا الجهد في ذلك والمِنَّة، وسألوا من الله أن يُدْخِلهم الجنَّة، ثم خطبوا حمداً لله وشكراً، وذكروه كذكرهم آبائهم أو أشُد ذكراً، ثم انصرفوا راشدين، وافترقوا حامدين، وشبَّك الشيخ بيديه، ونظر الشّاب في كَفّيه، ورجعوا على غير الطريق الذي أتوا عليه، فلقد استَشفَى من الرُّؤية ذو عينين، وتذكَّر العاشق موقف البَيْن، وشقَّ المُتَنزِّه بين الصَّفين، فنقل عينيه من الوَشي إلى الدِّيباج، ووجوهٌ كضوء السِّراج، وعيونٌ أقْتلَ من سيف الحجّاج، ونظراتِ لا يُدفع داؤها بالعلاج، وقد زُيِّنت العيون بالتكْحيل، والشعور بالتَّرجيل، وكرَّر السِّواك على مواضع التَّقْبيل، وطُوِّقت الأعناق بالعقود، وضُرب الفِكر في صفحات الخدُود، ومُدَّ بالغالية على مواضع السجود، وأقبلت صَنْعا بأوْشِيتها، وعنت بأرديتها ودخلت العروس في حِلْيتها، ورُقِمت الكفوف بالحنّاء، وأُثْني على الحُسْن وهو أحقُّ بالثناء، وطُلِّقت التَّوبة ثلاثاً بعد البناء، وغصَّ الذِّراع بالسِّوار، وتُختِّم في اليمين واليسار، وأُمسكت الثياب بأيدي الأبكار، ومشت الأماء أمام الأحرار، وتقدمت الدَّايات بالأطفال الصِّغار، إذ امتلأت الدُّنيا سروراً، وانقلب الكلُّ إلى أهله مسروراً، وبينما كانت الحال كما نَصَصْت، والحكاية كما قصصْت، إذ تلألأت الدنيا برقا، وامتدَّ مع الأُفقُين غرباً وشرقاً ، ورَدَّ لمعانه عيون الناظرين زُرْقاً، ولولا أنه جرَّب حتى يَدْرا، لقيل قد طلعت مع الشّمْس شمسٌ أخرى، حتى أقبل من شَرُفَت

العربُ بنسبه، وفَخَر الإسلام بسببه، من انتَسَب إلى زَهْرةٍ وقُصَيّ، وازدانت به آل غالب وآل لُؤي، من إذا ذُكر المجد فهو مُمْسك بَنْده، أو الفضل فهو لابسٌ بُرْدَه، أو الفخر فهو واسِطَةُ عِقْده، أو الحُسْن فهو نسيج وحده، الذي رفع لواء العليا، وعارضت مكارمه صوب الحيا، وحَكَت محاسنه زهرة الحياة الدنيا. فأما وجهُه فكما شَرَقت الشمس وأشْرقت، وغَرُبت كواكب سمائها وشَرُقت، وتفتَّحت أطواق الليل عن غرر مجده وتشقَّقت، ولولا حياً يغلب عليه، وخَفَرٌ يصحبه إذا نظرت إليه، لاستحال النهار، وغارت لنوره كواكب الأسحار، ولكاد سَنا بَرقْه يذهب الأبصار، لا يحفل بالصبح إذا انْفلق، ولا بالفجر إذا عمَّ آفاق الدُّجا وطبَّق، ولو بدا للمسافر في ليله لطَرَق، قد عجم الأبنوس على العاج، وأدار جَفْناً كما عَطَف على أطفالها النِّعاج، يَضْرب بها ضرب السيف، ويُلمُّ بالفؤاد إلمام الطَّيف، ويتلقَّاها السَّحَر تلقِّي الكريم للضيف، لو جرَّدها على الرَّيْمِ لوقف، أو على فرْعون ما صرف من سِحْره ما صرف، أو على بِسْطام بن قَيْس لألقى سِلاحه وانصرف، وأما أدواته فكما انشقَّت الأرض عن نباتها، وأخذت زُخْرُفها في إنباتها، ونَفَح عَرف النَّسيم في جباتها ، يتفنَّن أفانين الزهر، ويتقلب تقلُّب الدهر، وتَطلعُ له نوادر كالنجوم الزُّهر، لو أبصره مُطَرِّف ما شهر بخطّه ، ولا جرَّ من العُجْب ذيل مِرْ طِه، ولا كان المخبر معه من شَرطه، وأما أنه لو قُرِئ على سحبان كتابه، وانحدر على نهره عُبابه، وملأت مسامعه أطنابه وأسبابه، ما قام في بيانه ولا قَعد، ولنزل عن مَقامه الذي إليه صَعد، ولا خَلّف من بلاغته ما وعد، لعمرك ما كان بشر بن المعتمر يتفنن للبلاغة فنونا، ولا يتقبَّلُها بطوناً ومُتوناً. ولا أبو العتاهية ليُشْرِطُها كلاماً موزوناً، ولا نمّق الحسن بن سهل الألفاظ، ولا رفع قسّ بن ساعدة صَوْته بعكاظ، ولا أغاظ زيدُ ابن علي هشاماً بما أغاظ. وأمّا مكارمه فكما انْسَكب الغيث عن ظِلاله وخرج الوَدقُ من غِلاله، فتدارك النَّعمة عن فوتها، وأحيا الأرض بعد مَوْتها، ذلك الشريف الأجلُّ، الوزير الأفضل، أبو طالب ابن القُرشي الزُّهري، أدام الله اعتزازه، كما رقَم في حُلَل الفخر

طِرازه، فاجتمعت السادة بعد افتراقها، وأشرق وجه الأرض لإشراقها، والتَفّت الثياب بالثياب، وضُمَّ الرِّكاب بالرِّكاب، ولا عهدٌ كأيام الشباب، فوصل القريب البعيد، وهَنّوْه كما جرت العادة بالعيد، فوقف مع رِكابه وسَلَّمت، وجرت كلاماً وبه تكَلَّمت، فقلت تقبَّل الله سعيك، وزَكّى عملك، وبلَّغك فيما توده أمَلَك، ولا تأملتَ وجهاً من السُّرور إلا تأمَّلَك، ونفَعَك بما أوليت، وأجزل حظّك على ما صُمْت وصَلَّيت، ووافقتك لعلَّ وساعدتك لَيْت، وهنّاك عيد الفطر وهنأتهَ ، وبداك بالمسرات وبدأته، وتبَرّأ لك الدهر مما تحسد وبرّأته. وهكذا بِحَوْل الله أعياد واعتياد، وعمرٌ في دوام، وعزٌّ في ازدياد، والسُّنة تفصح بفضلك إفصاح الخطباء من إياد، وأقرأ عليك سلام الله ما أشرق الضحا ، ودام الفِطْر والأضحى.

من المقامة الدَّوحيّة[(١)]
لابن عياض اللّبلي

«قال ميزان الأشواق، ومعيار المحبّين والعشّاق:

نَبَتْ بي معاهدُ الأحباب، في ريعان الشباب، لِقَيْنَةٍ أذكت نيرانها، وألقت بمسقط الرأس جرانها، فامتطيتُ الليل طِرْفاً، ومزَّقت السنان طَرْفاً، وجعلتُ أمسحُ الأرض نَجْداً وَوَهْداً، وأستطعم الآمال صاباً وشَهداً، كالعنز لا يستقر بمنزل، ولا وُجِدَ عن رحلة بمعزل، أصعد من خصور القيعان، إلى روادف الرِّعان، وأنحدِرُ من متون الهضاب، إلى بطون اليباب، حتى عجمتني أنيابُ النوائب، وتقاذفت بي صدورُ المشارق إلى أعجاز المغارب، وقد حللت من الاغترابُ بين الذروة والغارب، وكنت أكلَف بالبلدة الحمراء، كلف الكميِّ بالصَّعدة السمراء، وأَحِنُّ إلى جوارها، حنين الناقة إلى حوارها، للذي اشتُهِر من حُسْنِها وطيبها وخِصبها، واختيالها في حُلل شَربها وعُصْبها، نهداني إليها حادي الاغتراب، وتطاوحت بي إليها طوائح الاضطراب، ولا أمل إلا اعتلاقُ خِلٍّ ظريف، والإصغاء إلى نبأ طريف. وأنشد فيها:

عَرْبَدَ بالهجر والعتاب ... نَشْوانُ من خَمْرَة الشبابِ
طفا على ريقه حَبَابٌ ... فاحتجب الخَمْرُ بالحَبَابِ
أنكرتُ إلا سَقَامَ طَرْفٍ ... وأيُّ سيفٍ بلا ذبابِ
إن أنا لاحظتُهُ تَوارى ... من دمعةِ العين في حجابِ
أبصرته جَذولاً ووُرقاً ... من دمْعِ عينيَّ وانتحابي
لم تستبِقْ سَلوةٌ وحُبٌّ ... إلا وطَرْفُ السُّلوِّ كابي

(١) المغرب في حُلى المغرِب: ١/ ص٣٤٤.

التحليل:

هذه هي القطعة التي احتفظ بها ابن سعيد من هذه المقامة، مع أنه ترجم لكاتبها أبي عبد الله محمد بن عياض اللبلي في كتابيه «المغرب»، و «رايات المبرزين»[١]. وهذا الجزء الذي أورده صاحب «المغرب» وهو المقدمة التي يبدأ بها الراوي عادة موضوع مقامته، يقول:

«قال ميزان الأشواق، ومعيار المحبين والعشاق...». ثم انتقل إلى وصف تنقّله محمولاً على جناح القلق، منحدراً أو صاعداً، وكان يكلف بالبلدة الحمراء، لما عُرف من طيبها وخصبها....».

ويبدو أن المقامة العياضية اقتصر موضوعها على الغزل فحسب، ولذلك سمّاها ابن الأبار في كتابه «التكملة»:«المقامة العياضية الغزلية»[٢]. وقد اختلف الباحثون حول موضوعها: فرأى أحدهم أنّ موضوعها اشتمل على الغزل فقط[٣]، بينما اقتصر موضوعها عند د. إحسان عباس على التنقّل[٤] ونرى أن هذه القطعة التي بقيت من مقامة ابن عياض اللبلي تجمع بين الغزل والاغتراب.

---

(١) انظر ص٤٦ من دراستنا هذه.

(٢) التكملة: ١/ ص٥١٥.

(٣) د. يوسف نور عوض: فن المقامات بين المشرق والمغرب، ص٣٠١.

(٤) تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف المرابطين) : ص٣٢٥.

من مقامة[١]

لابن غالب الرصافي البلنسي

قال من مقامة يصف القلم:

قصير الأنابيب لكنه ... يطول مضاءً طِوال الرِّماح
إذا عبَّ للنفس في دامسٍ ... ودبَّ من الطِّرس فوق الصَّباح
تجلَّت له مُشكلاتُ الأمور ... وَلانَ له الصَّعب بعد الجِماح

فَلَوْلاه لغدت أغصانُ الاكتساب ذاوية، وبيوت الأموال خاوية، وأسرعت إليها البوسى، وأصبحت كفؤاد أمّ موسى، فهو لا محالة تَجْرُها الأربحُ، وميزانها الأرجح. به تُدرُّ ألبانُها، وتثمرُ أفنانها، ويَسْتَمِرُ إفضالها وإحسانُها، وهو رأس مالها، وقطب عُمّالها وأعمالها. وصاحب القلم قد حوى المملكة بأسرِها، وتحكَّم في طَيّها ونَشْرِها، وهو قُطب مدارها، وجُهينة أخبارها، وسرُّ اختيارها واختبارها، ومظهر مَجْدها وفخارِها، يعقد الرّايات لكل والٍ، ويمنحهم من المبرَّة كلَّ صافية المقيل، ضافية السربال، يُطفي جمرة الحرب العوان، ويُكابُدُ العَدوَّ بلا صارم ولا سِنان، يقُدُّ المفاصل، ويتخللُ الأباطحَ والمعاقل، ويقمع الحواسِدَ والعواذل.

(١) وردت الأبيات والقطعة النثرية في: الإحاطة ٢/ ٥١٤-٥١٥، وديوان الرصافي: البلنسي ص٥٣-٥٤، وكتاب أدباء مالقة: ص٨٤-٨٥.

التحليل:

هذه القطعة جزء من مقامة لابن غالب الرصافي، وقد جاءت في تسعة أسطر مُمّهد لها بثلاثة أبيات من الشعر. موضوعها – كما ذكر ابن الخطيب – في وصف القلم(١). وقد أورد صاحب كتاب «أدباء مالقة» هذه القطعة، دون أن يذكر أنها جزء من مقامة، ولكنه مهّد لها بعبارة «وله رحمه الله في قلمٍ نظماً ونثراً» (٢).

عدّد الكاتب فوائد القلم ومناقبه، وأشار على أن أثره وفعله يوافق فعل السيف والرمح، وهو هنا يتحدث طبعاً عن الكتابة الديوانية. وانتقل بعد ذلك إلى الحديث عن صاحب القلم وفضائله، وهو يقصد كتاب الدواوين. وكيف أن الكاتب هو المصرّف الحقيقي لشؤون الدولة، «وصاحب القلم قد حوى المملكة بأسرها، وتحكّم في طيها ونشرها، وهو قطب مدارها، وجهينة أخبارها، وسر اختيارها واختبارها، ومظهر مجدها وفخارها».

ولا بأس في الإشارة هنا إلى أن موضوع المفاخرة بالقلم، والمقارنة بينه وبين السيف من الموضوعات التي تناولها الأندلسيون. وذكر صاحب «المطرب» أن أبا حفص أحمد بن محمد بن برد أول من سبق إلى ذلك في الأندلس(٣)، وذلك في رسالة كتبها، واتخذت شكل المناظرة بين السيف والقلم(٤).

---

(١) الإحاطة في أخبار غرناطة: ١/ ص٥١٤.

(٢) أدباء مالقة: ص٨٤.

(٣) المطرب: ص١٢٧.

(٤) انظر رسالة ابن برد في المفاخرة بين السيف والقلم في الذخيرة: ق١/ م١/ ص٥١٨، ونفح الطيب: ٣/ ص٥٤٦.

من مقامة
«قسطاس البيان في مراتب الأعيان»(١)
ليحيى بن محمد الأركشي

قال يصف الفقيه علي بن عبد الله بن خلف(٢) : «فقيه عارف، وحاملُ أدوات ومعارف، وما هو إلا زبدةُ زمانٍ تمخّضَ العصرُ عنها، وروضةُ علومٍ تضَّوع القطر منها، تُلتَمس أشتاتها من عنده وُتقتَبس، ويُفزَعُ إليه في كلِّ ما أشكل منها والتبس، ذهب في اقتنائها أهدى مذهب، وامتطى إلى حامليها صهوة الهجير الملهب، حتى انتهجت له شعابها، وانقادت إلى فهمه صعابها، وما زال متتبعاً مساقط أثرها، حتى رَوىَ من سلسبيلها وكوثرها، فشيَّد ما عُني به تشييداً، وَجوَّده إتقاناً وتقييداً، فطالبو العلم والأدب، يَنْسلون إليه من كل حدب، فيقتبسون عيونه من عنده، ويقتدحون فيه وَاريَ زنْده، والله تعالى يبقيه مُعتنياً بالعلم وأهله، متلقياً لهم بِرُحْبِه وسهله، ولا يزال موصوفاً بالنبالة والذكاء، كما لم يزال مجبولاً على الجلالة والزكاء، ولا برِح الدهر بإقباله خاطباً، والسعد في حباله حاطباً».

---

(١) انظر هذه القطعة من المقامة في الذيل والتكملة : ق١ / ص٢٢٨ (ترجمة ٤٥٥).

(٢) ذكره ابن عبد الملك المراكشي، فقال: «كان خاتمة العلماء بشرق الأندلس في عصره. متفنناً في معارف جمة، راسخاً في العلم، مقرئاً، مجوِّداً، مُفسِّراً، مُحَدِّثاً، راوية، حافظاً، أمَّ في الفريضة زماناً طويلاً، توفي سنة ٥٦٧هـ (الذيل والتكملة: ق١/ ص٢٢٦).

مقامة (١)

لمحارب بن محمد الوادي آشي

وصرتُ أكلُفُ البريَّةَ، بحضرةِ المريّة(٢)، فنبذتُ عن غير ورْدِها كُلَّ نيّة، وأخذتُ على قُعُودِها كلّ ثنيّة، وسِرْتُ أُعْمِلُ السَّيْرَ والسُّرى، ولا أذوقُ إلا على الأكوار(٣) الكرى، وَأَكِلُ العيس(٤) إلى نهج البُرى(٥)، وأحثُّ إليها ركابي، وأركبُ مِن أجلها طِرْفاً(٦) غيرَ كَابي، وأطْوي نَحْوَها المراحِلَ، وأطوف البيداءَ والسواحل، إلى أنْ وَرَدتُ مدينةَ سَبْتَة، وقد هجرتُ طاغوتَ الصِّبا وجِبْتَه، وطَلَّقتُه ثلاثاً البتَّة، وحللتُ الجزيرةَ(٧)، ولم أعْبَا بغوير ولا غُويرة(٨)، حسبما يقتضيه سَنِينُ السِّنِّ، ويرتضيهِ حالُ الرَّجُلِ المُسِنِّ، فامتطيتُ منها ثَبَجَ العَزْمِ، وتخطّيتُ مِن وسادِ الكَسَلِ إلى فِجاج الحَزْم، وأدخلتُ على نونِ الإقامةِ حروف الجزم(٩)، فشحذتُ نَصْلَ حَزْمي للرِّحلة، ونبذتُ لانتحالِ الاغترابِ كُلَّ نِحْلة، وظلتُ أسيرُ، والقلبُ بيدِ الاشتياقِ أسير، حتى وصلتُ إلى مدينة وادي آش(١٠)، وجسمي

---

(١) ورد نصّ المقامة في رسائل ومقامات أندلسية: ص٨٢ – ٩٢.

(٢) المريّة: مدينة في جنوب شرق الأندلس، بناها الخليفة عبد الرحمن بن محمد الناصر لدين الله سنة ٣٤٤هـ، وكانت أعظم قواعد الأسطول الأندلسي في عصر الخلافة الأموية، وكان لها دور سياسي وحضاري عظيم في عصر الطوائف(انظر : الروض المعطار ص ١٨٣) .

(٣) الأكوار: جمع كوْر ، وهي الإبل الكثيرة العظيمة .

(٤) العيس: الإبل.

(٥) يقال: بريت البعير إذا حسرته وأذهبت لحمه، فأصابه الهزال من السفر والترحال.

(٦) الطِّرف(بالكسر) من الخيل: الكريم العتيق.

(٧) أي جزيرة الأندلس.

(٨) الغوير والغويرة: ماء لكلب معروف بناحية السماوة، والمقصود أنه لم يخش المخاطر.

(٩) كنايه: عن تصميمه وعزمه على الرحيل.

(١٠) وادي آش: مدينة في جنوب الأندلس، قريبة من غرناطة بنحو ستين كيلو متراً، وقد نُسب إليها محارب صاحب هذه المقامة ، وقد سقطت وادي آش سنة ٧٩٥هـ(الروض المعطار: ص ٦٠٤).

لايُتبينُ نحولاً في فِراش، وفِراَشي فوق أجنحِة الفَرَاش، فمثلتُ في حيطانها ، وحَصُلْتُ بين رُبَاهـا وغِيطانها،[١] فرأيتُ للحُسْنِ مقرَّ إيرادٍ وإصدار، وجمالَ قَطْرٍ لا يَجْري على مَقدار:

بَلَدٌ حيثما توجَّهتَ منهُ ... قابلتك الحِسَانُ مِن كُلِّ دارِ

فأظلَّتني أفياءُ تلك الأنشام، وأضلّتني عن المسيرِ حرجاتُ[٢] الأيكِ بها والبَـشام[٣]، وخلصتُ إلى دوحة فِرصادٍ[٤]، وجلستُ لإطلالِ مُرْشِدٍ بالمِرصَادِ، فبينَما أنا أنتظرُ الرفيقَ، والمُنْجَدَ على معرفِةِ الطَّرِيق، إذ نجم[٥] لي راكبٌ، يَسْري سُرَى الكَواكب، قد اعتقل أكمَلَ لأَمْة[٦]، وصَولج في خدِّه لامَه[٧]، واعتمَّ بأجملِ عِمامَة، وجعلَ الحذرَ وراءَهُ وأمَامَه، جَليـلٌ له هِمَةٌ تُجِلُّهُ، قليل على ظهر المطَّية ظِلُّه[٨]، قد تنكّب فرساً عربية، وكنانةً[٩] غَرْبيّة، له عِمّةٌ[١٠] تشهد له بعلوِّ الهِمَّة، ولثام[١١] يحذر عن ارتكاب الآثام، وقد ضوَى[١٢] منه أطراف المطارفِ[١٣]، حمائلُ سَيْفٍ وَصفه ذوو المعارف.

وفي الغمدِ موتورُ الهوى طالَ حبسُهُ ... عن الثأرِ حتَّى كادَ يفتكُ بالغِمدِ

---

(١) الغيطان: الأماكن المتسعة السهلة .

(٢) الحرُجات: الشجر المتلف

(٣) البشام: شجر طيب الريح يُستاك به

(٤) الفِرصاد (بالكسر) : التوت الأحمر خاصة.

(٥) نجم: ظهر ولاح.

(٦) اللأمة: الدرع.

(٧) يشبه عذاره بحرف اللام .

(٨)من قول عمر بن أبي ربيعة.:

قليلٌ على ظهرِ المطّيةِ ظِلُّهُ ... سوى مانفى عنه الرِّداءُ المحبَّرُ

(٩) الكنانة: جعبة السهام.

(١٠) العِمّة: ما يُتعمم به، ويكنى بها عن البيضة أو السيف أو لبس ثياب الحرب.

(١١) كان فرسان المرابطين يضعون لثاماً على وجوههم .

(١٢) الضوى: دقة العظم وقلة الجسم خلقة، وقيل: الضوى: الهزال والضعف.

(١٣) المطارف: جمع الثياب، وقيل إنها أردية من خز مربعة لها أعلام.

وقد تمطّى فوق شِمَّلةٍ[١]، حَسَنَةِ القدّ مُشْمعلَّةٍ[٢]، مصقولة الأديم، مُصْفرَّةٍ في لون العرجونِ[٣] القديم، لها أُذُنٌ مؤلّلة[٤] كِبرِيةِ القَلَمِ أو كأطراف الجَلَم[٥]، وبَشْرةٌ عَسْجَديّةٌ، وحوافِر زبرجديَّة، وتطلُّعُ شَيْحانٍ[٦]، وتقريبُ تتفلٍ[٧]. وإرخاءُ سِرْحانٍ[٨]، ضَامرةٍ طِمّرة، غير ساكنةِ الجأشِ ولا مُستقرَّة، تَمْرَحُ باللِّجامِ مَرَح الأشبالِ في الآجامِ، وتَسْري فتبرح بالبُعدِ أعظمَ تبريحٍ، وتجري فتحسدُها خطفةُ البرقِ، وهبَّةُ الرِّيح، تَصِلُ شأوَ الطُّولِ، بوعدٍ غيرِ مَمْطُول، وتتلقّى الأرضَ بهمّة حيّة، وتركضُ ظهرها بيدِ جانٍ لامَسَ حَيَّة، تجذّ أديمَ الأرضِ جُذذاً[٩]، وتخطو فتولى الحصى مِن وَطئِها نُبذاً، تُسايرها عن يمينهِ أحْسَنَ مُسَايرة، وتُساورها إنْ همَّتْ بمساوره، سَلْقَةٌ[١٠] طريفةُ الخَلْقةِ، ذاتُ ذنبٍ مستديرٍ كَالحَلَقة، تؤزُّ الخِزان أزّاً[١١]، وتورثُ الفتيانَ حِرْصاً وعِزّاً، عربيةُ الشَّكْلِ كما وصفَ ابنُ مرعِزَّا:[١٢]

محبوكةُ الظّهرِ لم يخُنْها ... لصوقُ بَطْنٍ منها خميصِ
كالقوْسِ في شكلها ولكنْ ... تَنْفُذُ كالسَّهم للقنيصِ
إنْ تخذتْ أنفَها دليلاً ... قادَ إلى الكامنِ العويصِ
لو أنّها تستثيرُ بَرْقاً ... لم يجدِ البرقُ مِن محيصِ

---

(١) الشملَّة(بالتشديد) : الفرِس أو الراحلة الخفيفة السريعة المشمرّة.

(٢) مشمعلة: صفة للفرس أي : خفيفة سريعة نشيطة.

(٣) العرجون: العذق عامة، وقيل: هو العذق إذا يبس واعوج، وهو أصفر عريض .

(٤) مؤللة: حادة منتصبة.

(٥) الجلم: المقراض الذي يُجزُّ به الشعر والصوف ونحوهما .

(٦) الشيحان: السريع أو الطويل الحسن الطول.

(٧) التقريب: وضع الرجلين موضع اليدين في العدو، والتتفل: ولد الثعلب.

(٨) الإرخاء: ضرب من عدو الذئب يشبه خبب الدواب، والسِرحان: الذئب وهو ينظر إلى قول امرئ القيس في وصف فرسه:

له أيطلا ظبي وساقا نعامةٍ ... وإرخاء سرحان وتقريبُ تَتْفُلِ

(٩) الجُذاذ : كسر الشيء الصُّلْب.

(١٠) السَّلقُ: شدة الصوت ، أو الماضية في سيرها.(اللسان:سلق).

(١١) الأزُّ: الحركة الشديدة ، ويقال: أزّت القدر أزاً: إذا اشتدَّ غليانها، والخزان: أي تختزن الطريق من سرعتها.

(١٢) ابن المرعزّى النصراني الاشبيلي: من نصارى إشبيلية ، ظهر في دولة المعتمد بن عبّاد ، وكان من مدّاحه(المغرب ١/ ٢٦٩).

صلاحُها في أكمةِ توافيها، وسلاحُها مجموعةٌ في فيها. قَدْ قُدَّ مِن الأديم قِدُّها، وحكى الغزالَ لحظُها وقدُّها، وقد احتمل فوق شماله أجملَ جارحٍ[١]، تميلُ إليهِ النفُوسُ والجوارحُ. قد أُتقنتْ حُلاهُ أيَّ إتقانٍ وكأنما خُضِبتْ رِجْلاهُ باليَرَقان، يعقد بمنقارِهِ عِقْدَ سَبْعين، ويشدُّ على الفريسةِ بثلاثةٍ وتِسْعين، قد احتمل أحْسن دِرْعٍ وأحسن برود، ونُضِّر في عِطْفِه تيهاً كما تنضَّر الغَادةُ الرُّود[٢]، وحُلِّي بدروعٍ أُبْدع في تصفيفها، وحُلِّيَ بالخلاخلِ وتَصْحيفِها، فإذَا خَلا لهُ الجوُّ، باضَ وصَفِرَ[٣]، وإنْ أبْصرَ جَارِحاً غيرهَ قَلِقَ ونَفَر، وإِنْ أَخْفَتْهُ غيومُ النوِّ[٤]، وأبْصَرَ عُقَاباً[٥] في الجوِّ شدَّ إلى الرجوعِ زَيَمَه[٦]، وأمطَرَ من الخضوعِ دَيمهُ، فيخضعُ خضوعَ غريب، ويلتفتُ التفاتَ مُريب، ويهدأُ هُدوَّ العُلْجُومِ[٧]، وينظرُ كَأنَّما ينظرُ في النُّجومِ.

قالَ فَتْحٌ: فدنوتُ مِن مَطِيتِّه، لأعلمَ كُنْه طِيَّتِهِ، وسلَّمتُ وسَلَّم، وتَأوّه وتألَّمْ، وقال: الحمدُ لله الذّي علَّم الإنسانَ مالم يكُنْ يَعْلَم[٨]، وَرَشَقَ يَمنةً وشمالاً، واستنشقَ صَبَاً وشَمالاً[٩]، فشغلت عن استرشَادِهِ، لعذوبةِ إنْشَادِهِ[١٠]:

(١) أي أن الفارس كان يحمل معه صقراً للصّيد.

(٢) الرود: الناعمة اللينة.

(٣) ينظر إلى قول طرفة.

يا لك من قبرة بمعمرِ ... خلا لك الجوُّ فبيضي واصفري

(٤) النوّ: (مخفّف النوء) المطر

(٥) العقاب: النسّر.

(٦) الزيم: المتفَرق، وتزيمت الإبل والدواب تفرقت، والمعنى مجازي.

(٧) العلجوم: الظلمة الشديدة، أي أنه يهدأ كهدوء الليل، ومن معاني العلجوم كذلك: الماء الكثير، والضفدع، والبطَ ذكره وأنثاه (اللسان: علجم).

(٨) يقتبس من قوله تعالى ﴿علَّم الإنسان مالم يعلم﴾ (العلق ٥)

(٩) شمالاً: رياح الشّمال. وقيل إنها تهبّ من قبل الشام عن يسار القبلة.

(١٠) والصَّبا: ريح معروفة تقابل الدّبور.

ظلَّتْ تُريدُ سبيلَ الغَدرِ تَسْلكُهُ فتَّانــةٌ زَانَهــا الإدلالُ والخَفَــرُ
قالتْ: أترحَلُ مُختاراً فقلتُ لها: إنَّ المُقامَ على ذُلٍّ هو السَّفَرُ

وظَلْتُ أُماشِيهِ لرقَّةِ حَوَاشيهِ، وأُلازِمُهُ ملازمةَ الظِلّ للأشباحِ، وأُمازِجُهُ مُمازجةَ النُّفوسِ للأرواحِ، فما سألتُه عن حديثٍ إلاَّ ذَكرَهُ بِنَصِّهِ، ولا عَنْ أمْرٍ إلا جاءَ مِن فَصِّه.

وسِرْنا إلى خِنْدَقِ أوسٍ[١]، ودُسْنَا نواحِيَهُ أيَّ دَوْس، ورمَيْنَا غَرَضَ الرِّحلة عَنْ كُلِّ قَوْس، وتصدَّينا بتلك الأحواز[٢]، وحكينا نخوةَ ولاةِ الأهواز[٣]، وَوَصَلْنَا عَبْلَةَ الرِّيح، وَقَدْ أبْدَى عن الرَّغوةِ الصَّريحُ[٤]، فَبِتْنَا بِها أحْسَنَ مَبيتٍ، نتجاذبُ عن الزَّرواءِ وَمِليت[٥]، ونُرْسِلُ بينَنَا عوارفَ الأَدَب، وَنُنْسِلُ البلاغةَ مِن كُلِّ حَدَب.

ولمّا قَرُب حِينُ السَّفر وحان، وتعَرَّضَ في الأُفقِ ذَنَبُ السَّرْحان[٦]، بعثَ الله النسيمَ عَليلاً، وهو يجرُّ ذَيْلَهُ بَليلاً[٧]، والظَّلامُ مُوَلِّياً كَليلاً، والبَرْقُ يَصْدَعُ[٨] جِلبابَ الظَّلامِ، والرِّياحُ تقتادُ أزمَّةَ الغَمامِ، وسُلَّ سيفُ البرق مِن غمدِهِ، وسبّح الرَّعدُ ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ

---

(١) الخندق: الوادي، وخندق أوس: موضع.

(٢) الأحواز: النواحي والحَوْز من الأرض أن يتخذها رجل ويبيّن حدودها فيستحقها، فلا يكون لأحد فيها حق معه.

(٣) الأهواز: سبع كور بين البصرة وفارس، لكل واحدة منها اسم، وليس للأهواز واحد من لفظه(اللسان : هوز)

(٤) في المثل:«تحت الرغوة اللبن الصريح» أو «الصريح تحت الرغوة» أي أن الأمر مغطى عليك وسيبدو لك.(مجمع الأمثال للميداني ١/ ٤٢٨).

(٥) الزوراء: مدينة ببغداد في الجانب الشرقي، ودجلة بغداد تسمى الزوراء، والزرواء: دار بالحيرة بناها النعمان بن المنذر. ومليت : موضع.

(٦) كناية عن طلوع الفجر.

(٧) البليل: ريح بادرة مع ندى.

(٨) يصدع: يشقُّ ويمزّق.

﴿إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾[١]، فأهملتِ السّماءُ دموعها، وأروتِ الأرضَ معاهَدها وربوعَها، وعَمّ المطرُ بالبُرى، وسالَ واديه فَطَمَّ على القُرى، وأصبح وكُلٌّ في لجّةٍ يَسْبَح، وركبنا خائضينَ في أوحال، حامدينَ لله على كُلِّ حال، فانقشع الغمامُ وانجابَ، والشّمسُ تنظرُ مِن رواء حجاب، وانتثرَ عن الشّمسِ السَّحابُ في خِبِّها، «وأشرقتِ الأرضُ بنور ربّها»[٢]، وخمدت نارُ القِرى وخبَتْ، وأُنزل الماءُ على الأرضِ فاهتزت وربتْ[٣]. وغدونا نركض مطَّي الارتياح، ونقبضُ هدايا الرَّوض من أكفُّ الرِّياح، وننحاشُ عن السَّفرِ، ونقطعُ بمُلَحِ الحديثِ المهامه والقَفْر، حتى وصلنا الكثيبَ المَهيل[٤]، وأجَزْنا ساحةَ التكبيرِ والتهليلِ، واللَّيلُ قَدْ مُدَّتْ أنسَاعُه[٥]، والوقتُ قد ضاقَ اتساعُه، وأوانُ النَّهارِ قد أزِف، وماؤه قد نَزِف، وعبْءُ العشى قد قُذِف، وحَرْفُ الأضواءِ قد حُذف، وألويةُ الوادي قد نُشِرتْ، وسطورُ الضِّياءِ قد بُشِرت ، وأمَمُ الحنَاديسِ قد حُشِرتْ، ومُدَّت من اللَّيل مسوحُه[٦]، وأحيا ميتَ الظَّلام مسيحُهُ[٧]، والسِنَةُ[٨] تُلازمُ الجفونَ، مُلازِمةَ النُّصولِ للجفون[٩]، فمِلْنَا إلى خيمةٍ مِن الخِيامِ، ووَصَلْنَاها والنَّاسُ نِيامٌ، فطُفْنا بِأسْبَابِها[١٠]، وانتهينْا

---

(١) الإسراء ١٧، والآيه.﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾

(٢) الزمر : ٦٩.

(٣) يقتبس من قوله تعالى ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ (الحج ٥)

وقوله تعالى ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ (فصلت: ٣٩)

(٤) الكثيب المهيل: الرّمل الذي لايثبت مكانه، فينهال ويسقط.

(٥) الأنساع: الحبال، والسير الذي يُضفَّر وتشدُّ به الرحال.

(٦) مسوحه: ذوائبه، والمعنى مجازى.

(٧) يقتبس هذه الصورة الجميلة من معجزة المسيح عليه السلام في إحياء الموتى، ويشخّص الظلام تشخيصاً جميلاً.

(٨) السنة: النعاس، ومنه قوله تعالى((لا تأخذه سنة ولا نوم)).

(٩) الجفون الأولى: جفون العين، والثانية : غمد السّيف.

(١٠) أسباب الخيام: حبالها أو أوتادها

إلى بَابها، وقَرَعْنا قَرَعاً حَثِيثاً، وهتكَ المصباحُ لنا سِتراً رثيثاً[١]، وناديناً: بأنْ هُلمَّ إلى الباب، فلبَّى صاحبُ الخيمةِ واستجاب، وخرج ينسابُ انسياب الفُرات، وقال:مرحباً بالسُّراة السَّراة[٢]، وبالوجوهِ الوجوهِ[٣]، انزلوا في رحبٍ وفي سِعة، وبالجَزَعِ لا تحلفوا فأنتم في أمْنٍ وفي دعَة، فدخَلْنا في خَيْمةٍ ذاتِ مُنير ومَنار، ومصباحِ نورٍ وقبسِ نَار، وبِتْنَا تحتَ جودٍ وندىً، وبات على النَّار المحلَّقُ والنّدى[٤]. ولمَّا اطمأنَ مجلسُنا وَطَاب، وبلغ بُسْرُ[٥] الأُنْسِ إلى حَدِّ الإرْطاب، ونِلْنا مِن لذّة الوصول، كُلَّ أُمنيةٍ وسُول[٦]، ظَلْت أُسائِلُ عن الحضرة ونعيمِها، وأُنقِّبُ عن سِّيدِها وزعِيمها، ومشيد مَبَانِيها، وحامي ذِمَارِها ومغانِيها، وساحب ذيلِ بِرِّها، وصاحبِ بحرِها وبرِّها، ذي الرأيِّ السَّديدِ، والبَأسِ الشَّديدِ، والحُكْم المأمونِ، والنَّجاحِ المضمونِ، القائِد الأجلِّ أبي عبد الله بن ميمون[٧]، سيف هذه المِلَّةِ، وحَتْفِ الطَّائفةِ الضَّالةِ المضِلّة، فقالَ: ذلك رَجُلٌ ماجِدُ، له على الكَفَرةِ قلبٌ واحدٌ، من الذينَ يشكون المشكاةِ، ويُقيمونَ الصلاةَ، ويؤتون الزَّكاةِ[٨]، ويُبادرونَ مِن الفَضْلِ إلى السَّبيلِ الأحمدِ الأشكرِ، ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ

(١) رثيث: ضعيف.

(٢) السراة: الأشراف، ذوو الشرف والمروءة والسخاء.

(٣) الوجه: المحيّا. ووجوه القوم: سادتهم وأشرافهم، وهو المراد.

(٤) يقتبس من قول الأعشى في مدح المحلّق بن شدّاد بن ربيعة:

تُشَبُّ لمقرورين يصطيلانها   وبات على النّار النّدى والمحلّقُ

(٥) البُسْرُ: التمر قبل أن يرطب لغضاضته، (واحدته: بُسْرة).

(٦) سول: (مخففة الهمزة لمراعاة السّجع): مطلب.

(٧) هو قائد أسطول أمير المرابطين، تاشفين بن علي (ت٥٣٩هـ).

(٨) يقتبس من قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ (المائدة:٥٥).

وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾[١]، ومِن الذِّين صَبَروا وجَاهدوا[٢]،ومِن المُوفِين بعَهْدِهم إِذا عَاهدوا[٣]، لا يَصْرِفُ قَدَماً إلاَّ في سبيلِ صَلاَحٍ، وإصْلاحِ سلاحٍ، أو هَمٍّ مِن أمْرِ العدوّ يُهِمُّهُ، أوْ رَمٍّ في ذاتِ الله يَرُمُّهُ، حَزْمٌ مِن الصَّوارمِ أصْرَم[٤]، وكَفٌّ مِنِ الغَمامِ أكْرَم:

إنْ شامَ[٥] طَرْفَكَ كفُّه أوسيفُهُ وعَرتْكَ منه أبؤسٌ أو أنْعُمُ
أبصرتَ آجالاً تحلُّ وتنتهي ورأيتَ أرزاقاً تُعَدُّ وتُقْسَمُ

إن حَابىَ فكرمٌ للمالِ مُبِير، أو احتبى فَيَلَملمٌ أو ثبير[٦]، وسَلْنى ﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾[٧].

قلتُ : قد وصفتَ بعضَ حليتِه وأدواتِه، فَصِفْ لى بعضَ غزواتِه! قال: هُنَّ سُلُوكٌ لا يُطاق لها نَثْرٌ، وسَلْنِي عن أيُّهِنَّ فهُنَّ كُثْرُ ! قلتُ: القريبةُ العهْدِ، المرعبةُ لأطفالِ المشركين في المهد. قال: أُنبِئُكَ بغزوةِ رُمَّانة، وناهيكَ مَن مكانٍ للشِّرك وَمكانةٍ. لَمَّا بَلَغَ مِن العزيمةِ أقْصَاها، وجَمَع جيوشَ القَطَائعِ وأحْصَاها ، ونسي طيبَ لذَّةِ الوَسَن، وأنْسَاها، ﴿ وَقَالَ ٱرْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ﴾[٨]، وسنَّى الله لهُ مِن أمرِهِ ما يُسِّرَ ويَسُر، ورَكب على ذات ألواحٍ ودُسُر[٩]، وسار يَلِجُ مِن البحرِ في كُلِّ لُجَّةٍ، ويحجُّ منها إلى

---

(١) اقتباس من قوله تعالى: ﴿ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ (التوبة: ٧١).
(٢) اقتباس من قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (النحل: ١١٠).
(٣) يقتبس من قوله تعالى: ﴿ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْ ﴾(البقرة: ١٧٧).
(٤) أصرم: أقطع ، والصارم : السَّيف القاطع.
(٥) شام: تطلع ونظر، وشام السحاب والبرق: نظر إليه : أين يقصد ، وأين يمطر
(٦)ثبير: جبل بمكة.
(٧) فاطر: ١٤
(٨) هود: ٤١
(٩) يقتبس من قوله تعالى: ﴿ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴾ (القمر: ١٣).
والدُّسر: خيط من ليف يسدُّ به ألواح السفينة ، وقيل هو: مسارها، ويقال: دسرت السفينة الماء بصدرها: عاندته.

كُلِّ محجَّة[١]، لتكونَ له بذلك عند الله حُجَّة، وظلَّ يُريدُ وَجْه الله بأنجدِ أصحابٍ، وألويةِ نَصْرٍ خَافقةٍ في السَّحاب، قد التحفتْهم الرِّياحُ والبُحورُ، ولا يحَار لمسلمٍ فيحور[٢]، والنُّفوسُ على نَفَاسِتها مهورُ الحُور[٣]، فوصل رُمّانة بالفُلك، ويدُ النَّصْرِ تقضي على الشِّرْكِ بالتدميرِ والهُلك، ولسانُ الحقِّ يتلو ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾[٤].

وحينَ وصلَهم بالأسطُولِ، وعمر مِن ناديهم العرضَ والطُّول، علا نحيبُهم وصياحُهُم[٥]، ونزلَ بساحتِهم فَسَاءَ صباحُهُم، فأوقفهم اللهُ الموقفَ الصَّعب، «وقذفَ في قلوبهم الرُّعبَ»[٦]، وأذَاقهُمْ في بَرْدِ الغدوِّ حَرَّ الهَواجِر، وبلغتِ القلوبُ منهمُ الحَنَاجر[٧]، وتشَاجرت السَّيوفُ والخَناجِر، ولا تحاكُم إلاّ لأطراف الرِّماحِ الشَّواجِر،[٨] فأباح حَرَمَها، واستباحَ حُرَمَها،[٩] وأكملَ مِن غَزْوِها فَرائِضَها ونوافِلَها، وردَّ ديار الشّرك عاليهَا سافِلَها، وانصرفَ على خيول السَّعادة، وأضمرَ بحول الله غَزْوةً مُعادَة.

---

(١) المحجَّة: الطريق.

(٢) يحور: يرجع.

(٣) الحور: نساء الجنة.

(٤) الملك (١) والآية «تبارك الذي بيده الملك وهو كل شيء قدير».

(٥) أي نحيب الكفار وصياحهم.

(٦) الأحزاب: ٢٦ والآية بتمامها: ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾.

(٧) يقتبس من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ الأحزاب: ١٠.

(٨) الرّماح الشواجر: المتداخلة المختلفة.

(٩) الحرم(بالفتح) : كُل ما حُرِّم فلم يُمس، والحُرم(الضم): النساء يقال: حُرم الرجل أي عياله ونساؤه وما يُحمى، وهي المحارم.

ولَمَّا انصرفَ مسروراً بحُسْن يقينهِ، ووصلَ مجبوراً إلى خَيْسِهِ وعَرينه.[١] ما بَّدل ثوباً لَبِسَهُ، ولا فَرَّق خولَهَ[٢] وحَرَسه، حتى تلا قُرْبَنَا: «واعلموا أنَّما غنمتم مِنْ شَيءٍ فإنَّ لله خُمْسَهُ»[٣] فَنَهضَ وهو الحفيظُ الأمينُ، نحو أميرِ المسلمين[٤]، فلقَاهُ بِشْراً ورحْباً، وَصَدْراً مُلِئَ حُبّاً، وفاكهة مِن التَحفّي وأبّا،[٥] وأراه وجه أملهِ غُلاما، ولقاه تحيةً وسلاماً[٦]، وشيَّعهُ عندَ انفصالهِ أميالاً، وجعلَ سِمة التنويهِ في نِجادِهِ نِيالاً،[٧] ومعَ مايُنيلُه أميرُ المسلمينَ – أيَّده اللهُ – من الجاهِ والبرِّ، والإكرامِ المُبرِّ، لا يزال يُوالي مِن التواضُعِ ما بِهِ اللهُ قد نَفعه، ومَنْ تَواضعَ لله رَفَعَهُ.

قالَ فتحُ: فلَّما سمعتُ تلكَ الألفَاظَ الإيادِيَّةَ.[٨] والأغراضَ الزِّياديَّةَ[٩] تأملتُه، وللتَّأنيسِ أمّلْتُهُ، وَرَجوتُ أنْ يكونَ صاحبي بصور، سعد بن منَصْور، فحدَرَ القناع[١٠] عن صبحِ ملثمٍ[١١]، ونُطقِ غيرِ لَكْنٍ ولا مُتَلعْثمٍ، فَشَممْتُ رَيَّاهُ، وشَمْتُه فإذا هو إياهُ، وقلتُ: سَعْدٌ؟ قال: سَعْد، جَمَعَتنا اللّيالى عَلى غير وَعْد،

(١) الخيس والعرين: موضع الأسد.

(٢) الخَوَل: العبيد والخدم.

(٣) الأنفال: ٤١.

(٤) أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين

(٥) من قوله تعالى: ﴿ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴾ سورة عبس: ٣١ والأبُّ: كل ما أخرجت الأرض من النبات.

(٦) من قوله تعالى: ﴿ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴾ (الفرقان: ٧٥).

(٧) النّجاد: حمائل السيف، ويكنى بطول النجاد عن طول القامة.

(٨) الألفاظ الإيادية: نسبة إلى إياد بن نزار بن معّد، وإياد: حيّ من معدّ باليمن.

(٩) نسبة إلى زياد بن أبيه(؟)

(١٠) حدر القناع: رفعه وأسقطه.

(١١) إشارة إلى اللثام الذي كان يضعه المرابطون على وجوههم.

﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾[١]، غبتُ وشبْت وصِرْتُ أبَا البنينَ. قال: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾﴾[٢]، فَعَانقْتُهُ مُعَانقَةَ الأديبِ لأحبابِهِ، وكلفتُ به كلفَ عُمرَ بربابِه[٣]، فصحبتُ ذلكَ الذَّكاء[٤]، إلى طلوع ذُكاء، واستوى على ظَهْرِ المطيَّةِ، ولا أدري لأيِّ طِيّةِ، وأتْبَعْتهُ مِيْلاً، فما رأيتُ له زاملةً ولا زَميلاً.[٥] واللهُ يصنعُ لنَا ولَهُ صُنعاً جَميلاً.

كَملتْ بحمد اللهِ وحُسْنِ عَوْنِهِ.

(١) يقتبس من قوله تعالى ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ (الروم: ٤).

(٢) الشعراء: ١٨.

(٣) هو عمر بن أبي ربيعة المخزومي، وقد تغزل في غير امرأة، منهنّ الرَباب التي جرى ذكرها في شعره.

(٤) الذَّكاء(بالفتح) سرعة الفطنة، وذُكاء (بالضم) اسم الشمس.

(٥) الزَامل من الدواب: النشيط في سيره.

تحليل المقامة:

هذه المقامة في مديح القائد عبد الله بن ميمون، وبطلها اسمه «فتح بن ميسور»، ومكانها مدينه «صور». والشخص الثاني فيها يدعى «ابن منصور» وهو شاب فصيح جميل، نشأت بينه وبين فتح بن ميسور علاقة صداقه، ثم حكم الدهر بفراقهما، فإذا ابن ميسور يبلغ مدينة سلا، ثم تشوّق إلى اللّحاق بمدينة المريّة، «ووصلت إلى مدينة وادي آش، وجسمي لايتبيّن نحولاً في فراش، وفراشي فوق أجنحة الفراش». وهنالك بينما كان فتح ينعم بالراحة ظهر له أحد الفرسان «قد اعتقل أكمل لأمة، وصولج في خدّه لامه، واعتمّ بأجمل عمامة، وجعل الحذر وراءه وأمامه، جليل له هِمّة تجلّه، قليل على ظهر المطّية ظلّه، وقد تنكّب فرساً عربيّة، وكنانة غربية....... ».

ويطيل «فتح» في وصف هذا الفارس الذي حمل معه صقراً للصيد، ويسير مع هذا الفارس يقطعان الصحاري والقفار بملح الحديث إلى أن غشيهم الظلام، وأمطرت السماء « فملنا إلى خيمة من الخيام، ووصلناها والناس نيام» ، ويستقبلهما صاحب الخيمة وينزلهما في رحب وسعة، ويسأل «فتح» عن سيد هذه الحضرة، فيعرف أنّه القائد الأجلّ أبو عبد الله بن ميمون «سيف هذه الملة وحتف الطائفة الضالّة المضلّة»، ويصف الرجل ما يتميز به ابن ميمون من صفات، فهو «رجل ماجد، له على الكفرة قلب واحد، من الذين يشكون المشكاة، ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة». ويطلب «فتح» من الرجل أن يصف له بعض غزوات ابن ميمون، فيحادثه عن بلائه في غزوة « رمّانة» وهي غزوة بحريّة، انتصر فيها « وسار يلج من البحر في كل لجّة، ويحجّ منها إلى كلّ محجّة، لتكون له بذلك عند الله حُجة.... »، فلمّا سمع «فتح» تلك الألفاظ تذكرّ فصاحة صاحبه الذي رآه بمدينة صور، والمسمّى سعد بن منصور «فحدر القناع عن صبح ملثم، ونطق غير لَكِن ولا متلعثم، فشممت ريّاه، فإذا هو إيّاه، وقلت: سعد،:قال: سعد جمعتنا الليالي على غير وعد، والأمر لله من قبل ومن بعد».

وواضح أن الغاية من المقامة هي مدح القائد ابن ميمون، وذكر شجاعته في الحروب البحرية.

من مقامة
للوزير الكاتب أبي عامر بن أرقم (١)

ومن كلامه في مَقَامةٍ أَنْشأها في الأمير تميم بنِ يوسف – أَيْده الله تعالى – وَوَصلها بالقرطبية، أوّلها، قال«فلان بن فلان»: ولَّما اجتَليتُ ما نَصَّهُ، واسْتوْفَيْتُ ما قصَّه، قلت: أحق منزلٍ ببرِّك، فَعُجْتُ الرَّواحل، لأطوي المراحل، آمل كعبة الآمال، وقِبْلَةَ الأُمَّال، فبيْنا أنا أسيرُ، وقد لَظِي الهجير، ولا قعيد ولا ناطح، إلاَّ الآكامُ والأباطح، ولا سانحَ ولا بارحَ، إلاَّ الآل والبارح، إذ رُفع لي شخص، يقّربه ذميل ونص، إذا فتىً عليه بِزَّة، تَشْهَدُ له بالْعِزَّة، يركبُ وَجْناءَ كأَنَّها سبيكةُ لُجَيْن، قد أَخْلَصَتْهَا يَدُ القَيْن، ويحُثُّ دهماءَ تَسْبَحُ سَبْحاً، وكأَنَّها لَيْلٌ يُباري صُبْحاً، فلمَّا دَنَا وقَفَ، فطرف، ووضَعَ من لثامِهِ، وأَوجز في سلامه، فرددتُ كما يَرُدُّ العَجِلُ، وتوقَّعْتُ فوْته، فقلت: مَنِ الرجل ؟ فقال:

إِنِّي امْـرؤٌ لا يَعْـتري خُلُقـي ... دَنَـسٌ يُفَنِّـدهُ ولا أَفَـنُ
مِـنْ مِنقَـرٍ في بَيْـتِ مَكْرُمـةٍ ... والْفَـرْعُ يَنْبُـتُ حَوْلَـهُ الْغُـصُنُ
فُـصَحاءُ حـينَ يَقُـولُ قـائِلُهُمْ ... بـيضُ الْوُجـوهِ مَـصاقِعٌ لُـسُنُ
لا يفطنـون لِعَيْـب جـارِهِمِ ... وَهُـمُ لِحِفْـظِ جِـوارِهِ فُطُـنُ

قُلْتُ: في كُلِّ عُودٍ نارٌ، واسْتمَجَدَ الْمَرْخُ والْعَفار، لله أَنْتَ! فما أَصْونَ جارَكَ، وأَكْرَم نِجارَكَ، لِمَ تَدِبُّ الضِّراءَ، ولِمَ تَمْشِ الْحمراءَ؟!. فالْتَفَتَ نحوي قائلاً: النَّبْعُ يقرع بعضهُ بَعْضاً، ثُمَّ أَدَّاهُ الاهتبالُ، إلى السؤَال، فقال: أَيْنَ أَمُّكَ؟ وما همُّكَ؟ قلتُ:غرناطة، فقال: حَيْثُ اللِمَّةُ الْمشفقَةُ الُمحتاطة، والسَّدى والنَّدى، والأمجادُ ولأنجادُ والإصراخ والأَنجادُ،

(١) ورد هذا الجزء من مقامة أبي عامر بن أرقم في كتاب قلائد العقيان: ص٣٧٢ – ٣٧٤.

والغَوْرُ والنِّجاد، أُكْرِمتَ، فارْتَبطْ، قلت: وما عملك بها؟ قال: هي المَطْلَعُ، وإليها بِحَوْل الله المُرْجعُ، قلتُ: دَنَا مُرادُك، وأجْنَى مَرادُكَ، وتمثلتُ: قتلتْ أَرْضٌ جاهِلَهَا، ، وَقَتلَ أَرضاً عالِمُها[1]، ففهم النّزعة، فقال: سَلْ عَمَّا بَدا لك، على الخبير سَقَطْتَ[2]:

فأَقْبَلْتُ في السَّاعين أسألُ عنهمُ   سؤالَكَ بالشيءِ الذي أَنْتَ جاهِلُه

قُلْتُ: فُسطاطها؟ فقال: قصور تُقِرُّ لها إرمٌ[3] بالقصور وسورٌ؟ أعينُ الحوادثِ عنه صور[4]، كأَنَّهُ الثغر المبتسمُ، والسلك المنتظم. ومن شعره فيها[5]:

فَتَى الخَيْلِ يَقْتادُهَا ذُبَّلاً   خِفافاً تباري الْقَنا الذّابلا

ترى كُلَّ أَجْرَدَ سامي التَّليـ   ـلِ تحْسَبَهُ غُصُناً مائلا

وَجَرْداءَ إنْ أَوْجَسَتْ صَارِخاً   تُذكِّرُكَ الظَّبْيَةَ الخاذِلا[6]

إذا شنّهُن بأَرْضِ الْعِدى   يُصيِّرُ عاليَها سافلا

وَلَمْ أَرَ بَدْرَ تَمامٍ سِوَاهُ   يُسمُّونَهُ الأَسَدَ الباسلا

أَقامَ الْعجاجَ سماءً عَلَيْهِ   وأَقْسَمَ أَنْ لا يُرى آفلا

ولَمْ يَصْرِفِ الْهَوْلُ همَّاتِهِ   ومَنْ يَصْرِفُ الْقَدَرَ النَّازلا؟

(١) القتل: التذليل . يضرب في مدح العلم، ويقال في ضدّه: قتلت أرض جاهلها، (الميداني : ٢/ ١٠٨).

(٢) سقطت: عثرت. وانظر المثل: (الميداني: ٢/ ٢٤).

(٣) إرم ذات العماد، وهي إرم عاد، باليمن بين حضر موت وصنعاء، من بناء شدّاد بن عاد. (معجم البلدان : ١/ ١٥٥)

(٤)صور: مائلة.

(٥) القرطبية: هي المقامة القرطبية (انظر ص   من دراستنا هذه).

(٦) الظبية الخاذل : المقيمة على ولدها .

تعليق:

هذه قطعة من مقامة في مدح مدينة غرناطة، ويدور الحوار فيها بين شخصين أحدهما يدعى«فلان بن فلان» وهو الرواي، والآخر: من أبناء الجاه والخواص، وهو البطل. وتبدأ المحاورة، وأوّل سؤال يدور فيها حول غرناطة نفسها، فيسأل الفتى: أين أَمُّك؟ وما هَمُّك؟ قلت: غرناطة....... » وختمها بأبيات شعرية.

ولكن ماصلة هذه المقامة بالمقامة القرطبية ؟ لقد صدّرت هذه المقامة بعبارة «وصلها بالقرطبية ». وهي عبارة تحتمل أكثر من تفسير، فالمقامة القرطبية في هجاء قرطبة وأعيانها، ومقامة أبي عامر في مدح مدينة غرناطة وأحوالها. أمّا عبارة «وصلها بالقرطبية» فيبدو أنها رد على المقامة القرطبية ونقض لما فيها، وهذه مديح لمدينة غرناطة. ونظراً لتفرد «قلائد العقيان» بإيراد هذا الجزء من المقامة، وعدم ورودها في أي مصدر آخر، فإنه لا يمكننا القطع بمدلول عبارة «وصلها بالقرطبية».

والمقامة التي منها هذا الجزء من مقامات المديح، أنشأها صاحبها -كما ذكر الفتح ابن خاقان- في مديح تميم بن يوسف بن تاشفين[1]، ولكن صاحب «القلائد» لم يورد المقامة كلّها، ولم يورد شيئاً من عبارات المديح، التي نعت بها ابن أرقم ممدوحه. وبهذا فوّت علينا فرصة الوقوف على نموذج مكتمل من نماذج مقامات مدح المدن وأهلها.

(١) من أبناء يوسف بن تاشفين، أمير المسلمين، وملك الملثمين، سلطان المغرب الأقصى، وباني مدينة مراكش، توفي سنة ٥٠٠هـ، ولم نعثر على ترجمة لابنه تميم فيما بين أيدينا من مصادر.

المقامة القرطبيّة (١)

عنوانها: ميزانُ الأعيان بحكم الزَّمان

إنشاء فلان بن فلان

قال فلان بن فلان: لما اختللت في سفرتي هذه مدينةَ كُدَيّ، لأقْتني بأسبابِ نشأتها، وشئونِ هيأتِها، وحينَ أذنَ اللهُ بالانفصالِ عنها، لم أبعدْ كثيراً منها، حتَّى لقيتُ وقد متعَ النَّهار[٢]، فتىً حديثَ السنِّ في أطهار[٣]، ينقدُّ أثناءها وسامة، ويتَّقِدُ شَهامة، فقلتُ في نفسي: زميلٌ فيه خيرٌ وخَبر، ويشهدُ له عينٌ وأثر، فسلَّمت فأحسن الردَّ وأثنى الحدَّ، فأنشدتُه:

تحميـــه لألاؤهُ وَلَوْذعيتُهُ   عن أن يُقالَ: بمن أو مِمَّن الرَّجُل[٤]

فقال: اللهمَّ غُفْراُ، بَذَاذَةُ الرِّواء[٥]، تمنعُ من الاعتزاء، فاستجمعتُ وحرصتُ على ماكان قبله، ولم أزلْ آخُذُ به في أساليبِ الحديث حتّى أعلن بعد التحييث، فإذا به قُرْطبِّي الدَّار، يقضي له النُّبُل بكرمِ النِّجار، فقلتُ: طال بالحَضْرةِ عهدي، وحدثتْ بها الحوادثُ بعدي، فما عندك من أخبارها؟

فقال: أنا ابنُ بجْدَتِها[٦]، فسلْ عمّا شئتَ فيها، فقلتُ: قاضيها[٧]! فقال: حوَّلَ القضاءَ رياسة، ووسعَ الأمورَ سياسة، فتألَّفَ الدَّهْمَاءَ، وكفَّ العدد والأعداء، من رجلٍ

---

(١) ورد نصّ المقامة في: رسائل ومقامات أندلسية، ص١٣٩ - ١٥٦.

(٢) متع النُّهار: ارتفع وبلغ غاية ارتفاعة قبل الزوال (اللسان: متع).

(٣) أطهار: (جمع: الطِّمْرُ): وهو الثوب الخلَق، والكساء البالي.

(٤) البيت لأبي تمّام من قصيدة في مدح المعتصم (ديوانه ٢٠٢).

(٥) البذاذة: رثاثة الهيئة. والرّاوء: المنظر.

(٦) يقال: هو ابن بجْدتها، للعالم بالشيء المُتْقن له.

(٧) المراد هنا هو محمد بن علي بن حمدين قاضي الجماعة بقرطبة، والذي يؤكد ذلك إشارته لابنه أبي قاسم، وقد ذكره ابن بشكوال في الصلة (٢: ٥٧٠ ت١٢٥٤).

له صَبابة بالشرَّ، لا يصحو عن المطالبةِ فواقاً[١]، ولا يُرسِلُ السَّاقَ فيها إلاَّ مُمسِكاً ساقاً، يفزعُ من ذا إلى ذلك، ويضربُ هنا وهنالِك، وهَبْهُ قد استضلعَ واكتفى، أيعلمُ كيف تكونُ العُقبى؟ وأنشد: «**والشرُّ أخبثُ ما أوعيتَ من زادِ**[٢]»

قلتُ: صدقتَ، وحقَّقت!

قلتُ: فأبو القاسم ابنه[٣]؟!

قال: ثاني يحيى بن زكريَّا، أُوتِيَ الحُكْمَ صبيّا[٤]!

قلتُ: فكيفَ حالهُ فيهم؟

قال: يعرفُ المقاييس والأشباه، ويملأُ المسامعَ والأفواه.

قلت: فأبو بكرٍ ابنُ عمِّه؟

فقال: وليّ أيتام، وموضعُ كلام!

قلتُ: واها لك، أيٌّ إيماض ما أحلاه، وأمراص[٥] ما أجلاه!.

قلتُ: فالقُرشِيُّ صِهْرُه؟

فقال: بنى دنياه، وهدَم أُخراه، وقد فَدِم[٦] فعلم، ولتمسك عن ذي قَرم[٧]!

قلتُ: فما عندك في كاتبهِ ابن أبي السَّداد[٨]؟

(١) الفواق (بالضم والفتح): ما بين الحلبتين من الوقت، و(الفواق) بالضم: ترديد الشهقة العالية.

(٢) عجز بيت لعبيد بن الأبرص، وصدره الخير يبقى وإن طال الزمان به (العمدة١ ١٨٨).

(٣)هو أبو القاسم أحمد بن محمد بن علي بن حمدين صاحب أحكام القضاء لقرطبة (الصلة ٢: ٥٧٠ت ١٢٥٤)

(٤) يقتبس من قوله تعالى:«يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا» مريم:١٢

(٥) المرَص: الغمز.

(٦)الفَدْم من الناس: العَييّ عن الحجة والكلام مع ثقل ورخاوة وقلة فهم، وهو أيضا: الغليظ السمين الأحمق الجافي.

(٧) القرَم: شدة الشهوة إلى اللحم وغيره

(٨) ستأتى إشارة فيما بعد إلى أبى السَّداد. وفى الإحاطة(٢/ ١٣٩) إشارة إلى من يُسمى أبا محمد ابن أبي السداد الباهلى.

فقال: نصراني الأعراق، يهوديّ الأخلاق، اختيارٌ حـارَ فيـه النَّـاس، حتّـى وجـد النصَّ والقياس، فوأبيه لقد استجليتها فيه!

قلتُ: فما عندك في أبي الوليد بن طريف(١)؟

قال: مكفوف الأذى، مغلول الشَّبا(٢).

قلتُ: فكيفَ حالهُ معهم؟

قال: تعبٌ كثير، ونَفْعٌ يسير!

قلتُ: فما عندك في أصبغ بن محمد(٣)؟

قال: رجلٌ اغترَّ بحالِه، ولم ير المطالبَ من رجالِه، وأشهُدِ له بجهله إلاَّ أنَّه في السرِّ أجودُ بصراً، وأبعدُ أثراً، أمَّا هذا الرَّجلُ فحالهُ حَالَة، وخِصَالُهُ حُصَالة(٤)، لا يدفعُ النَّهار، ويردُّ المثَلَ السيَّار، إلا أنَّ للشرِّ عصابةً حلبوه أشطراً، وجرَّبوه عُرْفاً ومُنكَراً(٥)، فجاءوا كنضائض لا يُبَلُّ سليمُهُم، وشياطينَ لا يُفلُّ رجيمُهم:

وإنَّ للحربِ أقواماً لها خُلِقوا ... وللدّواوينِ حُسّابٌ وكُتَّابُ

قلتُ: فصاحبُهُ أبو الوليد؟

فقال: نزا نَزْوَ القَرار واستجهل القرار(٦)، أو كما قال:

---

(١) هو أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن أحمد بن طريف . وصفه ابن بسام بأنه «أحد كُتَّاب العصر. وفرسان النظم والنثر» (الذخيرة ق٢ م٢ ص٨١٨.)

(٢) الشَّبا: (جمع: الشباة) وشَبَاة كل شيء: حَدُّ طَرَفه، وقيل: حَدُّه.

(٣) هو أصبغ بن محمد بن أصبغ الأزدي، كبير المفتين بقرطبة، يعرف بابن المناصف، ويكنى أبا القاسم، روى عن أبيه قاضي الجماعة أبي عبد الله، وعن أبي محمد بن عتاب، وأبي مروان بن سراج وغيرهم. (التكملة: ترجمة رقم ٥٥١)

(٤) الحُصَالة: (بالضم): الكُناسة.

(٥) العرف: ضد النُكر.

(٦) القَرار(الأول): ضرب من الغنم قصار الأرجل، قباح الوجوه. والقرار(الثانية): القاع المسُتدير يستقر فيه الماء.

وهـلْ أنـا إلاَّ مـن غُزيّـةَ إن غَـوَت غويـتُ وإنْ ترشُـدْ غُزيَّـةُ أرشـدِ[١]

وإني مع هذا أقول: وا أسفا عليه من عِلْقِ بيع وفَتىً أُضيع!

قلتُ: فالشَّيخُ ابن عتّاب[٢]؟

فقال: يقول كما قال الببغاء، وأنشد:

عزُبَـتْ حلـومهم ومـا مِـن معـشرٍ إلاَّ وهـم منـه أَلَـبُّ وأحـزَمُ[٣]

وإنَّا لله على زمانٍ سعى في فسادٍ أحوالهم، وأماتهم قبل حلول آجالهم.

قلتُ: فما عندك في الفقيهِ أبى عبد اللهِ بن الحاج[٤]؟

فأنشد[٥]:

خلتِ الـدِّيارُ فـسدتُ غـيرَ مـسوَّدِ ومـن الـشَّقاءِ تفـرُّدِي بالـسُّؤددِ

فقلتُ: فكيف حالُه فيهم؟

فقال: أشـفقُ مـن رسـم الأغفـال، وتقـويمِ الجُهَّـال ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ﴾[٦].

---

(١) البيت لدريد بن الصّمّة،(الأصمعيات: ١٠٧)

(٢) هو محمد بن عتَّاب بن محسن، من أهل قرطبة، وكبير المفتين بها، يكنى أبا عبد الله، كان فقيهاً عالماً، عـاملاً ورعـاً عـاقلاً بصيراً بالحديث وطرقه... متفنناً في فنون العلم، حافظاً للأخبار والأمثال والأشعار، صليباً في الحق، مؤيداً له (المغـرب: ١/ ص ١٦٥).

(٣) البيت لأبي تمام من قصيدة يمدح فيها مالك بن طوق(ديوانه ٢٤٢) وألـبّ: أعقـل وأحـزم وأضـبط للأمـور. عزبـت: غابت.

(٤) هو محمد بن أحمد بن خلف بن إبراهيم التجيبي، المعروف بأبي عبد الله بن الحاج، قاضي الجماعة بقرطبة.

(٥) البيت لحارثة بن بدر(البيان والتبيين ٤٩٤).

(٦)النِّساء: بعض آية ٩٤ .

قلتُ: فما عندك في أبي جعفر ابن سفير(١)؟

فقال: لا في العير ولا في النَّفِير(٢)، معزى مكيرة، عليها قشعريرة!

قلتُ: فما عندك في أبي الوليد بن عواد(٣)؟

قال: قَيدتْه الزُّمانةُ لا الدَّيانة، ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾(٤)!

قلت: ففي أيّ حيّز هو؟

قال: اعتزل النَّاحيتين، واحتجز الطَّائفتين، فهو يشتم هناوهنا، ويقول. أنا وأنا!

قلتُ: فما عندك في أبي الإصبغ بن حزمون(٥)؟

قال: ابنُ لبون(٦)، لا ظهرَ فيُركَب، ولا لبنَ فيحلب،

«رأي السَّلامةَ منها ترك ما فيها»(٧)

---

(١) لم أعثر له على ترجمة.

(٢) مثل مشهور، قال المفضّل إنَ أول من قاله أبو سفيان بن حرب، وله خبر في (الميداني ٢/ ١٧٢).

(٣)هو هشام بن أحمد بن سعيد، يعرف بابن العوَّاد، ويكنى أبا الوليد، من أهل قرطبة، وكان من جلة الفقهاء وكبارهم، وعلمائهم وخيارهم، حافظاً للرأي، بصيراً بالفتيا... مع دين وفضل وورع..ودعي إلى القضاء بغير موضع فامتنع من ذلك، وتوفي سنة ٥٠٩هـ(الصلة ٢/ ص٣٧ ترجمة رقم ١٤٣٩).

(٤) الأنفال: بعض آية ٢٣.

(٥)هو عبد العزيز بن عبد الله بن محمد بن أحمد بن حزمون، من أهل قرطبة، يكنى أبا الأصبغ، كان فقيهاً مشاوراً في الأحكام بقرطبة، صدراً في المفتين بها، وتولى الصلاة بالمسجد الجامع بقرطبة، وتوفي سنة ٥٠٨هـ (الصلة ٢/ ص٣٧ ترجمة رقم ٧٩٧).

(٦) اللبون: الناقة ذات اللبن

(٧) عجز بيت ورد في مجمع الأمثال للميدانى(١:ص ٢٠) أما رواية صدره فهي (والنفس تكلف بالدنيا وقد علمت).

فربَض حجراً، وابتغى من عشيقتهِ وَطَراً، واستردَّ صِباه، وحطَّ في هـواه، مُطَّرحـاً للرِّياء، نابِذاً للحياء، يُنشد في سكينة، بيتي عروة بن أذينة:[١]

قالتْ وأبثثُها شجوي فبحـثُ بـه — قد كنت عندي تحبُّ السّتر فاسـتترِ

ألستَ تُبصر من حـولي فقلـتُ لهـا — غطى هواك وما أبقى عـلى بَـصرَي

قلتُ: فما تقولُ في الوزير أبى الحسن بن سراج[٢]؟

قال: رأسُ الجلسية، ورئيسُ المعتزلية، ثارت الثَّورات، وجالت الجـولات، حُلَـلٌ من العين والأثر، وتمثُّلُ الكلاب على البقر!

قلتُ فصاحبهُ أبو عبد الله بن مكيَّ[٣]؟

قال: ساكن القدْر ، قريب الغَوْر..

قلتُ: فثالثُهما أبو الحَسَن بن المصحفيّ[٤]؟

قال: مصدور لا يملك أن ينفث[٥]، ويحلف ألا فرج رجاءَ أن يحنث!

---

(١) هو عروة بن أُذَينة بن الليث، عاش في عصر بني أمية، ووفد على هشام بن عبد الملك كان عالماً شـاعراً حاذقـاً. معجـم الشعراء: ص٥٤. وقد ورد البيتان في الشعر والشعراء ص١٣٨.

(٢) هو سراج بن عبد الملك بن سراج، من أهل قرطبة، يكنى أبا الحسين، وهو من أسرة قرطبية مشهورة، وكانت لـه عنايـة كاملة بكتب الآداب واللغات والتقييد، وكان حسن الخلق، كامل المروءة، من بيئة علم ونباهة وفضل وجلالـة وكانـت وفاته سنة ٥٠٨هـ

(٣)هو الوزير الفقيه أبو عبد الله جعفر بن محمد بن مكّى بن أبى طالب القيسي، جده مكي بن أبي طالب المقرئ المشهور. أما هو فكان عالماً باللغات والآداب، ضابطاً، جماعة للكتب في هذا الشأن، وتتلمذ عليه ابـن دحيـة وابـن بـشكوال، وتـوفي سنة ٥٣٥هـ [الصلة ١: ١٢٩، التكملة ت ٢٩٤، المغرب ١: ١٠٨، بغية الوعاة رقم ٦١٧]

(٤) لعله حفيد أبي جعفر المصحفي الذي اشتهر في فترة الحجابة.

(٥) في المثل:«لابدَّ للمصدور أن ينفث» والمصدور: الذي يشتكي صدره، والنفث: البزق «اللسان: نفث» .

قلتُ: فما عندك في أبي الحسن بن الصفَّار[١]؟

قال: عاطٍ بغير أنواط[٢] وسكِّيتٌ[٣] يتعاطى السباق، ومتأخِّرٌ يدَّعي اللِّحاق!

قلتُ: فما يعتقدُ النَّاسُ فيه؟

قال: كُلٌّ يعلمُ تخلُّفه، ويبغِضُ حِدَّتَه وتصلُّفَه، حاشى قويم من جيرانِه، فإنّ من آماهِم، لو اشتروْا له لحيةً بأنصافِ أموالِهم!

قلتُ: فصاحُبهُ أبو القاسِمُ بن بقِّي[٤]؟

قال: يساويه في التخلُّفِ، ويَفْضُلُه في كثرةِ التكلُّف!

قلتُ: فأخوهُ صاحبُ الأحكام؟!

قال: حمارٌ في مسخ[٥] إنسان!، الاشتغال: بذِكره مُضَيَّعٌ للزَّمان!

قلتُ: فأبو عامر بن فلفل؟!

قال: غادرَ داءً ونحا صَحصَحاً[٦]، بعد ما توجه الحكمُ عليه، وتلمَّظَ الخَصْمُ إليه!

قلتُ: فهو مع ذلك كيف؟

---

(١)هو أبو الحسن علي بن الصفَّار، من أسرة قرطبية مشهورة، ذُكِرَ أنَّ له تاريخاً في جزيرة الأندلس (المغرب: ١:/ ١٦٥).

(٢) عاطٍ بغير أنواط: مثل يضرب لمن يدَّعي ما ليس يملكه. (اللسان:نوط).

(٣) السُكيت: آخر ما يجيء من الخيل في الحَلْبَة.

(٤) هو أحمد بن محمد بن أحمد بن بقي، من أهل قرطبة، يكنى أبا القاسم، وتوفي سنة ٥٣٢هـ (الصلة ١: ص٧٩ – ٨٠، ترجمة رقم ١٧٤).

(٥) المسخ: تحويل صورة إلى صورة أقبح منها.

(٦)الصَحْصَح: الأرض المستوية، ورجل صحصح: يتتبع دقائق الأمور فيحصيها ويعلمها.

قال: لحمٌ على وضم، لو لا ما ذبّ عنه[١]!

قلتُ: فما عندكَ في الشَّيخ أبي عمران بن أخطل[٢]؟!

فأنشد[٣]:

لا قُدِّســـتْ نُعمـــى تـــسربلتها ... كـــم حجَّـــةٍ فيهـــا لزنـــديقِ

قلتُ: فما عندكَ في أبي جعفر بن أُبَّي[٤]؟

قال: هو شيطانٌ في كل طريق ومع كل فريق، تميميّاً مرَّة، وقَيْسيّاً أُخرى، يسلم على اختلاف الدُّول، مع التقحُّمِ في القولِ والعمل، وأظنُّه من المُنْظَرينَ إلى يوم الدِّين !

قلتُ: فقريبُه أبو الحسن؟!

قال: ذَنْبٌ من ذنوبِه، وعَيْبٌ من عيوبه، في حماه يرتع، وإلى يومِه يرفع!

قلتَ: فأخوهُ عيسى؟!

قال: هو منه كهرون من موسى، وأنشدني ساخراً:

خُذْ مـا تـراهُ وَدَعْ شـيئاً سـمعتَ بـه ... في طلعةِ الشَّمسِ ما يُغنيك عن زُحَـلِ[٥]

---

(١) في حديث عمر بن الخطّاب- رضي الله عنه – أنه قال: إنَّما النِّساءُ لحمٌ على وضم، إلاَّماذبَّ عنه» أي هـنَ في الـضعف مثـل ذلـك اللحـم لا يمتنع من أحدٍ إلاّ أن يذبّ عنه ويُدْفع. والوضم: الخشبة أو البارية التي يوضع عليها اللحم(اللسان – وصم).

(٢) لعله أحمد بن عبد الله بن أخطل، قرطبي، وكنيه أبو عمر، وكانت له رحلة إلى المشرق، (الذيل والتكملة ١: ١٣٧ ترجمة رقم ٢١١).

(٣) البيت لابن الرومي (ديوانه ٤: ١٧٠٤).

(٤)هو أحمد بن أبي الحسن عبد الرحمن بن ربيع الأشعري، قرطبي، ويلّقب بـدي الـوزاتين، وذكـر عبـدْ الملـك المراكـشي أنه«كان من بيت علم وجلالة، ذا عناية بالعلم» (الذيل والتكملة ١: ١٩٣ – ١٩٤)

(٥) البيت للمتنبي، (ديوانه: ٣: ٢٠٥)

قلتُ: فابنا أخيهما أُبيٌّ وربيع؟

قال:

أعــن ســعدٍ تُــسائِلُ أم سَــعادَهْ   كِــلا الكلبــين في الهيجــا جَــرَادهْ

قلتُ: فما عندك في صاحب السِّكة وأخيه؟!

فقال: القزَّازُ والخزَّاز؟!

نسبٌ كأنَّ عليه من شمسِ الـضُّحى   نـوراً ومـن فَلَـقِ الـصَّباحِ عمـودا[1]

قلتُ: فما عندَك في أبي عبد الله الحضرميّ[2]؟!

فقال: طلبَ الزِّيادةَ فنقص، ومشى الغد منه فنكص، وتلك عادةُ الله فيمن تجاوز حدّه، ولم ينظرْ قصدَه.

قلتُ: فما عندك في أبي عليّ بن كامل[3]؟!

فقال: ارتجعَ بعد التطليق، ورقع بعد التمزيق!

قلتُ: فما عندك في الموزوريّ[4] أبي عبد الله[5]؟

قال:سفيه زمانه، واللهُ أعلمُ بشانه، فَاستمْلحْتُ طَنْزَته[6]!

قلتُ: فما تقول في أبى بكر بن المرعزى[7]؟

---

(1)البيت لأبى تمام من قصيدة في مدح خالد بن يزيد الشيباني.(ديوانه ٨٠ط. بيروت)

(2) هو عبد الله بن عمر بن هشام الحضرمي، أصله من إشبيلية، ونزح أهله إلى قرطبة، وبها ولد ونشأ، وكان مقرئاً نحوياً، أديباً شاعراً، وله تصانيف عدة، وتوفي بعد سنة ٥٥٠هـ(التكملة رقم٣١٧٢).

(3)لم أعثر له على ترجمة.

(4) نسبة إلى موزور: كورة بالأندلس تتصل أعمالها بأعمال قرمونة(معجم البلدان).

(5)هو محمد بن عبد العزيز بن أبي الخير بن علي الأنصاري: أبو عبد الله، المعروف بالموزوري، من أهل (سرقسطة)، سكن قرطبة، وكان قاضياً، توفي بقرطبة سنة ٥١٨هـ.

(6) الطَّنز: السخرية والاستهزاء.

(7) لعله حفيد بن المرعزى كاتب المنصور بن أبي عامر: انظر الإحاطة (١: ص٤٦٦).

فقال: ضعيفٌ أضاقَ الحَسَدُ عَطَنَه، وأجْرَى السَّفَهُ رسنَه، فآلـتْ بـه الحـال الى أن فارق الأهل والولد،وسَرى سُرى الأبد.

قلتُ: فما تقولُ في ابني ملامس(١)؟!

فقال: قَبحهما اللهُ من خبيثين مُخَنثين، أسديا الشرَّ وألحماه، فلمّا انتهى البلاءُ مُنتهـاه، وفغر العدوُّ عليهما فاه، لاذا بالفَرار، وتركا العارَ لصاحبة الدَّار؟!

قلتُ: فما عندك في أبي الحسن بن عبد الصمد(٢)؟!

قال: مومسةٌ تعصفُر أثوابَها، وتُحاسنُ أترابها!

قلتُ: فما عندك في الهُراء(٣) أبي القاسم بن النخَّاس(٤)؟

فصاح: آه آهٍ لكتابِ الله بشيخٍ مع صبيان، في تباريحَ من الوصلِ والهجـران، يُهـانُ شيبُه، ويُذَاعُ عَيْبُه.

قلتُ: فما عندك في ابنه؟

فقال: لم يسعدْ في الزواج، وهَو مِمَّن مُلِّس بالعَاج.

قلتُ: فما تقولُ في أبي العبَّاس بن جُرج(٥)؟!

فقال: مُخبَّأةٌ مُخَدَّرة (٦)،«وعلى الغانياتِ جرُّ الذيولِ (٧)»!

---

(١) في الذيل والتكملة (٤: ص٦٠). ترجمة لمن يدعى سليمان بن إبراهيم بن ملاس، ، وأشار إلى أنّ له أخوين هما (أحمد وعمر)، وذكر أنه روى عن شريح المتوفى بعد سنة ٥٣٤هـ

(٢) لم أعثر على ترجمة له.

(٣) رجل هُراء: كثير الكلام ، والهُراء: اسم شيطان موكُلٍ بقبيح الأحلام(اللسان:هرأ).

(٤) هو أبو القاسم خلف بن إبراهيم النخّاس – بالخاء معجمة – من أبرز علماء قرطبة في القراءات، وقد أخذ عنـه كثـيرون (الذيل والتكملة :١/ ص١٠٧).

(٥)اترجم عبد الملك المراكشي في الذيل والتكملة (١: ١ ٨) لابنه أحمد بن جرج.

(٦) يشبهه بالمرأة والمخدرة، أي التي لزمت الخِدْر.

(٧) هذا عجز بيت لعمر بن أبي ربيعة، وصدره: {كُتِب القتلُ والقِتالُ علينا}

قلتُ: فعمُّهُ أبو الوليد؟!

قال: في عداد الموتى وفي غابر الدُّنيا !

قلتُ: فأبو جعفرٍ ابنهُ[١]؟!

فأنشد[٢]:

ويخطو على الأيْنِ خطوَ الظَّليـ ـمِ ويعلو الرِّجالَ بجسمٍ عَمَمْ

فاستغربت ضحكاً، وقلت: فما عندك في أبي محمد بن أخطل[٣]؟!

فقال: وزيرُ غَوان، وزيرُ دنان، وهو من شرِّ الغُلْمَةِ[٤] في أمان وهذا لأبي محمَّد كثير.

قلتُ: فأبو العباس بن عبدوس؟

قال: لُكع بن لكع، فخذ في غيره أو فدعْ!

قال: فما تقولُ في الشَّيخ أبي الوليد بن عامر[٥]؟!

فزوى وجهَه وأنشد[٦]:

ألا حـيِّ أطلالَ الرِّسوم البواليا لبسنَ لبِلى ممَّا لبسنَ اللَّياليا

وفهمت أنَّه يكره المسألة، عن تلك السَّفلة، فأضربتُ عن ذكره!

---

(١) هو أحمد بن جرج القرطبي، أبو جعفر ، ابن أبي العَبَّاس بن جرج، كان أديباً شاعراً، من بيت علم وجلالة، وتوفي بعد سنة ٥٧٠هـ (الذيل والتكملة ١: ٨١)

(٢) البيت لشاعر يقال له العماني في مدح هارون الرشيد، وكان الرشيد إذا طاف بالبيت جعل لإزاره ذنبين عن يمين وشمال ثم طاف بأوسع من خطو الظليم (البيان والتبيين :٨١).

(٣)لعله قريب أبي عمران بن أخطل.

(٤) الغلمة (بالضم): شهوة الضراب.

(٥) هو أحد علماء قرطبة المبرزين في الفقه والحديث، وقد اعتمدَ عليه الضبي في رواية بعض أخباره (بغية الملتمس: ص٥١٦ – ٥٢١).

(٦) البيت لأبي حيّة النميري (البيان والتّبيين ٣٢٧).

قلتُ: فما عندك في أبى العَبّاس البيَّاس[١]؟! فأنشد[٢]:

ومـا أدرى وسـوف إخـالُ أدري ... أقـومٌ آلُ حِـصْنٍ أم نـساءُ

قلتُ: فما عندك في أبي حفصٍ صاحبِ أحكامِ كدنة؟!

فقال: السَّيفُ والقلم، والحُكْمُ والحِكَم، ما كان أحوجَ ذلك الكمال إلى عيبٍ يوقيه من العين!

قلتُ: فما عندك في ابن فرج[٣]؟!

قال: أعبدَ الله؟

قلتُ: نعم!

فأنشد:

أمَّا ابنُ قروةَ يوسفٌ فكأنَّه ... من كبرِهِ أيرُ الحمارِ القائمُ
ما النَّاسُ عندك غيرُ نفسِك وحدَها ... والنَّاسُ عندك - ما عداك- بهائِمُ

قلتُ: هذا هو عندَ نفسِه، فما هو عند النَّاس؟

قال: قالس[٤]مشئوم، وأمسكَ مُبتسماً، فقلتُ: مبادراً: وأسفل محجوم.

(١) لم أقف له على ترجمة .

(٢) البيت لزهير بن أبي سُلمى(ديوانه: ٩٧).

(٣) ابن فرج، من علماء قرطبة المبرزين في الفقه، كان يحدِّث بالموطأ، وأخذ عنه ابن بشكوال. وصحبه كثيراً، ولازمه طويلاً (الصلة ٢:ص٣٦٦).

(٤) القالس: الذليل الخاضع، مأخوذ من التقليس: وهو وضع اليدين على الصدر خضوعاً والتقليس أيضاً : استقبال الولاة عند قدومهم بأصناف اللهو واللعب بين أيديهم. (اللسان: قلس).

فقال: أرى شيطانَنا واحداً، فقلتُ: كذا وحبَّذا!

قلتُ: فما عندك في ابن شمَّاخ[1]؟!

قال: الصَّبيحُ الفصيحُ!

قلتُ: لا ، العكلي[2]، ذاك الفتى القبذاقي[3] صاحبنا!

قال: سيما لا تشقُّ على البصر:

كـــأنَّ الثُرَيَّـــا عُلِّقـــتْ في جبينـــهِ وفي أنفهِ الشعْرى وفي جيدِه القَمَـرْ[4]

قلتُ: فما تقولُ في أبى الحكم بن المطرّف[5]؟!

فأنشد[6]:

لـو كـان يخفـي عـلى الـرَّحمنِ خافيـةٌ مـن خلقـهِ خَفِيـتْ عنـه بنـو أسـدِ

قلتُ: فما تقول في القُرشي أبي عبد الله[7]؟

---

(١) هو الوزير الكاتب أبو مروان عبد الملك بن محمد بن شماخ، كان وزيراً لسيف الدولة أحمد بن عبد الملك بن هود بقرطبه، وعندما ثار أهل قرطبة على ابن هود سنة ٥٣٩هـ هاجموا قصره وقتلو ابن شمَّاخ وعدَّة من أصحابه ، وفرَّ ابن هود ناجياً بنفسه. (الحلة السيراء ٢: ص٢٠٧).

(٢) العكلُ: اللئيم من الرجال.

(٣) نسبة إلى القبذاق وهي قرية من قُرى أشبونة (المغرب ١: ص٤١٣).

(٤) البيت لأسيد بن عنقاء الفزاري(الإيضاح للقزويني:١٩٥).

(٥) وهو يحيى بن محمد بن أبي المطرف ، من أهل قرطبة، ويكنَّى أبا الحكم، روى كثيراً من كتب الأدب واللغة،وتوفي سنة ٥٢٦هـ (الصلة ٢/ ٦٧٣).

(٦) البيت للطرماح بن حكيم(عيار الشعر: ٤٥).

(٧) هو محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن حكم، القرشي، المرواني، الناصري، ويعرف بابن الأحمر، كان حافظاً للفقه، متفنّناً في المعارف، وتتلمذ على أبي مروان بن سراج وتوفي سنة ٥٢٦هـ.

قال: أحيمر عاد[١]! قلتُ: نعم

قال: لحاه الله، وعاء خبائثٍ وفسوق، ولصٌّ في ضَجَّةِ سُوق، لو لم يكن بمصطبحِه ذَنْبٌ سواه لكفاه!

قلتُ: فما عندك في ابن مديد[٢]؟!

قال: أكاتِبُ أبي السداد[٣]؟

قلتُ: نعم، قال: حنَّ قِدْحٌ ليس منها[٤].

قلتُ: وكيف حالُه مع هذا؟

قال: وقاح يغيظُ الأحرار، ويغضُّ الأبصار:

ولو أنَّ عبد اللهِ مولىً هجوتُه ونكنَّ عبدَ اللهِ مَولى مواليا[٥]

قلتُ: فما تقولُ في أبى بكر بن سكرون[٦]؟!

فقال: لحيةٌ تهوء[٧]، ومشيةٌ تنوء، وفي أسفلهِ داءٌ بعيدٌ عنكم السوء!

قلتُ: فما تقول في ابن جابر[٨]؟

---

(١) المألوف أن يقال: أحمر ثمود وهو لقب قدار بن سالف عاقر ناقة صالح، وهو هنا يتهكم بالقرشي لأنه عرف بابن الأحمر.

(٢) لم أعثر له على ترجمة.

(٣) أبو السُّداد: أحد ولاة المرابطين، شارك في معركة ميورقة سنة ٥٠٩ هـ وأسند إليه علي بن يوسف ولايتها ولكنه لم يحسن السيرة في أهلها(عصر المرابطين والموحدين- عنان ص١٥٢)

(٤)مثل يُضرب للرجل يفتخر بقوم ليس منهم أو يتمدّح بها لا يوجد فيه. والقدح: أحد قداح الميسر، وإذا كان أحد القداح من غير جوهر أخواته ثم أجاله المفيض خرج له صوت يخالف أصواتها فيعرف به أنه ليس من جُملة القداح.(الميداني ١/ ١٠٠).

(٥) البيت للفرزدق في هجاء عبد الله بن إسحاق الحضرمي، وله خبر طريف(الشعر والشعراء:١٢)

(٦) لم أعثر له على ترجمة.

(٧) الهوء: الهمة ، وهاء بنفسه إلى العلى يهوء هَوْءاً: رفعها وسما بها.

(٨) ابن جابر(؟)

فقال: أعن أخْيَل الذَّنب [١]، وعيان المحتسبِ، تسأل؟!

فقلتُ: أجل!

فقال: فيه دَيْدَنٌ وشَرْطٌ. تفقدُ أكبر هَمِّه، إذاعةُ قَطْمِهِ!

قلتُ: فما تقولُ في الكريم أبى عامر بن شهيد [٢]؟!

فأطرق حيناً، ثم قلتُ له: ما بالك، فقد تغيَّرت حالك؟!

فأنشد:

تفرَّقــتِ الظبــاءُ عــلى خــداشٍ فــما يــدري خُــداشٌ مــا يــصيدُ [٣]

ثمَ قال:

واعلــمْ بــأنَّ مــن الــسّكوتِ إبانــةً ومــن الــتكلُّمِ مــا يكــونُ خَبَــالا [٤]

فقلـتُ: لاهـا الله! مـا رأيـتُ كـاليومِ معـضلة، وتـذكرتُ مـا ذهـبَ إليـه في أبي عامرٍ من قولِ بعضهم [٥]:

(١) العرب تقول: أشأم من أخيل ، والأخيل: هو الشّقراق، وهو مشئوم . قال ثعلب: وهو يقع على دبر البعير، يقـال إنـه لا ينقرُ دَبَرة بعير إلاّ خَزَل ظهره وهم يتشاءمون به لذلك. (اللسان : خيل).

(٢) لا أظنُّ أنه يقصد أبا عامر بن شهيد الشاعر الكاتب لأنه توفي سنة ٤٢٦هـ بينما أحداث المقامة تدور بعد ذلك بكثير.

(٣) ورد هذا البيت في الأغاني (١٢- ص٢٢٧) وقد ذكره أبو الفرج في سياق خبرٍ عن خارجي يقال لـه ابـن معاويـة ظهـر بالكوفة ودعا لنفسه في عهد يزيد بن معاوية، فخرج إليه عاملها عبد الله بن عمر وقاتله ، فانهزم من معه ولم يبق غير ابـن معاوية، فجعل يقاتل وحده ويقول: تفرقت الظباء.... البيت».

(٤) ورد هذا البيت في (البيان والتبيين ٨٥) منسوباً لبعض الكلابيين .

(٥) البيتان لأبي نواس، قالها في رجل هجاه وهو بمصر يعرف بالحسن بن عمر وكان كما تصفه رواية ابن خلكان مـن أقـبح الناس صورة، فقال له أبو نواس: بم أهجوك ؟ وبأي شيء أصفك؟ وقد سبقنى الله تعالى إلى تـوحش منظـرك، وتقبـيح مخبرك؟ فقـال لـه بعـض الجالـسين : اهجـه لـئلا يقـال إنـه أفحمـك، فهجـاه بـالبيتين المـذكورين (وفيـات الأعيـان: ٢/ ص١٠٠).

بـــــــما أهجـــــــــوك لا أدري لـــــــــساني فيـــــــك لا يجـــــري
إذا فكَّـــــــــرتُ في عِرْضِـــــــــــــك أشـــفقتُ عـــلى شِـــعري

قلتُ: فتلك الطائفةُ المروَّعة عندكم سجناً وتشريداً، ما صنعتْ؟

فقال: أعن هؤلاء تسأل ! لقد تتبعتُ المسألةَ، فللَّهِ زعنفة[1] بعدتْ أطوارُها، فعُرِفَتْ أقدارُها!

قلتُ: فما صُنِعَ في كتابِ الغزالي[2]؟

قال: قِيلتْ فيه أقوال، وعُمِلتْ به أعمال، ولبِئس ما عمل ، ولبئس ما قيل، أساءوا الفهمَ فأساءوا التأويل، وويلٌ للشِّعرِ من الرواةِ السوء، وأحسبهُ قد استحق الذى عملوا ، وصحَّ فيه ما قالوا وتأوّلوا إذْ ليس اللهُ تعالى يُرضيه إلاّ ما اعتمدَ رضاه فيه.

قلت: إيهٍ يالله، فواليك ين رنغى فقد نسيناه!

قال: خليقٌ أن يُنسى «وحقيقٌ أن يُقلى، حديثُ أمتين، كذبٌ ومين، لولا عفافُ إزارِه، وكرمٌ غطَّى على عوارِه، لما كانت له حسنةٌ تُتلى، ولا خطَّةٌ تُستثنى، «ومثلما تكونون يُولَّ عليكم» .

قلتُ: فكاتُبه ابن أُبَيّ؟

---

(١) الزعنفة: أسفل الثوب المتخرِّق وطرفه، والزعنفة: القصير، وسُمى رذال الناس زعانف على التشبيه بزعانف الثوب والأديم.

(٢) المراد: كتاب الإحياء لأبي حامد الغزالي. ويذكر المراكشي في المعجب (٢٣٧) أنه «لما دخلت كُتب أبى حامد الغزالي – رحمه الله – المغرب، أمر أميرُ المسلمين – على بن يوسف بن تاشفين – بإحراقها ، وتقدم بالوعيد الشديد ، من سفك الدماء، واستئصال المال، إلى من وجد عنده شيء منها، واشتدَّ الأمر في ذلك».

قال: بائِسٌ مغترّ، وفقيرٌ مُضطر، حصل على مالم تطمحْ هِمَّتُه إليه، فهو يحمـلُ مـن صاحبه ما صبرَ لأحدٍ عليه!

قلتُ: لله أنت، فما أحسنَ بيانَك، ولو علمت المقصد، ليمَّمت نحوك اليد، فتنفَّس الصُّعداء، وأنشد(١):

وسائلةٍ بالغيبِ عنّي وسائِلِ　　　ومن يسأل الصُّعلوك أين مذاهبُه

فقلتُ في نفسي: لقد ألطفَ الاستمناح، هذا أبو فتح زماننا لا محالـة، ولم أجـدْ مـا عندي يفي لمكانه من نفسي ، فتغابيتُ له وأنشدته(٢).

اللهُ جـــــارُك في انطلاقِـــــكْ
تلقـــاءَ شـــامِك أو عِراقِـــكَ
إنّي بكيـــتُ عـــلى فِراقـــك

اذْهَبْ مُصَاحباً، صنعَ اللهُ لك الصَّنْعَ الجميل.

(١) البيت لأبي النَّشْناش، وهو شاعر إسلامي كان لصاً من لصوص بني تميم بين الحجاز والشام أيـام مـروان بـن الحكـم. وقد ورد في الحماسة (بشرح التبريزي: ١/ ص١١٦).

(٢) الشعر للبحتري(عدا المصراع الأخير) وقد قاله في وداع أبي جعفر بن سهل المروزيّ والي الخراج بقنسرين والعواصم، حين أراد البحتري الخروج إلى منبج، وكان معه بحلب، فخرج ولم يودعه، وروايته في الديوان:

الله جارُك في انطلاقكْ　　　تلقـــاء شامك أو عراقكْ
لا تعذلَني في مسيـ　　　ـري يوم سرتُ ولم ألاقكْ

تحليل المقامة

هذه المقامة مجهولة المؤلف، واكتفى صاحبها بأن يوقّعها بهذه العبارة:«إنشاء فلان ابن فلان» وتدور أحداثها في مدينة «قرطبة» في القرن السادس الهجري، وتتناول قضاتها وعلماءها وأدباءها بالسبّ والطعن والتجريح.

تبدأ المقامة بحديث للرواية «فلان بن فلان»، يذكر فيه أنه قابل في أثناء سفره «فتىً حديث السّن في أطمار، ينقَدّ وسامة، ويتّقد شهامة....، ويدور بينهما حوار يسأل الراوي فيه الفتى عن أخبار قرطبة «بعد أن طال بها عهدي، وحدثت بها الحوادث بعدي...، فيقول الفتى :« أبا ابن بجدتها، فَسَلْ عما شئت فيها... ويسأله الراوي عن قاضيها، فيجيبه بقوله: «حوّل القضاء رياسة، ووسّع الأمور سياسة، فتألّف الدهماء، وكفّ العدد والأعداء، من رجل له صبابة بالشر، لا يصحو عن المطالبة فواقا، ولا يُرسل الساق فيها إلا ممسكاً ساقا...».

وعلى هذا النحو تمضي المقامة، فالرواي يسأل والفتى يجيب إجابات تطعن أهل قرطبة في أخلاقهم وسيرتهم، ولم يدع أحداً من كبار علمائها وشيوخها إلاّ وتناوله بالتجريح، كأبي الوليد بن طريف، والفقيه أبي عبد الله الحاج، وأبي الحسن بن سراج... وغيرهم من علماء قرطبة المشهورين بالقضاء والإقراء والفتيا.

وقد نُسبتْ هذه المقامة إلى أبي عبد الله بن أبي الخصال فتبرّأ منها في رسالة كتبها إلى صديقه الوزير الكاتب أبي الحسين بن سراج –وهو أحد من تناولتهم المقامة بالطعن– ينفي عن نفسه هذه المقامة، يقول في رسالته:«ما هذه المقامة إلاقيامة حشرت الكرام وحاشت، وما استثنت ولا حاشت، أصابت وأشوت، وصابت وأخوت، وعمّت لتخصّ، وناحت لتعلن وتغصّ، والمناجي لبيب، وقد يؤذي من المقة الحبيب...اللهم

طهّرها من دنس الدعوة، واجعلني فيها مستجاب الدعوة، حتى ندعوها لأبيها، ونتبع الأقسط عندك فيها...»[١].

وردّ الوزير أبو جعفر بن أحمد برسالة سمّيت «الانتصار في الرد على صاحب المقامة القرطبية»، وجاء فيها: «تبّاً لمن جعل رأس ماله الخسران، وأنفس خلاله البهتان، يهرف بالمحال، ويقرف علية الرجال، وينسب إلى الجلّة النقصان، ويغضب في أهل الملة الرحمن، ويرضي الشيطان، فيقع في لحم أخيه سبعاً، ويرتع فيما يخزيه صنعا، كلامه زور، ونظامه فجور، ونثاره كذب، ومضماره لعب. إذا ذكر العلماء أفحش، أو وصف الفقهاء أوحش،.....وما كان أولاه أن يتأمل حال نفسه قبل يتأمل سواه، وينظر في خاصة أمره، دون من سمّاه، وأحراه أن يبدأ بتأديب أخلاقه، ويأخذ في تهذيب إطراقه، ولا يركب مثل هذه الشنعاء في أهل الزمان، ويرغب عن هذه العوراء في الجماهير والأعيان....».[٢]

وقد اختلط أمر هذه المقامة على الباحثين، فالدكتور إحسان عباس تصوّر أنّ مقامة الفتح بن خاقان في ذم شيخه البطليوسي هي «المقامة القرطبية »، وظنّ أن رسالة «الانتصار» ردٌّ على مقامة الفتح،[٣] والصواب أنها رد على المقامة القرطبية. وتابعه في هذا الخلط د. حسين خريوش، الذي ذكر «أن المقامة القرطبية تُنْسب إلى الفتح بن خاقان، قالها في أبي محمد البطليوسي»[٤] ونحن لانجد ذكراً للبطليوسي في المقامة القرطبية. ووقع

---

(١) انظر نص الرسالة كاملاً في : رسائل أندلسية : ص١٠٦ – ١٣٣، ورسائل ابن أبي الخصال: ص ٣٥٥ – ٣٦١.

(٢) انظر نص الرسالة كاملة في : رسائل أندلسية، ص١٠١ – ١٠٥، ورسائل ومقامات أندلسية: ص١٥٧ – ١٥٩. أبو جعفر بن أحمد ذكره ابن بسّام في الذخيرة (ق٣ م٢ / ص٧٥٧) ، وأشار إلى أنه من مدينة دانية، وأنه تبوأ مكانة كبيرة عند ملوك الطوائف.

(٣) انظر تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين) : ص٣١٤.

(٤).قلائد العقيان : ١/ ص٣٧٤ (الحاشية).

في الوهم أيضا بروكلمان حين زعم أن رسالة «الانتصار» قد تكون في الـرد عـلى إحـدى المقامات القرطبية التي عملهـا أبـو الطـاهر محمـد بـن يُوسـف السرقـسطي، صـاحب المقامات اللزومية.(١) وزعم في موضع آخر أنّ رسالة الانتصار للوزير أبي جعفـر كتبـت في الرد على المقامة التي صنعها الفتح بن خاقان على شيخه ابن السيد البطليـوسي(٢). أمّـا د. قُصَيّ الحسيني فقد قطع بصحة نسبة المقامة القرطبية إلى أبي عبد الله بـن أبي الخـصال، دون أن يعتمد في ذلك على سند أو دليل(٣).

---

(١) تاريخ الأدب العربي: ٣/ ص ٣٥١.

(٢) تاريخ الأدب العربي: ٣/ ص٤٧١.

(٣) فن المقامات بالأندلس: ص٣٧.

المقامة الشلبية[1]
وتُعزى لأبي الوليد بن سيِّد أمير -رحمه الله-

حدَّث سهان بن زمان، أو أبان بن شيبان، عن حيَّان بن عيان، وليس يُعرف ابن من كان، صاحب فلان بن فلان، الذي أنشأ «ميزان الأعيان بحكم الزَّمان»، قال:

قذفت بي غربةُ النَّوى إلى الغرب[2]، فأشلْتُ النعامة[3] على ابن النَّعامة إلى شِلْب[4]، مسقطِ رأسي، ومكانِ أُنسي، ومعي غدي من الدَّهرِ وأمسي، فلما قاربتُ الإشراف عليها، وقد أبرحَ الشَّوقُ إليها ، لقيتُ وقد انتصفَ النَّهار، شيخاً في أطمار، على حمار، وهو يسيرُ الهُوَينى، ويقدِّمُ يديه، أمام عَينيه، ليوهمَ أنَّه أبو العينا، فقلتُ في نفسي: بقيَّة عينٍ تحيلُ على آثارهم،

«شيمُ الزَّمانِ عداوةُ الأحرارِ»

فلَّما ولاَّنى قفاه، رفعتُ عقيرتي مُنشِداً ، كأنّي أُريدُ سواه:

دارَ الزَّمــانُ مخــاتِلاً في كُــلِّ حــالْ
مُذْ راحَ هذا الدَّهرُ أشعثَ ذا مُحـال
لا بــدَّ يرتــادُ الحقيقــةَ بالخيــالْ

(١) ورد نصّ المقامة في: رسائل ومقامات أندلسية: ص١٦٠-١٧١.

(٢) الغرب: غرب الأندلس.

(٣) شالت نعامته: خف وغضب ثم سكن، وشالت نعامتهم : تفرقوا وذهب عِزُّهم، والنعامة: الجماعة.

(٤) شِلْب: من مدن غرب الأندلس، وقد حكمها بنو عباد ثم خضعت للمرابطين والموحدين حتى سقطت سنة ٦٤٠هـ (صفة جزيرة الأندلس:١٠٦ و المغرب ١: ٣٨١) .

فقال: إنِّي عرَّضت، أم لبياني تعرّضت؟! فقلتُ: يرحمك الله، نفسي عَنّيْت، وحنيناً إلى أوَّليَّةِ حالي غنَّيت، فعطفَ بجَنان، وحيّا بلَبان، وقال: يا ابنَ الكِرامِ أرى عليك أثرة السَّرو، أمِن بلْخ أم مرو[١]؟ فقلتُ: أجلْ، من أحدهما، فقال: نسيبٌ أو خليل؟ أو فراسةُ المؤمنِ لا تخيل؟ أُنشدُكَ اللهَ والرَّحِم، ألا ما قصصتَ على عَمِّك، أُفرِّجُ عن غمِّك، وأوصلك إلى أقصى همِّك؟ قلتُ: أهلُ هذا القُطر[٢]! فقال: أصرعَهم الخذلان، وتملَّكهم الحِرمان، حتى كانَ من أمرهم ما كان، فرعاهم ابنُ كيلة سهلاً وحَزْناً، وأبادَهم كَيْلاً ووزْناً. ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾[٣].

قلتُ: غيرَ هذا أُريد!

فقال: سقطتَ على الخبير، فسلْ عن الصَّغير منهم والكبير.

قلتُ: قاضيها ابنُ حبيب[٤]؟

فقال: آلٌ وجلال، ومالٌ وجمال، رَأَسَ فَقَاد، وتعلّم فسَاد، وأرضى الآباءَ والأجداد، مع أنه جَمَعَ الرِّواية مع الدِّراية، ولم يعدم الرِّضا بعين النهاية، غيرَ أنَّه ظاهريُّ النِّحْله، قد اطَّرح الرِّحلة، وأقامَ بأرضهِ مقامَ أبى الطيِّبِ بأرض نخلة[٥] يُزيِّف الأقوال، ويُنشدُ إثْرَ كُلِّ مقال:

---

(١) بلخ ومرو مدينتان من أشهر مدن خراسان.

(٢) يعني أهل شلب.

(٣) الرعد: ١١

(٤) هو عبد الله بن عيسى بن عبد الله بن أبى حبيب، من أهل شلب، وقاضيها، يكنى أبا محمد، كان من أهل العلم والدين والخير والزهد. (التكملة ترجمة رقم ٢٠٣١ ص ٨٣٤).

(٥) يشير إلى قول أبي الطيب المتنبي:

مامقامى بأرض نخلة إلاّ … كمقام المسيح بين اليهود

ألم تـــر آنّـــى ظـــاهِريٍّ وأنّـــني عـــلى مـــا بـــدا حتّـــى يقـــومَ دليـــلُ[١]

وعلى حالِهِ ، فوا أسفاً عليه، وواهاً لدهرٍ أساقَ الحقوق إليه:

فإنْ تنجُ منها تـنجُ مِـن ذى عظيمـةٍ وإلاَّ فـــإنّي لا إخالـــك ناجيـــا[٢]

قلت: فأخوه؟!

قال: رياش رائق، وريشٌ خافق، سعيٌ مُضِلّ ، وظِلّ لا يُظلّ!

قلتُ: فأصهارهُ بنو فَنْدِلة[٣]؟

فقال: عبءٌ من أعبائهِ، وقذاةٌ في مائهِ، لا يُحسنون صُنْعاً، ولا يملكون دَفْعاً.

قلتُ: لا إلـه إلاَّ الله، أحاسـدٌ أم واجِـد؟ فـما هـذا الـصِّيتُ المسموع، والـشَّرفُ المرفوع؟! فأنشد:[٤]

رأيتُ الغنـى في أهلـهِ يُـوردُ الفتـى بغـــيرِ لـــسانٍ ناطقـــاً بلـــسانِ

قلتُ : فما تقول في أبي القاسم بن الطَّلاع[٥]؟

فقال: رجلٌ سمعَ فَعَلِم، وسكتَ فسلِم ، وخافَ مهانة الرِّجال، وأنشد:

---

(١) البيت لأبي محمد بن حزم (الذخيرة ١/ ١: ١٧٥ ، المغرب ١: ٣٥٦).

(٢) البيت للأسود بن سريع(البيان والتبيين ١٩٢).

(٣) بنو فنْدلة: أسرة مشهورة بشلب، ومنهم علماء مبرزون على شاكلة أبي بكر بن فندلـة (التكملـة ص ٦٩٥ ت ١٧٤٨). وأبو القاسم محمد بن عبيد الله بن محمد بن فندلة (الذيل والتكملة٥/ ٢: ٥٢٦)

(٤) ورد البيت في (البيان والتبيين ١٣٠) منسوباً لأعرابي من باهلة.

(٥) كذا بالأصل، ولعل المراد(أبو الحسين بن الطلاَّء) وهو عبد الملك بن محمد بن هشام بـن سـعد القيـسي ، شـلبي، كـان محدّثاً متسع الرواية عارفاً بالفقه وأصوله وعلم الكلام، واختلف إليه العلماء من شتى بقاع الأندلس للأخذ عنـه وتـوفي سنة ٥٥١هـ .

ولستُ بسائلِ الأعراب شيئاً حمدتُ اللهَ إذْ لَم يأكلوني

قلتُ: فما تقول في أبي محمد بن حُبَيّ؟!

فقال: رجلٌ جمعَ ذهبه، فحرَّك ذنبه!

قلتُ: فكيف هو في جيرانِه؟

فقال: بغيضٌ مقيت، وحجرٌ كبريت، إن صادف شراراً، أضرَمَها ناراً!

«وموقدُ النَّارِ لا ينجو من الشَّررِ»

قلتُ: فما تقولُ في أبي القاسم بن جسَّاس[١]؟

فقال: ما به مِن باس، قد سالم النَّاس فسلِم من النَّاس، فليس في العير يوم يحدون بالعير، ولا في النَّفيرِ يومَ النَّفير[٢]!

قلتُ: فما تقولُ في أبي بكر بن سعيد[٣]؟!

فقال: فلَّت النُّوبُ شَباه، وكفَّ الجَزَعُ أذاه، حتَّى عادَ عيرا مركوباً، ووريداً مضروباً.

«وما المرءُ إلاّ حيث يجعلُ نفسَهُ»[٤]

---

(١) لم أعثر على ترجمة له.

(٢) من المثل: لا في العير ولا في النفير.

(٣) هو محمد بن إبراهيم بن سعيد العامري، يكنى أبا بكر، من أهل شلب، كان واسع الأدب، مشهوراً بمعرفته، وتولى الخطبة ببلده مدة طويلة، وتوفي سنة ٥٣٢ هـ. (الصلة: ٥٨٢ ت ١٢٨١)

(٤) صدر بيت لمنقر بن فروة المنقري، وعجزه «ففي صالحِ الأعمالِ نفسَكَ فاجعل» (البيان والتبيين ٤٩٨).

قلتُ : فما تقولُ في أبي بكرٍ الخولاني(١)؟

فقال: واصل رواحَه وابتكُارَه، حتَّى حطَّ بباجَّة(٢) أوزارَه، وقضى من تهامة(٣) أوطارَه، وأنشد(٤):

غريبٌ دعاه الشَّوقُ واقتاده الهوى ... كما قيل عود بالزّمامِ أديبُ

قلتُ: فما تقولُ في الوزير أبي القاسم بن الملح(٥)؟

فقال: شاعِرُ قُطْرِه، وحِجا عصرِه!

قلتُ: فأخوهُ عبد الملك(٦)؟

فقال: خبيثُ مخبث، إنْ حلفَ نكر وحَنَث ، أو عاهدَ مكَر ونكث، وأُقِسمُ إنَّه ليحقدُ على أخيه، ولا يصغي لأبيه!

قلتُ: فما تقولُ في أبي عبد الملك بن الملاَّح(٧)؟

---

(١) ذكره الضبِّي في (البغية: ٥١٧ – ٥١٨ ت ١٥١٥) فقال: «أبو بكر الخولاني الباجيّ، من أهل باجّة، سكن إشبيلية، من الشعراء المشهورين» وفي (الخريدة ٢: ٥٨٤) : أبو بكر الخولاني المنجِّم (؟)وقال : إنه منجِّم المعتمد بن عبَّاد ، كما ذكره ابن بسّام واعتمد عليه في رواية بعض الأخبار وأود كتايين لابن الحداد وابن القزاز في مخاطبته [الذَّخيرة ١/ ٢ ٧٩٧ – ٨٠٢ – ٨٠٤]

(٢) باجَّة: من أقدم مدن الأندلس، بُنيت في أيام الأقاصرة، وبينها وبين قرطبة مائة فرسخ، ومنها أبو الوليد الباجّي (سليمان بن خلف) [صفة جزيرة الأندلس : ٣٦]

(٣) تهامة: أرض واسعة بالجزيرة العربية (معجم البلدان ١: ٦٣).

(٤) ورد هذا البيت في أمالي القالى (١:٢٨) منسوباً للعلاء بن حذيفة الغنوي.

(٥) هو أبو القاسم أحمد بن محمد بن الملح، والده أبو بكر بن الملح أحد ندماء المعتضد بن عبَّاد ثم تزهد وصار خطيب شلب، وقد ذكرهما ابن سعيد في (رايات المبرزين: ٩١) في أعيان المائة السادسة، كما ترجم لهما ابن سعيد في (المغرب ١: ٣٨٤) .

(٦) هو عبد الملك بن محمد بن الملح، له ترجمة في التكملة رقم ١٧٠٥، الذيل والتكملة (٥: ٣٢).

(٧) يعرفون ببني الملح أو الملاّح، الذخيرة ق٢ م١ ص٤٥٢.

قال: صَلَفٌ بادٍ، وَنَوْكٌ[١] متمادٍ!

قلتُ: فأبو بكرٍ بن عَمِّه[٢]؟!

قال: صبيحٌ فصيح، إنْ نطقَ فليطلع، وإن اخرنبق فلُيبع!

لـــه حـــقٌّ ولـــيس عليـــه حـــقٌّ ومهـــما قـــالَ فالحَـــسَنُ الجميـــل[٣]

قلتُ: فأبو الحسن أخوه؟

قال: تنفَّس وأنَّ، وذكرَ فحنّ، وكيثراً ما تلقاهُ يثني عطفيه، ويصفِّقُ بكفَّيه، ويقول: كان وكان، ورحمَ الله الزَّمان، وما النَّاسُ الآن!

قلتُ: فأبو الحسن بن حبيب[٤]؟

فقال: رجلٌ سَعِدَ بأيرِه، ورقصَ بكمِّي غيره، وقد قال ﷺ «من سعادةِ المرء خِفَّةُ عارضيْه[٥]».

قلتُ: فما تقولُ في أبي الحسن بن شبطيل[٦]؟

فقال: أأنصِفُ أم أتعسف؟ فقلتُ: بل أنصِف!

---

(١) النَّوْك: الحمق.

(٢) انظر في بني الملاح، المغرب ١: ٣٨٣ – ٣٩٤، القلائد: ١٨٧.، رايات المبر زين: ٩١، الذيل والتكملة ٥:٣٢].

(٣) البيت لمحمد بن حمزة السلمي في الحسن بن زيد بن الحسن بن علي(جوهر الكنز: ٣٠٥).

(٤) بنو حبيب: من أعيان شلب، ومنهم قاضيها ابن أبي حبيب الذي سبق التعريف بـه، ومـنهم أبـو الوليـد بـن أبي حبيـب (المغرب ١/ ص٣٨٣) ومنهم أيضاً ابن أبي حبيب الوشاح. (المغرب ١/ ص٣٨٧).

(٥) ورد هذا الحديث في (اللسان – عرض) وعارضة الإنسان: صفحتا خدِّيه، وقولهم : فلان خفيـف العارضـين يـراد بـه خفة شعر عارضيه، وخفتهما كناية عن كثرة الذكر لله تعالى وحركتهما به.

(٦) (؟)

فقال: عَشِقَ المدادَ لسوادِه، فكانَ سببَ مُطالعتِه واجتهادِهِ، فليس بقصير اللِّسان، ولا منقوصِ البيان، وأنشد:

أحبُّ لِحُبّها السودانَ حتَّى   أحبَّ لحبّها سودَ الكِلاب[1]

فقلتُ، أنصفتَ، فصديقهُ أبو مهدى بن الشرشالة.

فأنشد:

إذا ما اجتمعنا في مجلسٍ   دعوتُ له الله أن يسكتا

قلتُ: فما تقولُ في ابن حفصون[2]؟

قال: ضرسٌ أكَلَةٌ، ونَفْسٌ وَكِلة، وأنشد:

إذا كنتُ في رَغْدِ من العيشِ لم أبلْ   على أيِّ وجهِ عارضتني النوائِبُ

قلتُ: فما تقولُ في بنى المنذر؟ فمطَّ حاجبيه، ونفضَ يديه، وأنشد[3]:

ويهلكُ وسطَها المرئُّى لغواً   كما ألغيتَ في الدِّيةِ الحُوارْا

قلتُ: فأبو الوليد منهم؟!

فقال: أخِ بخِ إنَّ فيما سمَّعتَ به على أخيك، ما يكفيك!

قلتُ: فما تقولُ في أبي القاسم بن زكريا؟! فتنهَّد وأنشد:

ذهبَ الجودُ والجنيدُ جميعاً   فعلى الجودِ والجنيدِ السَّلامُ[4]

---

(١) ورد هذا البيت في عيون الأخبار(٤/ ص٤٤) بدون نسبة.

(٢) ابن حفصون (؟)

(٣) المرئي: أحد بني امرئ القيس بن زيد مناة.

(٤) البيت لأبي الجويرية العبدي (أمالي القالي ١/ ص١٠٤، أمالى المرتضى ٤/ ص٩).

فقلتُ: يرحمك اللهُ أبا القاسم!

قلتُ : فما تقولُ في ابن عمِّه أبي بكر؟

فقال: أكَلَ زرع الغَضَا فريكا[١]، فآل به التقشُّفُ والإلحاح، إلى الإراحةِ والاطِّراح، **«كذاك من لا يسوسُ المُلكَ يخلعُهُ»**.

قلتُ: فما تقولُ في صاحبِ الأحكام ابن سوار[٢]؟

فقال: يغصّ بأهل المجلس، ويكره خصومة المُفلس!

قلتُ: فما قولهُ في الحال؟!

فقال يُظهِرُ الجُرْحَ، ويدعو إلى اللهِ ألا فرح!

قلتُ: فما تقولُ في أبي محمد بن بدرون[٣]؟

قال: هو حفيدُ بن مكنون، ادّعى الانتساب، فأنكره سام، وأثبتَ نسبَه في حام؟!

قلتُ: فما تقولُ في فقيهِ شُوراها، وعاطِف أولاها على أُخراها، أبى الحسين بن نهبك[٤]؟

فأطبق أذنيه، والتفت حواليه ، وأنشد[٥]:

خفِّضِ الصوتَ إن نطقتَ بليلٍ　　　وتلفَّتْ بالنهارِ قبلَ الكلامِ

فقلتُ: عهدَ اللهِ لتقولنَّ!

فقال: سبحانَ الله، ما رأيتُ كاليومِ معضلة، أخافُه إنْ صدقتَ، وأخافُ اللهَ إنْ كذبت، فعذرتُه، واستكتمَته مااستخبرتُه.

---

(١) يقال أفرك السُّنبل: صار فريكا، وهو حين يصلح أن يفرك فيؤكل.

(٢) لم أعثر إلا على ترجمة لشخصين يحملان هذا اللقب ولكنهما من قرطبة، أحدهما أحمد بن محمد ابن سوار، استقضى بقرطبة وقتاً، والآخر عبد الرحمن بن سوار قاضي الجماعة بقرطبة (الصلة ١/ ص٣٢٣).

(٣) هو عبد الله بن بدرون الحضرمي الشلبي، وهو والد عبد الملك بن بدرون الحضرمي الكاتب المشهور شارح قصيدة ابن عبدون في رثاء المتوكل وتوفي ابن بدرون (الإبن) بشلب في سنة ٦٠٨ .

(٤) هو عبد الملك بن أحمد بن سعيد بن نهبك، الزهري، الشلبي، كان محدثاً رواية، وكان حياً حتى سنة ٥٨٠هـ (الذيل والتكملة ٥/ ١: ص ٩).

(٥) ورد هذا البيت في البيان والتبيين ١٤٥ .

قلتُ: فما تقولُ في أبي الحسين بن اللّبلي[١]؟

قال: حنّ قَدْحٌ ليس منها[٢]!

قلتُ: على ما به؟!

قال: أسألُكَ الإعفاء، ولقائلٍ أن يقولَ ما يشاء:

« فظنَّ خيراً ولا تسأل عن الخبر » [٣]

قُلت: إيهٍ بالله، فعبدُ الله بن عائشة[٤]؟!

فقال: خِلْقةُ الشَّيطانِ، وعقلُ الصبيانِ، وهو بالجملة منتهى عار، ومقرّ شَنَار[٥]، وقد أحلتُك فيه على بيت ابن عمّار[٦]:

قِصارُ القدودِ ولكنَّهم ... أقاموا عليها قروناً طوالا

قلتُ: فما تقولُ في أبي القاسم بن درامة[٧]؟!

فقال: تلوّن تلوُّن الحِرْباء، وركض حتى كبا، فتفرّقتْ مذاهبُه أيادي سبا[٨]، فهو يُرى كما ترى، فقيهاً مرَّةً، وطبيباً أُخرى:

---

(١) هو محمد بن خلف بن صاعد الغسَّاني، ويُعرف بأبي الحسين اللّبليّ، من أهل شلب وولي قضاء «شلب» (التكلمة - ت ١٣١٤).

(٢) مثل يضرب للرجل يتمدَّح بما ليس فيه (الميداني ١: ٢٠٠).

(٣) عجز بيت، وصدره: «قد كان ما كان مِمَّا لست أذكرُهُ».

(٤) المشهور بهذا الأسم هو عبد الله محمد بن عائشة البلنسي، كان صديقاً لابن خفاجة الشاعر، ولم أجد في تراجم أهل شلب من يحمل هذا الاسم.

(٥) الشنار: العيب والعار.

(٦) ابن عمار: هو ذو الوزارتين أبو بكر محمد بن عمّار، صحب المعتمد بن عبّاد ووزر له إلى أن داخله العُجْبُ، وسمت به نفسه إلى مجاذبة رداء المُلك، فوثب على مرسية، وانفرد بها لنفسه، وهجا المعتمد بقصيدة ذائعة الصيت، منها هذا البيت، وقتل ابن عمار سنة ٤٧٧هـ، وله ديوان مطبوع. (المغرب: ١٦٩ - المعجب: ٧٧ - الحلة السيراء ٢: ١٣١)

(٧) ذكره ابن خير في الفهرسة ص٤١٨ ووصفه بـ«الشيخ الأديب الموثق أبي القاسم محمد بن أبي درامة الشلبي» وذكر أنه جمع كتاباً في المراثي وأنه روى عن ابن خير وقرأ عليه بشلب.

(٨) من مثل: تفرقوا أيدي سبأ.

فـــلا مـــع الـــسُّوقةِ في ســـوقهم   ولا مـــع الأجنـــادِ في العَـــسْكَرِ

قلتُ : فما تقولُ في القُرَشّي الأستاذِ(١)؟

قال: وما عسى أن أقول فيه؟ هو فلذةُ حَسَبٍ ، وذماء أدب!

قلتُ : فهل أنجب فيمن أعقب؟

قال: خلفٌ أضاعوا الصلاةَ واتبعوا الشَّهوات، فسوف يلقون غيّاً.

قلتُ : فما حالتهُ في خطابتهِ إذا اسحنفر، وركب المنبر؟ فأنشد(٢):

مـــليء ببهْـــرٍ والتفـــاتٍ وســـلعةٍ   ومـــسحةِ عثنـــونٍ وفَتْـــلِ أصـــابعِ

قلتُ: فما تقولُ في المشرِف بن قسيَّ(٣)؟

فقال: درهمُ فنسى ، وشيطانُ يترجم عنه أُنسي!

قلتُ: فكيف نظرُهُ في الرُّعية؟!

فقال: لا يقسم بالسويَّة ، ولا يعدل في القضية، ومن استرعى الذئب ظَلَم(٤).

قلتُ: لله دَرّكَ(٥)، لا فُضَّ فوك، ولا مَلَّكَ مضيفوك، فـما أرقَّ أخبـارك، وأصـدق إخبـارَك ، أُقسِمُ لو تحققتُ بعد الطَّية ، لوهبتُكَ المطيَّة ، فلمّا زجرَ حمارهَ، وقع في نفسي أنِ أقفوَ آثاره.

فناديته: نشدتُكَ اللهُ — كيف تركتَ حانوتَ أبي عبد الله بن الهرَّة؟

فقال: مهبّةٌ للنُّبلاء، ومسَّبةٌ للفضلاء.

---

(١) هو الشيخ الأديب الخطيب أبو بكر محمد بن إبراهيم بن غالب القرشي العامري. ذكره ابن خير في فهرسه وأشار إلى أنه أجاز له بخط يده من شلب. (فهرسة ابن خير ٣٢١).

(٢) ورد البيت في البيان والتبيين ١٧ بدون نسبة.

(٣) المشرف بن قسي: أحد المنتزين بشلب، وفي ترجمة ابن الطلّاء أنه استقضى بحصن مرجيق في فتنة ابن قسي (الذيل والتكملة ٥/ ١: ٤٢)

(٤) مثل يضرب لمن يُوَلّي غير الأمين. وله خبر في (الميداني ٢: ٢٥٧- ٢٥٨).

(٥) مثل يقال لكل متعجب منه (الميداني ٢: ١٤٠).

قلت: فما هذا القصائد الطارئة، والفوائد الناشئة؟

فقال: زيد فيها زوائد، والنَّاس بعدَك صنفانِ: مثنٍ وحاسدٍ، وكلاهما هذيانٌ زادَ القرائحَ فساداً، وسوقَ الشِّعر كساداً، فوهبتُه نَزْراً، وسألتهُ عذراً، فأنشد:

رقّ الصديقُ لِما رأى من اختلالي ... باللَّيالى في التلبُّثِ ثَم بالِ(١)

أودتْ بمالي ثم قد حالتْ بحالي ... فلذاك مازجت الحقيقة بالمحال

ثم اضطربَ، فغرب، فكان آخر العهِد به

تعقيب:

وهذه المقامة نسبها صاحب «رسائل ومقامات أندلسية» لأبي الوليد بن سيّد أمير، ولكن عبارته في تصدير المقامة توحي بأنه يتشكّك في هذه النسبة، وقد أورد ابن الأبار ترجمة لمن يسّمى عبد الله بن سيّد أمير اللخمي، ذكر فيها أنه من أهل شِلْب، وأنه برع في الحديث والنحو، وكانت له مشاركه في علم الطب عُرف بها، ولعله صاحب هذه المقامة.

سار كاتب هذه المقامة على نهج صاحب المقامة القرطبية، فوقفها على هجاء أعيان شِلْب وقضاتها وأدبائها، وأشار في مقدمتها إلى عنوان المقامة القرطبية، فقال: «حدّث سمان بن زمان، أو أبان بن شيبان، عن حيّان بن عيّان، وليس يُعرف ابن من كان، صاحب فلان بن فلان، الذي أنشأ «ميزان الأعيان بحكم الزمان»

تتشابه المقامتان في بنائهما وأسلوبهما تشابها كبيراً، ولكن يبقى للمقامة القرطبية فضل السبق في هذا المضمار، وهو هجاء المدن وأعيانها، وليس بين أيدينا ما يشير إلى أنّ المقامة الشلبيّة أحدثت ردود فعل كتلك التي أحدثتها المقامة القرطبية.

(١) كذا بالأصل وهو قلق عروضياً.

المقامة المحسنية (١)

وهذه المقامة كتبها أبو عبد الله الجوني(٢) في عبد المحسن بن علي بن عبد الله الأنصاري(٣)، وسماها المقامة «المحسنية»، وجمع فيها ماللشعراء فيه من الأبيات وتضمين اسمه في آخر كل بيت منها، ووصفه فيها بقوله: «فتى يحسد البدر سناه، وتستظرفه القلوب وتتمناه، سِهام جفونه أَنفذُ من السهام، وأمضى من الحسام، تَدَعُ الصحيح يكابد الحِمام، وتترك الفصيح يكني عن الخطبة بالإبهام، قد جمع إلى بهاء المنظر الرائق، وانتهاء الحسن الفائق، أدباً بارعاً، وظرفاً بالثناء فارعاً، يُجْمِلُ من لاقاه بزوراً وإكراماً، ويظهر سروراً وابتساماً».

وأنشد فيها لأبي عمرو بن سالم(٤)، وذكر أنه كتب بها إلى أبي الحسين بن زعرور في عبد المحسن رحمه الله:

قسماً بمجد أبي الحُسَيْنِ وحُسنِه ... ما في المِلاح شبيهُ عبد المحسِنِ
هو مَلْكُ حُسنٍ قد رضينا حُكْمَه ... دون البرية، فَلْيسِئ أو يُحْسِنِ
قد صيَّر الإحسانَ فينا سيرةً ... لولاه ما حَسنُتْ محاسِنُ مُحسنِ

---

(١) ورد نص المقامة في: أدباء مالقة: ص٢٩٢-٢٩٨، وانظر أيضاً: مختارات من الشعر المغربي والأندلسي لم يسبق نشرها: ص٢٣٢-٢٤١.

(٢) أبو عبد الله الجوني: لم نعثر على ترجمته، ولكن مشاركته في «المقامة المحسنية» تعني أنه من أدباء مالقة الذين عاشوا في النصف الثاني من القرن السادس وبداية القرن السابع.

(٣) وصفه صاحب «أدباء مالقة: ص٢٩٢» بقوله: «من طلبة مالقة ونبهائها، نبيلاً ذكياً فطناً لَوْذعيًا، وكان جميل الصورة، ولأدباء مالقة فيه أشعار». ويبدو أنه من أعلام مالقة في القرن السادس ؛ لأن الذين وصفوه في أشعارهم عاشوا بمالقة في القرن السادس.

(٤)هو أبو عمرو ابن سالم بن صالح بن علي بن صالح بن سالم الهمذاني، من أهل مالقة، يعدّ من كبار علماء مالقة وأدبائها وشعرائها، توفي سنة ٦٢٠هـ، من أهم شيوخه الشاعر أبو عبد الله محمد بن غالب الرصافي البلنسي، ومن أهم تلامذته أبو الحسن علي بن محمد الرعيني (ت٦٦٦هـ).
انظر ترجمته في: أدباء مالقة: ص٣٦١-٣٦٨، والتكملة: ٢/ ص٧١٢.

فأجابه أبو الحسين بن زعرور[1] في عبد المحسن رحمه الله تعالى:

يا مادحي بكلامه المُستَحْسَن، هلاَّ اجتزأتَ بمدح عبد المحسن ؟
ذاك الذي مهما أشارَ مُسلِّماً أزْرَتْ أناملِه بنور السَّوسَنِ
وإذا تكلّم أو تبسّم ضاحكاً خرسَت محاسِنه جميعَ الألْسُنِ
يا ليته -واللهُ يكلأ حسنه- لو ذاد عني بعضَ ضرٌ مسَّني
فكفى به أن قلت في أوصافه: لولاه ما حَسُنتْ محاسنُ محسنٍ !

وللفقيه الأجَلّ أبي محمد البرجي[2]:

مِنْ أينَ يطمعُ عاذلي في سَلْوتي وأليمُ حُبٍّ مُعذِّبي قد مَسَّني ؟
وبِمهجتي وسْنانُ، رونَقُ خدّهِ وَرْدٌ تفتّحَ فوق غُصن السَّوْسُن
إنْ قلتَ: بدرٌ فوق غُصنٍ، لم تُصِبْ فالبدرُ مثل كمالِه لم يُحْسِن
لمّا تشابه وصْفُه وصِفاتُه هتفتْ بنظمِ حُلاهُ عُربُ الألسنِ
حاز الصيانةَ والبراعةَ والعُلا والحُسنَ والإحسانَ عبدُ المحسنِ

وللفقيه الأديب أبي العباس الموريّ -رحمه الله تعالى-[3]:

بأبي غزالٌ أهيفٌ في خدّه وردٌ جنيّ في غلالة سَوسَنِ
قدْ حلَّ في رتب المعالي منزلاً ما ليس يَبْلغُه مديحُ الألسن
فتكتْ لواحظه بقلبُ متيّم ما باله لمتيّمٍ لم يُحْسِنِ
خطّ الجمال على جميع صفاته، أشكو كلّ المحاسن حازَ عبدُ المحسن
له، ولعله يَرثي لِما قد نالني منه وما قد مسَّني

---

(١) لم نقف على ترجمته، ويستدل من توجيه أبي عمرو بن سالم بالأبيات الأولى من " المقامة المحسنية " إليه أنه كان من معاصريه، أي من أدباء النصف الثاني من القرن السادس الهجري.

(٢) هو أبو محمد عبد الله بن حسن البرجي، من أهل مالقة، ترجم له صاحب " الذيل والتكملة: ٤/ ص٢١٥ " ترجمة قصيرة، واعتبره من شعراء مالقة ونبهائها وأذكيائها، وذكر أنه كان حياً سنة ٦١١هـ.

(٣) لم نقف على ترجمته، ويبدو أنه من أعلام مالقة في القرن السادس والسابع الهجريين.

وللفقيه الأديب أبي عبد الله الشِّلْبي[١]:

أحسنْ فدتك النّفسُ عبدَ المحسن | فالضرّ من وَجْدي بكم قد مسّني
وامنُنْ عليّ بلثم صَفْحتك التي | رُقمِتْ أسِرّةُ حُسنِها بالسّوسَن
وأجِبْ نداءَ متيّمٍ صَبٍّ بكم | دَنِفٍ شجٍ يدعوك عبد المحسن
قَسَماً بحسن صفاتك الغُرِّ التي | حارت لها في الوصف كلُّ الألسن
لا زِلتُ منقاداً بِحَبْلِ هواكم | ما دُمتُ حياً، فلْتُسِئ أو تُحْسِن

وللفقيه الأديب أبي جعفر أحمد القيّار[٢] فيه –رحمه الله تعالى-:

بأبي غزالٌ جَلَّ عن غِزلانكم | في وصفه قَصُرت جميعُ الألسُنِ
حِكّمتُه في مهجتي، فله بها | ما شاء مني، فَلْيسئ أو يُحْسِنِ
أَصْمَتْ سهامُ جُفونه قلبَ امرئ | قد رام يقطِف وردةً من سوسن
كم شفَّ جِسمي حبُّه، وتعفّفي | يأبى شِكايةَ كلِّ ضرٍّ مسّني
وبُهِتُّ حتى أنْطَقَتْني حِكْمَةٌ: | ما في الملاح شبيهُ عبد المحسن
ظبيٌ يُريكَ الحُسن في روض الهوى | ورداً تفتّح في أزاهر سوسنِ
ما زال يرشُفُ لحظُه من مهجتي | ما ضُمّنت صفحاتُه قد مسّني
ويريكَ سِمْطَيْ لؤلؤٍ في خاتَمٍ | مِنْ فيه يُقسِمُ أنه لم يُحْسِن
دعتِ النجوم صِفاتِه لمديحِها | فغدتْ تمرّ على جميعِ الألسنِ

---

(١) ذكره صاحب «أدباء مالقة» باسْم أبي عبدالله محمد بن أبي العباس الشِّلْبي، وقال عنه: «إنه كان كاتباً بليغاً شاعراً مطبوعاً» أدباء مالقة: ص١٣٧. ومشاركته في المقامة المحسنية، وصلته بأبي عمرو بن سالم تدلاّن على أنه من أعلام القرن السادس الهجري، كما أن ترجمته في أدباء مالقة تعني أنه شِلْبيّ من الوافدين على مالقة.

(٢) لم نقف على ترجمته. وإذا كانت "القيّار" تحريف لاسم الخيار فيكون المقصود بذلك أبا جعفر أحمد بن عبد المجيد ابن سالم الخيار المالقي، المتوفى سنة ٦٢٤هـ ـ ترجم له ابن الأبار في التكملة: ١/ ص١١٤-١١٥، والرعيني في البرنامج: ص١٣٥-١٣٨، وابن عبد الملك في الذيل والتكملة: ١/ ص٢٥٨-٢٦١.

وللفقيه الأديب أبي بكر بن مجبر[١]:

أشكو لذي الإحسان عبد المحسن فلعلّـه يرثـي لما قـد مسّني
إنّي شُـغِفْتُ بِدَلِّـه ودلالـه وبِحُسْنِ منظره وإنْ لـم يُحْسِنِ
ظبيٌ غريرُ الحسن طرّزَ خدّه بالجُلّنارِ وغَضِّ نَـوْرِ السوسن
ريم حـوى ظرفاً وحُسناً جامعاً نطقت بما يحوي جميعُ الألسن
فعساه يرحـمُ لـوعتي وَصَبابتي ويسيرُ بالإحسانِ عبدُ المحسنِ

وللفقيه الأديب أبي عبد الله بن راشد[٢]:

وبديع حسنٍ راق حتى قَصَّرتْ عن وصف بعضٍ منه كلُّ الألسنِ
غُصنٌ زهاه للسوالف سوسنٌ وكَذَبتُ ! جَلَّ سوالفاً عن سوسن !
يهوى نكالي، فهو طَوْعُ زمانه إنْ لم يُسئ في فِعله لـم يُحْسِن
من لي بمن قد مسني مسَّ الجوى في حبّه، فيزيلَ ما قـد مَسَّني !
لو قيل: مَنْ مَلَكَ القلوبَ بِحُسْنِه ؟ هتفَ الجميعُ بِذكْرِ عبدِ المحْسِنِ

وللفقيه الأديب أبي التّقى صالح بن جابر[٣] فيه:

نفسي الفداءُ لكُلِّ نفسٍ شَفَّها ما شفّني من حبِّ عبد المحسنِ

---

(١) هو أبو بكر يحيى بن عبد الجليل بن عبد الرحمن بن مجبر، وكان – كما يقول ابن الأبار – شاعر الأندلس في وقته، بل شاعر المغرب غير مدافع، وقد انتقل إلى مراكش، عاصمة الموحدين، وبها كانت وفاته سنة ٥٨٨هـ.

انظر ترجمته في بغية الملتمس: ص٤٩٣ (رقم ١٤٩٣)، والتكملة: ٢/ ص٧٢٥.

(٢) لم نعثر على ترجمته، والأرجح أنه والد أبي جعفر أحمد بن راشد، الذي ذكره ابن عبد الملك المراكشي، وقال عنه: " إنه كان نبيلاً ذكياً أديباً شاعراً محسناً، توفي سنة ٦٢٠هـ». انظر الذيل والتكملة: ١/ ص٤٢٤ (رقم٦٢٤).

(٣) هو عالم أديب شاعر مالقي، نسبه ابن سعيد إلى مدينة بِلّش في شرقي مالقة وقال: إنه لم يجد فيها من الشعراء إلا اثنين هما صالح بن جابر هذا وعبد العزيز ابن الطراوة.

جُبلتْ على استحْسان ما تلقاه مِن — نَصَبٍ، ورُبَّ مُعذِّب مُسْتَحْسَنِ
ما أنْ يسيءَ لها بأمرٍ موجعٍ — إلا وقالت زِد وأوْفِ وأحسنِ
فأنا الذي أرضى به حكماً، وقد — أحكمتُ قول مُحْسِّنٍ، بل مُحْسِنِ
لا يدّعي في حُبّه من لم يَقلْ — في فِعْلِه حَسناً وإن لم يُحسنِ

وللفقيه الأديب أبي محمد الباهلي[1] فيه رحمه الله تعالى:

البدرُ يُقسمُ بالطلاق ثلاثةً — أنْ لا يضاهي حُسْنَ عبدِ المحسِنِ
واستوثقت شمسُ النّهارَ بَصرْمها — سَنةً متى عَرَضَتْ لمنظره السَّني
وتشوَّفت أزهار سوسنِ خدِّه — فتمزقت أجزاءُ رطبِ السوسن
واستعجمت آياتُهُ وصِفاتُه — كيما يُترجِمَها فِصاحُ الألسُن
ورأيتُ إحساناً وحُسْنُ شبيبةٍ — فعجبتُ من حَسَنِ الشبيبة مُحسنِ

وللفقيه الأجل أبي جعفر أحمد بن موسى[2] فيه رحمه الله تعالى:

بأبي بديعُ الحُسْن طَرَّز خَدّهُ — بِرُقومِ وَرْدٍ في غلائلِ سوسَنِ
جازت محاسنه الجمال فقصّرت — عن وصف أيسرها طِوالُ الألسن
يا باكياً حالَ المُتيَّم إذ رأى — ضرراً من اجْلِ صدوده قد مسّني
هل في البرية خَلْقٌ إلاّ عَبْدُه ؟ — فهو المخيَّرُ: فليسئ أو يُحسنِ
حيث انتهى في الحالتين شَدوْتُه: — ما في المِلاح شبيهُ عبد المحسنِ

(١) هو أبو محمد عبد الله بن محمد الباهلي، من أدباء مالقة وشعرائها. ذكره صاحب " الذيل والتكملة " ضمن تلامذة أبي عمرو ابن سالم فيكون بذلك من أعلام النصف الثاني من القرن السادس. انظر حوله: ابن سعيد: المغرب، ١/ ص٣٤٦.

(٢) لم أعثر على ترجمة له فيما بين يديّ من مصادر.

وللفقيه أبي الحسن الحضرمي[1]:

مَـنْ لي بِمَـنْ سـحر الأنـامَ بحُسنه ... في وصـفه قَـصَرتْ جميـعُ الألـسن
ظبـيٌ غريـرٌ أهيـفٌ فـي خـدِّه ... وردٌ جنـيٌّ في أزاهِـرِ سـوْسَن
قـد عـاد كـلّ الحسن عِنْـدَ كماله ... فغدا بـديعَ الحُسْن عبدُ المحسن
فالبـدرُ يحسـده بحُسن كماله ... والـشمسُ مِثْـلَ جماله لم تُحْـسِنِ
أشكـو إليـه صَبابتي وأبُثُّها ... فلعلّـه يَرثـي لمـا قـد مَـسّني

وللفقيه أبي عبد الله الجوني:

يـا قُـرّةَ العينيـن مَهـلاً، إنّنـي ... قد جاز حُبي فيك وَصْـفَ الألـسنِ
جرّعْتَني غُصصَ الصّبابة والهوى ... فَـأَزِلْ بفـضلك ضُرَّ مـا قـد مسّني
بـدرٌ يـلوحُ عـلى قـضيبٍ نـاعـمٍ ... وكـأن سـالِفَتَيْه غـصنُ الـسَّوسَـنِ
كملـت محاسنـه وتـم جمالُـه ... فَلأَجْـل ذا سَـمّوه عبـدَ المحسن
قسماً بحسـن صفاتـه وبمجده ... لا زال في قلبـي وإن لم يُحسن

ولّما كملت أشعار الطلبة فيه، قال فيهم الأديب أبو عمرو ابن سالم بمنّه وكرمه:

أَحْـسَنْتُمُ في مَـدْحِ عبـدِ المحسنِ ... وأجـدْتُمُ فيـه، وإنْ لـم يُحْـسِنِ
مـا أنـتُمُ إلا عبيـدُ جمالـه ... فلْتَخْـضَعوا لبهـاء مَنْظَـرِه الـسَّني
يكفيـه أنْ بهـرتْ محاسِـنُه الـورى ... وَزَرَتْ بـأقوالِ الفـصيح المحسِنِ

(١) هو الفقيه النحوي الأندلسي أبو الحسن علي بن محمد بن علي بن محمد بن خروف الحضرمي (ت٦٠٩هـ).

تعقيب:

هذه المقامة مجموعة من القطع الشعرية القصيرة ذات قافية موحّدة (نونيّة) ووزن موحّد (الكامل). وهذه القطع في الأصل قد جمعها أبو عبد الله الجوني، الذي سمّاها، كما ذكر صاحب كتاب أدباء مالقة «المقامات المحسنية». ومنطلقها ثلاثة أبيات ابتدأت بها المقامة، كتبها أبو عمرو بن سالم(١) في أحد المالقيين اسمه عبدالمحسن بن علي ويُعرف بابن أبي خُرص، وأرسل بها إلى أبي الحسين بن زعروز، فأجابه بأبيات في نفس الموضوع وعلى نفس القافية والوزن، ثم استجاب جماعة آخرون قيل عنهم إنهم «طلبة».

وابن أبي خُرص، الذي قيلت فيه هذه المقامة كان -كما ذكر صاحب أدباء مالقة- «من طلبة مالقة ونبهائها، نبيلاً ذكياً فطناً لَوْذَعيّا، وكان جميل الصورة، ولأدباء مالقة فيه أشعار...وكان عبدالمحسن هذا كريم النفس عالي الهمة، جميل العشرة».(٢)

وقد اشترك في «المقامة المحسنية» ثلاثة عشر شاعراً، قدّمنا التعريف بهم في الصفحات السابقة. والشعر الذي تضمنته المقامة شعر بسيط ساذج، إلا أن المقامة -رغم ذلك- تمثل فنّا من الأدب طريفاً، يبدو أنه كان له حظ من الانتشار في الأندلس.

ولا نجد في المصادر تحديداً للفترة التي كُتبتْ فيها هذه المقامة، ولكننا نرى أنّ بدايات النصف الثاني من القرن السادس الهجري هي زمن كتابة «المقامة المحسنية»، لأن من المشاركين فيها أبا بكر يحيى بن عبد الجليل بن عبد الرحمن بن مجبر المرسي الذي كان -كما ذكر ابن الأبار- «شاعر الأندلس في وقته، بل شاعر المغرب غير مدافع»(٣)، وقد انتقل إلى مراكش -عاصمة الموحّدين الذين قال فيهم أمداحاً كثيرة- و بها كانت وفاته سنة ٥٨٨هـ(٤).

---

(١) انظر ترجمته في أدباء مالقة: ص٣٦١-٣٦٨، وانظر بحثنا هذا ص ١٨١ (الحاشية).

وكان أبو عمرو هذا «مثير أدباء مالقة في عصره إلى ما يصدر عنهم من نظم أو نثر في أحوال تطرأ وأغراض تنشأ، فيقيّدها عنهم وينشر بها محاسنهم عني بذلك كثيراً وشغف به» الذيل والتكملة: ٤/ ص٦. والمقامة المحسنية من الأمثلة الدالة على شغفه بإثارة الأدباء إلى الكتابة، فقد بدأها بثلاثة أبيات اشترك بها في هذه المقامة.

(٢) أدباء مالقة: ص٢٩٢-٢٩٨.

(٣) التكملة: ٢/ ص٧٢٥.

(٤) انظر ترجمته في: الإحاطة: ٤/ ص٤١٨، وبغية الملتمس: ص٤٩٣ (رقم ١٤٩٣).

مقامة العيد [١]
لابن المرابع الأزدي

يقول شاكر الأيادي، وذاكر فخر كل نادي، وناشر غَرَر الغُرَر للعاكف والبادي، والرايح والغادي، اسمعوا مني حديثاً تَلَذّه الأسماع، ويَسْتَطرفه الاستماع، ويشهد بحسنه الإجماع، ويجب عليه الاجتماع، وهو من الأحاديث التي لم تتفق إلا لمثلي ولا ذكرت عن أحد قبلي، وذلك يا معشر الألبّا والخُلصاءِ الأَحِبّا، أني دخلْتُ في هذه الأيام داري، في بعض أدواري، لأقضي من أخذ الغذاء أوطاري، فقالت لي ربّة البيت: لم جئت؟ وبم أتيت؟ قلت: جيتُ لكذا وكذا فهات الغذا، فقالت: لا غَذا لك عندي اليوم، ولو أَوْدى بك الصوم، حتى تَسل الاستخارة، وتفعل كما فعل زوج الجارة، طيَّب الله نجَاره، وملأ بالأرزاق وِجاره. قلت وما فعل قريني، وأرِني من العلامة ما أحببتِ أن تريني. قالت: إنّه فكّر في العيد، ونظر في أسباب التعييد، وفعل في ذلك ما يستحسنه القريب والبعيد، وأنتَ قد نسيتَ ذِكْرَه، ومحَوته من بالك، ولم تنظر إليه نَظْرة بعين اهتبالك، وعيد الأضحى في اليد، والنّظر في شراء الأضحية اليوم أوْفَقُ من الغد. قلت: صدقت، وبالحقِ نطقتِ، بارك الله فيك، وشكر جميل تحفِّيك، فلقد نبَّهت بَعْلَك لإقامة السُّنة، ورفَعْتِ عنه من الغَفلة منّة، والآن أسير لأبحث عما ذكرتِ، وأنظر في إحضار ما إليه أشرتِ، ويتأتّى ذلك إن شاء الله بسعدك، وتنالين فيه من بلوغ الأمر غاية قصدك، والجدُّ ليس من الهزل، والأُضحية للمرأة وللرجل الغَزِل. قالت: دعني من الخرافات، وأخبار الزَّرافات، فإنك حُلو اللسان، قليل الإحسان، تَخِذْت الغُربة صُحبتك إلى ساسان، فتهاونت بالنِّسا وأسأت فيمن أسا، وعُوِّدت أكل خُبزك في غير منديل، وإيقاد الفَتيل دون قَنديل، وسُكنى الخانِ، وعدم ارتفاع الدُّخان، فما تقيم موسماً، ولا تعرف له مَيْسِما،

---

(١) ورد نصّ المقامة في كتاب الإحاطة: ج٣ ص٤٢٥ – ٤٣٢.

وأخذت معي في ذلك بطويل وعريض، وكلانا في طَرَفي نقيض، إلى أن قلت لها إزارك وردائي، فقد تفاقم بكِ أمرُ دائي، وما أظنك إلا بعض أعدائي، قالت مالك والإزار، شطَّ بك المزار، لعلك تريد إرهانَه في الأُضْحية والأَبزار، اخرج عني يا مقيت، لا عَمِرتُ معك ولا بقيت، أَوَ عَدِمت الدّيْن، وأخذ الورق بالعين. يلزمني صوم سنَة، لا أغفيت معك سِنة، إلاّ إِنْ رجعْتَ بمثل ما رجع به زوج جارتي، وأرى لك الرِّبح في تجارتي. فقمت عنها وقد لَوَت رأسها وَوَلْولَتْ، وابتدرتْ وهرولتْ. وجالت في العتاب وصَوَّلت، وضمّت بِنْتَها وولدها، وقامت باللَّجج، والانتصار بالحُجج أَودَها، فلم يسعني إلا أن عَدَوتُ أطوف السِّكك والشوارع، وأُبادر لما غدوتُ بسبيله وأسارع، وأجوب الآفاق، وَأَسَل الرِّفاق، وأخترق الأسواق، وأقتحم زريبة بعد زريبة، وأختبر منها البعيدة والقريبة، فما استَرْخَصْتُه استنقَصْتُه، وما استغليتُه استَعليتُه، وما وافق غرضي، اعترضني دونه عَدَمُ عَرْضي، حتى انقضى ثلثا يومي، وقد عييت بدوراني وَهَومي، وأنا ولم أتحصل من الابتياع على فايدة، ولا عادت عليَّ فيه من قضاء الأرب عايدة، فأومَأْت الإياب، وأنا أجد من خوفها، ما يجد صِغار الغَنَم من الذئاب، على أن مررتُ بقصَّاب يقصب في مَجْزَرِه، قد شدّ في وسطه مِئزره، وقَصّر أثوابه حتى كشف عن ساقيه، وشمّر عن ساعديه حتى أبدى مِرْفَقَيه، وبين يديه عنزٌ قد شدَّ يديه في رقبته، وهو يجذبه فَيَبْرُك، ويَجُرُّه فما يتحرّك، ويروم سيره فيرجع القهقرى، ويعود إلى وَرا، والقصاب يشُد على إزاره خِيفةَ من فِراره، وهو يقول: اقتلُه من جانٍ باغٍ، وشيطان طاغٍ، ما أشدَّه وما ألدَّه، وما أصدَّه، وما أجدّه، وما أكثَرَه بشحم، وما أَطْيبَه بلحم، الطَّلاق يلزمه، إن كان عاين تيساً مثله أو أُضحية تشبهه قبله، أضحية حَفِيلة، ومِنْحَة جليلة. هنأ الله مَنْ رُزِقها، وأخلف عليه رزقها. فاقتحمتُ المزدَحَم، أنظُرُ مع من نَظَر، وأختبر فيمن اختبر. وأنا والله لا أعرف في التقليب والتخمين. ولا أُفرِّق بين العجف والسمين، غير أني رأيتُ صورة دون البغل وفوق الحمار، وهيكلاً يُخبرك عن صورة العُمّار، فقلت للقصاب كم طلبك فيه، على أن تُمهل الثمن حتى أوفيه، فقال ابغني فيه أجيراً، وكُن له الآن من

الذبح مُجيراً، وخُذه بما يُرضي، لأول التقضِّي. قلت استمع الصوت، ولا تخف الفَوْت. قال ابتَعْه مني نسيَّة وخُذه هدية، قلت نعم، فشقَّ لي الضمير، وعاكسني فيه بالنقير والقَطْمير. قال تضمن لي فيه عشرين ديناراً أقبضها منك لانقضاء الحول دُنَيِّراً دُنَيِّراً. قلت: إنّ هذا الكثير، فاسْمح منه بإحاطة اليسير، قال والذي فلق الحبّة، وبرأ النسمة، لا أنقصك من هذا، وما قلت لك سِمْسِمة، اللهم إن شئت السَّعة في الأجل، فأقضي لك ذلك دون أجل، فجلبني للابتياع منه الإنساءُ في الأمد، وغلبني بذلك فلم أفتقر منه لرأي والد ولا ولد، ولا أحوجت نفسي في ذلك لمشورة أحد، وقلت قد اشتريته منك، فضع البركة، لِيَصِحَّ النُّجح في الحركة. فقال فقيهٌ، بارك الله فيه، قد بِعْتُه لك، فاقبِضْ متاعك، وثبِّت ابتياعك، وها هو في قَبضِك، فاشدد وثاقه، وهلمَّ لنعقد عليك الوثاقة. فانحدرت معه لدكان التوثيق، وابتدرتُ من السَّعة إلى الضيق، وأوثقني بالشادّة تحت عقد وثيق، وحملني من ركوب الدَّين ولحاق الشَّين في أوعر طريق، ثم قال لي هذا تَيْسُك فشأنك وإياه، وما أظنك إلا أنك تنعاه، وآتِ بحمّالين أربعة، فإنك لا تقدر أن ترفعه، ولا يتأتى لك أن يتبعك ولا أن تتبعه، ولم يبق لك من الكُلفة إلا أن يحصل في محلِّك، فيكمُل سرور أهْلِك. وانطلقتُ للحمال، وقلت هلمَّ إليَّ، وقم الآن بين يديّ، حتى انتهينا إلى مجزرة القصّاب، والعنز يُطلب فلا يُصاب، فقلت أين التَّيس يا أبا أُوَيْس. قال إنه قد فرّ، ولا أعلم حيث استقَرّ. قلتُ أتضيع عليّ مالي، لتخيب آمالي، والله لا يجزنك بالعصا كمن عصا، ولا رفعتُك إلى الحكام تُجْرى عليك منهم الأحكام. قال مالي علم به، ولا بمنقَلِبَه، لعلّه فرّ لأمه وأبيه، وصاحبته وبنيه، فعليك بالبَريح. فاتَّجهتُ أنادي الأسواق، وجيران الزُقاق، من ثَقِف لي تيساً فله البِشارة، بعد ما أتى بالأَمارة، وإذا برجلٍ قد خرج من دهليز، وله هدير وهزيز، وهو يقول من صاحب العنز المشوم، لا عَدِم به الشُوم، إن وقعت عليه عيني، يرتفع الكلام بينه وبيني. قلت أنا صاحبه فما الذي دهاك مِنّي أو بلغك عني. قال إن عنزك حين شرد، خرج مثل الأسد، وأوقع الرَّهَج في البلد، وأضرَّ بكل أحد، ودخل في دِهْليز الفخّارة، فقام فيه وقعد، وكان العمل فيه

مطبوخاً ونيّاً، فلم يترك منه شيّا، ومنه كانت معيشتي، وبه استقامت عيشتي، وأنت ضامن مالي، فارتفِعْ معي على الوالي، والعنزُ مع هذا يُدُور وسَط الجمهور، ويكُرُّ كرَّة العِفريت المزجور، ويأتي بالكسر على ما بقي في الدهليز من الدّواجن والقُدور، والخَلْق قد انحسروا للضجيج، وكثُر العِياط والعَجيج، وأنت تعرف عَفْرطة الباعة، وما يحوون من الوضاعة، وأنا أحاول من أخذه ما أستطيع، وأروم الإطاعة من غير مُطيع، والباعَة قد أكسَبَتْه من الحماقة، ما لم يكن لي به طاقة. ورجل يقول المُحتسب، وأعرف ما تكتسب، وإلى من تنتسب، فقد كثر عنده بك التَّشكي، وصاحب الدهليز قُبالته يبكي، وقد وَجَد عنده عليك وَجْد الشكوى، وأيقن أنك كسرت الدَّعوى، وأمر بإحضارك، وهو في انتظارك، فشدَّ وَسْطك، واحفظ إبْطَك، وإنك تقوم على من فتح باعه للحُكم على الباعة، ونُصب لأرباب البراهين على أرباب الشواهين، ورفع على طبقة. ليملأ طبقة، ثم أمْسَكني باليمين، حتى أَوْصَلني للأمين، فقال لي أرسلت التَّيس للفساد كأنك في نِعم الله من الحُسّاد. قلت إنه شَرد، ولم أدر حيث ورد، قال ولم لا أخذت ميثاقه، ولم تشدد وِثاقه، يا شرطي طرِّدْه، واطرح يدك فيه وجرِّده. قلت أتجرِّدني الساعة، ولست من الباعة، قال لا بد من ذاك، أو تضمن ما أفسده هناك. قلت الضَّمان الضَّمان، الأمان الأمان. قال قد أمّنْت إن ضَمِنْت، وعليك الثقاف، حتى يقع الإنصاف، أو ضامنٌ كاف، فابتدر أحد إخواني، وبعض جيراني، فأدَّى عني ما ظهر بالتقدير، وآلت الحال للتكدير. ثم أردت الانصراف بالتيس، لا كان كيانه، ولا كوّن مكانه، وإذا بالشرطي قد دار حولي، وقال لي كُلْف فِعلي بأداء جَعْلي، فقد عطّلت من أجلك شُغْلي، فلم يكن عندي بما تُكسر سورته، ولا بما تُطْفى جَمْرتُه، فاسْتَرْهَن مِئزري في بيته ليأخذ مايته، وتوجَّهت لداري، وقد تقدَّمت أخباري، وقدِمت بغباري، وتغيَّر صغاري وكباري، والتيس على كاهل الحمّال، يَرْغو كالبعير، ويزأر كالأسد إذا فُصلت العِير، فقلت للحمال انزله على مَهَل، فهلال التعييد قد استَهَلَّ، فحين طرحه في الأُسطوان، كرَّ إلى العدوان، وصرخ كالشيطان، وهمَّ أن يقفز الحيطان، وعلا فوق الجدار، وأقام الرَّهجة في الدار، ولم تبق في الزقاق عجوزٌ إلا

وصَلت لتراه، وتسل عما اعتراه، وتقول بكم اشتراه، والأولاد قد دارت به وأرهقهم لهفُه، ودخل قلوبهم خَوفه، فابتدرت ربَّة البيت وقالت كيت وكيت، لا خَلٌّ ولا زيت، ولا حيٌّ ولا مَيْت، ولا موسم ولا عيد، ولا قريب ولا بعيد، سُقتَ العِفريت إلى المنزل، ورَجَعت بمَعْزِل، ومن قال لك اشْتَرِه، ما لم تَره، ومن قال له سُقه حتى توثِّقه، ومتى تفرح زوجتُك، والعَنْزُ أُضْحِيتَك، ومتى تُطبخ القُدور وولَدُك منه معذور، وبأيِّ قلب تأكل الشَّويَّة، ولم تَخلُص لك فيه النيَّة واقِلَّة سعدها، واخلْفَ وعدِها، والله لو كان العنز يُخرج الكنز، ما عَمَر لي داراً، ولا قَرُب لي جواراً، اخرُج عني يالَكِع، فَعل الله بك وصنع، وما حَبَسك عن الكباش السِّمان، والضأن الرفيعة الأثمان، يا قليل التحصيل، يا من لا يعرف الخياطة ولا التَّفصيل، أدُّلك على كبشٍ سمين، واسع الصدر والجبين، أكحل عَجيب، أقرن مثل كبش الخطيب، يعبق من أوداكه كل طِيب، يغلب شحمه على لحمه، ويسيل الودك من عظمه، قد عُلِف بالشعير، ودُبِّر عليه أحسن تدبير، لا بالصغير ولا بالكبير، تَصْلُح منه الألوان، ويُستطرف شِواه في كل أوان، ويُستحسن ثَريده وقديده في سائر الأحيان، قلت بَيِّني لي قولك، لأتَعَرَّفَ فِعلك، وأين توجَد هذه الصِّفة، يا قليلة المَعرفة. قالت عند مولانا، وكهفنا ومأونا الرئيس الأعلى، الشِّهاب الأجلى، القمر الزاهر، الملك الظّاهر، الذي أعزّ المسلمين بنعمته، وأذلّ المشركين بنقمته.

تحليل مقامة ابن المرابع

هذه مقامة خاطب فيها ابن المرابع حاكم مالقة الرئيس أبا سعيد فرج ابن نصر يستجديه أضحية بمناسبة العيد، ولذلك سُميّت «مقامة العيد».

وابن المرابع يحكي - في مقامته هذه - قصة رجل من أهل الكدية، أو الشحاذة الأدبية، ويستهلها بأنّ الرجلَ دخل دارَه ليتناول شيئاً من الطعام فقالت له زوجته: لِمَ جئْت ؟ لا طعام لك عندي إلا إذا صنعت ما صنعه زوج الجارة إذ فكّر في العيد وأنت قد نسيته، فقال لها: صدقت وسأخرج الآن أبحث لك عما ذَكَرْتِ، وأخذت تقول له إنك لن تأتي بشيء، وأخذتْ تهوِّنُ من شأنه، ولما كان يجد من خوفها - كما يقول - ما يجد صغار الغنم من الذئاب عَدَا يطوف السكك والشوارع ويجوب الآفاق، ويسأل الرفاق، ويخترق الأسواق، إلى أن مرَّ بقصّاب (جزّار) وبين يديه عنز، وسأله أن يبيعه منه ويمهله في الثمن، وباعه له مؤجلاً بعشرين ديناراً، وانحدر معه لدُكّان موثِّق يكتب لهما عقد البيع، وعاد مع الجزار فلم يجد العنز، وكان قد شرد، فأخذ ينادي في الأسواق والأزِقّة من رأى عنزاً، وإذا برجلٍ فخّار خرج من دهليز يصيح أين صاحب هذا العنز، والعنز يدور في الدهليز ويحطم ما بقي من الطواجن والقدور. وطلبه المحتسب (شرطيّ السوق) وصاحب الدهليز أمامه يبكي، ولم يعف عنه إلا بعد أن أدَّى عنه جيرانه ما أفسده عنزه. وتوجّه به مع الحمّال إلى داره ولم تبق في الزقاق عجوز إلا وصلتْ لتراه، وتسأله بكم اشتراه، والأولاد يدورون به، أما ربّة البيت، فبادرت زوجها تقول: «ليس في البيت خَلٌّ ولا زيت، ومتى تُفرح زوجتك، والعنز أضحيتك، واقلّةَ سعدها، واخُلْفَ وعْدِها، وما حَبَسَك عن الكِباش السمان».

وفجأة يتغير المشهد، فيهدأ الجو ويسوده الوقار: لقد غادر المؤلف ذلك المكان الشعبي، وغادر منزله، وتوجه أبى الأمير أبي سعيد بن نصر، ويطلب منه أن يخلّصه من ذلك البؤس، ويَهَبَه كبش العيد. ويفيض في مديح الأمير، ولكن ابن الخطيب يكتفي بمقطع من المديح، ويحذف المقاطع الأخرى لطولها، كما يقول.

مقامة السياسة (١)

للسان الدين بن الخطيب

حدَّث منِ امتاز باعتبار الأخبار، وحاز درجةَ الاشتهار، بِنَقْل حوادثِ الليل والنّهار، وولج بين الكمائم والأزهار، وتلطّف لخجل الورد من تبسم البهار، قال: سَهِرَ الرشيد ليلة، وقد مال في هجر النبيذ ميلةً، وجهد ندماؤه في جلب راحته، وإلمام النوم بساحته، فشحّتْ عهادهم ، ولم يُغْنِ اجتهادهم، فقال: اذهبوا إلى طُرُق سمّاها ورسمها، وأمهاتٍ قسمها، فمَنْ عثرتمْ عليه من طارقِ ليل، أو غُثاء سيل، أو ساحبِ ذَيْل ، فبلغوه، والأمَنَة سوّغوه، واستدعوه، ولا تَدَعُوه. فطاروا عَجالى، وتفرقوا ركباناً ورجالا، فلم يكن إلا ارتدادُ طرف، أو فُوَاق حرف(٢)، وأتوا بالغنيمة التي اكتسحوها، والبضاعة التي ربحوها، يتوسطهم الأشعث الأغبر، واللجُّ الذي لا يُعْبَرَ: شيخٌ طويل القامة ، ظاهر الاستقامة، سَبَلته مُشْمَطّة، وعلى أنفه من القبع(٣) مَطّة، وعليه ثوب مرقوع، لطير الخَرْق عليه وقوع، يُهَينمُ بذكر مسموع، وينبئ عن وقت مجموع، فلمّا مَثَلَ سلّم، وما نبس بعدها ولا تكلّم. فأشار إليه الملك فقَعد، بعد أن انْشَمر وابتعد، وجلس، فما استرق النظر ولا اختلس، إنّما حركة فِكره، معقودةٌ بزمام ذِكره، ولحظات اعتباره، في تفاصيل أخباره، فابتدره الرشيدُ سائلاً، وانحرف إليه مائلاً، وقال: ممنَّ الرجل؟ فقال: فارسيُّ الأصل، أعجميُّ الجنسِ عربيُّ الفَصْلِ، قال: بلدك وأهلك وولدك؟ قال: أمّا الولدُ فولَدُ الديوان، وأمّا البَلَدُ فمدينة الإيوان، قال: النِّحلة وما أعملت إليه الرِّحلة، قال: أمّا الرحلة فالاعتبار، وأمّا النِّحْلة فالأمور الكبار، قال: فنَك ، الذي اشتمل عليه

---

(١) ورد نصّ هذه المقامة في ريحانة الكتّاب: ٢/ ص٣١٦-٣٣٤. وأوردها المقّري في نفح الطيب: ٦/ ص٤٣٠-٤٤٥.

(٢) فواق: فترة ما بين الحلبتين ، والحرف: الناقة. نصّها في كتابه ريحانة الكتاب: ٢/ ص٣١٦ - ٣٣٤.

(٣) القبع: الصياح أو الإعياء والانبهار.

دَنُّكَ؟ فقال: الحكمة فني الذي جعلته أثيراً، وأضجعت فيه فراشاً وَثيراً، وسبحان الذي يقول ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (البقرة ٢٦٩) وما سوى ذلك فتَبع، ولي فيه مُصْطاف ومرْتَبع. قال: فتعاضد جذل الرشيد وتوفّر، كأنما غُشِي وجهه قطعة من الصبح إذا أسفر، وقال: ما رأيت كالليلة أجمعَ لأملٍ شارد، وأنعمَ بمؤانسة وارد، يا هذا إنّي سائلك، ولن تخيبَ بعدُ وسائلُك، فأخبرني ما عندك في هذا الأمر الذي بُلينا بِحمْل أعبائه، ومُنينا بمراوضة إبائه، فقال: هذا الأمر قلادةٌ ثقيلة، ومن خُطّة العجز مستقيلة، ومفتقرةٌ لسَعَةِ الذَّرْع، وربط السياسة المدنيّة بالشرع، يفسده الحِلْم في غير محله، ويكون ذريعة إلى حَلّه، ويُصْلحه مقابلة الشكل بشكله. ومن لم يكن سبعاً آكِلاً تداعتْ سباعٌ إلى أكله.

فقال الملك: أجملتَ فَفَصِّلْ، وبَرَيْتَ فَنَصِّلْ، وَكِلْتَ فأوْصِلْ، وانثر الحَبَّ لمن يُحَوْصِل، واقسمِ السياسة فنوناً، واجعلْ لكل لقبٍ قانوناً، وابدأ بالرعية، وشروطها المرعية. «فقال: رعَيَّتُك ودائع الله قِبَلَكَ، ومرآة العدل الذي عليه جَبَلَك، ولا تصل إلى ضبطهم إلاّ بإعانة الله تعالى التي وهب لك، وأفضلُ ما استدعيت به عَونه فيهم، وكفايته التي تكفيهم، تقويمُ نفسك عند تقويمهم ورضاك بالسَّهر لتنويمهم، وحراسة كَهْلِهم ورضيعهم، والترفّع عن تضييعِهم، وأخذ كل طبقة بما عليها وما لها، أخذاً يحوطُ مالها، ويحفظُ عليها كمالها، ويقصّرُ عن غير الواجبات آمالها، حتى تستشعرَ عِلْيتها رأفتك وحنانك، وتعرف أوساطها في النّصَب امتنانك، وتحذر سِفْلَتَها سنانَكَ، وحظِّر على كلّ طبقة منها أن تتعَدى طورها، أو تخالف دورها، أو تجاوزَ بأمرِ طاعتك فَوْرها، وسُدّ فيها سُبُلَ الذريعة، واقْصِرْ جميعها عن خدمة الملك بموجب الشريعة، وامنع أغنياءها من البطرِ والبطالة، والنظرِ في شبهات الدين بالتمشدقِ والإطالة، وليقلَّ فيما شجر بين الناس كلامها، ويرفض ما تنبز به أعلامها، فإن ذلك يُسقطُ الحقوقَ،

ويرتِّبُ العقوقَ، وامنَعْهم من فحشِ الحرص والشرهِ، وتَعاهدهم بـالمواعظ التـي تجلـو البصائر من المَوَه ، واحملهمْ من الاجتهاد في العمارة على أحسنِ المـذاهب، وانْهَهُـمْ عـن التحاسدِ على المواهبِ، ورُضْهُم على أهل اليسار، والسخاء على أُولي الإعسار، وخـذهمْ من الشريعة بالواضحِ الظاهر، وامنعهم من تأويلها مَنْعَ القاهر، ولا تطلقْ لهـم التجمُّـعَ على من أنكروا أمرهُ في نواديهم، وكفّ عنهم أكفَّ تعدّيهم ، ولا تبحْ لهم تغيير ما كرهوه بأيديهم، ولتكنْ غايتهم، فيما توجّهَتْ إليه إبايتهم، ونكصَتْ عن الموافقة عليـه رايـتهم، إنهاءهُ إلى مَنْ وكَلْتَه بمصالحهم من ثقاتك، المحافظين على أوقاتك، وقدّم منهم من أمنتَ عليهم مكره، وحمدت على الإنصاف شكره، ومن كثر حياؤه من التأنيب، وقابل الهفـوة باستتابة المنيب، ومَنْ لا يتخطّى عندك محلّـه الـذي حلّـه، فـربما عمـد إلى المـبرَمِ فحلّـه، وحسّنِ النيّةَ لهم بجهد الاستطاعة، واغتفـر المكـارهَ في جنـب حـسن الطاعـة، وإن ثـار جرادهم، واختلف في طاعتك مُرادهم، فتحصنْ لثورتهم، واثبت لفورتهم، فإذا سـالوا وسلّوا، وتفرّقوا وانسَلّوا، فاحتقر كثرتهم، ولا تُقلْ عثرتهم، واجعلهمْ لما بينَ أيديهم وما خلفهم نكالاً، ولا تترك لهم على حلمك اتكالاً.

«ثم قال: والوزيرُ الصالح أفضلُ عددك، وأوصلُ مددك، فهو الذي يصونك عـن الابتذال، ومباشرة الأنذال، ويثبُ لك على الفرصة، وينوبُ في تجرع الغصَّة ، واستجلاء القصة، ويستحضرُ ما نسيتَهُ من أمورك، ويغلبُ فيه الرأي بموافقة مأمورك، ولا يـسعه ما تمكنك المسامحة فيه ، حتى يستوفيه، واحذر مصادمة تياره، والتجوز في اختياره، وقدّمِ استخارة الله تعـالى في إيثـاره، وأرسـل عيـون الملاحظـة عـلى آثـاره، ولـيكن معروفـاً بالإخلاص لدولتك، معقود الرضى والغضب برضاك وصَوْلَتَك ، زاهداً عمّا في يـديك، مؤثراً لكل ما يُزْلِفُ لديك، بعيد الهمّة، راعياً للأذمّة، كامل الآلة، محيطاً بالإيالة، رحيب الصدر، رفيع القدر، معروف البيت، نبيه الحيّ والميت، مؤثراً للعدل والإصـلاح، درِيّـاً

بحمل السلاح، ذا خبرة بدخل المملكة وخرَجْها، وظهرها وسرجها، صحيح العقد، متحرزاً من النقد، جاداً عند لهوك، متيقظاً في حال سَهْوِك، يلينُ عند غضبك، ويصل الإسهاب بمقتضبك، قلقاً من شكره دونك وحمده ناسباً لك الإصابة بعَمْده، وإن أعيا عليك وجودُ أكثر هذه الخلال، وسبق إلى نقضها شيء من الاختلال، فاطلبْ منه سكونَ النفس وهدونها، وأن لا يرى منك رتبةً إلاّ رأى قدرة دونها وتقوى الله تعالى تفضل شرف الانتساب، وهي للفضائل فذلكة الحساب، وساو في حفظ غَيبْه بين قربه ونأيه، واجعل حظّهُ من نعمتك موازياً لحظِّك من حُسْنِ رأيه، واجتنب منهم من برى في نفسه إلى الملك سبيلاً، أو يقودُ من عيصهِ للاستظهار عليك قبيلاً، أو من كاثر مالَكَ مألُهُ، أو من تقدم لعدوك استعماله، أو من سَمَتْ لسواك آماله، أو من يَعْظُم عليه إعراضُ وجهك، ويهمّهُ نادرُ نهجك، أو من يداخلُ غيرَ أحبابك، أو من ينافسُ أحدا ببابك.

«وأما الجند فاصرف التقديمَ منهم للمقاتلة، والمكايدة والمخاتلة، واستوفِ عليهم شرائط الخدمة، وخذهمْ بالثباتِ للصّدمة، ووفّ ما أوجبتَ لهم من الجراية والنعمة، تَعاهدهم عند الغنَاء بالعَلفْة والطعمة، ولا تكرم منهم إلاّ من أكرمه غنَاؤه، وطاب في الذبّ عن ظنك ثناؤه، وولِّ عليهم النبهاء من خيارهم، واجتهدْ في صرفهم عن الافتتان بأهليهم وديارهم، ولا توطئهم الدَّعَة مهاداً، وقدمهمُ على حصصك وبعوثك مهما أردت جهاداً، ولا تُلَيّنَ لهم في الإغماضِ عن حسن طاعتك قياداً، وعَودّهم حُسْنَ المواساةِ بأنفسهم اعتياداً. ولا تسمح لأحد منهم في إغفال شيء من سلاحِ استظهاره، أو عُدِّةِ اشتهاره، وليَكُنْ ما فضل من شبِعَهم وريّهم، مصروفاً إلى سلاحهم وزيّهم، والتزيد في مراكبهم وغلمانهم، من غير اعتبار لأثمانهم، وامنعهم من المستغلاّت والمتاجر، وما تكسّب به غير المشاجر، وليكن من الغزو اكتسابهم، وعلى المغانم حسابهم، كالجوارحِ التي تفسد باعتيادها، أن تَطْعَمَ من غير اصطيادها.

« واعلم أنهّا لا تبذل نفوسها من عالم الإنسان، إلاّ لمن يملك قلوبها بالإحسان وفضل اللسان، ويملك حركاتها بالتقويم، ورتُبَها بالميزان القويم، ومن تثق بإشفاقه على أولادها، ويشتري رضى الله تعالى بصبره على طاعته وجِلادها، فإذا استشعرتَ لها هذه الخلالَ تقدمتك إلى مواقفِ التلف، مطيعةً دواعي الكلف، واثقة منك بحسن الخلف، واستبق إلى تمييزهم استباقاً، وطبقِّهم طباقاً، أعلاها من تأملتَ منه في المحاربة عنك أخطاراً، وأبْعدهم في مرضاتك مَطاراً، وأضبطهم لما تحت يده من رجالك حزماً ووقاراً، واستهانة بالعظائم واحتقاراً، وأحسنهم لمن تقلّده أمرك من الرعية جِوارا، إذا أجدت اختباراً، وأشَدّهم على مماطلة من مارسه من الخوارج عليك اصطباراً، ومن بَلا في الذي عنّ لك إحلاء وإمراراً، ولحقه الضر في معارض الدّفاع عنك مراراً، وبعده مَنْ كانت محبّته لك أزْيد من نَجْدته، وموقعُ رأيه أنفعَ من موقع صَعْدته، وبعدهما مَنْ حَسُنُ انقيادُهُ لأمرائك، وإحماده لآرائك، ومَنْ جعل نفسه من الأمر حيث جعله، وكان صبره على ماعراه أكثر من اعتداده بما فعله، واحذر منهم من كان عند نفسه أكبر من موقعه في الانتفاع، ولم يستحِ من التزيد بأضعاف مابذله من الدفاع، وشكا البخس فيما تعذر عليه من فوائدك، وقاس بين عوائد عدوّك وعوائدك، وتوعّد بانتقاله عنك وارتحاله، وأظهر الكراهية لحاله.

«وأما العمال فإنّهم ينبئون عن مذهبك، وحالهم في الغالب شديدة الشبه بك، فعرّفهم في أمانتك السعادة ، وألزمْهمْ في رعيتك العادة ، وأنزلهمْ من كرامتك بحسب منازلهم في الاتصاف، بالعدلِ والإنصاف، وأحِلّهم من الحفاية ، بنسبة مراتبهم من الأمانة والكفاية ، وقفهم عند تقليد الأرجاء، مواقف الخوف والرجاء، وقرِّر في نفوسهم أَنَّ أعظم ما به إليك تقرّبوا، وفيه تدرّبوا، وفي سبيله أعجموا وأعربوا، إقامةُ حقّ ودحض باطل، حتى لا يشكو غريمٌ مَطل ماطل، وهو آثر لديك من كل ربابٍ هاطل،

وكفّهم من الرزق الموافق، عن التصدي لِـدَنيئ المرافـق، واصـطنع مـنهم مـن تيـسرتْ كلفته، وقويتْ للرعايا أُلفته، ومن زاد على تأميله صبرهُ، وأربى على خَبَره، وكانت رغبته في حسن الذكر، تشفُّ على بناتِ الفكر، واجتنب منهم من يغلبُ عليه سـوء الحـساب، وكانت ذريعته المصانعة بالنفايـة، دون التقـصي والكفايـة، ومـن كـان منـشؤه خـاملاً، ولأعباء الدناءة حاملاً، وابْغِ مَنِ يكـون الاعتـذارُ في أعمالـه، أوضـحَ مـن الاعتـذار في أقواله، ولا يفتننك ممَّن قلدته اجتلابُ الحظّ المقنع، والتنفقُ بالـسعي المـسمع، ومخالفـة السّنن المرعية ، واتباعه رضاك بسخط الرعية ، فإنه قد غشّك من حيث بلّـك ورشّـك، وجعل من يمينك في شمالك، حاضر مالك، ولا تُضَمِّنْ عاملاً مال عمله، وحُلْ بينه فيه وبين أمله، فإنّك تميتُ رسومك بمحياه، وتخرجه من خدمتك فيه إلاّ أن تملكه إيّـاه، ولا تجمع لهُ بين الأعمالِ فيسقط استظهارك ببلد عـلى بلـد، والاحتجـاج عـلى والـد بولـد، واحرصْ على أن يكونَ في الولاية غريباً، ومنتقلُهُ منك قريباً، ورهينة لا يزال معها مريباً، ولا تقبل مصالحته على شيء اختانه، ولو برغيبة فتّانة، فتقبل المصانعة في أمانتك، وتكونَ مشاركاً لَهُ في خيانتك، ولا تُطِل مدة العمل، وتعاهد كشف الأمور ممّن يَرعى الهمـل، ويبلغ الأمل .

« وأما الولد فأحسِنْ آدابهم ، واجعل الخير دابهـم، وخَـفْ علـيهم مـن إشـفاقك وحنَانك، أكثر من غلطةِ جنانك، واكتمْ عنهم ميلك، وأفض فيهم جودك ونَيْلـك، ولا تستغرقْ بالكلَف بهم يومَكَ ولا لَيْلَكَ، وأثِبْهُمْ على حُسْنِ الجوابِ، وَسَبِّقَ إليهم خوفَ الجزاء على رجاء الثواب، وعلّمهم الصبرَ على الضرائر، والمهلة عند استخفاف الجرائـر، وخذهم بحسن السرائر، وحبّبْ إليهم مِراسَ الأمور الصعبة المِراس، وحُسْن الاصطناع والاحتراس، والاسـتكثار مـن أولى المراتـب والعلـوم والـسياسات والحلـوم، والمقـام المعلوم، وَكَرِّه إليهم مجالسة الملهين، ومصاحبة الساهين، وجاهد أهواءهم عن عقـولهم،

وحذّرِ الكذبَ على مَقُولهم، وَرشِّحْهُمْ إذا آنست منهم رُشداً أو هَـدْياً، وأرضِـعْهم مـن المؤازرة والمشاورة ثدياً، لتمرّنهم على الاعتياد، وتحملهم على الازدياد، ورُضْهمُ رياضـة الجياد، واحذر عليهم الشهوات فهي داؤهم، وأعداؤك في الحقيقة وأعداؤهم، وتـدارك الخلق الذميمة كلمّا نَجَمتَ، واقـدعها إذا هجمـت، قبـل أن يظهـر تـضعيفها، ويقـوى ضعيفها، فإن أعجزتك في الصغر الحيل ، عظم الميل:

إنَّ الغُصونَ إذا قوَّمتهـا اعتـدلت ولَـنْ تَلـينَ إذا قومتهـا الخَـشبُ

وإذا قـدروا عـلى التـدبير، وتَـشَوّفوا للمحـل الكبـير ، إيـاك أن تـوطنّهم في مكانـك، جهـد إمكانـك، وفـرقهم في بلـدانك، تفريـق عبـدانك، واسـتعملهم في بعـوث جهـادك، والنيابـة عنـك في سـبيل اجتهـادك، فـإنَّ حَـضْرتَكَ تـشغلهم بالتحاسد، والتباري والتفاسـد، وانظـر إلـيهم بـأعين الثقـات فـإن عـين الثقـة، تُبْـصِرُ ما لا تبصر عين المحبّة والمقة.

«وأمّا الخدم فإنّهم بمنزلة الجوارح التي تفرق بها وتجمع، وتبصر وتسمع، فرُضْهُم بالصدق والأمانة، وصُنهم صَوْن الجُمانة، وخذهم بحسنِ الانقياد إلى ما آثرته، والتقليل ممّا استكثرته، واحذرْ منهم من قويتْ شَهوَاته، وضاقت عن هواه لهواته، فإن الـشهواتِ تنازعُكَ في استرقاقه، وتشاركك في استحقاقه، وخَيرهم من ستر ذلك منه بلطف الحيلة، وآداب للفساد محيلة، وأشْربْ قلوبهم أن الحقِّ في كلّ ما حاولته واستنزلته، وأن الباطـلَ في كلّ ما جانبته واعتزلته، وأن مَـنْ تـصفَّحَ مـنهم أمـورك فقـد أذنـب ، وبـاينَ الأدبَ وتجنّب،وأعْطِ من أكدَدْته ، وأضقتَ منه مُلْكَهُ وشددته، رَوْحة يشتغلُ فيها بما يعنيه، على حسب صعوبة ما يُعانيه، تغطبهم فيها بمسارحهم، وتجـمّ كليلـةِ جـوارحهم ، ولـتكنْ عطاياك فيهم بالمقدار الذي لا يُبطر أعلامهم، ولا يُؤْسفُ الأصـاغرَ فيفـسد أحلامهـم، ولا تَرْمِ مُحْسنَهُمْ بالغاية من إحسانك، واترك لمزيدهم فضلة من رفدك ولسانك، وحـذِّرُ

عليهم مخالفتك ولو في صلاحك: بحدّ سلاحك، وامنعهمْ من التواثُبِ والتشاجُر، ولا تحمد لهم شيم التقاطع والتهاجر، واستخلص منهم لسرك من قَلّتْ في الإفشاء ذنوبه، وكان أصبرَ على ماينوبه، ولودائعك من كانتْ رغبته في وظيفة لسانك، أكثر من رغبته في إحسانك، وضبطُهُ لما تقلّد من وديعتك، أحبَّ إليه من حسن صنيعتك، وللسفارة عنكِ مَنْ حلا الصدق في فمه، وآثره ولو باختطار دمه، واستوفى لك وعليك فهم ما تحمّله، وعُني بلفظه حتى لا يهمله، ولمن تودعه أعداء دولتك مَنْ كان مقصور الأمل، قليل القول صادق العمل، ومن كانت قسوته زائدة على رحمته، وَعَظْمه في مرضاتك آثر من شحمته، ورأيه في الحذر سَديد، وتَحرُّزه من الحيل شديد، ولخدمتك في ليلك ونهارك مَنْ لانت طباعه، وامتد في حسن السجية باعهُ، وأمن كيده وعذره، وسلم من الحقد صدره، ورأى المطامع فماطمع، واستثقل إعادة ما سمع، وكان بريئاً من الملال، والبشر عليه أغلب الخلال، ولا تؤنسهم منك بقبيح فعل ولا قول، ولاتؤيسهم من طَوْل، ومَكنْ في نفوسهم أن أقوى شفعائهم، وأقرب إلى الإجابة من دعائهم، إصابة الغرض فيما به وكلوا، وعليه شكلوا، فإنك لا تعدم بهم انتفاعاً، ولايعدمون لديك ارتفاعا.

« وأما الحرم فهنَّ مغارس الوُلد، ورياحين الخلُد، وراحة القلب الذي أجهدته الأفكار، والنفس التي تقسّمها الإحماد إلى المساعي والإفكار، فاطلب منهن من غلب عليهن من حسن الشيم، المترفعة عن القيم، ما لا يسوءُك في خلدك، أن يكون في ولدك، واحذر أن تجعل لفكرِ بشرٍ دون بصرٍ إليهن سبيلاً، وانصبُ دون ذلك عذاباً وبيلاً، وأَرْعِهنَّ من النساء العُجُزِ مَنْ بانت في الديانة والأمانة سبله، وقويَتْ غَيرته ونبله، وخذهنَّ بسلامة النيات، والشيم السنيّات، وحسن الاسترسال، والخلق السّلسال، وحذِّر عليهنّ التغامُزَ والتغاير، والتنافس والتخاير، وآس بينهن في الأغراض والتصامم عن الإعراض، والمحاباة بالأعراض، وأقلل من مخالطتهن فهو أبقى لهمتك، وأسبلُ

لحرمتك، ولتكن عشرتك لهن عند الكلال والملال، وضيق الاحتمال، بكثرة الأعمال، وعند الغضب والنوم ، والفراغ من نصَبِ اليوم، واجعل مَبيتك بينهن تنْم بركاتك، وتستقرْ حركاتك، وافصل من ولدتْ منهن إلى مسكنٍ تختبرُ به استقلالها، وتعتبر بالتفردِ خلالها، ولا تطلق لحرمةٍ شفاعةً ولا تدبيراً، ولا تَنُطْ بها من الأمرِ صغيراً ولا كبيراً، واحذرْ أن يظهر على خدمهن في خروجِهن عن القصور، وبروزهن من أجَمِة الأسد الهصُور، زي بارع، ولا طيب للأنوف مسارع، واخصص بذلك مَنْ طعن في السن، ويئس من الإنس والجن، ومن توفّر النزوع إلى الخيرات قبله، وقصر عن جمال الصورة ورُسم بالبَله.

«ثم قال: واعلم ياأميرَ المؤمنين- سدد الله تعالى سهمك لأغراض خلافته وعصمك من الزمان وآفته – أنك في مجلس الفصل ، ومباشرة الفرع من ملكك والأصل، في طائفة من عز الله تعالى تذبُّ عنك حُماتها، وتدافع عن حوزتك كماتُها، فاحذر أن يعدل بك غضبك عن عدل تزري منه ببضاعة، أو يهجم بك رضاكِ على إضاعة، ولتكن قدرتك وقفاً على الاتّصاف، بالعدل والإنصاف، واحكم بالسوية، واجنح بتدبرك إلى حسن الرويَّة. وخَفْ أن تقعد بك أناتك عن حزم تعيَّن ، أو تستفزك العجلة في أمر لم يتبين، وأطع الحجة ما توجهت إليك، ولا تحفلْ بها إذا كانت عليك، فانقيادك إليها أحسنُ من ظفرك، والحق أجدى من نفرك ، ولا تردَّنَّ النصيحة في وجه، ولا تقابل علها بنَجْه، فتُمنعها إذا استدعيتها، وتُحجب عنك إن استوعيتها، ولا تستدعها من غير أهلها، فيشغبك أولو الأغراض بجهلها، واحرص على أن لا ينقضي مجلس جلسته، أو زمن اختلسته، إلا وقد أحرزت فضيلة زائدة، أو وثقت منه في معادك بفائدة.

«ولا يزهدنك في المال كثرته، فتقل في نفسك أثرته، وقس الشاهد بالغائب، واذكر وقوع ما لا يحتسب من النوائب، فالمال المصون، أمنع الحصون، ومَنْ قلّ ماله، قصرت

آماله، وتهاون بيمينه شماله، والملك إذا فقد خزينه ، أخنى على أهـل الجـدة التـي تزينـه، وعاد على رعيته بالإجحاف، وعلى جبايته بالإلحاف، وساء معتاد عيشه، وصغر في عيون جيشه، ومَنّوا عليه بنصره، وأنفوا من الاقتصار على قصره، وفي المال قوة سماوية تصرف الناس لصاحبه، وتربط آمال أهل السلاح به، والمال نعمة الله تعالى فلا تجعلـه ذريعـة إلى خلافه، فتجمع بالشهوات بين إتلافك وإتلافه، واستأنس بحسن جوارهـا، واصرف في حقوق الله تعالى بعضَ أطوارها، فإن فَضَلَ المالُ عن الأجل فأجَلّ ، ولم يـضر مـا خلـف منه بين يدي الله عزّ وجلَّ، وما ينفق في سبيل الشريعة، وسد الذريعة مأمول خَلَفُه ، وما سواه فمتعين تَلَفَهُ.

«واستخلص لنواديك الغاصّة، ومجالـسك العامـة والخاصـة ، مـن يليـق بولـوج عتبها، والعروج لرتبها، أمّا العامية فمن عظم عند الناس قدره ، وانشرح بالعلم صـدره وكان الله تعالى إخبْاته وانكساره، ومن كان للفتيا منتصباً وبتاج المشورة معتـصبا، وأمّـا الخاصية فمن رَقْت طباعه، وامتد فيما يليق بتلـك المجـالس باعـه، ومـن تبحـر في سـير الحكماء، وأخلاق الكرماء، ومن له فضل سافر، وطبع للدَّنية منافر، ولديه مـن كـلّ مـا تستتر به الملوك عن العوام حظ وافر، وصف ألبابهم بمحصول خيرك، وسـكِّن قلـوبهم بيُمْن طيرك، وأغْنِهم ما قدرت عن غيرك. واعلم بأن مواقع العلماء مـن ملكـك مواقـع المشاعل المتألّقة، والمصابيح المتعلّقة، وعلى قدر تعاهدها تَبذلُ من الضياء، وتجلو بنورها صُوَرَ الأشياء، وفرّغها لتحبير ما يزين مدتك، ويحسّن من بعـد الـبلى جِـدتّك، وبعنايـة الأواخر ذكرت الأُول، وإذا محيت المفاخرُ خربت الدول.

«واعلم أَنَّ بقاء الذكر مشروطٌ بعمارة البلدان، وتخليـد الآثـار الباقيـة في القـاصي والدان، فاحرص على ما يوضح في الدهر سُبُلك، ويحرز المزية على من قبلك، وأن خـير الملوك من ينطق بالحجّة وهو قادر على القَهْر، ويبـذل الإنـصاف في الـسر والجهـر، مـع

التمكن من المال والظّهر، ويسار الرعية جمال للملك وشرف، وفاقتهم من ذلك طرف، فغلّبْ أليقَ الحالين بمحلك، وأولاهما بظعنك وحِلّك.

«واعلم أن كرامة الجور دائرة، وكرامة العدل متكاثرة، والغلبة بالخير سيادة، وبالشر هوادة، واعلم أنّ حسن القيام بالشريعة يحسمُ عنك نكايةَ الخوارج، ويسمو بك إلى المعارج، فإنّها تقصدُ أنواع الخدع، وتوري بتغيير البدع، وأطلق على عدوك أيدي الأقوياء من الأكفاء، وألسنةَ اللفيفِ من الضعفاء، واستشعر عند نكثه شعارَ الوفاء».

« ولتكنْ ثقتك بالله تعالى أَكثَرَ من ثقتك بقوة تجدها، وكتيبة تنجدها، فإن الإخلاص يمنحك قوى لاتُكتسب، ويمهّد لك مع الأوقات نصراً لا يحتسب. والتمس أبداً سلْمَ من سالمك بنفيس ما في يدك، وفَضّلْ حاصلَ يومك على مُنْتَظَر غدك، فإن أبى وضحتْ محجتك، وقامت عليه للناسِ حجتك، فللنفوس على الباغين مَيْل، ولها من جانبه نَيْل، واستهد في كلّ يومٍ سيرةَ من يناويك، واجتهد أن لا يوازيك في خير ولا يساويك، وأكذبْ بالخير ما يُشِيعه من مساويك، ولا تقبل من الإطراء إلاّ ما كان فيك فضل عن إطالته، وجدٌّ يُزْرِي على بطالته، ولا تلقَ المذنبَ بحميتّك وسَبّكَ، واذكر عند حركةِ الغضب ذنوبك إلى ربك، ولا تنسَ أن ربَّ المذنب أجلسك مجلسَ الفصل، وجعل في قبضتك رياشَ النصل، وتشاغلْ في هدنةِ الأيام بالاستعداد، واعلم أن التراخي منذرٌ بالاشتداد، ولا تهملْ عَرْضَ ديوانك، واختبارَ أعوانك، وتحصينَ معاقلك وقلاعك، وعُمَّ إيالتك بحسن اطلاعك، ولا تشغل زَمَنَ الهدنة بلذاتك، فتجني في الشدة على ذاتك، ولا تطلقْ في دولتك ألسنةَ الكهانة والإرجاف، ومطاردة الآمال العِجاف، فإنّه يبعثُ سوء القولِ، ويفتحُ باب العَوْل، وخذ على المدرسين والمتعلمين، والعلماء والمتكلمين، حَمْلَ الأحداث على الشكوك الخالجة والمَزَلاّت الوالجة، فإنّه يفسدُ طباعهم ويغري سباعهم، ويمدّ في مخالفة المّلة باعَهم، وسُدَّ سبيلَ الشفاعاتِ فإنّها تفسد

عليك حُسْنَ الاختيار، ونفوسَ الخيار، وابذل في الأسرى من حُسْنِ ملكتك ما يـرضي مَنْ مَلّكك رقابها، وقلّدك ثوابها وعقابها، وتَلَقَّ بـدء نهـارك بـذكر الله تعـالى في ترفّعـك وابتذالك، واختَم اليوم بمثل ذلك.

«واعلم أنّك مع كثرة حُجّابك، وكثافة حِجابك، بمنزلة الظاهر للعيون، المطالَـب بالديون، لشدةِ البحثِ عن أمورك، وتعَرَّف السرَ الخفي بين أمرك ومأمورك، فاعمـلْ في سرك ما لا تستقبحُ أن يكونَ ظاهراً، ولا تأنفْ أن تكون به مُجاهراً، وأَحْكِمْ بريـك في الله ونَحْتَكَ، وخَفْ مَنْ فوقَكَ يخف مَنْ تحتك، واعلم أن عدوّك من أتباعـك مـن تناسـيتَ حسنَ قَرْضه، أو زادت مؤونته عـلى نـصيبه منـك وفَرْضـه، فأصـمتِ الحجـجَ، وتـوقَّ اللّجج، واستربْ بالأمل، ولا يحملنك انتظامُ الأمورِ على الاستهانة بالعمل، ولا تحقرنَّ صغير الفساد، فيأخذَ في الاستئساد، واحبس الألسنةَ عن التخالي باغتيابـك، والتـشبّثِ بأذيال ثيابك، فإن سوء الطاعة ينتقلُ من الأعين الباصرة، إلى الألسنِ القـاصرة، ثـم إلى الأيدي المتناصرة، ولا تثق بنفسك في قتـالِ عـدوّ نـاواك، حتـى تظفـرَ بعـدوّ غـضبِكَ وهواك، وليكن خوفكَ من سوء تدبيرك، أكثـرَ مـن عـدوكَ الـساعي في تتبـيرك[١]، وإذا استنزلت ناجماً[٢]، أو أمنت ثائراً هاجماً، فلا تقلّده البلد الذي نَجَـمَ، وهَمَـى عارضـهُ فيـه وانسجم، يعظم عليك القدح في اختيارك، والغَضَ مـن إيثـارك، واحـترز مـن كيـده في حَوْرك ومأمّك[٣]، فإنّك أكبر هَمّه وليس بأكبر همّك، وجَمّـلِ المملكـة بتـأمين الفلـوات، وتسهيل الأقوات، وتجديد ما يُتعامَلُ من الصرفِ في البياعات، وإجراء العوائد مع الأيام والساعات، ولا تبخسْ عِيار قِيم البضاعات، ولتكنْ يدك عن أمـوال النـاس محجـورة،

---

(١) التتبيرَ: الهلاك.

(٢) الناجم: الثائر.

(٣) الحور: العودة والرجوع، والمأم: القصد.

وفي احترامها إلاّ عن الثلاثة مأجورة: مالُ مَنْ عدا طَورُهُ طَوَر أهله، وتخارقَ في الملابس والزينة، وفضولِ المدينة، ويروم معارضتك بجهله، ومَنْ باطَنَ أعداك، وأمِـنَ اعْتِـداك، ومَنْ أساء جوارَ رعيتك بإخسْاره، وبذل الأذاية فيهم بيمنِهِ ويساره.

وأضَرُّ ما مُنِيتَ به التعادي بين عبدانك، أو في بلد من بلدانك، فـسُدَّ فيـه البـاب، واسأل عن الأسباب، وانقلهم بوساطة أُولي الألبـاب، إلى حالـة الأحبْـاب، ولا تطـوّق الأعلامَ أطواقَ المنون، بهواجسِ الظنون، فهو أمر لا يقفُ عند حد، ولا ينتهي إلى عـدّ، واجعلْ ولدك في احتراسك، حتى لا يطمعَ في افتراسك.

« ثم لمّا رأى الليلَ قد كاد ينتصف، وعموده يريدُ أن ينقصف، ومجال الوصايا أكثر ممّا يصف، قال: يا أمير المؤمنين، بحرُ السياسة زاخر، وعمر المتمتع بناديك مستاخر، فإن أذنْتَ في فنّ من فنون الأنْسِ يجذبُ بالمقاد، إلى راحةِ الرقـاد، ويعتـق الـنفسَ بقـدرة ذي الجلال. من ملكة الكَلال. فقال: أمَا وقد استحسنّا ما سردت فشأنك وما أردت.

« فاستدعى عوداً فأصلحه حتى حمده، وأبعد في اختبـاره أمَـدهَ، ثـم حـرك بمّـه، وأطال الجس ثمه، ثم تغنّى بصوت يستدعي الإنصات، ويصدع الحَصاة، ويستفز الحليم عن وقاره، ويستوقفُ الطير ورزقُ بنيه في منقاره، وقال:

صـاحِ مــا أعْطَـرَ القبـولَ بنَمّـهْ ... أتراهــا أطالــتِ اللبــثَ ثَمّــهْ

هي دارُ الهـوى مُنـى الـنفس فيهـا ... أبــدَ الــدهرِ والأمــانيُّ جَمّــهْ

إن يكُــنْ مــا تــأرّجَ الجـوُّ منهــا ... واســتفاد الــشذا وإلا فممّــهْ

مَــنْ لطــرفي بنظــرة ولأنفــي ... في رباهــا وفي ثراهــا بــشمهْ

ذُكـرَ العهــدُ فانتفــضتُ كــأنّي ... طرقَتْنــي مــن الملائــكِ لَمّــهْ

وطــنٌ قــد نَـضَيْتُ فيــه شــباباً ... لم تُــدَنّسْ منــهُ الــبرودَ مَذَمّــة

بنْتُ عنه والنفسُ من أجلِ من قـد ... خَلّفَتْــهُ خلالــه مُغْتَمّــهْ

كان حلماً فويحُ مَنْ أمّلَ الدّهـ ـــرَ وأعماه جَهْلُه وأصمّهْ
تأمُّلُ العيشَ بعد أن خلقَ الجسْـ ـمُ وبنيانُهُ عسيرُ المرمّهْ؟
وغدت وَفْرةُ الشبيبة بالشيـ ـبِ على رغمِ أنفها معتمّهْ
فَلَقَدْ فازَ سالكٌ جَعَلَ اللّـ ـهَ إلى الله قصدَهُ ومأمّهْ
من يَبِتْ مِن غرورِ دُنيا بهمّ يلدغُ القلبَ أكثَرَ اللهُ همّهْ

ثمَّ أحالَ اللّحن إلى لون التنويم، فأخذ كلٌّ في النعاس والتهويم، وأطال الجس في الثقيل، عاكفاً عكوف الضاحي في المقيل، فخاط عيونَ القوم، بخيوط النوم، وعمر بهم المراقد، كأنّما أدار عليهم الفراقد، ثم انصرف، فما علم به أحد ولا عرف، ولّما أفاق الرشيد جَدَّ في طلبه، فلم يعلم بمنُقْلبه، فأسف للفراق، وأمر بتخليد حِكَمه في بطون الأوراق، فهي إلى اليوم تتلى وتُنقل، وتجلى القلوب بها وتُصقل، والحمد لله رب العالمين».

التحليل:

بنى ابن الخطيب مقامته هذه على حوار بين اثنين، هما: الخليفة هارون الرشيد، وحكيم فارسي الأصل عربيّ اللسان، يجيد فن الحكمة.

يقول في مقدمتها: « سهر الرشيد ليلة، وقد مال في هجر النبيذ مَيْلَة، وجهد ندماؤه في جَلْب راحته، وإلمام النوم بساحته......فقال: اذهبوا إلى طرق سمّاها ورسمها، وأمهات قسمها، فمن عثرتم عليه من طارق ليل أو غثاء سيل، أو ساحب ذيل، فبلّغوه، والأمنة سوّغوه، واستدعوه، ولا تدعوه.... ». فكان أن أتوا «بشيخ طويل القامة، ظاهر الاستقامة»، فأشار إليه الرشيد بالجلوس، ثم سأله عن نفسه، فكشف عن أصل فارسي أعجميّ الجنس، عربيّ الفصل، قال الرشيد:«فأخبرني ما عندك في هذا الأمر الذي بُلينا بحمل أعبائه، ومُنينا بمراوضة إبائه، فقال: هذا الأمر قلادة ثقيلة، ومن خطة العجز مستطيلة، ومقتصرة لسعة الذرع، وربط السياسة المدنية بالشرع....».

فطلب منه الملك أن يفصّل الإجمال فطفق يحدثه عن كيفية تدبير السياسة مع الرعية والوزارة والجند والعمال والخدم والحرم، ونبّهه إلى دور العلماء ومكانتهم في قيام الملك: «واعلم بأن مواقع العلماء من ملكك، مواقع المشاعل المتألقة، والمصابيح المتعلقة، وعلى قدر تعهدها تبذل من الضياء، وتجلو بنورها صُورَ الأشياء ...... واعلم أن بقاء الذكر مشروط بعمارة البلدان، وتخليد الآثار الباقية في القاصي والدّان....... » .

فاستحسن الملك هذه النصائح والإرشادات، ثم إذا بالشيخ يستدعي عوداً فيصلحه، ثم يُغنّي فينيم الجمع، وفي الصباح يستيقظ الرشيد فلا يرى للشيخ أثراً، فيحزن لفراقه، ويأمر بتخليد حِكَمه .

وتباينت آراء الباحثين في هذا المقامة، فقد أعجب أحدهم بموضوعها وجودة مضمونها فقال:« وحبّذا لو وجدت هذه المقامة طريقها إلى ساستنا فأفادوا منها، وإلى طلاب السياسة من أبنائنا، ليروا على ضوئها إلى أيّ مدى من النضج والعمق، بلغ الفكر السياسي العربي في القرن الثامن الهجري».[١]

ونظر إليها باحث آخر من زاوية أخرى، فقال عنها: « هذه المقامة تذكّرنا مرّة أخرى بمقامات الوعاظ لابن قتيبية، ذلك أن موضوعها يقوم على النصيحة والإرشاد».[٢] أمّا د. شوقي ضيف فيرى أنها أشبه برسالة أو مبحث فيما ينبغي أن يكون الحاكم عليه.... وهي حريّة أن تُقرن برسائل السياسة عند ابن المقفع».[٣]

(١) د. عبد العزيز عتيق: الأدب العربي في الأندلس ، ص٤٩٩.

(٢) د. يوسف نور عوض : فن المقامات بين المشرق والمغرب ، ص٣٠٣.

(٣) عصر الدول والإمارات (الأندلس) : ص٥٢٠

المقامة السينية[1]

للسان الدين بن الخطيب

فمن ذلك ما صدر عني للسلطان الجليل المعظم الكبير أبي عنان فارس رحمه الله من سبتة بين ركوب البحر وفي كل كلمة منها سين:

سَقَتْ ساريات السُّحب ساحة فاسِ سواحبُ، تكسو السَّرح حُسْن لباس
وسارت بتسليمي لسدّة فارس نسيمٌ سرَى للسَّلسبيل بكاس

منها في ذكر السلطان أبي عنان:

أَنِسْتُ بمَسْرى سَبتْة وتأَنَّستْ بساحَتِه نفسي وأسْعدُ ناس
ويسَّرت لليُسرى ويسرَّ مُرسلي وسدَّد سَهْمي واستقام قياس

باسم السَّلام أَستمَنح مُسبل الإسعاد، وأَبْلِس أنفسَ الحسَّاد، وبإرسال التَّسْليم لسيَّد المرسلين، أَسدُّ أَسراب الفساد، وأَلتمسُ لسفري سلامة النُّفوس والأَجساد، سلامٌ وسيمٌ، تستعيرُ نفسُ مسراه البساتين، ويحسِدهُ الآس والياسمين، ويستمدُّه النرَّجس الساجي والنِّسرين، يُسري لمجلس، مُستخلف القدُّوس السلام سبْحانه، ويَسْتبق لسدَّة سلطان المسلمين. سلَّ السعد حُسامه، وسدَّد سهامه، سَيف السُّنَّة السَّمحاء سَحابة سماء السَّخا، أَسَدُ المَراس، مُلْبِس المفسدين لِباس البَاس، مُيسَّر الحَسَنة للناس، يَعْسُوب الخميس، مَسْرح سَوائم التسجيع والتَّنسيم والتَّجنيس، سندُ السُّنة، أسدُ الأسنَّة، الباسل السَّيد السَّنيّ المسدَّد، السَّامي السَّنى، سلطان السلاطين، السَّاطي بأْسه بالسَّاطين، مُستند الإِسلام، فارِسْ، سُدلت لسيرته الحسنة الملابس، واستنار بابتسام سعده المَسْرى العابِس. حسبُك باسْمٍ ومُسَمَّى، ونفسٌ نفيسة سَكنت الإِسلام جِسْما، وأسنتْ لسعادة

(١) ورد نصّ المقامة في: ريحانة الكتّاب ونجعة المنتاب، ٢/ ص٢٤٦-٢٤٧.

المسلمين قسما، ينسي السحائب الساكنة لمستني السنين، وتخرس ألسُن محاسِنِه اللَّسنين، ويستعبد إِحسانُه إِحسان المحسنين، سما مجلسُه، وسعد ملتمسه، وتسنَّت سلامته، وحَرست سُبل السنَّة استقامتُه، وسُدِّد سهمه، وسَنَى السعادة للناس بأْسه وسَلْمه، فسبحان مُيسر العَسير، ومُسدي الكَسير، ومسهِّل الإِكسير، ومَسْنى سلطانه يَسْتوعب محاسن السَّبعة المُسْتخلفين، استيعاب التَّيسير، فسهُلت المسالك العسيرة، وحَسُنت السِّيرة، ليستبين سرُّ الاستخلاف، ويتيَّسر سبب الاسْتِيلاف، ويستجدُّ ملابس سلطنة الأَسلاف، وسيطهِّر سيفُه مساجد المسلمين بالأَندلس، سالباً دَنس النَّاقوس، ويلبسُ إِبليس باستنقاذها، لباس البُؤس، ويستفتح القُدْس، بتيسير القدُّوس، رسْمه بسَبْته حُرست ساحتها، واتَّسعت باليسر مساحتُها، مسترقٌّ إِحسانه، ومستعبد سلطانه السَّعيد السفارة والرِّسالة، بسببه، المتوسل بالوسائل الحسنة، لحَسَبه سميُّ الرسول، سليلُ سعيد، المُنْتسِب لسَلْمان، ليس بسلمان الفارسي، حسبما استوعبه سفرُ الأَنساب تيسَّرت لسُراة المسلمين برسالته الأسْباب. سَطَره لسلطانكم السَّامي، وسفرُ السَّفين تيسَّر، وسُور التَّسهيل والتَّيسر تُفسَّر، والسَّمراءُ ونسبتُها استوعبها الإِيساق، ولسوابق المَرْسى استباق، ولمحاسن السَّلطنة الفارسية اتِّساق، وسَكنها مُستْملككم تسعة بسبب نسيم استباد مَسْراه، واستَتْبع سَراه ينتسب لسَمْت الإِسكندرية، ويسخر بالسُّفن السَّفرية، والسَّاعة استَعْجلت السَّفر مُسْتننها[1] سكون نفسه، وسهو حرسه، واستتبّت لاستصحاب الحَسَنَة الفارسَّية لساحل البلس ميسوراً من سكانه يسمى، بُحسَين ويُنسب لسالم استِنْجاحا بِسَمْته الحَسَن والسَّلامة، سَلَكت للتَّسْهيل، سواء السبيلَ وسَقَت الناس سُلاف المَسَرَّة، بكأْس السَّلسبيل، ومُسْترق المجلسَ الفارسي مجلسَ السَّنا والقدس، مسافرٌ بالجسم، مستوطنٌ بالنفس ولسانهُ بإِحْسانكم سيفٌ مسلول، ولنفسه بِتَسنّي

(١) هكذا في ريحانة الكتاب، وقد يكون الصواب مستغنما.

سعادتكم سُول، فبسعادَتكم يَسْتَصبح، وببَسْملة محاسنكم يَستفتح، وسلطانكم ليس يَنسى وسيلة متوسِل، وسبل الحسنات من سما سِيرتكم مُسْترسل، واستوعبها سِينية، وبسين اسمكم سَعيدة سَنِيَّة، خلسة مجلس، وَوُسْع مُفْلس، وسمْحُكُم مسئول، ومُسْتعيذ سلطانكم أسْعَدُ رسول، نسل السَّلام تقدَّس اسمُه، بِتَسَنّي سعادتكم سرورَ المُسلمين، ويُسنْى بسَبَبِكم سُنَّة سيدُ المرسلين، ورُسم تاسع مستفتح سنة ست وخمسين وسبعمائة.

تعقيب

جعل ابن الخطيب حرف السين في كلّ كلمة من كلمات هذه المقامه، ولذلك أطلقنا عليها اسم «المقامة السينية»[١] وموضوع هذه المقامة مدح السلطان أبي عنان المريني[٢]، واستحثاثه على قتال النصارى، فقد كان يرى فيه الشهامة والمروءة والخوف على جوهر الإسلام.

وصف ابن الخطيب أبا عنان بأنه «سند السّنة، وأسد الأسنة، وسلطان السلاطين...» وأبدى تفاؤله بأن هذا السلطان «سيطهر سيفه مساجد المسلمين بالأندلس، سالباً دنس الناقوس، ويلبس إبليس باستنقاذها لباس البؤس، وستفتح القدس...».

ولا غرابة أن يبالغ ابن الخطيب في مدح السلطان أبي عنان، الذي ربطته به علاقة قوية عندما زار المغرب الأقصى كسفير لسلطان غرناطة في عامي ٧٤٩هـ و ٧٥٥ هـ، كما أنه التجأ فترة إلى مدينة فاس عاصمة بني مرين عندما كان منفياً مع سلطانه المخلوع محمد بن يوسف ين نصر، الغنىّ بالله عام ٧٦٠ هـ[٣].

---

(١) يبدو لي أنّ ابن الخطيب قد حذا في مقامته هذه حذو الرسالة السّينية للحريري، وهي رسالة التزم في كلّ كلمة منها حرف السين نثراً ونظماً (انظر الرسالة في معجم الأدباء: ١٦/ ص٢٧٦-٢٧٨).

(٢)هو فارس المكني بأبي عنان، وكان يلقب بالمتوكل على الله، ولد عام ٧٢٩هـ بفاس، وثار على أبيه أبي الحسن المريني بتلمسان عام ٧٤٩هـ، واستولى على المغرب الأقصى، وتوفي عام ٧٥٩هـ (الأعلام: ٥/ ص١٢٧).

(٣) مشاهدات لسان الدين بن الخطيب (في بلاد المغرب والأندلس) : ص٦.

مقامتان في أدب الوزارة وقدر رتبتها (١)
للسان الدين بن الخطيب

١. مقامة الإشارة إلى أدب الوزارة في السياسة(٢)

أما بعد حمد الله الذى جلّ ملكه أن يُوازره الوزير، وعزّ أمره أن يـدبره المُـدير، أو يؤيدُه الظَّهير، والاستعانة به على الوظائف التي يضطر إليها، ويعتمدُ عليها، فهـو الـوليُّ النَّصير، والصلاة على سيدنا ومولانا محمـد، الـذي لـه القـدرُ الرَّفيـع والفَخْـر الكبـير. والرِّضا عن آله وعَشيرته، فحبذا الآلُ والعشير. فإن من دعا إلى الله أيها الوزير الـصَّالح السعيد بعصمةٍ يُضْفى عليك لباسُها، وعزَّة يَصْدق عليك قِياسها، وأيام تَروض لـديك شَامها، ويدفع بيُمن نقيبتـك بأسـها، فـإنما دعـا للدَّولـة بتأْييـدها، وللملَّـة بتمهيـدها، وللمَمْلكة بتَجْديدها، فقد ظهر من عنايته بـك اختيـارُك، ومـن حُـسن أثـره في نـصرك وإيثارِك، وهو الكَفِيل لك بالمزيد من آلائه، وموصول نَعْمائه، وأني لما رأيـت بـرَّك دينـاً يجب عليَّ قضاؤه، ولا يجمُلُ بي إلقاؤه، تخيَّرت لك في الهدايا، ما يمـلأُ اليَـد، ويـصاحب الأَمد، ويُنْجب العَقِب والوَلد، فلم أجد أجدى من حديث الحِكمة التي من أُوتِيها، فقد أُوتيَ خيراً كثيراً، ومن أَمِل لرتبتها السَّامية، فقد أُحلَّ محلاًّ كبيراَ، والوُصاة التي تنفعُـك، من حيث كنت وزيراً، والموعظة التي تفيدك تنبيهاً من الغفلة وتذكيراً، فاخترعـتُ لـك وضعاً غريباً، وغرضاً قريباً، أَن لقيت ما جَمَحَ من أَخلاقك، قولُك وأَلانـه، وأَنْهـج لـك

(١) تنوير: هاتان المقامتان رغم أنّ نصّهما مطبوع، إلاّ أن طبعة كتاب «ريحانة الكتّاب» مشوهة محرّفة لا تعطي الدارس فكـرة صحيحة عن نثر ابن الخطيب، فكأنهما في عداد المخطوطات، ولذلك أوردنا نصّهما هنا. ولم يتيسّر لنا مقابلـة نـصّ هـاتين المقامتين في أي مصدر آخر؛ لأن كتاب "ريحانة الكُتّاب» انفرد بهما، ولم نعثر على نصّهما في مصدر آخر سواه.

(٢) ورد نصّ المقامة في ريحانة الكتّاب: ٢/ ص٣٣٥-٣٤٠.

الصَّواب وأَبانه، جانحاً إلى الاختصار، عادلا إلى الإكثار، منسوباً إلى بعض الحيوان، على عادة الأُوَل ممَّن صنَّف في السِّياسة قبلي، أو ذهب لما ذهبتُ إليه من فعلي، فقلت وبالله العَون والقوة ومنه يُلتمس السعادة المرجوة.

حكى من يَكْلِفُ برعي الآداب السَّوايم، ويُعنى باستنزال الحِكم الحَوايم، ويقيِّد المعاني السَّارة على أَلسنة البَهايم، أَن نِمراً يكنى أَبا فروة، ويُعرف بالمُرَقَّط، كأَنه بالنجوم مُنقَّط، شثن الكفَّين، بعيد ما بعد العَيْنين، كأَنَّ ذؤابة... [1] ذوابة كوكب أوجد مِلَّة مركَّب، وكأَن المجرَّة أَوْرَثته غديرها، والثريّا نثرت عليه دنانيرها، عظيمُ الوثوب والظُّفور، حديدُ النَّاب والأُظْفور، جِنُّ نجدٍ وغُور، وكرةُ حورٍ وكورٍ، وجِرْمُ ثور في مِسْلاح سِنَّور، استوزره مَلكُ الوحوش، وقلّده تدبيرَ الملك، وعَرْض الجيوش، فحلَّ من ذلك الأَسَد محلَّ الروح من الجَسَدَ، وكفاه ما وراءَ بابه، ودَافع الأعداء من جَنابه، ووفَر من جِبايته، وأَجْرَى رسوم عزه وإبايَتِهِ، وأَخْلَص الله عقِيدةَ نُصحه، وتبرَّأَ من شَيْن الغشِّ وقُبحه، حتى عمَّت الهَيْبة وخصَّت، وشرَّفته الأعداء وغُصّت، وعَرَفت الوحوش أَقدراها، وأَلْفَت السياسة مدارها، وأَمِنت السُّبل والمسالك، وخاف المَمْلُوك سطوة المالك، وحسنت الأخبار عن سيرته، وشَهِدت بالعدل أَلْسُن جِيرته، لما أسنَّ واستنَّ، فأَنكر من قوته ما عَرف، وقارب من مدى العمر الطَّرف، فمال مزاجه وانحرف، وكعَّ عن الملاذ وانصرف، فأَصبح مَتْنهُ هزيلا، وجِسْمه ضئيلاً، ونشاطه قليلا، ورأى عبء الوزارة ثقيلا، إنَّ الحقَّ أَقْوَمُ قيلاً. دخل على الأسد خلوة مشورته، وصرّح له عن ضرورته، وأقام به الحقَّ في صورته، وقال أيها الملك السَّعيد، عِشْتَ ما بدا لك، وحَفِظت ميزان الطَّبايع عليك اعتِدالك، ولازِلْت مرهوبَ السَّطا، بعين الخطا، فإنها في مهاد الدَّعة أَمنُ القطا، وهَن من عَبْدك العظم، وضعُف الافتراس وساءَ الهَضم، وكاد

(١) فراغ في كتاب ريحانة الكُتّاب.

ينثر النَّظم، وبان في آلةِ خدمتك، الكَلال، واستولى الهمُّ والاضْمِحلال، وأربأ لمُلْكِكَ عن تَقْصير يجنيه ضَعْفي، وإن عظُمُ لفراق سِدَّتك لَهْفي، فسوِّغني التفرغ لمعادي، والنظر في بُعد طريقي وقلَّة زادي، واستكف من يقوم بهمَّتك، ويبوءُ بعِبءْ خدمتك، فما على استحِثاث الأَجل من قرار، وما بعد العَشيَّة من عَوار.

من عاش أَخْلَقَت الأَيام جدَّته   وخانه نقشاهُ السَّمع والبصر

وقد علم الله الذي بيده النَّواصي، وعِلمُه المحيط بالأَداني والأَقاصي، وسِتْره قد شمل المُطيع والعَاصي، أَنني ما خُنْت أمانته بخَوْن أَمانَتك، ولا آليتُ جَهداً في إِغَاثَتِك، ولا اقتحمتُ بأَمرك حدّاً من حدود دِيانتك، ولا تعمَّدت جَلْبَ ضُرٍّ، ولا خلطت حُلو النَّصيحة بمر، ولا استفْسدت لك قَلْب حرٍّ، ولا استأْثرتُ لك بمال، ولا كنتُ يوماً لضدِّك بميَّال، ولا تلقيتُ مهمَّك بإِهمال، ولا ضاق لي عن خُلُقك ذَرْع احتمال، ولا أَعْمَلت في غير رضاك وطاعتك حركةَ يمين ولاشمال، فقال له الأسد، أَيها الوزير الصالح حَسُن جزاؤك، كما وَضَح للحق اعتزازُك، ولحقت بالعوالم الشريفة مقوِّماتُك المفضلة وأَخلاقك. قلتَ صواباً واستَوْجَبْت منا ومن المعبود ثواباً، ولو كان شيءٌ في وسع مُلْكنا جَبْره، لبذلنا لك العَزيز، وهان علينا أَمره، لكنَّ التَّحليل على عالم التَّركيب محتُوم، والمصير معلوم، والفراق واني الأَلقاب والرُّسوم.

اسمع فقد أَسْمَعك الصَّوت   إن لم تبادر فهو المَوْت
نل كلما شِئت وعِش ناعما   آخر هذا كله المَوْت

وقد أمرنا لولدِك، ونَقلنا الوزارة من يَدِك، ورَجْونا أَن لا نَعدم حُسن مَقْصِدك من ثقة نَفْسك، وسَليل جَسَدك، وكان النمر جرد قد استكمل الوقوف، واتَّصف بالانقطاع على الحِكمة والعُكوف، مختار الأمانة والفراسة صادقةً فيه أحكام النَّجابة، ومخايلُ

الفراسة، كَلِف بالنَّظر والدِّراسة، كريمُ الطَّبع رحيب الذِّرع طيِّب الأَصْل، سامي الفَرْع، لا تورِده المُعضلات، ولا تُواقف فطنته المُشكلات، ولا تجاذِبه الشَّهوات، ولا تطرُق كماله الهَفَوات، حَان على الرعَّية، دفعتُه لشروط السِّياسة المرعيِّة، قد أُفرغ في قوالب الكَمال جوهرُه، وتطابق مخبره ومظهره، وتفتّق عن كمال العفاف، وحُسْن الأَوصاف زَهْرُه، فاتخذ المُلْك صَنِيعاً تُفضُّ له الأطراف، واستقدم الأشْراف، واستْدعى قَوْمه للجهاد، وطوائفَ النُّساك والزُّهاد، واحتَفَل الوليمة، وأفاض النِّعم العَميمة، واستحضر النمر، وقد تحلَّى بحلية متماسك، وبذل فَرْوة الوزير بعروة الناسك، فأَعلن في المجتمع برضاه عن سيرته، واعترف بنصح جيبه وفضل سريرته، وأعلن بتسويغ أَوْبته وقرّب القُرْبان بين يدي تَوبته، وحَفَّت به أَربابُ الدِّيانة ونُسَّاكها، وقَوَمة الشَّريعة الذين في أيديهم مَلاكها، فرفعوه على رؤُسهم وأَكْتادهم حَذْو معتادهم، وجَهروا حوله بصُحُفهم المحفوظة، وأدْعيتهم المَلْفوظة، ونُسْكهم المجدودة المحظُوطة، حتى أَتوْا به هيكل العبادة، ومحلَّ أصْل النُّسك والزَّهادة، وخدمة الكواكب السَّادة، والمتَشَوِّقين إلى السَّعادة، والمُنْسلخين عن كدرات سوءِ العادة، وقصَده ولده، يستفتح بدعاته العمل، ويَسْتَدلي بوصاياه الأمل، فلما فرغ النِّمر من استقبال مِحْرابه، وقد تجرَّد من العلائق تجرُّد السيف من قرابه، جيءَ الولد لديه، ثم سَجد بين يديه، وقال بعد ما أطْرق، وطَرْفه من الرقة اغْرَوْرَق، أيها المولى الذي قُرنت بحق الباري حُقوقه، فما في المنَعّمين من يفوقه، أوْضَحت لعلَّة إيجادي مذهباً، وكنت لنفسي الجزيَّة بإتصال العقل الكلِّي سبباً، ثم تغلَّبت وكفيت وعند تقاصُر الطباع وفَّيت، ثم داوَيْت من مرض الجهل وشُفَيت وجملت على أفضل العادة، وأظْفَرت اليد بعروة السعادة، وأنا إلى وَصاتك اليوم فقير، ورأيي في جَنْب رأيك حقير، ودعاؤك لي وليٌّ ونصير. وللحظك في تصرُّفاتي القاصرة ناقدٌ وبصير، فأقْبَل عليه بوجه بيَّضه الشيبُ والنُّسك، وأخلاق تَضوَّعُ من أنفاسه المِسْك، وتبسم

تبّسم الذَّهب الإبريز خلَّصه السَّبك، وقال يـا ولـدي الـذي رجوتـهُ لخلَـفِ شخـصي، وتتميم نقصي، وفضل الحكمة عني، وسَتْر الجزء الأرضي مني، طالمـا ابتهلـتُ إلى الله في سَدادك، بعد تخيُّر دعاء وِلادك، واستدْعيتُ حُكَـماءَ الهياكـل المقدَّسـة لإرشـادك، فلـو اسْتَغْنى أَحد عن موعظةٍ تُوقظ من نوم، أو سـداد رأْي يَعْـصم مـن لَـوْم. أو استـشعار مُناصحة تجرُّثَنَا قوم، واستعراض تجربة تُعْلي من سَوْم، لكنت بـذلك خليقـاً. ومـن أَسْرِ الافتقار طليقاً، لكن الإِنسان لما نزيده ذو فاقة، ومتَّصف بافتقار إلى غيره وإِضاقة، وليس له بالانفراد مع كونه مدنيًا من طاقة، ومتى ظن نفسه غير ذلـك فهـي حماقـة. وبحـسَبِ مايحاوله أو يحاوره يكون افتقاره لمن يُفاوضه أو يُشاوره. وقد نُدبت من الوزارة إلى منْزلة لا تطمئن بمن نبذ طاعة الحقَّ وتَقْواه، ورضي عن نفسه واتَّبـع هـواه، فـإن قهـرتَ مـن الشهوة المُردية عدوَّك، وبلَّغت من مِسْكَة الهوى مرجُوَّك، وألِفْت قرارَك في ظِلِّ الحكمـة وهدوَّك، تذلَّل لك امتطاؤُها وتهنَّأَ لك عطاؤها، وطاب فيها خَبَرك وحَسُن عليها أثرك، ولله يَذَرُك، وإلا فَلَسْتَ بأول من هَوى، ورمَّد بعد ما شَوى، وأنا مُوصـيك والله يُبعـدك من الخَطل ويُقصيك، ويبيَّن لك قدر هذه الرتبة بين الأقدار، ثـم جالَـت بعـض شروط الاختيار، ثم خَلَص للوصاة بحسَب الإمكان، في ستَّة أركان، وأسَـل العـالم بفـاقتي إلى سَداد قولك وفِعلك، الغني عن قُدْرتك وحَوْلك، أن يجمع لك من مواهب تَوْفيقه التي لا تُحصر بالعَدّ، ولا تُنال بالكدِّ ما يتكفَّل برضاه عنك، حتى تحبَّ ما أحبَّه لك، وتكره ما كَرِهه منك، وأن يختم مدَّتك المتناهية بأسعد ما انتهت بأسـعد مـا انتهـت إليـه آمالُـك . وتُطاول نحوه سؤالك. فهو حَسْبي ونعم الوكيل.

٢. مقامة بيان قدر رُتبة الوزَارة[1]

اعلم يا ولدي أَن هذه الرُّتبة لمن فَهِم وعَقِل، مُشتقة من الوزير، وهو الثُّقل، لأنها تحمل من عِبء الملك وثُقْله ما تعجز الجبال عن حَمْله، وهي الآلة التي بها يُعمل، وبحسب تباينها يُتباين منها الأنقَص والأَكْمَل، وعصاه التي بها يهشُّ. ويَحْتطب ويحشُّ، ويَلْتَقم ويمِشُّ، ويجمع ويفشُّ، ومخلبه الذي به يُزقُّ الفرخ، ويحرس العش، ومِنْجله الذي يعرف به من يُناصح ومن يَغش، ومرآته التي يرى بها محاسِن وجهه وعيوبَه، وسَمعَه الذي يُتوصل بحاسَّته لمعرفة الأَشخاص المحجُوبة. وإذا فَسد الملك وصلُح الوزير، ربما نَفَعت السِّياسة واستقام التَّدبير، وصلاحُ الأمر بعكس هذه الحال محسُوبٌ من المُحال لأن الواسطة القريبة، ونُكته السياسة الغَريبة، وموقعه من الملك موقع اليَدين من الجسد، اللَّتين في القبض والبَسْط عليهما يُعتمد، وقالوا المَلِكُ طبيبٌ والرَّعية مرضى، والوزير تُعرض عليه شكاياتهم عَرْضا، والنجاح مرتبط بسداد عقله، وصحة نَقْلِه، فإن اختلَّ السَّفير بطُل التدبير. وإذا تقرر وجوب الإمامة ونصُبُها، وعقدها وعَصَبها، وكانت ضرورتها إلى الوزارة هذه هي، ومنزلتُها هذه الصورة، وفي الواجب شرط، ولا يستقيم له بغيرها ضَبْط، كيف لايكون قدرُها خطيراً، ومحلُّها أثيراً، وقول النبي (ﷺ) الذي اصطفاه برسالته وبكلامه، واختصَّه بخصِيصَتَي الكرامة، مع كونه معصوماً بعصمة ربِّه، غنيّا بدفاعه، متأْنساً بقربه، واجعل لي وزيراً من أهلي هَرُون أَخي، اشدُدُ به أَزْرِي، وأَشرِكْه في أمري، دليل على محلِّها من سدِّ القواعد، وإجراء العوايد، وإقامة الشَّواهد، واسْتِدرار الفوايد، ومُدافعة المَكَايد، إلى غير ذلك من الآثار المجلُوَّة، والمحاسن المتلُوَّة، والإشْعار بأَن المَنصِب منصب الأُخوَّة.

---

(١) ورد نصّ المقامة في ريحانة الكُتاب: ٢/ ص٣٤٠-٣٥٤.

فصل: واعلم أن الأوَّلين من حكماءِ يونان في سالف الزمان، كانوا يعرفون وصْل هذه ... [(١)] ويجعلون تعظيمَها من الشرائع والسُّنن، ويتحققون نُجباءَها في المعادن الشَّريفة، والبيوت العَتيقة، والأَحساب المُنيفة، ويختبرون نُصُب الموالد في أَبناء أَهل التَّرشيح، ويَّعنون فيها بالنظر الصحيح، فمن قامت على صلوحه الشَّواهد، وشَهِدت بأهليَّته الموالد، عُيِّن في الأَرزاق قسمُه، وأثبت عند الثِّقات اسمه، ثم يؤخذون بالتَّعليم والدَّراسة، ويُتعاهدون بالآداب تعاهُد الفِراسة، ثم يُعرضون عند التَّرعرع على أهل الفَراسة، فمتى تأكَّد القول ورجُح، وبان في أحدهم الفضل وَوَضح، طُرِح ودرِّب، ومرِّن وجرِّب، ثم استعمل وقرِّب.

فصل: وكان الوزراء يختارون من الجواري للمُباضعة، من ظَهر منها فضلُ التَّمييز، وأَخْلصها الاختيار خلُوص الذهب الإبريز، ولا يغشوهن في سُكْر مُسقط، ولا فرح مُفْرط ولاكسل مُقعد، ولاحِزب مفسد، ولاغضب مُبرق مُوعد. وإذا هم بطلب الولد، استَفْتَى الكاهن في اختيار الوقت الرَّامِق، فلا يطلق له ذلك إلاّ في الأَوقات المختاره، والنّصب الخليقة بتلك الإنارة، وبعده إصلاح القمر والشمس، والكواكب الخَمْس، واستحضار الهيئات النَّابهة، والأشكال المتنافسة المتشابهة، وتقريب القرابين بين يدي الآلهة، ثم يَلقى الجارية، وكلاهما يقول قولا منقولاً عن الصُّحف الموصوفة، والكتب المقدَّسة المعروفة، معناه يامن قَصُرت الأَلباب عن كُنهه، وعَنَت الوجوه لوجهه، قد اجتمعنا على مزج مواد لا نعرف ماتُحدثه منها، ولا ماتُظهره عنها، وتلقَّينا توفيقك من سَعْينا بمقدار المجهود، وأنت ملاذُ الوجود، ومفيضُ السُّجود، وليس تضرُّعنا لك بالمسألة، وابِتْهالنا في رحمتك المستنزلة تَنْبيهاً لأَقدارك المصيبة للسَّداد، الجارية بمصالح العباد، إنما هو بحسب ما نحرز به فضلَ الرَّغبة إِليك، والسؤال لما لَديك، ونحن بحسن

---

(١) هنا بياض في كتاب ريحانة الكتّاب.

اختيارك أوفق منّا بآرائنا، وقضاؤك السَّابق من ورائِنا، فلك الحمد على قضائِك، والشكر على نَعْمائك.

فصل: وكان الوزير فيهم، يُشترط فيه أن يكون قديم النِّعمة، بعيد الهمَّة، مكين الرأفة والرحمة، كريم العَيْب، نقيَّ الجيب، مسدَّد السهم، ثاقب الفهم، واثباً عند الفرصة، واصفاً للقصَّة، مريحاً في الفُصَّة، موفور الأمانة، أصيل الدِّيانة، قاهراً للهوى، مُسْتشعراً للتَّقوى، مشمراً عن السَّاعد الأقوى، جليل القَدْر، رَحيب الصَّدر، مشهور العفَّة، معتدل الكفَّة، حذراً من النقد، صحيح العَقْد، راعياً للهمل، نشطاً للعمل، واصلا للذِّمم، شاكراً للنِّعم، خبيراً بسرّ الأُمم، ذا حَنكة بالدَّخل والخرج، عفيف اللسان والفَرْج، غير مُغْتاب ولا غيَّابة، ولا مَلق ولا هيّابة، مجتزئاً بالبلاغ، مشتغلا عند الفراغ، مؤثراً للصِّدق، صادعاً بالحق، حافظاً للأَسرار، مؤثراً للأبرار، مبايِناً بطبعه لخلُق الأَشْرار، وقد فاق قدر هذه الرُّتبة بين الأَقران، وأَعطى وزانها، والحمد لله، حقَّه عند الاعتبار. ونحن نذكر بعد أركان الوُصاة، ونفرغ لذكر حكمها المُحصاة، وخصولها المستقضاة.

الركن الأول: وهو العَقدْ الذي عليه المعوَّل، فيما يستشعر الوزير بينه وبين نَفْسه، ويجعله هَجيراه في يومه وأَمسه، واعلم أَن المملكة البشريَّة، الخليقة بالافتقار، الحريَّة، لما كان راعيها مركَّباً من أضداد مُتغايرة، وأركان متفاسدة متضارَّة، ويجذبه كل منها إلى طبعه أَخذاً برجاه، مدافعاً بطبعه، لم يكمل حِراسة ما وُكل إليه بنفسه، ولا وفَت بضم منتشرها آلات حسِّه، فاحتاج إلى وزير من جِنْسه، ينوب مهما غاب عن شَخْصه، ويضَّطلع بتتميم نَقْصه، ويتيقَّظ في سهره، ويجدُّ عند لَهْوه، فيحتاج من اتَّصف بهذه الصفة، إلى كمال في الفصل، ورجاحةٍ في المعرفة، يَعْدل بها ما عاصى الملكَ من أُمور مُلكه، ويوفي ما عَجَزَ عنه من نظم سِلكه حتى تبرز المملكة في أَتم صورتها، وتبلغ الكمال

الأخير، بمُقْتَضى ضرورتها، وتَقْوى الله عز وجل أَول ما قدَّمتـه، ثـم تـذليل بيتـك لمـن خَدمته، ومقابلة ثقته بك، بالوفاء الذي سدَّدت إن التَزَمته، وحمل الخاصَّة والعامَّـة عـلى حكم الشَّرع، فإن لم تَبْن على ذلك، هدمته، وأفضل ما وُهب لك فيها قُلِّدْتـه مـن قـلادة، وعوَّدته من عادة وسيادة، شمُولُ الأمن، وعموم الرِّضا، وظهور الأمانة والصِّدق في كل غرض مُقتضى، وحُسْن النية، وطهارة الطّوية، ورعاية الإحسان، وإِفاضة الرأفة في عـالم الإنسان وزيادة الكفاية بحسب الإمكان، واعلم أَن من لا يـضبط نفـسه، وهـي واحـدة لايضبط أَمْرَ الكثير من الناس على تبايُن الأَغراض، وتعدُّد الأَجناس، فاربأْ بنفسك عـما تجرُّه الشهوات من النَّقص وازجُرها عن كَلَف الحرص، وأَلِن بجانبك لمن ظهـر كمالُـه، وقَصُرت به عنه حاله، واعلم أَنَّ بقاء النعم عـلى كَتِـدك[1] مقـصرون ببقائهـا مـن يَـدك، وجَرَيان الأُمور على مذهبك، بحسَب استقامتها بـسَببك، وقـلَ أَن يتهنَّـأَ في هـذا العـالم عمل عارٍ من الملامة، أو سالم مـن التَّجـاوز كـل الـسلامة فلـيكن خطـأك في الإحـسان للإنسان لا في الإِساءَة بالفعل واللِّسان، فقليل الخير ربما تمازَقـت ثمرتـه، وأتـت أُكُلهـا ضِعفين شجرتهُ، وإِذا همَمْت بزوال نعمة عن جانٍ، فـاذكر كـم تُنـال تلـك النعمـة مـن مكان، وفيها من لم يسْتوجب عِقاباً، ولا كَشَف في شرٍّ نِقاباً، وقد قالوا، الأَشراف تُعاقب بالبُجْرَان، ولا تعاقب بالحرمان وربما قالت[2]... حراركن إليها ولم تعلم، ثم تـأَوه لفقـد معروفها وتأَلَّم، فاجعل هذه الذَّرائع مُشْفِعاً في بقائِهـا ودَواعـي لإِجرائِهـا، يتكفَّـل لـك بارئُك بإِحراز السَّلامة، ورفع الملامة، والمثُوبة في القيامة. واستَعمل التواضع في هُبـوب ريحك وتجافَ عن الخِسَّة والنَّجمه بتعريضك وتصريحك فربما خَـشُن جـواب لا يغُـسل طبعه ولايوجد من يُرقعه، ولا يزيله عقاب قابله ولا يرفعُه، سيما فيمن استحقَّ الموت أو

(١) هكذا في ريحانة الكتاب.

(٢) هنا بياض في كتاب ريحانة الكُتّاب.

يتقن الفَوت، وإياك والضَّجر، فإنه يكدر الصَّفو، ويُذهب العفو، ويبقي الفَلْتة الشَّنيعة، ويفسد الصَّنيعة، وقد رَكَل أَبو عباد الوزير رجلا برجله، فرُفع إلى الخليفة من أجله :

قـل للخليفـة يـا ابـن عـم محمـد إشـــكل وزيـــرك أنـــه ركَّـــال

شـكله عــن رَكْـل الرجــال وإن تُــرد مــالاً فعنــد وزيــرك الأمــوال

وتركها مثلا يُذكر، وفَلْتة تُنكر.

فصل: وإذا باشر عيوباً فتبَّع عيوبه دون فُصوله وأَبوابَه دون فـصوله، ولا تـشتغل بفروعه المتشعَّبة عن أُصوله، ثم اصمُد بعدُ إليها، واعطف عليها، ولا تُعن بتفضيله عـن جُملته، فيضيعَ سائرهُ قبل أَناة الوقت ومُهْلته، ولا ترفض عملاً عن وقت يسرُده وينصُّه، فإن لكل وقت عملا يخصُّه، وأَقلُّ ما يلحق من ازدحام الأَعـمال، تطـرُّق الفـساد إِليهـا، والاختلال عند الاستِحثَاث عليها، والاستعجال وضيق المجال، وتهيُّب العمـل مطيـل الزمان، مُنْبٍ عن ضيق الجَنان، ولا تركنَّ في الاستخدام إلى شفاعة غير نفَّاعة، مالم تكـن شفاعةُ الكفاية والأَمانة والرِّعاية، واعلم بأَنَّ من ظهر حُسن صبره، عـلى انتظـام أَمـره، حَسُن صبره على شدائده في حوادث الدهر ومكائده، فالصبر قـدرٌ مـشترك فـيمن أَخـذ وتَرك، والنفس لا تنفكُّ من مُعترك، واعلم أَنَّ الراحة عنـد الحاجـة إلى الحركـة، تُهـدِّئ التعب الضروري لمن أَخذه فيها وتركه، ولا تُغْفِلن شـيئاً تقلَّدتـه، بعـد مـا حَسِبته مـن وظائفك وعدَدْته، فيظن بك من الخروج عن طَبعك الذي جُبلْت عليه، بمقدار ما خرج إليه، ولا تَحْتجب عن الناس، يَفْشو بغضك، ويضعفُ من السياسة فُرصـك، وتكتُّمـك النصيحة سماؤكَ وأَرضك، ولله درُّ القائل:

كــم مــن فتــى تُحمــد أخلاقــه وتـــسكن الأَحـــرار في ذمَّتـــه

قــد كثَّــر الحاجــب أعــداءَه وســلَّط الــذَّم عــلى نعمتـــه

ولا يُعجبنْك ما يظن من مساويك، ولتكن معرفتك بعَيْب نفسك، أوثق عندك من مَدْح أَبناءِ جنسك، وانقِض عن العامَّة، ومن يُلابسها، وامتنع عن التكبّر بمن يُجانسها، ففي طباعها إِهانة الملتبس بإِشْباعها، وتنقص من اتصل برعاعها، واعلم بأَنَّ إِحسانك للحرِّ يحركه على المكافآت المختلفة، وإحسانك إلى الوَغْد يحمله على معاودة المسأَلة، وضَع إحسانك ولسانك حيث وضعهما الرَّأي الصحيح، والاختيار الصَّريح، هذه أَرشدك الله نُقطة من يَم، وقافية من جم، وحَصاة من نُثَير، وقليل من كثير، والنَّبيل من قاس الشيء بنظيره. واستدلَّ على الكثير بيَسِيره، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

الركن الثاني: فيما يستشعره الوزير مع الملك، ليأمن عادية الأمر المرتبك. وإذا خدمتَ ملكاً زاد رأيك على رأيه، وفضل سعيك في التدبير حسن سعيه، فأرِه الاستعانة بمدّ يدك، واقصِر من إشراف جيدك، وأظهر التعجب مما فضّل عليك به، وسِرْ من الحزم على مذهبه، ولا تتبجّح بتجاوزها لأهل طبقتك، وإذا أَنْفقت عنده الكِفاية، فاقصد في نفقتك، فإنه لايُحسن منه مَوْقع قولك أو عملك ويرى أَن تعزُّزك به أكثر من تحمُّلك، فيشرع في كَسْرك ويثيره إلى قسْرك، وإذا تعارَض عندك العجز في مُروُّتك وديانتك وكفايتك وأَمانتك، فبزُّه الكفاية عنده عما يُشِير، وارضَ بالنَّقص في المُروَّة لا في الدِّين فهو عليه أَسهل، وفرقٌ ما بين الحالين لا يُجمل، وإياك أَن يأنس بك فيها إِخلالاً، أو يرى منك فيها إِهمالاً، واحْذَر الإِضرار لديه بالناس في سبيل النصيحة، أو التوفير عليه كما توفّر العامة على أنفسها الشحيحة، وابْتَغ له قلوب الخلق بمُساحتهم فيما قصروا فيه عن يسير الحق، فإنك تَسْتَرخص له بذلك تملُّك الأَحرار، وتَحسيْن الآثار، واترك لشئونه الخاصَّة شئونك، وحرِّك من أحْسَنت إِليه على شكره دُونك، ليقف على أنَّ سعيك له أَكبر من سَعْيك لنفسك، في يومك وأمْسِك، ولا حظَّ لك فيما لا تُمسك، وإياك أَن تُحيَّا بمثل تحيَّتَّه أَو تُلْقى بمثل ما يلقى به عند رؤيته، أو تُرفع بالسلام عليك الأصوات، أو

يسبقُ الناس بابك قبل الملك بالغَدوات فكم جَلَب ذلك من الآفات، وغَيّر من الصفات، وإذا دعاك إلى لهْوه أو شرابه، وخصّك بمزيد اقْترابه، فليكُنْ الإعظام على الالْتِذاذ غالباً، والفكر للحَذَر مراقباً، واجعل التحرُّز منه في أوقات انْبساطه إليك واجباً، ولا تستهز من ذلك بما ليس يبين، وإياك أَن تَنُم بك أَسِرَّةُ وجه، أو نظرةُ عين، واجتنِب لباس ثوبه وركُوبَ مَرْكبه، واستخدام جميع ما يتزيَّن به، فمن خدم السلطان لنباهة الذِّكر، ولباس العزَّة، لم يضرُّه تَقْصير الرِّياش، ولا تعودُ البزَّة، ومن صَحبه للَّذة والترف، كان سريع المُنْصَرف، مَسْلوب الشَّرف وإذا خصَّك بمشورته، وطلب رأيك لضرورته، فلا تخاطبه مخاطبة المرشد لمن استهداه، وأَره حاجتك لما أَبداه. وإذا اعترف بخطإٍ يواقِعُه في بعض أَنظَاره، أو أعلن يوماً بسوء اختياره، فأَجْلِ فكرك في التماس عُذره وتوجيه عارِه، واحتل بفِطْنتك في رَمِّه، واحذر أن توافِقَه على ذمِّه، وذلِّل نيَّتك لكلامك، واصْرِف إلى ترك التَّجاوز جُلِّ اهتمامك، فالكلام إذا طابق نيَّة المتكلم حرَّك نيَّة السَّامع، وإذا صَدَر عن القلب، أَخَذَ من القلب بالمجَامع، وإذا توجَّه إليك عَتْبُه لشُبهة في أمْرك عرضت أو ظِنَّة تعرَّضت، فلا تقبل رضاه عنك تمويهاً، ما لم تَقُم حُجتك فيها، ولاتُسام إلا لامة، وأره أَنك لا تُؤثر الحياة دون براءَة السَّاحة حتى ترتفع الظّنة رأساً، ولا تخشَ من تَبِعة الإحْنَة بأسِاً، ويكون ذلك عنده شاهداً بفضلك، وزايداً له في محلِّك، ولِن له إذا غَضِب، واتَّق الكريهة دونه إن رهب، واصرف لَحْظَك عنه إن أَكَل أو شَرِب، وسُدَّ بينك وبينه باب العِتاب بالمُشافهة أَو الكتاب، ولا تَخَفْ من طاعة الملك إلا ما وافق من طاعة ربهِّ، يضع الله تجلَّتك في ذاته، واذكر قول الوزير المتقدم، وقد أمره الملك المُسَلَّط بقتل رجل، وتلطَّف فسبق له عن ذنبه بما جرَّ عظيم إنكاره وقَطِيع عَتْبه أَيها الملك السَّعيد لو كنت مالِكي وحدَه، لأنفذتُ من غير مُهله أَمرك، وشرحتُ بالامتِثال صَدْرك، ولكنَّك تملك ظاهري وحدَه، ولي من يَمْلكه وما بعده، وإذا أَنْفَذت عهدك، نكَثْت عهدَه، وإذا

خرجتُ من يدك، دخلتُ في يده التي لا تمْنع، فكيف أَصْنَع وله الأَمر أَجْمع، وأَنا لـك في طاعِته من شراك نَعْلك أَطْوَع، فبكى الملك الجاهل لِصدق حجَّتـه وحمَّـل الـرَّجُلين مـن العَفْو على أَوضح محجَّته، وهذا القدر كافٍ لأولي الأَلباب في هذا الباب.

الرُّكن الثالث: فيما يحذره من تقدم الملك عليه في الأمر الذي أُسند إليـه، وجعـل زمامه في يَديْه، واعلم أَن من العـار بارتياضـك، وسـداد أَغْراضِـك أَن يتقـدَّمك الملـكُ بخلق هي أولى بك، وأدخلُ في حِسابك، من الـصَّبر عـلى الملاهـي، والانْقِيـاد للأَوامـر الدِّينية والنَّواهي، وهجر الدَّعة في الضِّيق والسَّعة، وشدَّة اليقظة، والذكر الذي يُعنى بـه الحَفَظة من ذكر إِقطاع، أَو مِقدار ارتِفـاع أواسـم مُرْتـزق، أو حَـصْر عمـلٍ مفـترق، أو التفكير في مصلحة المملكة، فإنَّه إِن راضَ ذلك دونَك وعَلَكه، ونهجه منفـرداً وسَـلَكه، وتميزَّ فيه بالمِلْكة. وسامَحك في التَّقْصير والباع القَصِير، وسرَّه سبقُه إِياك، وتقدُّمه عليـك فيها ولاَّك، فهو مما يحطُّ لديه أَمرَك، ويوهِن قدْرَك، وإن كان غَرَّك ويرى أنـه لا مـؤازرك فيما نابَه، ولا كافي فيها عَرا بابه، وأَمِل مَنابه، واجتهد أَن يراك شَـديد الحـرص، آنفـاً مـن النَّقص، ولا يحسُّ منك في وظيفتك بتقصير، ولا يشعر منك فيه برأي قَصِير.

فصل: واحذر أن تسوِّل لك قُدرة الإمكان ودالَّة السُّلطان، الزيادة في الاسْتكثار مـن الـضِّياع والعَقـار، والجـواهر النَّفيـسة والأَحْجـار، وغـير ذلـك مـن الاحْتِجـان والاحْتِكار، وما تدعو إليه جلالة المحلِّ ونباهة المِقدار، فيتقسَّم فكرُك وشغلك، ويضيع سعيُك وفضلُك، ويُحْصيه عليـك مـن يُـضمر لـك الافـتِراس، ولا يمكِّنُـك مـن كَيْـده الاحْتِراس، ممن حُرِمَ حظُّه، أو وُكس معناه أو لفظُه، ومُتَطلِّع إلى أوفى من وِزَانه، متسامٍ إلى ما وراء إمكانه، أقصرت به السياسة عن شانه، فـأضرم الحـسد نـاره، وأذكـى إواره، وأَعْظم صَغيرك وآثاره، ويتشوَّف إلى مُناهضتك من كان عنها مُقَصِّراً، ويجهـر مـن كـان مستتراً، ويَسْتدعي الارتياب ما جَلبه الحظُّ إليك، والاستظهار به عليك، وطمع الحاسِد

فيما لديك، واحرز مع الملك السُّلغة التي تَقِيك، وتُوسِّدك مهاد الفَضلة وتنمِّيك، وترفع كَلَّك، وتَشْمل أَهْلَك، حتى يعلم أنك بقليل ما يُجريه لك العدلُ لديه، أَغْنَى منه بـالكثير في يَديه، واجتنِب الانهاك في الاسْتِكثار من الوَلد والحَشَم أُولي العـدد، والأذيـال التـي ثَبَتت في أَقطار البلد، فإنَّ الحاسِد يراهم بذخاً ونعمة، وإنما هم مؤونة ونِقمة، وداعيةٌ إلى استهلاك عَتاد، أَو تدبير مُسْتفاد، وإثارة حُساد لهم، وردِّ جاهك، وعليك صـدرُه، ولهـم نفعُ كَدْحك، وعليـك ضررُه، والاقتـصاد في أَمْـرك أدوم لـسلامتك وأَرْفَـع لملامتـك، وأغضّ لطَرف حاسِدك وأصدقُ لفَوائدك، وأَرْوِح لقلْبـك وأَخلِـص فـيما بينـك وبـين ربِّك، وفيما عَثُرت عليه التَّجارب، ووَضحت منـه المـذاهب، أن المتقلِّـل مـن الـوزراء، طويلٌ عُمره، ناجحٌ أَمرهُ، مظفّر بأَعدائه، وأضْداده، قريبُ من الحال المُرْضيه في مِعـاده. ولتكن همَّتك مصروفة إلى اسْتِبراء حال المَمْلكة واعتبارها، وتأمُّل أفكارها، وماعليه كلُّ جزء من أجزائها، من سـداد ثغورهـا ودفـاع أعـدائها، ونقـصان ارتفاعهـا، واخـتلال أوضاعها، أو تدبير مصلحة يَبْقى لك ذكرُها وخبرُها، ويحسن بك أَثرُها، وخفَّ مصارع الدّالة، فهي أَدْوَأُ دائك، وأكبرُ أعدائك. واعلم أنَّ الاقتصاد مع إمكان التَّوْسِعة، والتنزل مع الرّتبة المرتفِعة ينبئ عن قوَّة رأْيك وصـحَّة عزمـك، واسـتقامة سَـعْيك، والرَّغبـة في التَّرف، والميل إلى الشَّرف، دالة على غَلَبة الهوى على الشَّرف، وأَجلُّ ما جُمِّلت به زمانُك، ورفعت شأنك، خدِمة الشَّريعة، وإِحياء وسُومها، وقَمْع البدع، وإزالة شُومها، يذع لك الحمد ويتخلَّد لك المجد. وتولَّ ذلك متى أمكَنك بنفسك، ولاتكِله إلى غيرك من أَبنـاء جنسك، حتى إذا وقِّفْت به على غَميرة يجب تغييرها، ويتعين نكيرهـا، فـارفع إلى الملـك عَيْنها، وقبِّح عنده شَيْنها، ثم حِل بينه وبينها، وأظهر للناس أَن قلقه بها أَهمَّك، أكثرُ مـن قَلقِك، وخلُقه لإنكارها متقدِّمة لخُلِقك، تهْدي إليه بذلك مـا يزيـد في مكانتـك ويُغْـبط بأَمانتك، ويَشْهد بمؤازرتك وإعانتك وحسبنا ، الله ونعم الوكيل.

الرُّكن الرابع: في تصنيف أخلاق الملوك، للسَّير بمقتضاها والسُّلوك، واعلم أن للملوك أَخلاقاً، يفطن الملاطف من خدَّامها إلى استعمالها، فيجعلها أُسَّا للسِّياسة وأَحكامها، وهي أَن الملك لايخلو أَن يكون سَخِياً وباذلاً، أَو مُمسكاً باخلاً، وقوياً على تدبيره أو ضعيفاً، يُلقي المقادة إلى وزيره أو سيّئ الظن من الاسْتِرسال فيه أَو حُسْن البشر عند الافتراض، أو منقبضاً عن الأَعْراض، وإذا تركَّبت هذه الخلال تركيباً طبيعياً، وترتَّبت ترتيباً وضْعِياً، وتقابل امتزاجُها، بلغ إلى ستَّة عشر ازدِواجُها، وتَأتّى للحكيم من الوزراء علاجُها. وربما انحرفت هذه الخُلق أَو توسَّطت، وربما أَفْرَطت، وعلى هذا التَّرتيب ارتبطت. وإن كان سخياً آثر درُور الشكر على تَوْفير قَوافل المال، وكان يُحْسِن الذكر في جميع الأَحوال، وإَن كان بخيلا، فبضدٍّ هذه الحال، وإِن غَلَبت عليه قوة التَّدبير، استَدْعاك إلى المشاركة في سَعْيك، وأَحْرز بذلك عليك الحجّة في رعيك وإِن غلب عليه الضَّعف رَكَن إلى تدبيرك، وفوَّض إِليك الأَمر في قليلك وكثيرك، وخلاَّك ومالا يحمد من عواقب أُمورك. وإِن كان حسن الظَّن تمكَّنت من إِحكام تَدْبيرك لدولِته، وبلَغْت منها أَقاصي مَصْلحته، وإِن كان سَيِّئ الظَّن شَغَلك عن الإخلاص بكلَف الخلاص، وبِإحراز الحجَّة عليه عن التفرّغ الكثير ما يحتاج إِليه. وإِن كان البِشْرُ عليه غالباً، كان لنشاطلك جالباً، فاجعل هذه الأَخلاق أُصولاً ورعْيَك لها موصولا، وصاحِبْه على خُلُقه وعَقْله، وانقل منها بالتلطف ما قَدَرت على نَقْله، واعطِ صُورة من تخدمة ما يُنافس تأْليفها، ويرفع تَكْليفها، وأنفِق ما يُنفق عندها وجار أَخلاقه، واجْتَنب ضدَّها، يحسُن أَثرُك، ويعظُم شأْنك، وينفذ لك سلطانُك.

الرُّكن الخامس: في سِيرته مع من يتطلَّع لهَضْبته، ويُحسده على رُتبته. واعلم أَنه لا يخلو من حَلَّ محلك من علُوِّ القَدْر، وعزَّة الأَمر، عن قرين يعانِدُه، أو حاسِدٍ يكايدُه، أَو مُتطلَّع يمتُّ إلى الملك بقربْى، أَو يمحّل إثافه في اللَّطافة وأَربى يتوهم أَن وَسِيلته تُبلَّغه ما

يَتَطاول إِليه من مَنْزلتك، وتُلْبسه لبـاس تجلّتـك، أَو ذي همَّـةٍ جاحـةٍ ولأَغْنـان الـشرف طامحة، يرى أَن خَطَّه منحوساً، وأَن مِثلَه لايكون مرءُوسـاً، وآخـر ذاك فيهـا مفـتراً فـيما أَثَرْت فيه رضى من حُكم يفضلك، وحُسْن الإِبقا في المملكة يعدلك، واحتمـل المدافعـه حُسْن مَوْقِعك، وجلالة محلَّك، فظنَّ تراخِيك لإِخْلالٍ في التَّـدبير، وإِسـاءة في التَّقـدير، وكلُّهم ينظر إلى المَلِك من أَصْغر جوانبه، ويُخفي عنـه أَكثـر ممـا يظهـرُ مَذاهبـه، ولُطـف المحل، والتقدُّم في العِلم والفَضْل، وان كان يغير من حلَّ محلَّك، وناهض فَضْلك، ليس من الاضطرار أَن يكون لمَنْزلته أَسباباً، ولا لطَلَبه أَبواباً، والحقُّ أَن تجاهَده الجماعة، وتَقْمَع منها الطِّماعة بالزِّيادة في فضَائلك الذَّاتية، والتحرُّز مـن مُلابَـسة الدّنيّـة والمناصـحة لمـن خَصَّك بالمزيَّة ولا تَكْشفِ في المجادة وجهاً، ولا تُبدِ فيهم غَيْبة ولا نَجْهاً، واكْسَر سُـورة حَسَدهم بإِحسانك، وسوَّغهم المعروف من وَجْهك ولِسانك، واصطنع أَضْدادهم ممـن ضلع عليهم ومثل لديهم، تحرس منهم غيبك، وتدافع عيبك، وتجلو ريبك مـن غـير أن يحسّ منك لهذا الغرض بفاقة، ولا يشعر بإِضاقة، فإِنك تنشر معايبهم المطْويَّة، وتَـرْميهم من أَشكالهم بالبليَّة. ثم تتلقَّى بعد ذلـك فَـوارطهم بحُـسْن الإِقالـة وتتغمَّـد سـقطاتهم بالجلالة، وتكرّ بكرم العفو على سوآتهم السوالف، وتخليهم وما بقلوبهم مـن الحَـسَايف فإِن تسلَّط الجاهل على نفسه قصُر عنه من عَدل أَو أَخْطَأَ نيلَه من فَضْل، أعزَّ على حِرمانِه من ظفَر أَعدائه، ولا تَرْكن إلى من وتَرْتـه، ولا إلى مـن حرَّكـت حـسَده وأثرتـه، وخـذ حاشِيتك بترك التَّعالي، والتَّضامن لذوي الشَّرف العالي، والإِقْصار من المطامع وإدالتـك في المَسَامع، ولتتخطَّ العَدْل في الناس إلى الفَضْل، والبِشرْ إلى البَذْل، والقول الـصَّالح إلى الفعل، واختر من تصطنعه لخدمتك، وتُنصبه مَظهراً لنعمتك بنسبة ما شُرط في الاختيار في رُتْبتك، فإِن إحسان الصَّنيعة يرد عنك، سوءَ القالة، وقُبح الإدالة، ويـصُون عِرضـك من الإذالة.

الرُّكن السادس: فيما تُساس به الخاصَّة والبِطانة، وذوُو الدَّالة والمكانة، واعلم أَنَّ من الخاصّة مربض لشدائد الدَّولة ومهمَّاتها، ومتَّسم من أَلقاب الغِنا بأَكْرَم سِماتها، فهو يرى لنفسه اليَدَ واليوم والغَد، وآخرُ متعلقٌ بقرابة من المَلِك وحرمة، أو وَكيد مَيْل وذمَّة، ولِبست حظوظُهم من المُلْك على حسَب قوَّة أسْبابهم، ووَزْن ما في حِسابهم، وإن عَدَلْت خالَفْت مَوافقة الملك، وبايَنْت طُرُقها، والصَّواب التمسُّك بالتَّرتيب على الإِطلاق، ووَضع الناس من المملكة موضعِ الاسْتِحقاق، واستِعمال إرضاءِ المَلِك في تفصيل من أَثره بحسن العَطيَّة، وباينَ بين أَصْناف الشُّفوف، وأَنواع المزيَّة، واعلم أَن مَيْل الأعلام إلى رِفْعة المَنْزلة، أَعظمُ منها إلى الصِّلة، وراعِ أَمْرَ الجماعَة فتمم ما وقع بالمُسْتحق من التَّقصير، بكرَم المواعيد وإلغاء المعاذِير، وأَصْلح قلوبهم للمُلْك بكلِّ ما يتكفَّل بجَبر الكَسِير، واجْذبها إلى طاعتِه بحُسْن أَوْصَافك، وصحَّة رأيك في القَليل والكثير، وانحِلْه فَضايلك من غير شَوْب باطنٍ ولا تَكْدِير، تَصفُ لك سَريرةُ صَدْره، ويأْتمِنك على جميع أَمْره، واحْذر انْصِباب القوم عليك، وإخلالِها بمراكزِها من دَاره، وانْصِرافها إليك، والتِحامها بك، وتمسُّكها دون الملك بأَسْبابك، اعتماداً على نُصرة جَنابك، وقِيامك بأَمْرِها وحُسن مَنابك، وخفْ وَضْعها إِياك من قُلُوبها وعُيونها، وكافَّة شؤونها لايُؤثر الملك رِضاه ولا يُحْمد مُقْتضاه، فربما زَرع لك في قلْبه سُوءُ الطَّوية، وأَثْبَت لك الحِقْد وخُبث النِّية، وخبّأَ لك وأَنت لاتَعلَم أَعْظم البليَّة، ولتمكَّن النفوس أَنَّ رِضاك برضاه مَعْقُود، وأَنَّك لا تعمل إِلاَّ ما رآه. ولا تُؤثر إِلاَّ ما ارْتَضاه، وأَن لك منه مَنزلة محمُودة، ودرجة مَعْقودة، من زادك عليها ظَلمك، وجَلَب أَلَمك، وأَنَّ في قبولك لها وإيثارك، ما يُزْري على فضل اختبارك، وعامِل الملك في وَلَده بحفظ الغَيْبَ، والسَّلامة من الرَّيب، واحْفَظَ له الرَّسم واسْتَبْقه، واجعل حقَّهم دون حقِّه، وإِذا دعَوْتَ لهم فاشرطْ السعادة بخدمته وطاعتِه، واجعل رضاه من الوَلَد رأْسَ بضاعته، واحْذَر من إِهمال هذا العَرض

وإضاعته، وإِياك أَن تفضِّل ولدك ولَدَه، ولا عدَّتك عُدده، ولا تُناقشه في شيءٍ قَصَده، ولا تظهر حاشِيتَك على حاشِيته، ولا تتشبَّه غاشيتُك بغاشيته، ولا تنازعه تجلَّتَه، ولاتَفْخر منزلَتَه، ولا تحل محلَّه من جَيشه، ولا تُغِر عليه في نَباهة بناية، وفَضْل عَيْشه، وتفقّد نفسك، فانزل عن الرُّقي اختياراً قبل أن ينزلك اضطراراً.

فصل: وإذا انصَرفَت إليك من إِحدى حُرمه، رغبةً، أَو تأَكَّدت في مهمٍّ قربة، أَو بَدرَت إِليك شَفاعة، أو توجَّهت في حاجة طاعة، فلا تَسْمع رسالتها، ولا تعْتبر مقالتَّها، إِلاَّ من لسان إنسان موصوف عند المَلِك بإِحسان، حالٍ من يقنه بمكان، واحتَرز في محَاورتها من فَلَتات اللِّسان وهَفواته، وراجع خِطابها مُراجعة الأَخ إلى أَكرَم أخواته، أَو الإِبْن الأَبَرِّ أُمَّهاته، ولا تُصْغِ في مُخاطبتها إلى خُضوع كلام ورقَّة، تحيَّة وسلام، وانفر من ذلك نفرتك من السُّموم الوَحيَّة والمهالك الرديَّة، واسدل دون الوَلد والحُرم جَناح التَّقية، واكتُم سرَّه عن أَبناء جنسك لابل عن نَفسك، واجعل قَلْبك له قبراً، وأوسعه صيانة، وصبراً فإِن تزاحم عليك تزاحُماً تخاف عليه معرَّة النَّسيان وإِغفال ذِكرها على الأَحيان، فاتَّخذ لها رمْزاً يفردك بعلْمها، ولا تُبِح لسواك شيئاً من حُكمها، ولا تُغْفل مع الأَحيان ما جرى به رسمُك من عَرْض كتابٍ وارد، أَو خبر وافِد، أَو بَريدٍ قاصد واسْتأمره فيما جَرَت به العوايد، وإِن خُصَّت لديه منزلتُك، ولطُفت منه، محلَّتُك، فلا تترك أن يمرَّ ذلك على سَمْعه، معتَنياً لرَعْيه، وأَذِقه حلاوة الاسْتِبداد بأمْره ونَهْيه، واترك له مَنْفذاً يحتج له بابه، عند مَغِيبك، كما تحبُّبه العَدْل من نصيبك، ولازِم سدَّته مع الأَحْيان، وإياك أن تجتمع معه على فراغ، فيبقى المُلْك مضيّعاً بمقدار ذلك الزمان، وإذا انْصرفْتَ إلى منزلتك، فاخْتَل بعمّالك وكتَّابك، وذوي الرأْي والنصيحة من أَصحابك، على إِحكام حال الملك الذي ناطَها بك، فإذا أمْسَيت، فاشْغِل طائفة من ليلك بمدارَسَة شيء من حُكم الدين، وأَخْبار الفُضلاء المُهتدين، واجْلِ صَدا نفسك بالبراهين، ومجالسة

العلماء والصالحين، واختم سعيك ببعض صحف النبيين، وأدعية المرسلين والمتألِّهين لتخْتِم يومَك بالطَّهارة والعِفَّة، والحِلم والرأفة، واعتدال الكفَّة ، وليهونَ عليك النَّصَب والوَصَب، والعُمْر المغْتَصَب، إنك مُهتدٍ بهدي ربِّك الذي يرعاك، ويُنْجح مسعاك، ويُثِيبك على ما إليه دَعاك.

قال فلما اسْتَوفى النِّمر مقاله، وأحْرَز الشِّبل سُؤاله، وقرَّر حاله، انصرف متجهاً إلى خِدمته، وَصَرف النِّمر إلى العِبادة وَجْه همَّته، ثم لَحِق بعد ذلك بجوار رَبِّه ورحمته، وقيَّد الحاكي ما أَفادَتْه هذه المُحاورة، لتُلْفى رَسماً يُقتَضى وحِلْماً به يُهتدى إذا ذَهَب الأثر وعَفا، وحسْبُنا الله ونعم الوكيل.

تعقيب:

رسم ابن الخطيب في هاتين المقامتين سياسة لمنصب الوزير ومهام الوزارة. وقد حوت هاتان المقامتان كل ما يتعلق بهذه الرتبه من مسؤوليات، وواجبات.

أجرى ابن الخطيب الحوار في المقامة الأولى على ألسنة الحيوانات، ويظهر الراوية عفواً أثناء ذلك الحوار. وقد بدأ لسان الدين تلك المقامة بالدعاء، وطلب العون من الله عز وجل للذي يأخذ برتبة الوزير.

وبعد أن عدّد ابن الخطيب وصاياه للوزير، التي جعلها صفاتٍ للنمر الذي استوزره الأسد، ختم مقامته بقول مهّد به لمقامته الثانية ، فقال: «وأنا موصيك، والله يبعدك عن الخطر ويقصيك ، ويبيّن لك قدر هذه الرتبة بين الأقدار، ثم جالت بعض شروط الاختيار، ثم خلص للوصاة بحسب الإمكان، في ستة أركان...».

وينتقل ابن الخطيب في المقامة الثانية إلى بيان صفات الوزير وقدراته، وبيان قدر رتبة الوزارة، فيقول: «اعلم ياولدي أن هذه الرتبة لمن فهم وعقل، مشتقة من الوزير،

وهو الثّقل، لأنها تحمل عبء الملك وثقله، ما تعجز الجبال عن حمله... وإذا فسد الملك وصلح الوزير، ربما نفعت السياسة واستقام التدبير، وموقعه من الملك موقع اليدين من الجسد، اللتين في القبض والبسط عليهما يعتمد، وقالوا الملك طبيب، والرعية مرضى، والوزير تعرض عليه شكاياتهم عرضا.... ».

والأرجح أن تكون هاتان المقامتان مقامة واحدة، لكن ابن الخطيب آثر فصلهما، فالأركان الستة التي جاءت مفصّلة في المقامة الثانية كان قد أشار إليها في نهاية المقامة الأولى.

مقامة تفضيل النخلة على الكرمة (١)

لأبي الحسن النُّباهي المالقي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

صلَّى اللهُ على سيّدِنا ومَوْلانا مُحَمَدٍ وآلِهِ وَسَلَّمَ للزاوية الناضرةِ، حَفِظَها اللهُ في السِّرِّ والعلانيةِ، آمين:

قلت أخاطب مَنْ أَجرى مِن السُّراةِ (٢) ذِكرَ العراق، فأَهاجَ للنَّفسِ الشَّعَاعِ (٣) لَواعجَ الأشواق، يا أَيُّها الأخلاّءُ الذين لَهُمْ الصَنائع التي تحسُدُها الغمائمُ، والبدائِع التي تودُّها بدلاً أَزْهارُها الكمائم، بَقيتُمْ وشَمْلُكُمْ جَميع، ورَوْضُ أَمَلِكُمْ مَرِيع (٤)، وكلُّ واحدٍ مِنكم للغريبِ المُعَنَّى مِنْ حَديثِ المُحِبِّ سميع:

بِـأرضِ النَّخْـلِ قلبِـي مُـسْتَهَامُ ... فَكَيْـفَ يَطيـبُ لي عنهـا المُقَـامُ
لِـذاكَ إذا رأيـتُ لهـا شَـبيهًا ... أَقـولُ ومـا يُـصاحُبني مَـلامُ:
«ألا يـا نخلـةً مـن ذات عِـرْق (٥) ... عليـكِ - ورحمـةُ اللهِ - السّلامُ» (٦)

---

(١) اعتمدنا النص المنشور بحوليات الجامعة التونسية (العدد ٢٧، ١٩٨٨، ص ٢٠٧-٢١٨، تحقيق حسناء الطرابلسي).

(٢) السرات والسراة: جمع سريّ: السيد الشريف السخي.

(٣) الشعاع: المتفرق من كل شيء. يقال: طارت نفسه شعاعاً أي تبددت من الخوف ونحوه.

(٤) جميع بمعنى مجتمع، ومريع بمعنى مُمْرِع أي مُخْصِب، يقال أمْرَعَ المكانُ ومُرِعَ فهو مُمْرِعُ ومريعٌ.

(٥) ذات عرق موضع بالحجاز، وهو في الحج ميقات أهل العراق وفارس وخراسان.

(٦) البيت الذي وطأ عليه منشئ المقامة بيتيه المذكورين في القطعة وهو: ألا يا نخلة من ذات عرق ...لعربي هو الأحوص [ت ١٥١ أو ١٥٥ هـ) وقول الأحوص «نخلة» كناية عن المرأة وأصل هذه الكناية أن عمر بن الخطاب كان نهى الشعراء عن ذكر النساء في أشعارهم لما في ذلك من الفضيحة وكان الشعراء يكنون عن النساء بالشجر وغيره.

فسلَمتُ يومًا تسليمَ المَبرّة، على هذِه الشّجرةِ الكريمَةِ البَرَّة، جـارةِ حَـائطِ الـدّار، الواقفةِ للخدمةِ كالمنار، على سُدّةِ(١) الجدار، بَياض النهارِ وسوادَ اللّيل ، المتلفّعة(٢) بشعار(٣) الوقارِ الطاهرة الذَّيْل، أنيسةِ مَشْيخةِ الجماعة، القاطنةِ مـن الحمـراءِ الـساميةِ ببـاب ابـن سَماعة (٤).فحين عطفتُ عليها، وصرفتُ زِمامَ راحلتي إليها، ووقفتُ بازاءِ فنائِها وقوفَ المُشفقِ من فَنَائي وفَنَائِها، وقلتُ لها كيفَ هُـوَ حالُـكِ أَيَّتُهـا الجـارة، الـساكنةُ بنجْـوةِ(٥) الحِجارة، الواعظةُ للقريبِ والبعيد، بمقَامِها وانْ كانتْ صامتةً على الصَّعيد:

سَقَاكِ مِنَ الغُزِّ الغَوادي (٦) مَطيرُها ولا زِلْتِ في خضراءَ غَضَّ نَظِيرُها

فما أَوْلاكِ ورَحَماتِ السميعِ المُجيب، مِنْ باسقةٍ بالتكريمِ والتَّرْجِيب(٧).

خِلْتُها اهْتزّتْ عند النداءِ اهتزازَ السُّرور، وتَمايلتْ أَكْمامُها(٨) تمايُلَ الثَّمِلِ المَسْرور، ثم قالتْ لسائِلها، بلسانِ وسائلها، عندَ مشاهدةِ مِثْلِي:

---

(١) السدة: المكان القريب من المنزل.

(٢) التلفع في اللغة : الاشتمال.

(٣) الشعار: كل مايلي الجسد من الثياب فهو شعار. وشعار الله ما جعله الله تعالى علماً لطاعته ، واحدتها شعيرة.

(٤) باب ابن سماعة هو الباب الكائن بالجانب الغربي من قلعة دار الخلافة بالاندلس....وسماعة رجل مـن مواليهـا، كانـت لِوَلَدِه عبدِ الله خدمة بذلك الباب فكان يكثر من ملازمته فأُضيفَ اليه من أجل ذلك وشُهر به. والحمراء اسم قـد رُسِـمَ لتلك الجهة كلّها.

(٥) النجوة المكان المرتفع الذي تظنه نجاءك.

(٦) الغوادي: المُبرّكاتُ بالمطر من السحاب، أي التي تأتي غدوة.

(٧) الترجيب : في أصل اللغة: التعظيم وترجيب النخلة هو أن يبتنى لها دكان يرفدها من شِقّ المَيْلَ إذا كرَمـت عـلى أهلهـا وخافوا أن تقع وذلك البناء هو الترجيب واسمه الرُّجبة .

(٨) أكمامها : الأكمام في النخل موجودة في موضعين ، فروع النخلة في أكمامٍ من ليفها، وطلعِ النخلـةِ . والكُـمّ مـن النبـات: كل ما التف على شيء وستره ومنه كمائم الزهر وبه شُبِّه كُمُّ الثوب.

تقولُ العربُ: «عَيْنُها فِرَارُها»، [١] وآيةُ وجْدِها للناظرين اصْفِرارُها. وجملة نَجِيَّتِي [٢] بَعْدَ إتمامِ تَحِيَّتِي، أَنَّ الدهرَ عَجَمَ قَنَاتِي [٣]، ومَسَّ الكِبَرُ مَنْعَ سِنَاتِي، وما عَسَى أَنْ أَبُثَّ مِنْ شَكَاتِي وجُلِّ علاَّتي، لَعَمْرُكَ في تركيبِ ذاتي، وأَجِدُ مع ذلك أَنَّ وَقاري، حَسَّنَ لَدَى الحَيِّ احْتِقَاري، وكَثْرَةَ قناعتي، أَثمَرَتْ إِضاعتي، وكَمالَ قَدِّي، أَوْجَبَ قَدِّي [٤]، فما أَنْسَ م [٥] اَلأَشْياءِ لا أَنْسَ عَبثَ مَنْحُوس، مِنْ أُحْبوشِ [٦] اليهودِ أَوِ المَجوس، يَفْحَصُ بمُدْيَتِهِ عَنْ وَرِيدِي، ويَحْرِصُ عَلَى جَبْرِ [٧] جريدي، وَيَجْدَعُ كُلَّ عامٍ بِخِنْجرِهِ أَنْفِي، وكُلَّما رُمْتُ كَفَّ إِذايَتهُ عَلَيَّ كَشَحَ [٨] كَفِّي، فلَوْ رأَيْتُمْ صَعْصَعةَ [٩] أَفْناني، وسَمِعْتُمْ عند جَذْمِ [١٠] بَناني، قعقعةَ جناني، والدَّمْعُ لِمَا جفاني يفيضُ مِنْ أَجْفاني، والعابِثُ المَذْكورُ قد شَدَّ ماجَدَّ بأمْراسِه، وَرَفَعَهُ لِبِيعَة كُفْرِه على رَأسه [١١] هذا بعدَ الذي وَرَدَ مِن وَضْعِهِ عَلَى أَسْنِمَةِ القُبُور،

---

(١) فِرَارُها: الفِرُّ في أصل اللغة: الاختبارُ التامُّ الدالُّ على المتوصلِ به لحقيقة بواطن الأشياء ومنه المثل المشهور وهو قولهم: «عينهُ فِرارهُ» بضم الفاء وكسرها ومعناه: إذا رأيته تفرَّسْت فيه الجود.

(٢) نجيّتي: يقال نجِي ونجيتي بكسر الجيم ومُشدَّدِ الياء أي: مُسَاررة ويقال ذلك للواحد والاثنين والجميع.

(٣) قناتي: يقال: عجم القناة وصدعها ووصَفها بالقوة والضعف: كل ذلك استعارة جارية مجري المثل والغرض بها على الجملة تقرير حالة المُخْبر عنه في نفس السامع بأمر جسمي يتنزل به الصحيحُ منزلة العليل والناقص منزلة الكامل.

(٤) القد المسمى أولا في السجع المراد به القامة والقَد المذكور ثانياً المراد به القطع طولا.

(٥) لاخلاف في جواز حَذف نون«من» في مثل الموضوع المذكور، وقد نص على ذلك غير واحد من النحاة في كتبهم منهم ابن مالك (٦٠١هـ).

(٦) الأحبوش: الجماعة.

(٧) الجبر: القطع.

(٨) كشح: قطع.

(٩) الصعصعة: الاضطراب

(١٠) الجذم: القطع.

(١١) البيعة بكسر الباء هي محل اجتماع اليهود... والبيعُ كنائسُ النصارى واحدتُها بيعة.

حَسبَما ثَبتَ في الحديثِ المَشْهُور:(١) لَحَمَلْتُكُمْ يا بني سامٍ وَحَام (٢)، على الغيرة وَشائجُ(٣) الأرحام، فقد علمتُم الأمْرَ(٤) الذي نَصُّه: أَكْرمُوا عَمَّتكُمْ، وهَبُوها أَنْتُمْ الآن- أعزَّكمُ اللهُ- أَمَتكُمْ(٥)، وإنّي من حيث الشَّكْل وإنْ أَصْبحتُ لكم بمثابةِ وَصيفَة، نظيرة العُذيقِ(٦) المضروب به المثلُ يَوْمَ السقيفة، لِمَنْ رامَ مِنْ أَشرافِ الأنصار أن يكونَ إذّاكَ خليفة، وجَدَّةُ أبي كانت الفيدانةُ(٧) الكبيرة، التي حادثها الأميرُ بالرُّصافةِ الغربيَّة مِنْ كُورَةِ

---

(١) عذاب القبور ثابت بالكتاب والسنة....و [الحديث] مذكور في الصحاح ومتداول على ألسنة الجمهور ففي الحديث، قال: مر النبي (ﷺ) بقبرين يعذبان، إنهما يعذبان في كثير، أما أحدهما فكان لا يستبري من البول أما الآخر فكان يمشي بالنميمة، ثم أخذ جريدة رطبة فشقها بنصفين ثم غرز في كل قبر واحدة فقيل : يارسول الله لم صنعت هذا؟ فقال : لعَلَّه أن يُخفف عنهما ما لم ييبسا.

(٢) سام وحام: ولدا نوح ، سام أبو العرب وحام أبو الحبش.

(٣) الوشائج : الأرحام المشتبكة: المتصلة.

(٤) يشير بذلك إلى الحديث الثابت ... عن النبي (ﷺ) وقد اختلف في سبب تسمية النخلة بالعمة [ومن الأسباب أنها] لا تحمل حتى تلقح كنساء بني آدم . ثبت في صحيح مسلم عن موسى بن طلحة عن أبيه، قال: مررت مع رسول الله (ﷺ) بقوم على رؤوس النخل . فقال ما يصنع هؤلاء؟ فقالوا يلقحونه فيجعلون الذكر في الأنثى فتلقح .

(٥) المقصود هنا... إنما هو تنبيه السامع على ما يجب لمن هو بمنزلة الجارية من الرحمة والرعاية على أقل الحالات، فكيف بمن هو مع ذلك من ذوي الأرحام؟.

٦ العذق بكسر العين: العنقود الكبير من النخل أو العنب وقيل: غصن له شعب والعذيق هو تصغير عَذق بالفتح وهو النخلة نفسها.

(٧) تاريخ الفيدانة المنبّه عليه نقلهُ غيرُ واحد منهم: أبو القاسم بن بشكوال في صلته فقال ما نصه: قال أبو بكر بن موسى ابن فتح، دخلت يوما على أبي عثمان وهو يُعَلِّقُ فقلت له : رأيتُ الساعة في توجُّهي إليك القاضي والوزراءَ والحكام والعُدول بأجمعهم إلى حيازة الجنة المعروفة بدنبالس وهبها هشام للمُظفر بن أبي عامر قال لي : إنّ هشامنا لضعيف ، هذه الجنة المذكورة هي أصل اتخذه عبد الرحمن بنُ معاوية وكان فيها نخلة أدركْتُها بسني ومنها توالدت كل نخلةٍ بالأندلس، قال: وفي ذلك يقول عبد الرحمن بن معاوية وقد تنزه إليها ورأى تلك النخلة فحَنّ:

يا نَخلَ أنتِ غريبةٌ مثلي ... في الغرب نائيةٌ عن الأصل
فابكي وهل تبكي مُكمّمَة ... عجماءُ لم تُطْبَعْ على خَتْل
لو أنها تبكي إذن لبكت ... ماءَ الفراتِ ومنبتَ النَّخْلِ
لكنها ذهِلتْ وأذهلني ... بعضُ بني العبّاس عن أصل

... والفيدانةُ التي حادثها الأمير هي النخلة.

أَلْبِيرة[١]، فكيف يَسْهُلُ عليكمُ إهمالي ، ويَجْمُـل لَـدَيْكُمْ إخمـالي، وتَـرْكُ احْـتمالي، والأيـامُ بحَمْدِ الله مُساعِدَة، والمُلْكُ مُلْكُ بَنِي سَاعِدةِ[٢].

فلمّا سمعتُ عِتابَها، وعلمتُ أنها، قد شدَّتْ للمُساجلةِ[٣] أَقْتابَها[٤]. قلت لهـا: أَهْـلا بِكِ وَسَهْلاً، ومَهْلاً عليكِ ثمَّ مَهْلاَ، لقد دَهْمَجَ[٥] بعيرُك، وعادت بالخَيْبة عِيرُك، فليـستِ الحقيقةُ كالمجاز، والفرْقُ حاصلُ بين الصُّدور والأعجاز، ولغةِ بني تميم والحجـاز. هُنـا جنّةٌ مِنْ أَعْناب، مُرْسلةُ الذيول مُذلَّلةُ الأطْناب[٦]، قد طاب إِشْتِيارُها[٧] وحُمِـدَ اخْتِيَارُهـا، وعَذُبَتْ عُيونُ أَنهارها، وتفتَّحَتْ كمائِمُ أَزْهارِها، عنْ وَرْدِها ونَرْجِسِها وبَهَارِها، وسَرَتْ بِطُرَفِ محاسِنِها الرِّفاق، حتىَّ قَلقَـتْ منهـا الـشَّامُ والـيَمَنُ والعِـرَاق. قُطُوفُهـا[٨] دانيـة، وأَرْزاقُها مُتوالِيَةٌ لا مُتَوانية.

---

(١) ألبيرة اسم أعجمي للقاعدة المنسوبة إليها الكورة وهي البلدة التي انتقلت عمارتها إلى غرناطة بعد وفاة المنصور بـن أبي عامر أيام ابتداء الفتنة البربرية... وألبيرة أيضاً قلعة منيعة على ريف الفرات من ناحية العراق، كريمة البقعة وبينها وبين مدينة حلب نحو مائةِ ميل.

(٢) بنو ساعدة: هم ولد الخزرج بن ساعدة وسقيفتهم إلى الآن بالمدينة الشريفة معروفة، وهو جَدُّ الملوك ، ملـوك الأنـدلس من بني نصر.

(٣) المساجلة: مقابلة المستقي الماء على البئر في الاستقاء بالدلو ومنه قولهم: الحرب سِجال –بالكسر– أي مرة لهؤلاء ومـرة على هؤلاء.

(٤) أقتابها: جمع قتب بكسر القاف وهي حواشي البطن ومصارينه وأمعاؤه، وعادةُ من تهيأ لأمـر مهـم أن يجمـع لـه نفسه ويستبدل لباسه ويحترم بها أمكنه ، والقصد بتلك الكلمات الكناية عـن بعـض مـا لـدى النخلـة المـذكورة مـن الانفعـال والمسارعة للجدال على جهة الاستعارة.

(٥) دهمج بعيرك : قال أبو علي في أماليه: يقال للبعير إذا قارب الخطو وأسرع: بعيرك دهابج ودهامج، وقـد دهمـج يـدهمج دهمجة . والبعير : الجمل والناقة .

(٦) مذللة الأطناب: التّذليل في الأشجار هو أن تطييب الثمرة فتنزل وتنعكس نحو الأرض.

(٧) الاشتيار : الاستخراج من أَشَرْتُ العسل وشرتّه وشرَت الدابة إذا استخرجت جريها.

(٨) القطوف : جمع قطف وهو العنقود من النخل والعنب ونحوهِ.

فعندما كَثُرَ خَيْرُها ، هُجِرَ بالضرورة غيرُها، وأنتِ لا كُنْتِ ياخَشَبة(١)، وقد صِرْت مِن الكِبر(٢) عَشَبة(٣)، لا يُجتنَى بَلْحُكِ ولا طَلْعُك، ولا يُرتجى نفعُكِ، فالأوْلى قطْعك أو قَلْعُك، وإلاَّ فأينَ قِنُوك أو صنْوُك(٤)، وتمرك أو بسْرُك، هلاَّ أبْقَيْتِ يا فَسِيلة(٥) على نَفْسك، ورَعيتِ ما بَقِيتِ مَصْلَحَةَ جِنْسِك، فلقد انْتَهتْ بكِ المُحاجّة إلى ارْتكابِ مالا يَجوز، وفي عِلمِكَ أنَّ مِنْ أمثال الحُكماءِ، «أهْونُ هالكٍ عَجوز»، حَسْبُكِ السَّمحُ لكِ بالمُقام، ما دُمْتِ حَيَّةً في هذا المَقَام.

فانْقطعَ كلامُها، وارتفعَ بحُكمِ العجزِ مَلامُها، وما كان الاّ أنْ نُقِلَ مقالِي، فقال المتكلِّم بلسان القالي(٦): أنا أتطوعُ بالجواب، وعلى الله جَزِيلُ الثواب، لِيَعْلمْ كلُّ سائِل، أنَّ تَفْضِيلَ النّخِيل على العِنَب مِنَ المَسائِل، التي لا يَسَعُ فِيهَا جَحْدُ جَاحِد، وإنْ كانا أخوينِ سُقِيا بماءٍ وَاحِد(٧): وقد جرى مِثْلُ هذا الخِطاب، بيْنَ يديْ عُمَرِ بنِ الخَطّاب، فقال لأبِي حَشَمَة(٨): أيُّهما أطيَبُ، الرُّطَب أم العِنَب،

(١) خشبة: مفرد الخشب: والخشب: الشّجر المقطوع ، وهو مثل يتمثل به في معرض التوبيخ للمخاطب والتجهيل له.

(٢) من الهزال.

(٣) غشبة : لفظ منقول من أئمة اللغة. ففي الأمالي ما نصه: «يقال للرجل إذا يبس من الهزال: ما هو إلاّ عشبة وكذلك يقال للكبير الذي ذهب لحمه».

(٤) القِنو: العِذْق – بكسر العين– الذي يقال له الكناسة والعرجون عُوده الذي ينتظم فيه التمر وهو القِنى أيضا مقصور

(٥) الفسيلة: النخلة الصغيرة والفسيل أيضاً : صغار الشجر.

(٦) القالي: هو أبو علي البغدادي، ولد سنة ٢٨٨هـ،وتوفي سنة ٣٥٦ هـ.

(٧) قوله: وإنْ كانا أخوين سقيا بماء واحد: إشارة الى الاعتبار بقوله تعالى: ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الرعد ٤].

(٨) أبو حشمة ولعلها حثمة: اختلف الناس في اسمه فقيل: عبيد الله بن ساعدة وعبد الله بن ساعدة بن عامر بن عدي. وحكاية سؤال أبي حشمة عن الرطب وردت بألفاظ مختلفة، ونص ما في النوادر منها عن الربيع قال: ذكروا عن عمر بن الخطاب أيها أفضل الرطب أم العنب فقال: ليس كالصَّقْر في رؤوس الرقْل والراسخات في الوَحَل ....ونزلِ مريم بنت عمران، وينضج ولا يُعنى طابِخه ويحترش به الضب من الصلعاء: ليس كالزبيب إن أكلته ضرست، وإن تركته غرثت.. يحترش: يصاد، والصلعاء: الأرض التي لا نبات فيها.

فقال: ليس كالصَّقْرِ في رُؤوس الرّقْل[1]، الراسخاتِ في الوَحْل، المُطْعِماتِ في المحْل، تُحْفةِ الصّائِم، وتَعَلَّةِ[2] الصّبِيِّ القادم، ونُزْلِ[3] مَرْيَمَ بِنْتِ عِمْرَان، والنَّخلةُ هِيِ الشُّجَرةُ التي مُثِّلَ بها المُؤْمنُ مِنَ الإنسان، ليسَ كالزَّبيبِ الذي إذا أَكَلْته ضَرِسْت، واذا تَركْتهُ غَرِثْت، ولِفائِدَة الرِّوايةِ حُجَة، لِمَنْ أرادَ سُلوكَ المَحَجَّة[4]، وعلى كلِّ تَقْديرِ فقد لَزِمَ التفضيلُ للنّخلْةِ على الكرْمة لُزُومَ الصِّلةِ للمَوْصُول، والنَّصْبِ للْمُنَادى المطُول[5]، والفَخْرِ لِكِتَابِيْ «المحصَّل» و «المحصول»[6] وكمْ على تَرْجيح ذلك مِنْ قياسٍ صَحِيح، ونَقْلٍ ثابِتٍ صَريح. قال: واعْتِذارُكُمْ بالمَهْرَمَة، عَنْ فِعْلِ المَكْرُمة، لأَمَةُ في الطِّباعِ كامِنةً، وشامَةٌ للتَّلف لا لِلْخَلَف ضامِنةَ[7]. وَذكَرْتُم التَّمْرَة والبُسْرة، والوقتُ ليس بوَقْتِ عَصْرَة، فإذا ذكرتُم قول القائل، في بعض المسائل: دَعْنَا مِنْ تمرتانِ وبسرتان، أَوْ تمرَتَيْنْ وبُسْرتين. وفي التَّحدّث بذلك أَدِلةُ صِدْقِ على تطلّع النفس الفقيرة

---

(١) الصَّقْر: الدبس بلغة أهل الحجاز: قال الحريري في تفسيره. الصَّقر : الدّبس وهو عسل بالتمر. وقال أبو علي في أماليه: ويقولون: رُطب صَقر مَقر، والصّقر : الكثير الصّقر وصقره: عسله. والمقر: المنقور في العسل وكل شيء أنقعته في شيء فقد مَقَرتهُ....قال: والرّقل : الطّوال من النخل واحدتها رَقَلة.

(٢) تعِلّة الصبيَ القادم أي قدر ما يعلل به نفسه: يُشير الى تحنيك المولود بالتمر عند ولادته وفيه دليل على تفضيل التمر.

(٣) النُّزْل : ما ينساغ من الطعام وقيل : طعام قليل النُّزْل إذا كان لا ينساغ ولا يُنال: النُّزول أيضا: الربع: يقال: أخذ القوم نزلهم أي ما تجري عاداتهم بأخذه مما ينزلون به ويصلح عيشهم به وهو مأخوذ من النزول.

(٤) المحجة عند أئمة اللغة : الطريق المسلوكة قريبة كانت أو بعيدة وكذلك البلاطُ.

(٥)تفضيل النخل على العنب صحيح بنص الكتاب ، وإجماع فضلاء الأئمة...ونصب المطول وهو المُطَوَّل لمشابهته بالمضاف.

(٦) الفخر لكتابي «المحصّل» و«المحصول»، يريد فخر الدين الرازي (ت ٦٠٦هـ) ومن مصنّفاته: «المحصّل» و «المحصول»، وله الفخر بهما ولهما به.

(٧) قوله: «واعتذاركم بالمهرمة ..... لا للخَلَف ضامنة». يشير بذلك إلى ما ثبت في الصحيح من حديث سعد بن يسار عن أبي هريرة أن رسول الله (ﷺ) قال: ما من يوْمٍ يصبح العبادُ فيه الاّ مَلَكانِ ينزلان فيقول أحدُهما: اللهم أعطِ مُنْفقًا خَلَفا ويقول الآخر: اللهم أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفا. والمَهْرَمَة : بلوغُ أقصى العُمر، مِنْ هَرِمَ، يَهْرمُ .

للأغراض التافهة الحقيرة، والخِلافَة السامية العظمى، التي تعلَّقَتْ هذه النّخلةُ منها بالجَنابِ الأحمى، أَجْمَلُ مِنْ أن تَلْحَظَ بعَينْ كَمالها تلك الملاحِظ، ولو أَصَّلها لديه بِبَيانِه[١] عمْرو بنُ بحرِ الجاحظ ، إذْ هِي – شَكَرَ اللهُ تعالى فضْلها، ولا قلَّصَ ظلَّها- كالسّحاب تجودُ بِغَيْثها حتى على الآكامِ والضِّراب[٢]، وليس يَضيعُ مع جَميلِ نَظَرها ذُو حَسَب، ولا يُجْهَل في أَيَّامِها السّعيدة مِقْدارُ مُنْتَسِبٍ إلى جُرْثُومَةِ نَسَب، والمطلوبُ منها[٣] لِهذهِ الشّجرةِ الشَّمَّاء، التي أَصْلُها ثابتٌ وفَرْعُها في السَّماء[٤]، إنما هو يسيرُ بِناَء، وظهيرُ اعْتِناء، وخَمْجدِيرُماء[٥]، لعلَّ عَبَاسَةَ أديمِ دَوِّها أَنْ تَذْهب، وأَكْمامَ كَباسةِ قِنْوها أَنْ تُفَضَّضَ بنَعيم النَّضارةِ ثُمَّ تُذَهَّب[٦]، فيعود إليها شرخُ شبابها، وتَسْتحْكِمَ حُمْرَةُ نِقابِها، وذلِكَ كُلُّه بمَنِّ العليمِ الخَبير، من أسْهَلِ العمل على فضلِ الأمير، ونُصْحِ الوَزير، إذْ هُما على بَيِّنَةٍ مِنْ أنَّ الإحْسان أَلْقاحٌ والشُّكْرَ نتاجه، والمعْروفَ لِلسعادةِ طَريقٌ لا يُسَدُّ رِتاجُه[٧].

---

(١) المقصود كتاب البيان والتبين للجاحظ.

(٢) الأكام دون الجبال وأعلى من الرَّابية. والضِّراب: الروابي الصِّغار واحدها ضَرْب.

(٣) الضمير في منها يعود على الإمامة العظمى.

(٤) الشجرة الشماء هي النخلة . وهذا الفصل كله مأخوذ من قوله تعالى : +أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾" [٢٥-٢٦ سورة ابراهيم] الشجرة الطيبة هي النخلة في قول أكثر المتأولين.

(٥) الخمجدير : الماء الذي ليس بعذب خاصة. قال ابن الأعرابي . وفي النوادر : الخنجدير : بالنون بعد الخاء إذا كان ثقيلا أيضا.

(٦) الأديم: الجلد المدبوغ ويُستعار فيقال في وجه الأرض وغيرها. وعبس ، يعبس عبوسا إذا غضب. وأما الدّوّ فالمستوي من الأرض. والكَبسُ بفتح الكاف نوع الثمر طيّب.

(٧) الرِّتاج في اللغة هو الباب نفسه.

قال المحدث: ومن يا إخْوَتي لِعَليّ ، بمُعارضةِ الحافظِ أَبي عَليّ[١]، ولـو أنّي أمـسيتُ بمنزلةِ النَّضرِ بَنِ شُمَيْل[٢]، وأصبحتُ أَفْصَحَ من عامِرِ بْنِ طُفَيل[٣]، وكنـت أخطـبَ مـن شبيب[٤]، وأشعرَ من حبيب[٥]، وأحكَمَ مِنْ أكثم[٦] وعَمْرِو بْنِ الأَهْتم[٧]، وعلى أنّه ما قـال إلاّ حقّا، فبُعْدًا للمِراء وسُحْقا، ولكِنَّني أُقسمُ عليكم بمقدّر الضياء والحلـك، ومُـسَخّر نجوم الفَلَك، ياصُيَّابَةَ[٨] الأعْراب، وأُصَيْحَابَ الإغْراب، وأربابَ فُنونِ الإعْراب، إلاّ ما تأملْتُمْ فصولَ هذِه المَقالة، وأفْتيتم بما يترجَّعُ فيها مِنْ إجازةٍ أو إقالةَ، فأنتمْ علماءُ الكلام، وزُعماءُ كتائبِ الأقلام، والمراجعةُ بين الإخوان شِنْشنةٌ[٩] معروفة ، وطريقةٌ إليها الوُجـوهُ في كثيرٍ مِنَ المُخاطباتِ مَصْروفة، لازلْتُمْ مَذْكُورينَ بالتَّقدُّم في أَهْلِ البيان، مَشْكُورينَ على بذلِ الفَضلِ مدى الأحْيان، واللهُ سُبحانه يَجعلُ التوفيقَ حاديكُمْ ونـورَ العِلْـم هَـاديكُمْ، ومنه جَلَّ اسْمُه نَسأَلُ لي ولَكُم التطهير من كُلِّ مَعابَة، والسَّمْحَ فيما تخلَّلَ هذهِ المقامَة مِـنْ دُعَابَة، والتّحيَّةُ الكريمةُ مع السلام الطيّب المُعاد، على من يَقفُ عليها مِـنَ الآن إلى يـومِ المَعاد، والرحماتُ والبركاتُ.

---

(١) علي الأول : هو صاحب المقامة. وأبو علي: القالي وقد تقدم التعريف به.

(٢) النضر بن شميل: هو النضر بن شميل بن خَرَشة : أحد الأعلام بمعرفة أيام العرب ورواية الحديث وفقه اللغة.

(٣) عامر بن طفيل : أحد فتّاك العرب وشعرائهم وساداتهم في الجاهلية.

(٤) شبيب: هو ابن شيبة (ت١٧٠هـ)، أحد الخطباء والبلغاء، كان يقال له الخطيب لفصاحته.

(٥) حبيب : هو حبيب بن أوس الطائي المعروف بأبي تمام (١٩٠هـ - ٢٣١هـ) من فحول الشعراء العباسيين..

(٦) أكثم : هو أكثم بن صيفي (ت٩ هـ) أحكم حكماء العرب في الجاهلية.

(٧) عمرو بن الأهتم (ت ٥٧ هـ) هو الرجل الذي قال فيه الرسول (ﷺ) « إنّ من البيـان لَـسِحْرا» في خـبره المشهور مـع الزِّبرِقان بن بدر. وكان عمر بن الأهتم هذا شاعر مفلقا له قصائد عديدة .

(٨) الصُّيابة: صميم القوم وخالصهم.

(٩) الشّنشنة: الخُلق والطَّبيعة.

تعقيب:

إنّ الذي حدا بنا إلى إثباتِ نصّ هذه المقامة يتلخص في أسباب ثلاثة:

أولها: أنها غير معروفة رغم أن نصّها مطبوع، وذلك أن الطبعة لم تذكر فيها كلمة المقامة، فقد أوردها لسان الدين بن الخطيب في كتاب «الإحاطة» دون عنوان أو تنبيه على أنها مقامة، مكتفياً بالتقديم لها بقوله: «من أمثل ما صدر عنه في غرض غريب، وهو وصف نخلة بإزاء باب الحمراء».(١) ويبدو أن الدارسين لم ينتبهوا إلى أنّ هذا الفصل هو المقامة التي كتبها النباهي في تفضيل النخلة على الكرمة، فلذلك بقيت في عداد المخطوطات. ولما أتيح لنصّ المقامة هذا التحقيق العلمي الدقيق الذي نشر في حوليات الجامعة التونسية، رأيت أنه من الأفضل إثبات نصّ هذه المقامة ضمن نصوص المقامات الأندلسية الأخرى، كي يفيد مها الباحثون والدارسون، الذين قد لا يتيسّر لهم العودة إلى ذلك العدد من الحوليات الذي نشرت فيه المقامة.

وثانيها: أنّ الكثيرين ممن درسوا النثر الأندلسي بعامة، ودارسي المقامات الأندلسية بخاصة اكتفوا بذكر اسمها، دون إيراد نصّها، أو ذكر شيء عن مضمونها.

أمّا **ثالثها** فهو أنه وقع خلط عند الباحثين في اسمها وموضوعها، فالدكتور إحسان عباس سمّاها «المقامات النخلية»(٢)، والصواب أنها مقامة واحدة. وذكر أحد الدراسين أنّ اسمها « الإكليل في تفضيل النخيل»(٣)، وهذا هو عنوان الشرح الملحق بالمقامة وليس عنوان المقامة(٤)، أمّا ليفي بروفنسال فقد ذهب إلى أنّ موضوع المقامة مفاخرة بين نخلة وشجرة تين(٥)، وفي هذا وهم واضح، فلا نجد ذكراً لشجرة التين في هذه المقامة.

---

(١) الإحاطة: ٤/ ص٩٥، وانظر نص المقامة فيه ص٩٥- ١٠٠.

(٢) تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين) : ص ٣٠٧.

(٣)د. قصي الحسيني : فن المقامات بالأندلس : ص٤١.

(٤) حوليات الجامعة التونسية، العدد ٢٧، ١٩٨٨، ص ٢٠٤.

(٥) تاريخ قضاة الأندلس : (مقدمة المحقق: ط).

تحليل المقامة:[1]

استهل المؤلف مقامته بمقدمة ذكر فيها الدافع النفسي الذي دفعه إلى كتابتها، وهو الحنين إلى العراق والتعلق الروحي به. ثم انتقل إلى مخاطبة النخلة مسلّما عليها، ممجّدالها، وعقّب بنقل جواب النخلة كما تخيّله، ثم ردّ عليها بتعديد محاسن الكرمة، وجاء بعد ذلك جواب الكاتب على لسان أبي علي القالي في الدفاع عن النخلة، وختم بالتصريح بعجزه عن معارضة القالي، وإقراره بفضل النخلة على الكرمة.

وقد تميّزت هذه المقامة بطرافة موضوعها، إذ تضمّنت تشخيصاً للنخلة ومناجاتها ومحاورتها مما جعل الحديث عن تفضيل النخلة على الكرمة لا يرد في أسلوب تقريري جافّ، بل في أسلوب أدبي يؤدي فيه الرمز دوراً مُهمّاً. فالنخلة رمز المشرق والكرمة رمز المغرب، والنخلة رمز الإسلام والكرمة رمز سواه من الأديان. ومن أجل ذلك كانت الحجج التي اعتمدها الكاتب في تفضيل النخلة على الكرمة حججاً دينية فقهية، كما أنه ربط تاريخ دخول النخلة إلى الأندلس بتاريخ دخول بني أمية إليها.

ولقد غلب التفكير الفقهي على النزعة الأدبية في هذا النص، لأن ذلك يعود إلى غلبة التكوين الفقهي على المؤلف، فهو أديب ومؤرخ، ولكنه أيضاً فقيه وقاضٍ، لذلك كانت لغة المقامة لغة فقيه في مستوى المفردات والمفاهيم، وفي مستوى الأدلة والحجج وحتى في أسلوب الكتابه، الذي يذكرنا بالخطب الدينية التقليدية.

والمقامة تخضع للسجع من أول فقرة إلى آخر فقرة فيها، وكثيراً ما نجد اختلافاً في طول الفقرات، وقد غلبت النزعة الذهنية على أسلوب الكاتب فيها فقلّ حظها من الجمال الفني.

---

(١) لمزيد من التفصيل انظر : حوليات الجامعة التونسية، العدد ٢٧، ص٢٠٥ – ٢٠٧ ، ١٩٨٨، تونس.

وإذا لم يَسْمُ الكاتب بمقامته إلى مستوى فنّي رفيع، فإنه يبقى لهذا النص المقاميّ قيمة من ناحية وثائقية، فقد أبرز الكاتب أهمية النخلة في الإسلام، محتجّاً ببعض ما أثر عن الرسول (ﷺ) من أقوال، وما قاله العرب فيها من أمثال، كما أبرز قيمتها بالنسبة إلى أهل الأندلس، إذ هي رمز صلتهم الروحية بالمشرق، وعامل من عوامل ذلك الحنين المتواصل في نفوسهم إليه. فهذه المقامة تبقى ذات طابع أندلسي، رغم أن الدافع إلى كتابتها لا يخرج عن التعلق بالمشرق والحنين إليه.

ولا بأس في الإشارة هنا إلى أنّ صاحب هذه المقامة أتبع مقامته بشرح لها وسمه بـ «الإكليل في فضل النخيل»، وهو شرح يقوم على منهج لغوي فقهي[1].

---

[1] انظر وصفاً لهذا الشرح في حوليات الجامعة التونسية، العدد٢٧، ١٩٨٨، ص٢٠٣.

مقامتان للفقيه عمر الزجّال

١ - مقامة تسريح النصال إلى مقاتل الفصّال[1]

يا عمادَ السّالكين، وَمحَطَّ رِحال المستفيدين والمتبرِّكين، وثِمالَ الضعفاء والمساكين والمتروكين، في طريقتك يتنافس المتنافس، وعلى أعطافك تُزهى العباءاتُ وتروقُ الدّلافس[2]، وبكتابك تحيا جوامدُ الأفهام، وبمذَبَّتك تُشرد ذُبابُ الأوهام، وفي زِنْبيلك[3] يُدسّ التالدُ والطارفُ، وبعصاك يُهش على بدائع المعارف، اللهَ اللهَ في سالِك، ضاقت عليه المسالك، وشادٍ، رُمي بالبعاد، أدركته متاعب الحرفة[4]، وأقيم من صفّ أهل الصُّفة، فلا يجد نشاطاً على ما يتعاطى، ولا يلقى اغتباطا، وإنْ حَلّ زاوية أو نزل رباطا، أُقصِيَ عن أهل القرب والتخصيص، وابتلي بمثل حالة بَرْصيص[5]، فأُحيل عليك، وتوقفتْ إقالته على توبةٍ بين يديك، فكاتَبَك استدعاء، واستوهب منك هداية ودعاء، ليسير على ما سوّيت، ويتحملَ عنك أشتاتَ ما رَويَتْ، فيلقى الأكفاء الظُّرفاء عزيزاً، ويباهي بك كلَّ من خاطبك مُستجيزاً، فاصرف إليّ مُحيَّا الرِّضا، وأَعِد من إيناسك العهدَ الذي مضى، ولا تلقني مُعْرضاً ولا مُعرِّضاً، وأَصْغِ إليَّ سمعك كما قدّر اللهُ تعالى وقضى:

---

(١) انظر نصّ المقامة في أزهار الرياض: ١/ ص ١١٧ - ١٢٤، ونفح الطّيب: ٥/ ص٤٠-٤٦.

(٢) الدلافس: جمع دِلفاس، نوع من اللباس خشن كالعباءة إلاّ أنه قصير، يلبسه الصوفية والفقراء.

(٣) الزنبيل: القفّة ، الجمعَ زنابيل.

(٤) الحرفة: (بالضم والكسر) : الحرمان. وأهل الصّفة: قوم من فقراء المهاجرين كانوا يأوون إلى صفّة المسجد في عهد الرسول عليه السلام، لأنه لا مأوى لهم غيرها.

(٥) بَرصيص: كان من عبّاد بني إسرائيل، ثم فتنه الشيطان، وقصته مشهورة تذكر عند تفسير قوله تعالى +كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر"

تعالَ نجددها طريقة ساسانِ[١] ... نَعَضُّ عليها ما توالى الجديدانِ
ونصرفْ إليها من مُثار عَزائمٍ ... ونَحلف عليها من مؤكَّد أَيْمان
ونعقدْ على حُكم الوفاء هواءنا ... لنأمنَ مِنْ أقوال زُور وبُهتان
ونقسمْ على ألاّ نصدّقَ واشياً ... يروح ويغدو بين إثمٍ وعُدوان
يطوف حوالينا ليفسد بيننا ... بمنطق إنسان وخُدعة شيطان
على أننا من عالم كلّما بدا ... تعوّذ منه عالَمُ الإنس والجان
وحاشاك أن تُلفى عن الصلح مُعرِضاً ... إلى الصلح آلت حرب عبس وذبيان
وإنّي أَهَمّتني شئونٌ كثيرةٌ ... وصُلحك أولى ما أُقدِّم من شاني
فأنت إمامي إن كَلِفتُ بمذهبٍ ... وأنت دليلي إنْ صدعتُ ببُرهان
سأرعاك في أهل العباءات كلّها ... رأيتك في أهل الطيالس ترعاني
ويا لابسي تلك العباءات إنّها ... لباسُ إمام في الطريقة دِهقان
تفرّقتِ الألوانُ منها إشارةً ... بأنك تأتي من حِلاك بألوان
ويا بأبي الفضّالُ شيخُ طريقةٍ ... خَلوبٌ لألباب لعوبٌ بأذهان
إذا جاء في الثّوب المحبَّر خِلْتَه ... زُنَيبيرةٌ[٣] قد مُدَّ منها جَناحان
فما تأمنُ الأبدانُ آفة لَسْعِها ... وإنْ أقبلتْ في سابغاتٍ[٤] وأَبْدان
سأدعوك في حالات كيدي وكُدْيتي[٢] ... بشيخي ساسان وعميَ هامان

(١) طريقة ساسان: أي طريقة أهل الكدية. وقد يريد بطريقة ساسان علم الحيل الساسانية. قال حاجي خليفة في كشف الظنون: «علم يعرف به طريق الاحتيال في جلب المنافع وتحصيل الأموال، والذي يباشره يتزيا في كل بلده بزي يناسب تلك البلدة، فتارة يختارون زي الفقهاء، وتارة يختارون زي الوعاظ إلى غير ذلك، إنهم يحتالون في خداع العوالم بأمور تعجز العقول عن ضبطها». أزهار الرياض: ١/ ص١١٨ (الحاشية). وذكر النويري أن طريقة "ساسان" نسبة إلى ساسان بن أردشير، الذي لحق بإصطخر وتزهّد، وخرج عن حلية الملوك، واتخذ غنماً يرعاها، وكان يتولاّها بنفسه، فاستشنع الناس ذلك من فعله، وقالوا: صار ساسان راعياً (نهاية الأرب: ٥/ ١٦٣).

(٢) الكُدْية: شدّة الدهر.

(٣) زنيبيرة: تصغير زنبورة، وأصله زنيبيرة، وهي من الذباب اللسّاع.

(٤) السّابغات والأبدان: الدّروع.

وإن كـان في الأنـساب منـا تبـاينٌ فـما تنكـر الآداب آنّـا نَـسيبان
ألاَ فـادعُ لي في جُـنحِ ليلـك دعـوةً لِتَـنْجَحَ آمـالي ويـرجح ميـزاني
لـك الطـائر الميمـون في كـل وجهـة سريـت إليهـا غـير نكْـس ولا واني(١)
فكَـمْ مـن فقـيرٍ بـائسٍ قـد عرفتـه فرقَّـت عليـه نِعمـةٌ ذاتُ أفنـان
وكـم مـن رفيـعِ الجـاه والَيـتْ أُنسه فعـاش قريـرَ العـينِ مرتفـعَ الـشان
فلو كنت للفـتح بـن خاقـان صـاحبا لمـا خانـه المقـدارُ في ليلـة الخـان(٢)
ولـو كنـت للـصّابي صـديقاً ملاطِفـاً لمـا قُبلَـتْ فيـه مقالـةُ بُهتـان(٣)
ولـو كنـت مـن عبـد الحميـد مُقربّـا لمـا هَـزَم الـسفاحُ أشـياعَ مَـروان(٤)
ولـو كنـت قـد أرسـلتها دعـوة عـلى أبي مـسلم مـا حـاز أرض خراسـان
ولو كنـت في أرض الغبـيط مراسـلا لبـسطام لم تهـزم بـه آل شـيبان(٥)
ولو كنـت في حـرب الأمـين لطـاهر لما هـان في يـوم اللقـاء ابـن ماهـان(٦)
ولـو كنـت في مغـزى أبي يوسـفِ لمـا رمـاه بِغَـدْرِ عبـدُه في تلمـسان(٧)

(١) النكس: الضعيف الجبان، والواني: المقصِّر.

(٢) يشير إلى مقتل الفتح بن خاقان في الفندق الذي نزل به بمدينة مراكش سنة ٥٣٩هـ.

(٣) الصابي: هو أبو إسحق إبراهيم بن هلال كاتب ديوان الإنشاء في دولة بني بويه. ويشير الشاعر هنا إلى ما ناله من اضطهاد وإبعاد من عضد الدولة بن بويه لمقالة نقلت إليه عنه فأغضبته.

(٤) يشير الى ما نال مروان بن محمد وكاتبه عبد الحميد بن يحيى من هزيمة على يد السفاّح.

(٥) الغبيط: مكان قرب الكوفة كانت به وقعة بين بني تميم وشيبان، غلبت فيه تميم شيبان وفيه أسر عتيبة بن الحارث بن شهاب بسطام بن قيس ففدى نفسه بأربع مئة ناقة. مراسلاً: معاوناً، ومتابعاً.

(٦) يشير إلى الوقعة التي كانت بين طاهر بن الحسين قائد جيش المأمون وعلي بن عيسى بن ماهان قائد جيش الأمين وانتهت بانتصار طاهر وقتل ابن ماهان.

(٧) لعلّه يريد السلطان يوسف بن يعقوب المريني في غزوة تلمسان وإقامته على حصارها مئة شهر وقد قتله عبده {سعادة} في أثناء ذلك الحصار.

ولـو أنّ كسرى يَزدجِرْدَ عرفتَه ... لما طاح مَقتولا على يد طحّان[١]
ولو أنّ لُذريقاً وطِئت بساطَه ... لما أثّرت فيه مكيدة أُليان[٢]
وفيما مضى في فاس أوضحُ شاهد ... غنيٌّ لدينا عن بيانٍ وتِبيان
ولَمّا اغتنى منك السعيدُ بكاتب ... رأى ما ابتغى من عِزّ ملك وسُلطان
فلا تنسني من أهل وُدّك إنني ... أخاف الليالي أن تطول فتنساني
ولا خير أن تجعل كِفاءَ قصيدتي ... كِفاء ابن درّاج على مدح خَيْران[٣]
فجُد بدنانيرٍ ولا تكن التي ... ألمّ بها الكنديُّ في شعب بَوَان[٤]
فجودك فينا الغيث في رمل عالج ... وفضلُك فينا الخبزُ في دار عُثمان[٥]
وما زلتَ من قبل السؤال مقابلا ... مُرادي بإحساب وقصدي بإحسان[٦]
ولا تنس أياماً تقضّت كريمةً ... بزاوية المحروق أو دار هَمْدان[٧]
وتأليفنا فيها لقبض إتاوة ... وإغرام مسنون وقِسمة حُلوان

(١) يشير إلى هرب يزدجرد آخر ملوك الفرس من أعدائه، والتجائه إلى طاحونة لم يحسن الطحّان ستره فيها حتى أدركه طالبوه وقتلوه.

(٢) يشير إلى تمكين أليان (أمير المغرب من قبل لذريق ملك القوط بالأندلس) العرب من دخول الأندلس انتقاماً لشرفه من لذريق.

(٣) هو خيران الصقلّي أمير المرية، مدحه ابن دراج القسطلي، ولعلّ خيران لم يحسن جائزة الشاعر كما يفهم من السباق هنا.

(٤) الكندي: هو أحمد بن الحسين المتنبي، ونسبه الى محلة كندة بالكوفة. وشعب بوّان: متنزّه بفارس يشير إلى بيت المتنبي:

وألقى الشرق منها في ثيابي ... دنانيراً تفرّ من البنان

(٥) عالج: موضع بالبادية يصل الى الدهناء، والدهناء فيما بين اليمامة والبصرة يقول: نحن متعطشون إلى جودك كتعطش رمال عالج الى الغيث محتاجون إلى فضلك، احتياج المحصورين في دار عثمان بن عفان إلى الطعام والشراب وقد حرموهما.

(٦) بإحساب: أي بما يكفيني ويرضيني.

(٧) زاوية المحروق: متعبّد بفاس: ودارهمدان بفاس أيضاً.

وقد جلس الطَّرقون بالبعد مطرقاً | يقول نصيبي أو أبوح بكتمان[1]
عَريفي يلحاني إذا ما أتيتُه | ولم أنصرف عنكم بواجب ألحان
وقد جمعت تلك الطريقة عندنا | أئمة حُسّاب وأعلام كُهان[2]
إذا استنزلوا الأرواح باسْم تبادرتْ | طوائف ميمون وأشياع برقان[3]
وإن بخّروا عند الحلول تأرّجَتْ | مجامرهم عن زعفران وَلُوبان[4]
وإن فتحوا الدارات في رد آبق | ثنت عزمه أوهام خوف وخِذلان[5]
فيحسب أن الأرض حيث ارتمت به | ركائبه سَرعان رَجْل ورُكبان
وقد عاشرتنا أسرة كيموية | أقامت لدينا في مكان وإمكان[6]
فلله من أعيان قوم تألّفوا | على عقْد سِحرٍ أو على قلب أعيان
ونحن على ما يغفر الله إنما | نروح ونغدو من رباط إلى حان[7]
مع الصبُّح نُضفيها عباءة صُفَّة | وبالليل نُدليها زنانير رُهبان[8]
أتذكر في سفح العقاب مبيتكم | ثمانين شخصاً من إناث وذكران[9]
لديكم من الألوان ما لم يجِئ به | طُهورُ ابن ذنّون ولا عُرسُ بُوران[10]

(١) الطرقون(كلمة مغربية مولّدة): من بيده قبالة اللهو وقبض ضرائب الأعراس ونحوها، مما تستعمل فيه الدفوف وآلات الملاهي.

(٢) الحسّاب: المشتغلون بحساب الطوالع للناس.

(٣) ميمون وبرقان: من أسماء ملوك الجن التي تدور على ألسنة المشعبذين

(٤) لوبان: لفظة مغربية محرفة عن اللبان.

(٥)الدارات: حلقات يعقدها شيوخ المشعبذين ومريدوهم عند استطلاع أم خفيّ كإظهار مسروق ، ونحو ذلك.

(٦) كيموية : يراد به النسب إلى الكيمياء.

(٧) في نفح الطيب: { ...... إلى خان} .

(٨) عباءة صُفّة: يريد بها زيّ الفقراء النسّاك. والزنانير: جمع زنار، وهو ما يشد به الراهب وسطه. يريد به أنّه يعمل في الليل ما لا يعمل في النهار.

(٩) العقاب: موضع بالأندلس، كانت فيها وقعة مشهورة.

(١٠) ابن ذنّون: هو المأمون: أحد ملوك الطوائف في طليطلة، من بني ذي النون، وقد بلغوا في البذخ والترف إلى الغاية. بوران: هي بنت الحسن بن سهل، وقد زفت إلى الخليفة المأمون بن هارون الرشيد في إعراس مشهور مذكور في كتب التاريخ.

ثم ذكر خمسة أبيات أقذع فيها، فلذا تركتها، ثم قال[١]:

فأقــسم بـــالأيمان لـــو لا تعففـــي ... عـن الـسوء لانْحَلّـتْ عقيـدة إيـماني
فَعُـــدْ للـــذي كنّـــا عليـــه فـــإنّ لي ... على الغـير إن صـاحبته حِقْـدَ غَـيْزانِ
فمــن يــومِ إذ صــبّرت وُدّي جانبــاً ... وأعرضــتَ عنــي مـا تنـاطحَ عَنْـزانِ
ولا روت الكُتّـــابُ بعـــد نِفارنـــا ... محـــاورةَ مـــن ثعلُبـــانِ لِـــسرحان
ومــا هــو قــصدي منــك إلا إجــازةٌ ... تُخَــوِّلني التفــضيلَ مــا بــين خُــلاّني
وإنـــك إن ســـخّرت لي وأجزتنـــي ... لـــنعم وَلِيّـــاً صـــان ودي وجـــازاني
ولم لا تروّينـــي وأنـــتَ أجَـــلّ مـــن ... ســقاني مــن قبــل الرحيــق فــروّاني
ألا فـــأجزْني يـــا إمـــامي بكـــل مـــا ... رويــت لمــدغَلّيس أو لابــن قُزمــان[٢]
ولا تـــنس للـــدّباغ نظـــماً عرفتـــه ... فـــإنكما في ذلـــك الـــنظم سِـــيّان
ومزدَوَجـــات ينـــسبون نظامهـــا ... إلى ابــن شُــجاعٍ في مــديح ابــن بطّــان
وَأَلِـمْ بـــشيء مـــن خرافـــات عنـــترٍ ... وألمع ببعض مـن حكايـات سُوسـان
وإن كنــت طالعــتَ اليتيمــةَ واسِــني ... بلاميّة في الفحش من نظـم واسـاني[٣]
أجـزِني بكـشف الـدّكّ أرضى وسـيلةِ ... وخـير جلـيس في بـساط ودكــان[٤]
ونـــاولني المـــصباح فهـــو لغُربتـــي ... مُيــسرُ أغــراضي ورائــدُ ســلواني[٥]

---

(١) حذف المقّري في أزهار الرياض ثلاثة أبيات لأن الشاعر أقذع فيها، ولكنه أوردها في نفح الطيب: ٥/ ص٤٤.

(٢) أبو بكر بن قزمان ومدغليس من أوائل الزجّالين بالأندلس.

(٣)هو أبو القاسم الحسين بن الحسين بن محمد المعروف بالواساني، وقصيدته اللاميّة هجا بها أبا الفضل يوسف بن علي.

(٤) كشف الدك: أراد به كتاب (كشف الدك وإيضاح الشك) وهو كتاب مشهور في الحيل والشعوذة.

(٥) في الفهارس كتب كثيرة في علوم مختلفة كل منها اسمه (المصباح) ولا ندري أيها يريد ولعله في الروحانيات، كما يفهم من السياق.

وأَلِحقْ به شمسَ المعارف إنني … أسائل عن إسناده كُلَّ إنسان(1)

وقد كنتَ قبل اليوم عَرَّفْتَني به … ولكنني أُنسيتُه بعد عِرفان

ولابُد يا أستاذُ من أنه تُجيزني … ببدء ابن سبعينٍ وفصل ابن رضوان(2)

وكُتب ابن أخلى كيف كانت فإنها … لوزن رقيق القول أكرمُ ميزان

ولا تنس ديوانَ الصبَّابة(3) والصفا … لإخوان صِدق في الصفا خير إخوان

وزَهْرَ رياضٍ(4) في صنوف أضاحك … وَجبذَ كساء في مكايد نسوان

كذاك فناولني كتاب حُباحِبٍ … وزدني تعريفاً بها وببرجان

ولي أمل في أن أُرَوَّى رسالةً … مضمنة أخبار حيَّ بن يقظان

وحبّس عليّ الكاسَ والكوزَ والعصا … فإنك مُثْرٍ من عِصيٍّ وكيزان

وصيِّر لي الدُّلفاس أرفع لِبسةٍ … فقد جلَّ قَدْري عن حرير وكتان

وقد رقّ طبعي واعْترتْني خشية … يكاد بها روحي يفارق جُثماني

وخلِّ مفاتيحَ الطريقةِ في يدي … وسُوغ لهم فيها مزيدي ونقصاني

فإنّي لم أخدمك إلاّ بِنِيَّةٍ … وإني لم أتبعك إلا بإحسان

فكن لي بالأسرار أفصحَ مُعْلن … فإنّي قد أخلصْتُ سِرّي وإعلاني

---

(١) يريد كتاب شمس المعارف ولطائف العوارف وهو كتاب مشهور في التعاويذ ونحوها من الروحانيات.

(٢) يريد كتاب بدء المعارف لابن سبعين المرسي الأندلسي. وابن رضوان: هو عبد الله بن يوسف من رضوان من أهل ماهة.

(٣) يريد ديوان الصبابة لابن أبي حجلة أحمد ين يحيى التلمساني المتوفى سنة ٧٧٦هـ .

(٤) في الفهارس كتب كثيرة باسم. (زهر الرياض).

٢- مقامة في أمر الوباء [١]

إلى حمراءِ الملك وَقَلْعته، ومَقَر العز وَمنعته، ومطْلَع كلِّ قمر نَصْرِيٍّ يُخجل الأقمارَ بطلعته، أبقاها الله علَى تعاقُبِ الأزمان، منزلَ أمان ودار إيمان، وأمتعها بحياة المِلكِ الخَزرَجي اليمان، من موجبة إجلالها كما يجب، المعترفة بفضلها وشرفها وأنوار الشمس لاتحتجب، والواقفة عند إشارتها وطاعتها، فإن تأمرْ أمتثل وإنْ تدْعُ أسْتَجبْ، مالقة، المستمسكة بذمتها الوثيقة، المتشوّفة، إلى أخبارها تشوف المحبة الشفيقة، إلى ريحانة قلبها في الحقيقة، والى هذا ياسيدتي ويا عُدّتي، ويا ذخيرتي ويا عُمدتي، أمتعنا الله وإياك بحياة من استنقذنا من الوَرَطات، وردّنا إلى الصواب مما كان منا من الغلطات، مولانا الغالب بالله وحدَه، الموعود بعزيز النصر وقريب الفتح والله ميسِّر وعده.

سلام عليك يتعطّر بذكر مولانا أمير المسلمين فَوْحُه، وينشق كالمسك الفتيت روحه، ورحمة الله تعالى وبركاته.

أما بعد، فإني أَحْمَدُ إليك الله الذي إذا استُكفِيَ بعزّته كفَى، وإذا استُشْفِي بكلمته شفى، وإذا سئل بواسع رحمته عفا، وأُصَلّي على رسول محمد الكريم المصطفى، وعلى آله وأصحابه، أكرم من نصح له وأَخلَصَ ووفى. كتَبْتُه إليكِ يا سيّدتي عن نفس قَلقَة، ساهرة أرقة، حاذرة مشفقة، مُلْهَبة بل محترقِة، وإنّي أقسِمُ عليك بالرب الذي كرّمك بالعز وشرّفك، وعرّفك من لطائف الفرج بعد الشدة ما عرّفك، أن تسعديني على تسكين لوعتي، وتأمين روعتي، وتراجُع رقادي بعد سُهادي، وقضاء حاجة جلّت في فؤادي، وتَفْهمَي مراد إشارتي، وإشادة مرادي، وتتركي هوى النفس الذي هو للحق معاند وللرشد معادي.

---

(١) ورد نصّ المقامة في أزهار الرياض: ١/ ص ١٢٥- ١٣٢، ونفح الطيب: ٥/ ص٤٠-٤٦.

ومبنى هذه الرسالة إليك على قولهم: «الشفيق مولع بسوء الظن» ومن مِنَن الله على عبده الوقاية من المتالف جل الله العظيم المن، وعلى قول المتنبي:

ربما ضر عاشق معشوقاً　　　ومن البر مايكون عقوقاً

والمثل الأول لي، والآخر لك، والله يُيسر في حفظ مولانا أملي وأملك. وإني أتعجب من مساعدتك على إقامة مولانا بمنزل، هذا المرض به فاش، وهذا الهواء الفاسد بين دياره جاءٍ وماشٍ، وسمعتُ أن حديث السفر لمالقة أثقلُ عليك من حديث رقيب وعاذل وواش، وأنَّ الآراء في ذلك اختلفت، ولم يُرجع فيها إلى سُنن تقدمت وعوائد سلفت، والأوائل، من المؤمنين رحمهم الله ما تركوا شيئاً سُدى، بل نصبوا على كل طريق إلى النجاة علم هُدى، وسمعت ياسيدتي أن القضية عُوِّل فيها على المُقام والاستسلام، وخولف فيها رأي الخليفة الرشيد لما تحول في مثلها عن سكنى دار السلام بمحضر أركان الدين وأعلام الإسلام، وقد سمعتُ في الأجوبة الظريفة، ما صدر من قوله: أخشى أن أكون أول خليفة، وقد كنتُ يا سيدتي أرتجي أن يكون لهذا المرض ارتفاع، أو يحصل بدخول فصل البرد انتفاع، فتركت الكَتْب منتظرة لذلك، إلى أن تزايدات الحال وأنت على حالك، لايمر الترحال بخاطرك ولاببالك، وأنا أقول: أمّا واجب التسليم، لتقدير العزيز العليم، فمتأكد شرعاً، لايضيق به المؤمن ذرعاً، لكن ما يفعل المستسلم بالروح والجسد، إذا قيل له اهربْ من الأسد، وقد أبصره مقبلاً إليه، أو مُنْقَضّاً عليه، أيأخذ في تحفظه واحتراسه، أم يصبر لافتراسه؟ ومن قيل له في ظلم الليل: ارتفع عن هذا المكان تنجُ من السّيل، أينام في مكانه، أم يبادر إلى السلامة بجهد إمكانه؟ ومن نودي: هذه الخيل قد طلعت مغيرة، والرعاة بالجبال مستجيرة، فارفع غنمك قبل الاكتساح، فالوقت في انفساح، أيترِكها تسرح، ولا يبرح، أم يرفعها لتسلم، ممَّا تدرب وتعلم؟ وكذلك إذا قامت الرماة صفوفاً، وأصابت سهامهم من الخلق ألوفاً، أيرجّح

الحقُّ تباعدا أم وقوفاً؟ وكذلك أيضاً المنازل، التي تدوم بها الزلازل، فأرضها في كل يوم تميد، وَدَهش القلوب بها حاضر عتيد، والخسف بها في يوم ينقص وفي يوم يزيد، لا تسمع فيها إلا سقوط جدار، على ركن دار، وانفكاك الأركان، على السكان، وإخراج ميت، من تحت بيت، وسقوط سارية على جارية، أيُعزم على السكنى والاستيطان، تحت هذه الحيطان، أم يؤخذ في الاحتيال، بالخروج بالأطفال والعيال؟ يا سيّدتي الحمراء، سألتك فأخبريني، وإن تحيرَّ فهمي فاعذريني، ووصل إليَّ الكتاب الشريف، من جنان العريف[1]، يذكر أن السلامة كانت به مستصحبة لمولانا ولناسه، وأن العافية كانت بهم منتَشقة مع أنفاس رَنده وآسه، ما عرضتْ به على طبيب حاجة، ولا استدعى فيه المُعاوِر للنظر في زجاجة، ولا لقول ولا لعمل، ولابلغ من الجساوة والقساوة أقل أمل، ولم ينتقص من السّاكنين بهذا البستان، من عبيد مولانا السلطان غير فتى من الخُصيان، لايساوي عشرة دراهم في سوق الفتيان، والجميع بحمد الله استمرت عافيتهم على استقامه، بطول أيام الإقامة، وعرفني أيضاً جنان العريف في وافد كتابه، ووراد خطابه، أن رغبته كانت في انتقال مولانا نصره الله من صحيح هوائه، وسلسبيل مائه، ونفحة جنانه، وتلاعب النسيم العاطر بين قبابه، إلى مالقة حيث الجو الصقيل، والرّوْض الذي يطيب به المقيل، والراحة التي تمتزج بالأرواح كما قيل، حيث العرف الأرِج، والوادي المنعرِج، والساحل الذي ينشرح به الصدر الحرج، حيث البنفسج يدير كئوس البَهار، والياسمين نجوم طالعة بالنهار، حيث يتماوج طيب الزَّهَر، بعَرْف الأُتْرج ونفحات السَّحَر، حيث يشبه أنين السواني، حنين المتعشقات من الغواني، إذا حُمِدَ الصباح، وانفلق الإصباح، وعمرت صغار القوارب، ونادت بَحْرية الشباك: إلى المضارب[2]، وسالت

(١) بستان في خارج غرناطة، ذكره لسان الدين في الإحاطة ١/ ص٢٥ (أزهار الرياض: ١/ ص١٢٨ حاشية ١).

(٢) المضارب: الخيام التي تضرب على ساحل البحر، ليباع فيها ما يصاد من السمك.

أنوار المشارق على جوانب المغارب، ونادى محرك الجيش: ظهور الخيل، وصباح الخير، واستقبلوا الوادي الكبير لمصيد الأرنب والحوت والطير، شكر الله جنان العريف على ما قصد ونوى، وعلى ما أظهر من اتباع حق ومخالفة هوى، اعتماداً من أخبار الدول القديمة على ما حفظ وروى، وقال لي ياسيدتي إنك وقفت مع الحديث المنصوص[1]، الوارد في مثال هذا المرض على الخصوص، وفيه النهي عن الخروج من منازل هذا المرض ومواضعه، وعن القدوم على معتركاته ومصارعه، والحديث صحيح، والرشدُ فيه قول صريح، ولكن للعلماء فيه أقوال طويلة التفصيل، وقد لخصها وبينها الإمام ابن رشد في كتابه الجامع من البيان والتحصيل[2]، والاتّفاقُ من الجميع أن النهي في هذا الحديث ليس بنهي تحريم، وإنما هو على سبيل إرشاد وأدب وتعليم، فلا إثم ولا حرج، على من أقام ولا على من خرج، وقال عمرو بن العاص: الأفضل الخروج لأهل الفطنة، اتقاء من اعتقاد يؤدي إلى فتنة، وكفى بعمرو بن العِاص حُجّة لمن أراد انتصاراً، والكلام كثير، ولكني اختصرته نَظَراً وإنَّ اختصارا، قدّمه كثير من الصحابة ورجّحه، لخليق بأن يقال فيه ماأسعده وما أنجحه! ياليت تفقهي كله يكون من هذا القبيل وجارياً على هذا السبيل، مستنداً إلى قولِ صحابيّ جليل، ومستدلاً بأرشد عِلم ودليل، ولو كان على خلاف المشهور من قول خليل[3]، وهنا يقال: ما في هذه القُلة غير هذا الإغريل[4].

ياسيدتي الحمراء، أراك في هذه القضية تفقّهت وتوقّفتِ فيما بيّنه عالم وذو عِلْم، ومنعت مما ليس فيه حرج ولا إثم، ولو كنت حاضرة لكان لي معك حديث طويل، واحتجاج

---

(١) ورد الحديث المشار إليه في صحيح مسلم، ونصّه: «الطاعون رجز أرسل على من كان قبلكم، فإذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها، فلا تخرجوا فراراً منه».

(٢) اسم الكتاب جامع البيان والتحصيل لما في المستخرجة من التوجيه والتعليل.

(٣) هو خليل بن إسحق المالكي، صاحب المختصر في فقه المالكية.

(٤) العبارة قد يكون فيها تحريف.

ينصره نص وتأويل. وسمعتُ أنك أشفقتِ من عظيم النفقة، وليس هذا موضع الشفقة، فالأمن ليس بغال، ولو يُشترى بكل ذخيرة وكل مال، والأَوْلى بالملامة، مَن يفضّل شيئاً على السلامة. القمح يأكله السوس، والذهب تغني عنه الفلوس، فكيف يُستعظمان فيما تؤمَّن به النفوس. وبلغني أنكِ قلت: مالَقة ليس بها زرع، وبقليل المُقام يضيق لها صدر وذرع، وفلاحتها وحرثها ليس لهما أصل ولا فرع، وعزّ عليّ هذا الكلام، ولكنني سلمتُ والسَّلام، فإن سعري عن سعر غرناطة منحط، وفي لمحة بصر يضيق مني بالطعام في كثير من الأيام ساحل وشطّ، ولا يُعلم أنه دامت لي شدة قطّ. لي في الاعتصام بالتوكل على الله ما يزيد على السبع مئة عام، ما أشغلت فيها فكراً ولاقلباً بادخار قوت ولا باحتكار طعام، أثق في اليوم والغد، بالرزق الرَّغد، تأتي به الرياح على الأعناق، ويَفيض سيله على جوانب الدواوين وأكناف الأسواق، وتجلبه الأحباب والأعداء بإذن اللطيف الخبير الوهَّاب الرزاق. قالت النملة: افتخاري بادّخاري، قالت العصفورة: توسُّلي، بتوكلي، قالت النملة: أعتمد على الحَبّ، قالت العصفورة: أتوكل على الرَّب، فلما جَنّ الليل، أقبل السيل، فخرجت النملة بالعَوم، وبقيت الحبوب بين الدَّوم، فنزلت العصفورة وسجدت، والتقطت من مدَّخر النملة كل ما وجدت، وقالت: خسِر المحتكر، وربح طالب الرزق المُبتكر، الكريم لا يفتخر بما يدّخر.

وصحّ عندي أن الوزير أعزّه الله ليس عنده في هذا كله كلام ولا قول، وأن الأمر عنده مفوّض على الرب الذي له القوة والحول. وسمعتُ ياسيدتي أنّ هذا السقم، أعظمُ تأثيره إنّما هو قطع الأكباد، من صغار الأولاد، الذين من فوق السبع ودون العشر، وهم في هذه السنين رياحين القلوب العاطرة النشر، وهذا إلى كَتْبي لك أعظم داع، فإن الأولاد سوائم، والوالد راع، والراعي لا يترك غنمه في طريق سَبُع ضار، ولا قريباً من حريق نار، ونحن نشاهد الطير ينقل أفراخه من وكر إلى وكر، ويسترها بملتف الشجر

إذا خاف عليها عادية جارح أو صاحب مكر، فكيف لا نقتدي في تأمين روعتنا بمن تقدّم من الأكابر، ونفق في حامل السيل[1] بأولادنا الأصاغر، فما عندك في هذا كله من القول ومن الجواب؟ وما يظهر لك من وجه الرأي والصواب؟ اكتبي بذلك كتاباً أعتمد عليه، وأستند إليه، وقبّلي عني يد مولانا تقبيلا، ويا ليتني وجدت إلى ذلك سبيلا، وأخبريه أني في خدمته على نيتي الأولى، عاكفةً على شكر مِنَّته الطولى، أدام الله حياطة البلاد والنفوس بحفظة وحياطته، وأسمعني البشارة بقدومه على مُحْدَث مالَقة من حمراء غرناطته، ويحفظه في النفس والأولاد، والملك والبلاد، بمنّه وفضله.

تعقيب على مقامتي الفقيه عمر الزجال

صاحب هاتين المقامتين هو الفقيه عمر الزجال، الذي وصفه المقّري بأنه «أشهر من نار على علم، وأزجاله ومنظوماته ومقاماته عند العامة محفوظة، وعند الخاصة مرفوضة، إلاّ القليل الذي يُسمَحُ في مثله لصاحب القلم، كمقامته التي سمّاها «تسريح النصّال إلى مقاتل الفصّال».[2]

ولعل السبب في رفض الخاصة لمقامات الزجّال هو غلبة الهزل عليها، ويبرّر المقّري نزعة الزجّال إلى الهزل بأن ذلك مما يقع لكثير من الأئمة على سبيل الإحماض[3]، ولم تكن للزجال غاية سوى إظهار البلاغة والاقتدار[4].

---

(١) حامل السيل: السيل الجارف.

(٢) أزهار الرياض ١/ ص١١٦.

(٣) المصدر نفسه: ١/ ص١٢٥ الإحماض: الانتقال من حال إلى حال، مأخوذ من إحماض الإبل والمواشي، وهو نقلها من رعي الخلّة إذا سئمتها إلى رعي الحمض، والحَمض: ما ملح وأمرّ من النبات، وهو للماشية كالفاكهة للإنسان.

(٤) أزهار الرياض: ١/ ص١٢٥.

والمقامة الأولى مقامة شعرية في ثلاثة وثمانين بيتاً، وطّألها بتوطئة نثرية وسمّاها «تسريح النّصال إلى مقابل الفصّال». وهذه المقامة تُعَدّ آخر حكاية من حكايات الكدية بالأندلس من حيث تاريخ التأليف، فقد كتبها صاحبها سنة ٨٤٤هـ وحفظها المقّري في كتابيه «أزهار الرياض» و «نفح الطيب». والمؤلف لا ينتمي إلى صنف المكدّين ولا إلى الزجّالين كما يوحي بذلك اسمه، بل كان قاضياً ومع ذلك فهو ينتسب في مقاماته إلى هؤلاء وهؤلاء.

والفقيه عمر لا يهدف من وراء مقامته إلى نيل العطايا للتخلص من الفقر، فقد «كانت المقامة بالنسبة له تمريناً أدبيّاً مجانيّاً»(١). وربما من أجل ذلك فقد أنكرت النخبة المثقفة هذا النوع الأدبي في عصره، وأعجبت به العامة حسب عبارة المقّري، الذي يذكر أن مؤلفات الفقيه عمر كانت في جملتها هزلية.

أمّا مقامته الثانية «في أمر الوباء» فقد أثبتها المقّري -كما يقول – لغرابة منزعها، وإن كان بعض فصولها لايجري على المشهور، وعدّها من أبدع ما صدر عنه من مذاهب العلماء(٢). والمقامة كلّها احتجاج على إبقاء السلطان في مكان قد فشا فيه الوباء، وتزيّن له الرحلة إلى مالقة، المدينة التي ينتسب إليها الفقيه عمر.

وتتشابه هاتان المقامتان في طرافة موضوعيهما، وإن كانت أولاهما تعتمد على جانب الهزل، الذي عُرف به الفقيه عمر.

---

(١) محمود طرشونة: فن المقامة في الأندلس، حوليات الجامعة التونسية، عدد ٢٨، ص١٦٢.

(٢) أزهار الرياض: ١/ ص١٢٥.

الفصل الثالث

المقامات الأندلسية

٣

(الدراسة الفنية)

أولا: الموضوعات والمضامين

ثانيا: الخصائص الفنية

أوّلاً: موضوعات المقامات الأندلسية وأغراضها

من التأمل في النماذج والنصوص المتوافرة لدينا من المقامات الأندلسية يتبين لنا أنها تناولت أغراضاً مختلفة، ودارت حول محاور متعددة. وأبرز الموضوعات التي تناولتها مقامات الأندلسيين:

المقامات النقدية:

عرضت بعض المقامات الأندلسية لجانب من أبجديات النقد الأدبي، أو المفاضلة بين الشعراء. ومن ذلك مقامة أبي المطرف عبد الرحمن بن فتوح[1]، التي قامت أساساً على موضوع النقد الأدبي، فقد عرض صاحبها لنقد أربعة من شعراء عصره الأندلسيين، وحاول أن يميز كل أديب منهم عمن سواه بصفة غالبة عليه.

والنقد في هذه المقامة يقوم على التعلق بالألفاظ والنواحي البيانية والبديعية، وغيرها مما يتعلق بالأسلوب. «قال الفتى: من أعذبهم لفظاً، وأرجحهم وزناً؟ قلت: الرقيق حاشية الظرف، الأنيق ديباجة اللطف، أبو حفص بن برد، قال: فمن أقواهم استعارات، وأصحّهم تشبيهات؟ قلت البحر العجاج، والسراج الوهّاج، أبو عامر بن شهيد. قال: فمن أذكرهم للأشعار، وأنظمهم للأخبار؟ قلت، الحلو الظريف، البارع اللطيف، أبو الوليد بن زيدون. قال: فمن أكلفهم بالبديع؟ وأشغفهم بالتقسيم والتتبيع؟ قلت: الرائع في روضة الحسب، المستطيل بمرجة الأدب... أبو بكر يحيى بن إبراهيم الطبني».

---

(١) انظر ترجمة ابن فتوح في الفصل الأول من دراستنا هذه، وانظر نصّ مقامته ص ٦٥ من هذه الدراسة.

وقد سمّى أحد الدارسين مقامة ابن فتوح باسم «المقامة الأدبية»[1]، لأنها تدور كلّها على الشعر والسؤال عن الأدباء، والخصائص التي تميّزوا بها عن غيرهم.

ومن المقامات التي عرض فيها صاحبها لشيء من النقد، أو الرأي الأدبي، مقامة عمر بن الشهيد، التي أورد ابن بسّام فصولاً منها.

بدأ ابن الشهيد مقامته بنبذة عن صنعة الكتابة وأصولها، ووصف حالها فى عصره، وقد فقدت رونقها وبهاءها، وعن ذلك يقول:« إنّ صنعة الكتابة محنة من المحن، ومهنة من المهن، والسعيد من خدمت دولة إقباله، والشقي من كانت رأس ماله، والعاقل من إذا أخرجها من مثالبه، لم يدخلها في مناقبه، ولاسيّما وقد تناولها يد كثير من السُّوَق، وباعوها بيع الخَلَق، فسلبوها تاج بهائها ورداء كبريائها، وصيّروها صناعة يكاد الكريم لا يعيرها لحظه، ولا يفرغ في قالبها لفظه...»[2]. وهو هنا يتحدث عن الكتابة الديوانية وحال صاحبها، وكيف أن تقلّب الأيام جعل كثيراً من السوقة والضعاف يتبوأون هذا المنصب، فزال عن الصنعة رونقها، وفقد أصحابها احترامهم.

وعرض في فقرة أخرى إلى ما تتطلبه صناعة الكتابة إذا ما أريد إحكامها، ووصف ما يعانيه الكاتب، وما يجده من تعب وعناء في مهنته، فيشبهه بالجوهري مرّة، وبالصائغ مرّة أخرى، وبالعُقاب مرّة ثالثة، فيقول: «والبليغ كالجوهري واجد التعب، في نظم الدر أو المَخَشْلَب، وكالصائغ واجد العناء في سبْك الصُّفر أو الفضّة البيضاء، وكالعُقاب واجد الانهواء على الصقر أو المكّاء. والعاقل من برز يوم السّرور في زيّ الأعياد، ويوم الحزن في ثياب الحداد».[3]

(١) د. علي بن محمد: النثر الأدبي الأندلسي في القرن الخامس: ص٥٧٨.

(٢) انظر دراستنا هذه ص ٧٥.

(٣) انظر دراستنا هذه ص ٧٥.

ولأبي الطاهر السّرقسطي مقامتان نقدّيتان، عرض في الأولى لبعض الشعراء، منذ جاهليتهم إلى عصره، وعلّق على تاريخهم أو شعرهم بملاحظات سريعة، فقد بدأ الحديث بامرئ القيس «فقلت: ما رأيك بالملك الضليل؟ قال: ذو التّاج والإكليل...حسبك من حامل لواء، وقائد أقيال وأذواء، وقائل غير محتاج، وفاتح رتق من القول ورتاج. وقد قيل: بدئ الشعر بكندة وختم بكندة، وكلّ يقول ما عنده».(١) ومعروف تلقيب امرئ القيس بالملك الضليل، وقوله حسبك من حامل لواء إشارة إلى الحديث المنسوب إلى الرسول ﷺ عن امرئ القيس بأنه «قائد الشعراء في النار » أو «معه لواء الشعراء إلى النار». وقوله :«فاتح رتق من القول ورتاج» مسبوق إلى معناه، قال ابن قتيبة: «وقد سبق امرؤ القيس إلى أشياء ابتدعها، واستحسنها العرب، واتبعته عليها الشعراء من استيقافه صحبه في الديار، ورقة النسيب، وقرب المأخذ(٢).

وعلى هذا النحو يمضي السّرقسطي في بيان آرائه في كثرة غامرة من الشعراء المشارقة. ويرى د. محمد رضوان الداية أنّ السرقسطي مسبوق إلى المقامة النقدية، وأنّ الجديد في الأحكام النقدية، التي ساقها نزر يسير؛ لأن الكثير مما جاء به مما ثبت في كتب الأدب العامة، واحتوته كتب التراجم والمختارات، وتُنوقِل في أخبار الشعراء وشروح دواوينهم(٣). وبرغم ذلك فقد كانت هذه المقامة أطول مقامة عند السّرقسطي(٤)، وهي تدل على سعة اطلاعه، ومتابعته لحركة الشعر في المشرق، ومعرفته بحركة النقد المواكبة لها، ومن المؤسف أنه لم يجر للأندلسيين في مقامته ذكْراً، فلم يعرض لأي شاعر أندلسي.

(١) انظر المقامات اللزومية: ص٣٥٦ - ٣٥٧

(٢) الشعر والشعراء: ص٧٠-٧١.

(٣) النقد الأدبي في الأندلس : ص٣٥٨.

(٤) المقامات اللزومية: ص٣٥٣ - ٣٨٣

والمقامة النقدية الأخرى للسرقسطي، هي المقامة الخمسون في النظم والنثر[١]، التي ختم بها مقاماته اللزومية. وتعرض هذه المقامة لقضيّة أخذت باب الجدل والخلاف في كتب النقد، وهي أفضلية الشعر أو النثر[٢]، أيهما أسبق؟ وأيهما أفضل؟.

لقد نسّق السرقسطي محاورة طويلة بين أنصار الشعر وأنصار النثر، وجعل كلّ فريق منهما يُدْلي بدلوه، وينتصر لما يوافق هواه وميله، فالذين يفضلّون الشعر يعللّون له بأنه أصعب مرتقى من النثر، وأقرب إلى الحفظ، وبه يظهر جمال الكلام من لفظ ومعنى[٣]، أمّا القائلون بتفضيل النثر فإنهم يحتجّون له بيسر مسلكه المطلق من القوافي، وببلاغة ألفاظه التي تُزيّن بها المواثيق والعهود والأخبار، وبأثره الذي تسكن له القلوب وتستعطف ..... وبأنه معيار البلاغة والفصاحة، ومسبار الركانة والرجاحة[٤].

وحاول السرقسطي – في مقامته – التقريب بين وجهة نظر الفريقين، فدفع عن الشعر ما يدار حوله من الكذب، وتصريفه في الأغراض المرذولة، فقال:«وإن شابوه كذبا ومينا، فقد أغضوا عليه عينا، وإنما حمده أوفر من ذمّه، وشهده أكثر من سمّه...»..[٥] ودافع عن النثر بأن افتقاره النظم والوزن لا يضيره، ما دام رائقاً في لفظه وتعبيره، فقال: «هو الدرّ منظوماً أو منثوراً، والحكمة متروكاً أو مأثوراً، وما يضرّ الدرّ إن لم تنظمه النواظم، وقد فضّله الأكابر والأعاظم... »[٦].

---

(١) انظر نصّ المقامة في المقامات اللزومية: ص٥٤٧ – ٥٦٥.

(٢) لمزيد من التفصيل حول موضوع المفاضلة بين الشعر والنثر في التراث النقدي الأندلسي انظر كتاباً لصاحب هذه الدراسة بعنوان: النقد الأدبي في الأندلس(عصر المرابطين والموحّدين: ص٥٠ – ٥٨) وانظر أيضا بحثاً محكماً له في هذا الموضوع نشرته مجلّة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية، العدد ٣٧، المجلد ١٨، حزيران ٢٠٠٦.

(٣) المقامات اللزومية: ص٥٤٨.

(٤) المصدر نفسه: ص٥٥٤.

(٥) المصدر نفسه : ص٥٥٧

(٦) المصدر نفسه: ص٥٥٨

وينتهي السّرقسطي في مقامته إلى ضرورة تجنّب المفاضلة بين الشعر والنثر على سبيل العموم، ما دام كلّ منهما فن قوليّ، له وظيفة وغاية، وتجري عليه معايير القبح والجمال، فلكلّ منهما فضله في مجاله. ويخاطب أنصار الفنّين بقوله:«فلا تفضّلا قائلاً على قائل، إلاّ بفضل فاضل وطَوْل طائل، والإحسان ضروب، والشمس طلوع وغروب،..... وخذا في كلّ الأحوال بالأعْدَل الأقْسَط، وَمِيلا إلى السّهْل والأبسط، ولا تعْدِلا عن السواء الأوسط»(١).

ودعوة السّرقسطي إلى الأخذ بالسهل والأبسط دعوة غريبة، وهو الذي ملأ مقاماته تعقيداً وإغراباً، قصد إليه قصداً، كما أنه التزم – في مقاماته – مالا يلزم وقد يكون التزامه السجع في مقاماته، هو الذي ألجأه إلى استخدام عبارة «وميلا إلى السهل والأبسط»، ولعله لم يكن يقصدها حقيقة.

ويرى أحد الباحثين أن السّرقسطي قد أظهر – في مقامته هذه – الهاجس الّذي كان يلاحقه طيلة كتابة هذه المقامة، وهو دفاعُه عن فن المقامات، الذي يجمع بين فني الشعر والنثر، هذين الفنّين اللذين استمر النقد العربي يجول في المفاضلة بينهما ، ومن جمع بينهما فهو المبرّز.(٢) وقد دلّل السّرقسطي على أنه جمع في مقاماته بين فنّي النثر والشعر بكفاءة واقتدار.

---

(١) المقامات اللزوميّة: ص٥٥٨.

(٢) د. محمد سعيد محمد: دراسات في الأدب الأندلسي، منشورات جامعة سبها (ليبيا)، ط١، ٢٠٠٢ ، ص٣١٧.

المقامات السياسية:

وهذا النوع من المقامات ظهر بالأندلس، ولم يكن له مثيل عند البديع والحريـري. ويُعدّ لسان الدين بن الخطيب حامل لواء هـذا النـوع مـن المقامـات، كـما أنّ مقامتـه في السياسة أوّل أَثر مقاميّ في السياسة بهذا الاسم الـصريح. وقـد رسـم في تلـك المقامـة سياسة واضحة لكل شريحة من شرائح المجتمع مبتدئاً بالملك، فالوزير، فالجند، فالعمّال، ثم الولد، والخدم...[1].

ورسم ابن الخطيب لمنصب الوزير ومهـام الـوزارة سياسـة أودعهـا في مقـامتين: **الأولى** بعنـوان «الإشـارة إلى أدب الـوزارة في الـسياسة».[2] **والثانيـة**«بيـان قـدر رتبـة الوزارة»[3]، وقد اشتملتا على كل ما يتعلـق بهـذا المنـصب مـن مـسؤوليات وواجبـات. ويستهل ابن الخطيب مقامته بالدعاء، وطلب العون من الله عـز وجـل، أن يأخـذ برتبـة الوزير.......ثم يقول لمن يحاوره: «وإنّي لمّا رأيت بِرّك ديْنا يجب عليّ قضاؤه، ولا يحمـل بي إلقاؤه، تخيّرت لك من الهدايا ما يملأ اليد، ويصاحب الأمد، وينجب العقب والولد، فلم أَجِدْ أجدى من حديث الحكمة، التي من أُوتيها، فقد أوتي خـيراً كثـيراً، ومـن أمِـلَ لرتبتها السامية، فقد أُحِلّ مَحَلاّ كبيراً، و الوصاة التي تنفعك من حيث كنت وزيرا...»[4].

وقد أولى ابن الخطيب رتبة الوزارة اهتماماً كبيراً، وتحدثّ عنها حديث مجرّب، فقد كان وزيراً للأمير أبي الحجاج يوسف بن نصر أمير غرناطة.

وبعد أن أنهى وصاياه للوزير في المقامة الأولى، انتقل إلى المقامة الثانيـة ليبـين قـدر هذه الرتبة، فقـال: «إذا فـسد الملـك وصـلح الـوزير، ربـما نفعـت الـسياسة، واسـتقام

[(١) انظر نص المقامة وتحليلها ص ١٩٤-٢٠٨ من دراستنا هذه.

[(٢) انظر نصّ المقامة ص٢١٢-٢١٦ من دراستنا هذه .

[(٣)انظر نصّ المقامة ص٢١٧-٢٣١ من دراستنا هذه .

[(٤) انظر ص ٢١٢ من دراستنا هذه.

التدبير،... وموقعه من الملك موقع اليدين من الجسد،اللتين في القبض والبسط عليهما يُعْتمد، وقالوا: الملك طبيب، والرعيّة مرضى، والوزير تعرض عليه شكاياتهم عَرضا، والنجاح مرتبط بسداد عقله، وصحّة نقله، فإن اختلّ السفير بَطُل التدبير»[١].

ولا تخلو مقامات السّرقسطي مما يمتّ إلى إدارة الحكم وسياسة القضاة، فهو يبرز شخصية القاضي، ويجعلها محور بعض مقاماته، ومن هذه المقامات المقامة الثالثة عشرة[٢]، التي رسم فيها صورة للقاضي العالم بفنون البلاغة، وألوان البديع والبيان، وكان مضمونها يجري حول اتهام السائب بن تمام بشيء من المال والأثاث الذي تعود ملكيته للشيخ أبي حبيب، فيمثل الجميع أمام القاضي، ويتحدث الشيخ أبو حبيب بنظمه ونثره البديع الذي استمال به القاضي، فمن ذلك قوله[٣]:

يا حاكماً تشتاقة عُمانُ
والتربة الميثاءُ والصّمانُ
أنت التقي زانه الإيمانُ
كما يزينُ نظمه الجُمانُ
هل لي على دهرٍ عدا ضمانُ
أم دون ذاك الحدُّ والحرمانُ

(١) انظر ص ٢١٧ من دراستنا هذه.

(٢) انظر المقامات اللزومية ص ١٧٠ – ١٨٤.

(٣) المصدر نفسه : ص١٧٤.

وبعد أن ينتهي من نظمه يأتي بحجته نثراً فيقول:«أيها الحَكَمُ العَدْل، والمحَكَّم الجَدْل، وأخا الرأي الفاصل، والحُسام القاصل، والله ما أنا بالظلّوم، ولا بالمليم ولا الملوم، لكل باطن وظاهر، وَدَنَسٌ من الأمر وطاهر...»(١).

وفي المقامة السادسة والثلاثين نجد صورة للقاضي العادل، الذي يستمع لأقوال الطرفين، ويحكم للمتّهم، وهو «السائب بن تمام»(٢).

وفي المقامة السابعة والعشرين، وهي «مقامة القاضي»، يرسم السّرقسطي صورة للقضاة المرتشين، ومساعديهم، وينقد القضاة نقداً حاداً، ويستخدم ألفاظاً تنبو عن الذوق، والأخلاق الفاضلة، يقول على لسان القاضي:« ... وأمّا ثمرةُ الدِّنان، فلثمرة الجِنان، وأمّا إتاوة الخصوم والأعوان، فَلإخصاب المجلس والخوان. وما كان من رشوة، فلراحة ونَشْوة، وأمّا اللهو والمجون فحديثها شجون، وأَمّا فِدْية الحدود، فميراث الأبناء عن الجدود ....ويوم الأربعاء، فقد أَخْلَصْتُه للدعاء، وربما ختمتُ آخره بالسّماع، والمباشرة والجِماع، وحَنَنْت إلي البَمِّ والزّير، وبقيتُ أيَّ حِلْم وزير، أصغي إلى خرير الماء، وأستغفر الله عمّا أبحثُ من الفروج والدّماء...»(٣).

ولا ندري لماذا وجه السّرقسطي نقده الحاد إلى القضاة؟ هل لأنه كان يرى أن فسادهم يشكل خطراً كبيراً على المجتمع، لأنهم يُعوّل عليهم في إرشاد الأمة ونصح الناس، وينبغي أن يكونوا القدوة في مسلكهم؟ أم أنه كان يحسدهم على مكانتهم؟ فالقضاة والفقهاء كانوا أعلى مرتبة من الأدباء في عهد المرابطين.

---

(١) المقامات اللزومية: ص١٧٦.

(٢) المصدر نفسه: ص٤٣٢ – ٤٣٩.

(٣) المصدرنفسه : ص٣٢١ – ٣٣٢. .

المقامات الاجتماعية:

صوّرت المقامات الأندلسية جوانب مختلفة من المجتمع الأندلسي وطبقاته، وعالجت الأحداث الاجتماعية المختلفة، والعلاقات بين الأفراد، كما أنها انتقدت العيوب الاجتماعية، التي تفشّت في المجتمعات الإسلامية في المشرق والمغرب على السّواء.

ونبدأ أوّلاً بالمقامات التي استوحت الحريري في مقاماته السّاسانية القائمة على الكدية والحيلة في جمع المال، وأوّل ما يلقانا من ذلك مقامات السّرقسطي، الذي قلّد مقامات الحريري بعدد مماثل، وزاد عليه فيها التزام ما لا يلزم في سجعها ونثرها.

تقوم العقدة في أكثر مقامات السّرقسطي على تخفّي بطلها، وعلى مهارته في الوعظ، فقد بنى أكثر مقاماته على فكرة الوعظ، التي يتخذها البطل وسيلة لخداع الناس، ونيل عطاياهم، ومن مقامات الكدية عند السّرقسطي على سبيل المثال لا الحصر، المقامة النجومية[1]، والمقامة الحَمامِيّة[2].

ولابن أبي الخصال مقامة ساسانية[3]، عارض بها الحريري في مقاماته القائمة على الكدية والاحتيال، وهي تقوم على الكدية والاحتيال على طريقة أبي زيد السّروجي في مقامات الحريري.

وذهب أحد الباحثين إلى أن غرض الكدية كان نادراً بل معدوماً في المقامات الأندلسية في عصر الطوائف والمرابطين، وأن خلو المقامة من الكدية ظاهرة إيجابية في المجتمع الأندلسي، تدل على رفضه للاستجداء والتذلّل[4]. ويبدو أنه لم يطّلع على قدر

(١) انظر المقامات اللزومية : ص٣٠٦ – ٣٢٠

(٢) انظر المصدر نفسه : ص٤٧٢ – ٤٨٠

(٣) انظر نصّ المقامة في رسائل ابن أبي الخصال : ص٤٢٠ – ٤٤٩، وانظر تحليلنا لها ص ١٢١ من دراستنا هذه.

(٤) د. حازم عبد الله الأخضر: النثر الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين : ص٣٤٢.

كاف من مقامات الأندلسيين في تلك الفترة، مما جعله يطلق حُكْماً غير مستند إلى دليل، فمقامات السّرقسطي من نتاج عصر الطوائف المرابطين، وابن أبي الخصال كان من الكتّاب في بلاط علي بن يوسف بن تاشفين (ت ٥٣٧هـ)، وكلاهما -كما ذكرنا- له مقامات في الكدية نهجت نهج مقامات الحريري. كما أن المقامات التي وقف عندها الباحث وحلّلها كمقامة ابن مالك القرطبي، ومقامة عمر بن الشهيد، ومقامة ابن المعلم[١]، فهي وإن كانت تخلو من معاني الكدية والإلحاح في الطلب والتوسل، إلاّ أنها تخلو منها في الظاهر فقط، فمقامة ابن مالك القرطبي كلّها مدح من أجل العطاء، ومقامة ابن الشهيد فيها وصف للفقيه ابن أبي الحديد بهذه العبارات:« حنّت نفس الفقيه بسيادتها إلى كرم عادتها، من الإحسان إلى الأتباع والتسلية لنفوس الأُلاّف والأشياع»، فما معنى إحسان الفقيه إلى الأتباع؟ وما معنى تسليته للأُلاّف؟ أليس في هذا ما قد يدل على طلب عطاء واستجداء؟ ومقامة ابن المعلم إنما هي بحث عن الأمراء، الذين يجزلون العطاء، و يكثرون العطايا والجوائز. ومقامة ابن برد من أشد المقامات صلة بالكدية، وهي تشبه تماماً كدية أبي الفتح الإسكندري، أو أبي زيد السروجي[٢].

والأقرب إلى الصواب – في رأينا – هو ما ذكره د. إحسان عباس عن طبيعة المقامة الأندلسية في عصر الطوائف والمرابطين من أنّ قصّة الكدية والحيلة المقترنة بالمقامة قد انتفت من بعضها[٣]، ولكن مقامات تلك الفترة لم تخل خلوّا تاماً من الكدية والحيل المتعلقة بها.

وإذا كانت طريق الكدية التي شقّها السّرقسطي لم تستقطب اهتمام أصحاب المقامات الأندلسيين، ولم يتابعها أندلسيون آخرون، ممّن فضلوا توظيف فن المقامة لطرق

(١) انظر نصوص هذه المقامات في الفصل الثاني من دراستنا هذه.

(٢) انظر نصّ المقامة وتحليلها ص ٩٧-١٠٣ من دراستنا هذه.

(٣) تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين): ص٣٠٨.

أغراض الشعر القديمة والنقد الأدبي، فإن عودة موضـوع الكديـة إلى الأدب الأندلـسي نجدها في مقامة العيد لابن المرابع الأزدي، وهي واحدة من المقامـات الأندلـسية التـي حافظت على رشاقة مقامات الكدية.

وآخر حكاية من حكايات الكدية بالأندلس من حيث تاريخ التأليف هي المقامـة التي كتبها عمر الزجّال بعنوان «مقامة تسريح النّصال إلى مقاتل الفصال».(١)

لجأ السّرقسطي في بعض مقاماته إلى تصوير العيوب الاجتماعية ونقدها، ومن أهم مقاماته في تصوير هذا الجانب مقامة «الدب»(٢)، وفيها يقوم الشيخ المحتال بالتكسب من ترقيص دبّ له، والناس مجتمعون مـن حولـه. والمقامـة التاسـعة والأربعـون في الطـب والعرافة، وفيها يصور بطله وقد انتحل مهنـة الطـب والعرافـة معـاً، فـإذا بـه الطبيـب النطاسي يعالج فتىً أصابه المرض ففعل به الأفاعيل فشقه مائل والزبد من فمـه سـائل، ويلجأ إلى عالم الجن يستعين بهم في تخفيف آلام مريضه، فيقول:«يا مارد سهمك صـارد، ويا مريد ماذا تريد، ما أطغاك ما أعصاك، ما أبعدك عن الخير وأقصاك، اخرج يا واغـل، فإنك شاغل، ابعد ياخاتل، فإنك قاتل».(٣)

وبعد أن يسخّر الجن لحيلة من حيله ينادي الناس قائلاً: «أيها الناس عندي في هذا الشأن سراير، وخبايا من الحكمة وضراير، أخذتها عن العلماء، ولقّنتها من الحكماء، أيـن من شكا من هذه الأعراض؟ أين من رُمِيَ مـن هـذه الأغـراض.... أيـن مـن خامرتـه

(١) انظر نصّ المقامة ص٢٤٤-٢٥١ من دراستنا هذه.

(٢) انظر المقامات اللزومية : ص٤٥٣ – ٤٧١.

(٣) المقامات اللزومية : ص٥٣٨

(١٠) المقامات اللزومية : ص١٠٥

الأشواق والوساوس، ولعبت به الأجراس والوساوس، أين من سحره ساحر؟ أو دحره داحر؟ أين من لقعته عين، أو رهقه دين؟ عليّ الضمان وأنا الزعيم وله النعيم».(١)

ويظهر من المقامة الأولى(٢) عند السّرقسطي أن كبار رجال الدولة آنذاك قد انهمكوا في الملذات، وأسرفوا في اللهو، وكان مستشاروهم يحّببون إليهم البطالة واللهو وإنفاق الأموال مما يثقل كاهل الرعيّة، ويجعلهم يغفلون عن مصالح الشعوب. وبعض رجال الدين الذين يُعَوّل عليهم في الإرشاد والنصح، أخذوا يظهرون أمام الناس بلباس التقوى، وحين يسدل الظلام ستاره يخلعون عنهم ذلك اللباس، ويلبسون لباس اللهو وطلب المتعة، وهو بذلك ينتقد ظاهرة النفاق التي يعيشها هؤلاء، ويظهر ذلك من قول السّائب للسّدوسي الكَوْر إلى الحَوْر، أين منك الوعد والوعيد، والمبدئ والمعيد(٣)». وقد أخفى السّرقسطي اسم البلد الذي يحدث فيه هذا الفساد، وكأنه يقصد كلَّ البلاد الإسلامية، التي رحل إليها بقلمه.

وانسحبت هذه الحياة اللاهية على العامة أيضاً، فتفشى الفقر، وكثر الجياع. وفي ظل هذا الوضع المتردّي، اختار السّرقسطي لبطله أن يكون متشرداً ينتقل من بلد إسلامي إلى بلد آخر، بل رحل إلى الصين، التي لم تكن بلداً إسلامياً، وإن كان فيها مسلمون. ويدل تنقله المستمر على شعوره بعدم الاستقرار، وإحساسه بالغربة في بلده، مما جعله يختار لبطله التشرد والانتقام من المجتمع عن طريق أسلوب الخداع الذي اتبعه معهم، وهو الوعظ عن طريق الحديث الليّن،الذي يجعلهم يسارعون إلى جيوبهم لإعطائه المال.

---

(١) المقامات اللزومية : ٧٥.

(٢) المقامات اللزومية: ص٤-١٥.

(٣) المقامات اللزومية: ص١٣٤.

ويبرّر السّرقسطي تفشّي ظاهرة حب المال، الذي أصبح كلّ شيء في حياة الناس من خلال تعبيره على لسان بطل مقاماته الذي يقول شعراً(١):

جَرَّبْـــتُ ذا الـــدهر وأبنائـــه   مـــن زيـــدهِ طـــراً ومـــن عمـــرو

فلـــم أرَ المجـــد ســـوى درهـــم   تحويـــه كفـــاك عـــلى قمـــر

وأصبح النسب لا يعني شيئاً أمام المال(٢):

الحـــسب المـــال فـــدع عنـــك مـــا   قـــد قيـــل مـــن عـــبسٍ وذبيـــان

وانعدمت الروابط الاجتماعية، وتفكّكَت العلاقات الأسرية، وأصبح المال كل شيء، كما يظهر من قول السّدوسي(٣):

والمـــــالُ أخٌ إنْ أخٌ   خـــان أو عاقـــك مـــن دهـــر عقـــب

ولمـــال يـــشدّ المجـــد كـــما   يـــشد بعاملـــه العقـــب

وأفرز اختلال العلاقات الاجتماعية وحب المال ظاهرة البخل، فقد أصبح ظاهرة انعدمت معها العطايا من الأغنياء، قال السّدوسي يذم ذلك(٤):

وإنـــما البخـــل داء   ولـــيس منـــه شـــفاء

ويبرّر بطل مقامات السّرقسطي احتياله بسبب انعدام العطف، والبخل بالمال. ويبين أنه لم يكن مجبولاً على الغَدر، فيقول(٥):

عندي الوفاء وعندي الـبر واللطـف   لو أنّ أبنـاء هـذا الـدهر قـد عطفـوا

---

(١) المقامات اللزومية: ص٣٤٩.

(٢) المصدر نفسه ص٥٤٥.

(٣) المصدر نفسه ص٤٥٧.

(٤) و (٥) المقامات اللزومية: ص٢٨٩-٢٩٠.

ولا جُبِلْتُ على غدر ولا ملل   لكنها شيم ما عابها نطف
وإنما بخلوا عنا بوفرهم   فحسبنا خلس في الدهر تختطف

ويقول أيضاً[1]:

فاحذر الخلّ في الزمان وَخَفْه   خيفة القوم سطوة الحَجّاج
واحترس من خداع قوم ذئاب   وُسِمُوا بالوعّاظ والحُجّاج

ولجأ السّدوسي بطل مقامات الحريري، إلى الحيلة والخداع عن طريق الوعظ، لينتقد عدة ظواهر اجتماعية منها: لجوء بعض الناس إلى الكسب المادي، ولو عن طريق الاحتيال والنصب:

فاحْتَلْ لعيشك واجْهد   بالسَّلم أو باليمان[2]

وبالإضافة إلى ما ذكرناه فقد عالجت مقامات السّرقسطي عدداً من القضايا: أبرزها مقته لتفشّي ظاهرة الخمرة، التي يرى فيها شاربوها هروباً من الواقع. وحارب السذاجة والخرافات. كما استهجن فساد القضاء مما أدّى إلى تمزيق الأندلس، وشكا الدهر، وشكا الغربة، كما شكا الشيخوخة، وتغيّر الناس، والانحلال الخلقي.

وفي مقامة ابن المعلم[3] نجد حديثاً حول أوصاف الصديق، وأحوال الصداقة، وألوان العلاقات بين المتحابين والمتآلفين، مما يصح أن يكون أقرب إلى الرسالة الإخوانية منه إلى المقامة العادية.

---

(١) المقامات اللزومية، ص٤٢٣.

(٢) المصدر نفسه ص٩٩.

(٣) انظر ص ٩٧ دراستنا هذه.

وصوّرت المقامة الأندلسية أيضاً بعض المشكلات اليومية المتعلقة بحرفة الإنسان ومهنته، ومن أمثلة ذلك مقامة ابن الشهيد، التي تطرّق فيها إلى صنعة الكتابة وحال الكاتب، وتعلّق هذه الحال واعتمادها على إتقانه أو عدم إتقانه لفنونها وأساليبها، فهي «محنة من المحن، ومهنة من المهن، والسعيد من خدمت دولة إقباله، والشقي من كانت رأس ماله... »[1].

ومن النواحي الاجتماعية التي اعتمدتها المقامة الأندلسية الفكاهة والنادرة والترفيه عن النفس، ونقرأ ذلك أيضاً في مقامة ابن الشهيد التي تحدّث في مستهلّها عن صنعة الكتابة، ثم انتقل إلى وصف رحلة له مع جمع من أصحابه، ووصف ما كان في هذه الرحلة من مواقف فكاهية ممتعة يجري فيها حوار بينهم وبين رجل استضافوه، وأراد أن يذبح لهم ديكاً هرماً، فاعترض الديك، ودافع عن نفسه، وحاول أن يخلص نفسه من الموت، فلفت نظر صاحبه وضيوفه إلى فراريج أطيب لحماً، وأسرع طبخاً..»[2].

ومن الأغراض التي عرضت له المقامة الأندلسية تصوير المناسبات السياسية والحربية، وبخاصة مناسبات النصر، والتوجه إلى الأمير أو السلطان بتلك المناسبة، ومن هذا النوع مقامة أبي محمد بن مالك القرطبي، التي وجّهها إلى المعتصم بن صمادح، وأفرد صدرها للحديث عن معركة عاد الأمير منها، وتوجيه التهاني إليه «بشرى لنا ولدولته الغرّاء، وهنيئاً لنا ولحضرته الزهراء....»[3].

ومقامة العيد لابْن المرابع الأزدي من مقامات الكدية التي تصوّر جوانب كثيرة من المجتمع الغرناطي، تصوّر ربّة البيت وما تكلّف به زوجها من مطالب فوق طاقته،

---

(١) انظر ص ٧٥ من دراستنا هذه.

(٢) انظر ص ٨٠ من دراستنا هذه.

(٣) انظر ص٨٧ من دراستنا هذه.

وتصوّر القصّاب في زيّه وقد شدّ في وسطه مئزره، وقصّر ثوبه، وكشف عن ساقيه، وشمّر ساعديه، وتصوّر جشعه في البيع. وترينا نظام التوثيق وكتابة العقود في الأندلس، وما كان يشيع هناك من صناعة الفخّار، والمحتسب ومن يساعده من الأمناء ورجال الشرطة، والعجائز وتطفلهن، والأولاد والتفافهم حول كلّ ما يرون»[1].

المقامات الوصفية:

نجد فيما بين أيدينا من مقامات الأندلسيين مقامات تدور حول موضوعات وصفية، ومن ذلك مقامة عمر بن الشهيد، التي هي أشبه بوصف رحلة له وصفاً أدبياً طريفاً فيه غير قليل من الدعابة، ففي أحد فصولها يصف ابن الشهيد يوماً ربيعياً جميلاً كانت فيه رحلة مع صحبه، وفي فصل ثان يصف منزل بدوي دخله مع صحبه، ويتحدث عن أثاث بيته حديثاً فَكِهاً. وتختلف الصورة في أحد فصول المقامة، إذ تبلغ الرحلة بالكاتب إلى «دار البطاريق، وملعب الكأس والإبريق» في قرية من قرى النصارى، فيتلفت إلى الناحية الجمالية في الطبيعة والناس، فيصفها بكل روعة[2].

وتمضي فصول المقامة تسوّق الوصف، وتنمق الفكاهة من خلال المشاهدات الكثيرة، يقول: «..... ولئن مرّت بك كلمات محاليّات، تنظمها سلوك هزليات، فإنما هي أوصاف طابقت موصوفاتها، وحُلى قَدْر محلّياتها»[3].

وعلى هذا النحو من الوصف والاستقصاء يمضي ابن الشهيد في مقامته، حتى لتبدو أشبه بلوحة تصويرية تَعجّ بالحركة والحياة.

---

(١) تاريخ الأدب العربي (عصر الدول والإمارات: الأندلس) ص ٥٢٢.

(٢) انظر نص المقامة ص ٧٥- ٨٣ من دراستنا هذه.

(٣) انظر ص ٢٤٤-٢٥٠ من دراستنا هذه.

أمّا ابن مالك القرطبي فقد أطال في وصف فتوح ابن صُمادح وانتصاراته في الحروب، ووصف جيشه وأسلحته من دروع وسيوف ورماح وخيل، وصوّر عودة الجيش المنتصر، مظهراً براعته في الوصف، وقدرته على التصوير والإبداع.[١]

ومقامة الفتح بن خاقان، وإن كانت في الهجاء أصلاً، إلاّ أنّ صاحبها يستهلّها بوصف بلنسبة، «فهي في ثغر الجزيرة ابتسام، فأنختُ بها الجمل، وقد وافت الشمس على الحمَل، وصدح القُمريّ وهدل،وقام وزن النهار فاعتدل، فرأين أرضاً عليلة الأرواح، ظليلة الأدواح، صقيلة الجوانب، مترعة المذانب.....، تذهل بتماثيلها، ذوات الأطواق عن هديلها...»[٢].

ومقامة الوادي آشي وإن كان الغرض منها مدح القائد ابن ميمون فإن الجانب الوصفي غالب عليها، فهي تقوم على تعدّد المشاهد، وانتقال الحدث من مكان إلى آخر، يقول: «وصلت إلى مدينة وادي آش، وجسمي لا يتبيّن نحولاً في فراش، وفِراشي فوق أجنحة الفراش، فمثلت في حيطانها، وحصلت بين رباها وغيطانها، فرأيت للحسن مقر إيراد وإصدار، وجمال قطر لا يجري على مقدار...[٣]». ومنها قوله : «ولما قرب حينُ السّفر وحان، وتعرّض في الأفق ذَنَب السّرحان، بعث الله النسيم عليلاً، وهو يجرّ ذيله بليلا، والظلام مُولّياً عليلاً، والبرق يصدع جلباب الظلام، والرياح تقتاد أزمّة الغمام، وسُلّ سيف البرق من غمده، وسبّح الرعد ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ ، فأهملت السماء دموعها، وأروت الأرض معاهدها وربوعها...[٤]».

(١) انظر المقامة ص ٨٧-٩٤ من دراستنا هذه.

(٢) انظر ص ١٠٣ من دراستنا هذه.

(٣) انظر ص ١٣٦من دراستنا هذه.

(٤)انظر ص ١٤٠ من دراستنا هذه.

والمقاطع الوصفية في مقامات السّرقسطي طويلة وكثيرة، لا يتسع المقام لاستقصائها، ولكننا سنشير إلى بعض المقاطع الوصفية التي تعكس طابع التميّز والتجديد في مقاماته، ففي المقامة السادسة يصف ميناء «عدن» وصفاً دقيقاً،ويكشف عن المغامرة في ركوب البحر، والأخطار التي تلاحق السفن أثناء تجوالها في البحار[1].وفي المقامة السابعة، وهي البحرية – ومكانها مرفأ الشحر–، يقوم بينهم خطيبا، ويهول عليهم أمر السفر في البحر[2]».

وبلغت مقامات وصف البلدان – إن صحّت تسميتها بالمقامات – ذروتها عند لسان الدين بن الخطيب، فهي أقرب – في نظر الدراسين – إلى أدب الرحلات والرسائل منها إلى المقامات، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك في موضع آخر من هذه الدراسة.

ومن مقامات الوصف الخالص، التي وصلت إلينا، قطعة من مقامة ابن غالب الرصافي في وصف القلم[3]، وهذه المقامة وصلت إلينا مبتورة، مما فوّت علينا فرصة الوقوف على نموذج مكتمل من مقامات الوصف.

والذي نلاحظه أن أغلب القطع الوصفية في المقامات الأندلسية، لم تأت مقامات مستقلة بذاتها، وإنما جاءت فصولاً، أو قطعاً من المقامات. وقد تفنّن المقاميون في الوصف، وكان التشبيه هو العنصر الأساسي، الذي اعتمدوا عليه، في تكوين صورهم وتشكيلها، فجاءت هذه القطع الوصفية أشبه بلوحات فنية بسيطة الألوان، لا غموض فيها ولا تعقيد، كما أننا نجد فيها مقدرة عالية على الوصف، وبراعة في استقصاء الجزئيات، ومهارة في التشبيه والتصوير.

---

(١) المقامات اللزومية (المقامة السادسة) : ص ٦٥ – ٧٦.

(٢) المقامات اللزومية (المقامة السابعة): ص٧٧ – ١٠٣.

(٣) انظر ص١٣٢ من دراستنا هذه.

مقامات المدح:

بتأمل ما بين أيدينا من المقامات الأندلسية، يمكننا القول: إن المقامات -وهي من فنون النثر – قد زاحمت الشعر في أخص أغراضه، أعني المدح، والهجاء والغزل.

ويبدو أن بعض الممدوحين قد سئموا المدائح الشعرية ، فها هو ابن المعلم ، يذكر في مقامته أن رسول ممدوحه طلب إليه أن يقول في ممدوحه نثراً بدلاً من الشعر، يقول: «وأفَضْنا في وصف معاليه، واستنشدني فأنشدته ما قلته فيه. فقال: دعني من زخرف شعرك، وصفْه لي بمنصفِ نثرك ، فقلت : على الخبير سقطّت ، وأنا الكفيل بما سألت وشرطت ، وأسمعته سجعاً لا نظماً ونثراً لا شِعْرا»[١].

_ وقد اشتدت المفاضلة بين الشعر والنثر عند النقاد والأدباء الأندلسيين ، وكان لكل من هذين الفنيين مؤيدوه وأنصاره، وقد يكون لارتباط الشعر بالمبالغة والكذب في أذهان الكثيرين أثر في أن يتناول النثر موضوعات الشعر، وهذا واضح من عبارة ابن المعلم السابقة " فالشعر زخرف ، والنثر منصف " وقد عرفنا شيئاً من ذلك في مقامة السّرقسطي ، ومن أجل هذا نجد أن بسام في كتابه « الذخيرة» يقدم الكتّاب على الشعراء، ويبدأ بذكرهم، لأنهم - كما يقول – صدور في أهل الآداب[٢]، فهو يعتبر الكتّاب أرفع شأنا ، وأجل منزلة من الشعراء . وعندما كان يترجم للأدباء ، الذين كانت شهرتهم في مجال الشعر كابن زيدون ، وابن خفاجة وغيرهما ، كان يبدأ الحديث عن نثرهم أوّلاً، ويورد فصولا منه ، ثم ينتقل إلى مختاراتهم الشعرية . ونجد مثل هذا الاتجاه أيضا عند ناقد أندلسي آخر هو ابن عبد الغفور الكلاعي الذي مال إلى تفضيل النثر على الشعر، لأسباب دينية وخلقية، لا يتسع المقام لذكرها[٣].

---

(١)انظر ص ٩٩ من دراستنا هذه.

(٢) الذخيرة : ق١ م١ ص ٣٢ .

(٣)انظر كتابه : إحكام صنعة الكلام ، ص ٤٤ وما بعدها.

لقد جاءت نسبة كبيرة من النصوص المعدودة في المقامات متصلة بموضوع المدح. فمقامة ابن المعلم التي رواها ابن بسام في " الذخيرة" من مقامات المدح الخالص ، وهي تغرق في وصف الممدوح ، ورصد مناقبه ، وإظهار الحاجة إلى عطائه. وهذه المقامة تزاحم الشعر في موضوع المدح، فهي تبتعد عن النمط التقليدي للمقامة، وتكاد تلتزم بناء القصيدة، والبكاء على الأطلال من خلال موضوع المدح، فها هو يفتتح الكلام بما يشبه بكاء الأطلال، ويذكّر به، فيقول: «سقى عهدك أيتها الدمنة الزهراء كل عهد، وجاد قطرك أيتها الروضة الغناء كلّ قطر، وسال عليك من أدمعي كلّ مُلِثّ هطال...»(١)

وعلى الرغم من أن هذه المقامة تعرض لنظرات نقدية في الحياة والناس، إلاّ أنّها تدور في الأساس حول المدح، الذي كان شعراً منثوراً، كقوله:« هو الإمام الطاهر، والكوكب الزاهر، والأسد الخادر، والبحر الزاخر، أوهب الملوك للذخائر، وأعفاهم عن الجرائر، وأرفعهم قدْرا، وأوسعهم صدرا...»(٢).

وتنتهي المقامة بطلب العطاء من الممدوح، فكأنها – كما يرى د. محمد رضوان الداية – قصيدة مدح طويلة،(٣) وإلى مثل هذا كان قد ذهب د، شوقي ضيف من قبل عندما قال: «وهي أشبه بقصيدة مدح طويلة، دبّجها في المعتصم بن صُمادح»(٤). وكان أحد الدراسين قد رأى في نصّ ابن المعلم موضوعاً ذا شقين اثنين: أحدهما يتصل بالسعي الدائم الذي عُرف لدى الأدباء بالتجوّل بين بلاطات الملوك، والتنقّل بين الحواضر بحثاً عمن يمنح الأوفر، ويقري أكثر. والثاني هو أن القيم الأدبية الجديدة،

(١)انظر ص ٩٧ من دراستنا هذه.

(٢)انظر ص ٩٩ من دراستنا هذه.

(٣) في الأدب الأندلسي: ص ٢٥٦.

(٤)تاريخ الأدب العربي (عصر الدول و الإمارات : الأندلسي) : ص٥١٩.

التي رجّحت كفة النثر، حين غزا الشعر في عقر داره، ولم يترك له مجالاً يختص به، فصار المدح بالنثر مما يقبل الملوك عليه، ويرغبون فيه[١].

ويظهر الاتجاه الشعري في المدح في مقامة ابن مالك القرطبي، التي خصّص أكثر فصولها لمدح المعتصم بن صُمادح، يقول فيه:«فلله يومنا بالأمس، ما أجلبه لألطاف الأنس، حين طلع علينا من كان طلوعه ألذّ إلى الأعين من وَتينها، وأوقَعَ في القلوب من سكنها، طَلَع طلوعَ الصباح المتهلِّل، وجاء مجيء العارض المسْبل، دَلَفْنا إليه كالقطا الأسراب، فبهرنا الأمر العُجاب، وكانت الأفئدة مما وجَفت، والألباب ممّا رجفت، ألاّ يرجع نافرها، ولا يقع طائرها»[٢].

وخلاصة موضوع هذه المقامة أنّها مجموعة من القِطَع في مَدْح ابن صمادح، ووصف حروبه، وإشهار محامده وفضائله، ولذلك أسماها بعض الدارسين «المقامة المعتصمية».[٣]

ومن مقامات المدح أيضاً مقامتان لمحارب بن محمد الوادي آشي، إحداهما وصل إلينا اسمها، دون نصّها، وهي المقامة العياضية في مَدْح القاضي عياض، أمّا الثانية فقد أوردنا نصّها[٤]، وهي في مدح القائد ابن ميمون، وذِكر شجاعته في الحروب البحرية.

أمّا لسان الدين بن الخطيب فقد كتب مقامته «السّينية» في مدح السلطان أبي عنان المريني، وهي من مقامات المدح الخالص، يقول فيها: «....سلَّ السّعدُ حسامه، وسدّد سهامه، سيف السّنة السمحاء، سحابة سماء السخاء، أسد المراس، مُلبِس المفسدين لباس الباس، ميسِّر الحسنة للناس.....حَسْبك باسمْ ومُسَمّى، ونفس نفيسة

(١) علي بن محمد: النثر الأدبي الأندلسي في القرن الخامس : ص ٥٧٧.

(٢) انظر ص ٨٧ من دراستنا هذه.

(٣) علي بن محمد: النثر الأدبي الأندلسي في لقرن الخامس : ص٥٧٣.

(٤) انظر ص ١٣٥-١٤٦ من دراستنا هذه.

سكنت الإسلام جِسْما ، وأسْنت لسعادة المسلمين قَسْما، تحرس ألْسُنُ محاسنه اللّسِنين، ويستبعد إحسانه إحسان المحسنين، سما مجلسه، وسعد مُلتمسه، وتَسَنّت سلامته، وحرست سبل السّنة استقامته.....»[1].

ومقامة «قسطاس البيان في مراتب الأعيان» من مقامات المدح[2]، كتبها يحيى الأركشي في مدح الفقيه علي بن خلف. وقد أورد ابن عبدالملك المراكشي قطعة موجزة من هذه المقامة، ولو أوردها كاملة لأمكننا استجلاء معاني المدح فيها.

ولم يقتصر المدح في المقامات الأندلسية على مديح الأفراد والأشخاص، بل تجاوز ذلك إلى مدح المدن، ومن أمثلة ذلك مقامة الوزير الكاتب أبي عامر بن أرقم، التي مدح بها مدينة غرناطة. ويدور الحوار في هذه المقامة، التي وصلت إلينا مبتورة، بين شخصين أحدهما يدعى «فلان بن فلان» وهو الراوي، والآخر: من أبناء الجاه والخواص، وهو البطل. وتبدأ المحاورة، وأوّل سؤال يدور فيها حول غرناطة نفسها، فيسأل الفتى: أين أمّك؟ وما همك؟ قلت: غرناطة، فقال: حيث اللّمة المشفِقَة المحتاطة، والسّدى والنّدى، والأمجاد والأنجاد والإصراخ والإنجاد، والغور والنجاد، أُكْرِمْتَ فارتَبطْ، قلت: وما عِلْمُك بها؟ قال: هي المطلع، وإليها بحول الله المرجع،.... قلت: فسطاطها؟ فقال: قصور تُقِرّ لها إرم بالقصور، وسور أعين الحوادث عنه صور، كأنه الثغر المبتسم، والسِّلك المنتظم........»[3].

ومن مقامات مدح البلدان وأهلها أيضاً مقامة لمحمد بن خلف الهمذاني الغرناطي، الذي كتب مقامة في أهل غرناطة، وصفها السيوطي -كما ذكرنا- بأنها حسنة.[4]

---

(١) انظر نصّ المقامة في دراستنا هذه ص ٢٠٩-٢١١.

(٢) انظر ص ١٣٤ من دراستنا هذه.

(٣) قلائد العقيان: ص ٣٧٣، وانظر دراستنا هذه ص ١٤٧-١٤٨.

(٤) انظر ص ٣٥ من بحثنا هذا.

مقامات الهجاء

كما سخّر الأندلسيون المقامة في المديح فقد استخدموها في الهجاء أيضاً، وهم بذلك – كما أسلفنا– يوظفون النثر في أغراض الشعر.

وتناولت مقامات الهجاء هجاء الأشخاص، أو هجاء مدينة وأعيانها. فمن مقامات هجاء الأشخاص المقامة البلنسية للفتح بن خاقان في هجاء شيخه ابن السيّد البطليوسي. وقد بلغت هذه المقامة مبلغاً كبيراً من الفحش والسّب والتهكم والاستهزاء[1].

أمّا هجاء المدن وسكّانها فمنه المقامة القرطبية[2]، التي تدور أحداثها في مدينة قرطبة في القرن السادس الهجري، وتتناول أعيانها من قضاة وعلماء وأدباء وفقهاء بالسّب والطعن والتجريح.

ومن مقامات هجاء المدن وأهلها أيضاً المقامة الشِّلبيّة[3]، التي سار صاحبها على نهج المقامة القرطبية، فوقفها على هجاء أعيان مدينة «شِلْبْ» من قضاة وأدباء وعلماء.

وتذكر المصادر مقامة صُنعت في هجاء أعيان مالقة ونُسبتْ إلى عليّ بن جامع الأوسي[4]، ولكنّ نصّ هذه المقامة قد ضاع –فيما يبدو– ولم يصل إلينا.

(١) انظر نصّ المقامة وتحليلها ص ١٠٣-١١٢ من دراستنا هذه.

(٢) انظر نصّ المقامة وتحليلها ص ١٥٠-١٦٩ من دراستنا هذه.

(٣) انظر نصّ المقامة وتحليلها ص ١٧٠-١٨٠ من دراستنا هذه.

(٤) كتاب أدباء مالقة: ص ٣٣٢. وانظر ترجمته ص ٣١ من دراستنا هذه.

مقامات الوعظ والدعاء:

سوف نزيد هذا الأمر توضيحاً في حديثنا عن علاقة المقامة بالخطبة. ولكنّنا نقول هنا: إن بعض مقامات[1] السّرقسطي قد قامت أساساً على الوعظ، الذي يهدف إلى نبذ الدنيا ومغرياتها، والاستغفار من الذنوب، والتقرب إلى الله عزّوجل، وابتغاء مرضاته.

فنقرأ في المقامة العشرين قوله على لسان البطل: «فبينا أنا ألاحظ الأهرام، وأعاين الأشخاص منها والأجرام، فأحقّرُ نفسي وأذلّلُها، وأُرَجّيها بالصفح وأُعَلّلها، والدمع قد انتثرت دُرَرُه، وانسكبت دَرَرُه، فإذا بصوت عال، والناس بين أسراب إليه ورِعال، وهو يقول: «أين من شيّد وأطال، ومَلَك فاستطال، وكفر وتمرّد، ونكّب عن السبيل وعَرَّد، أين فرعون ذو الأوتاد، وكنعان أخو العدد والعَتاد...هذه الآثار والرسوم، فأين الأجساد والجسوم. تمرّون على القبور والأجداث، ولا تفكّرون في النوائب والأحداث...»[2].

والمقامات اللزومية تقوم في أغلبها على الرحلة من الغرب إلى الشرق، من الفرع إلى الأصل، من بلاد الإسلام الحديثة البعيدة إلى مهده القديم. رحلة الغذاء الروحي بالنسبة إلى السائب، ورحلة الكدية بالنسبة إلى الشيخ أبي حبيب. ولم يجر السّرقسطي إلاّ مقامة واحدة[3] في الأندلس وطنه الخاص، بينما جرت أحداث مقاماته الأخرى في بلدان العالم الإسلامي. وهذه نزعة تندرج في إطار الحنين إلى المشرق بالروح والفكر والأدب. وقد أدخل السّرقسطي هذا الحنين إلى مقامة الوعظ، فيقول في المقامة الثامنة، وهو يخاطب المذنبين: «ركبتم الجرائر، ولم تُخلصوا السرائر، وقَصّرتُم في اللّوازم، وهَزَأتم بالعوازم، كلّكم إلى منزله

---

(١) منها المقامات ذوات الأرقام: ٤، ٥، ٦، ٧، ٨، ١٨، ٢٠.

(٢) المقامات اللزومية: ص٢٥٤-٢٥٥.

(٣) هي المقامة الثامنة والأربعون (المقامات اللزومية: ص٥٢٤-٥٣٥) وتجري أحداثها في طريف، وهي بلدة تقع على البحر في أقصى جنوب الأندلس. وذكر السرقسطي الأندلس عرضاً في المقامة البربرية، وهي السادسة والأربعون، وأحداثها تدور في مدينة طنجة من المغرب الأقصى.

راجع، فطاعم أو هاجع. يفترش الحشايا، وينتهز الغدايا والعشايا. ولا يفكّر في غريب سُلِب وطنه، وابتُزّ مَسْرحه وَعَطَنُه. ولابْن السبيل والضيف النزيل، حق في الكتاب والتنزيل...»[١].

أمّا المقامات التي تضمنّت الدعاء فمنها المقامة اللزومية الرابعة والعشرون، التي يقول فيها السّرقسطي على لسان شيخ يدعو: «اللّهُم إليك المآب، وأنتَ أعْلَمُ ما الناس وما الذئاب. بيدك المتاب، ومنك الإعتاب...فاجعل لهم من رحمتك نصيباً، ولا ترِهم يوماً عصيباً، اللهُم اسلبهم ثوب الرياء، وأَلْبسْهم ثوب الحياة والحياء. وألِنْ قلوبهم القاسية، واعطف نفوسهم العاصية»[٢].

وهناك مقامتان لابن قزمان الزجال تضمنتا الدعاء أيضا، الأولى في استهلال شهر رمضان، والثانية في استهلال شهر شوّال، وردتا في كتاب «الإحاطة» لابن الخطيب، وقد أوردنا نصّهما في دراستنا هذه[٣].

---

(١) المقامات اللزومية: ص١١٣-١١٤.

(٢) المصدر نفسه: ص٢٩٥.

(٣) انظر نصّ المقامتين ص ١٢٤-١٢٩ من دراستنا هذه.

المقامات الغزلية:

الغزل من الموضوعات الشعرية التي تناولتها المقامة الأندلسية، فقد اتجهت بعض المقامات إلى التغزل بالجواري الحسان، وذكْر الأوصاف الحّسية، كما أنهم أنشأوا مقامات خاصة بموضوع الغزل، مثل« العياضية الغزلية» لابن عياض القرطبي التي لم تصل إلينا كاملة، وإنما وصلتنا قطعة منها، أوردها ابن سعيد في كتابه المغرب..»(١)، ونعتها بأنها «ترجمتْ عن لطافته ومعرفته وانطباعه»(٢). وقد اشتمل الجزء الذي وصل إلينا من هذه المقامة على تعابير غزليّة حسّية من مثل قوله:«من خصور القيعان إلى روادف الرعان»، وقوله:«ولا أمل إلا اعتلاق خِلّ ظريف» (٣)

وبالإضافة إلى الموضوعات المتعدّدة، التي تناولتها مقامات السّرقسطي، فإننا نجد واحدة من مقاماته، تحدّثت عن لواعج الحب وآثاره، ومعاناة العاشق الوَلْهان، ووصف ما يعانيه عند رؤية الأطلال، فيقول:« دخلت أصبهان، ومعي صاحب من بني نَبهان...كانت له علاقة وَجْدية، وصَبابة نجدية، تُذْهِبُ عليه نَفْسَه ذهابا، ويروح في يد الحب سَلْباً ونِهابا، فبينا أنا ذات يوم إذ دخل عليّ بتأوّه عن حسرات، وتنفُّس عن زفرات، وجوانحه تطوي على جمرات، ترمي من الشوق بشررَات... »(٤)

وتحدّث السّرقسطي في مقامة أخرى عن المرأة الجارية التي تباع وتشترى، وذكر محاسنها الحسّية، فقال:«ودخل بنا إلى مثل القمر التمام، مفدّاة بالأخوال والأعمام، تَفْتَرّ عن شنيب كالبرد، وتهتز عن قوام كسيف الصيقل الفَرَد، ...... فإذا نَهْدٌ كالتّفاح، قد خُتِم بالعنبر النفّاح، وخَصْر بَتيل، كما لُوِي الفتيل، وكَفْل رداح، كما انْداح من الرمل مُنداح.... »(٥).

---

(١) انظر ص ١٣٠ من دراستنا هذه .

(٢) المغرب: ١/ ص٣٤٤.

(٣) انظر ص ١٣٠ من دراستنا هذه .

(٤) المقامات اللزومية: ص٢٩٩ (المقامة الخامسة والعشرون).

(٥) المقامات اللزومية : ص١٦٦.

مقامات المجون:

وهي المقامات التي تطرق موضوعاً مكشوفاً، أوما يُسمّى بـ«الأحماض»، حيث ينتقل المقامي فيه من الجِدّ إلى الهزل للترويح عن النفس.

ومن هذه المقامات ثلاث مقامات للسّرقسطي ضمن مقاماته الخمسين، وهي المقامة الثانية عشرة(المقامة الفارسية)[١]، وتشتمل على غزل مكشوف، والمقامة التاسعة عشرة(المقامة الخمرية)[٢]، والمقامة الحادية والثلاثون[٣]، وهي من المقامات غير المسمّاة، وجزء من المقامة العاشرة، وفيه غزل بالمذكر، لم يشغل المقامة بأكملها كما في المقامات السابقة.

وكما يكون المجون في الغزل المكشوف، وفي الغزل بالمذكر، وإدمان الخمرة، فإنه يكون في الهجاء الفاحش، الذي رأيناه في مقامة الفتح بن خاقان، التي شكّل الجانب الماجن جزءاً منها، حيث استخدم فيها كثيراً من الألفاظ الفاضحة المكشوفة، التي ما كان ينبغي أن يصرّح بها، ولكن ما ساد ذلك العصر من مجون ولهو أباح لهذه الألفاظ النابية المكشوفة أن تظهر في كتابة الكُتّاب، ونظم الشعراء

ومن المقامات التي ورد فيها فحش ومجون مقامة «تسريح النّصال إلى مقاتل الفصّال»[٤] للفقيه عمر الزجال، التي أوردها المقّري في «نفح الطّيب» كاملة[٥] ولكنه عندما أوردها في «أزهار الرياض»[٦]، حذف منها أبياتاً لأن صاحبها – كما يقول المقّري

(١) المقامات اللزومية: ص ١٦٠ – ١٦٩.

(٢) المصدر نفسه : ص٢٤١- ٢٥٣.

(٣) المصدر نقسه: ص٣٨٤- ٣٩٦.

(٤) المصدر نفسه: ص١٤٠- ١٤٣.

(٥) نفخ الطيب: ٥/ ص٤١- ٤٦.

(٦) أزهار الرياض: ١/ ١١٧- ١٢٤.

- «أقذع فيها، فلذا تركتُها[1]» . ويبدو أن الناس كانوا يتساهلون في إيراد الفحش في المقامات، يدلنا على ذلك قول المقّري: «وقد اغتفر الناس المقامات مع ما فيها من سخيف المقالات والأعمال بالنيّات»[2].

وبعد أن تناولْنا موضوعات المقامات الأندلسية، تبيّن أنّ فن المقامة في الأندلس كان في نفس الوقت امتداداً لهذا الفن الأدبي كما ظهر في المشرق، ومحاولة لتجاوزه. فقد تبنّى شكله الأصلي عدد من أصحاب المقامات، لكنّ إنتاجهم – أو على الأقل ما تبقّى منه- لا يكفي لتقييم مكانته في تاريخ هذا الفن.

وتحويل وجهة المقامة من الكدية إلى الرحلة والنقد الأدبي، والمدح لا يقلّل من شأن المقامين الأندلسيين وإنما يدل على قدرتهم على التفنن والإبداع. وهذا ليس من ابتداع الأندلسيين، فمن المؤلفين المشارقة من ركّز على موضوعات لم ترد أصلاً في المقامات الأولى، ونخصّ بالذكر مقامات الزمخشري التعليمية، ومقامات ابن الجوزي الوعظية، ومقامات الشاب الظريف الغرامية، وغيرها.

---

(١) أزهار الرياض: ١/ ص١٢٢.

(٢) المصدر نفسه: ٣/ ص١٠٣.

ثانياً: الخصائص الفنية للمقامات الأندلسية

بنية المقامة (الإطار الشكلي):

كان بديع الزمان الهمذاني يصدّر مقاماته بقوله: «حدثنا عيسى بن هشام قال»، ولم يحد عن هذا الافتتاح إلاّ في مقامتين، فقد استهل المقامة الغيلانية بقوله: «حدثني عيسى ابن هشام قال...»[١]، وصدّر مقامته الأذربيجانية بعبارة «قال عيسى بن هشام... »[٢].

أمّا الحريري فقد نوّع افتتاحه لمقاماته، فقد استهل أكثر من نصف مقاماته بقوله: «حكى الحارث بن همام قال...»، أما بقية المقامات فكان يُصَدِّرها بقوله: «أخبر الحارث ابن همام... » و «حدّث الحارث بن همام»، وروى الحارث بن همّام....» واستهل مقامة واحدة هي المقامة «الإسكندرانية» بقوله: «قال الحارث بن همّام...»[٣].

وبعد عبارة الافتتاح يعرض الراوي حدث المقامة، الذي يدور في الأغلب حول الكدية والحيل التي يلجأ إليها البطل لنيل رزقه، وكانت أغلب مقامات البديع والحريري تختم بأبيات قِصار من الشعر يجيء بعدها تعليق الراوي على الحدث.

وإذا ما انتقلنا إلى المقامات الأندلسية فإننا نجد أغلب كتّاب المقامات الأندلسيين لم يلتزموا البناء المتّبع عند البديع والحريري، فقد استهل ابن الشهيد مقامته بمقدمة في أصول صناعة الكتابة[٤]، بينما افتتح محمد بن مالك القرطبي مقامته بمدح ابن صمادح

---

(١) انظر: مقامات الهمذاني: ص ٣٨.

(٢) المصدر نفسه: ص٤٣.

(٣) انظر شرح مقامات الحريري: ص١٦٢- ١٨٠ (المقامة التاسعة).

(٤) انظر نص المقامة ص ٧٥ - ٨٣ من دراستنا هذه

والثناء عليه[1]، أمّا بن المعلم فقد اختار وصف الطبيعة وحنينه إلى إخوانه مقدمة لمقامته[2].

وتباينت خواتم هذه المقامات فكان كلّ كاتب ينهي مقامته نهاية لا تتفق في بنائها مع غيرها من خواتم المقامات الأخرى.

أمّا السّرقسطي فقد راعى عند افتتاحه لمقاماته- التي عارض فيها الحريري- ما رأيناه عند البديع والحريري، فقد استهل أكثر من ثلثي مقاماته بقوله:«قال......»،[3] ويقصد الراوي السائب بن تمام. أما بقية المقامات فكان يصدرها بقوله :«حدّث المنذر ابن حمام قال: حدّث السائب بن تمام... »[4]، وقد التزم السّرقسطي في مقاماته البناء نفسه الذي بنى بديع الزمان والحريري مقاماتهما عليه، فبعد أن يفتتح مقامته بواحدة من تلك العبارات يعرض لبسط حدث المقامة الذي يدور في أغلب الأحيان حول الكدية والحيلة، ثم يختم بأبيات كثيرة من الشعر إذا قورنت بتلك الأبيات التي كانت تختم بها أكثر مقامات البديع والحريري، يلحقها بتعليق الراوي على الحدث.

الراوي والبطل:

يجدر بنا هنا أن نتحدث عن نوعين من المقامات الأندلسية، **أولهما**: المقامات التي نهج فيه أصحابها نهج بديع الزمان والحريري، ومن ذلك المقامات اللزومية للسرقسطي، ومقامة عارض بها ابن الخصال مقامات الحريري. **وثانيهما**: المقامات التي لم تقم على معارضة المقامات المشرقية، ولم ينهج فيها أصحابها نهج بديع الزمان والحريري.

---

(١) انظر نص المقامة ص ٨٧- ٩٤ من دراستنا هذه.

(٢) انظر نص المقامة ص ٩٧-١٠٠ من دراستنا هذه.

(٣)منها المقامات ذوات الأرقام : ١٢،١١، ١٤، ١٦، ١٧، ١٨، ١٩، ٢٨، ٢٩، ٣١، ٣٢، ٣٣، ٣٤، ٣٥، ٣٧، وغيرها

(٤) منها المقامات ذوات الأرقام: ١، ٢، ٤، ٥، ٦، ٧، ٨، ٩، ١٣، ١٥.

فمقامات النوع الأول سارت على نسق المقامات المشرقية في وجـود راو للمقامـة وبطل لها، وتعدّ مقامات السرقسطي النموذج الأفضل لهذا النوع من المقامات؛ لكثرتها من ناحية، وثبات شخصياتها من ناحية أخرى.

والشخصيتان الرئيسيّتان في مقامات السرقسطي هما السائب بن تمّام والشيخ أبـو حبيب، وهو رجل سدوسي محتال أصله مـن عُـمان. وأحيانـاً يـذكر في بعـض المقامـات شخص ثالث اسمه «المنذر بن حُمام» لا دخل له في أحداث المقامة، وإنما هو راوية يتلقى حديث المقامة عن السائب بن تمام الذي يكنى بأبي الغمر، ويتدخل في قصة المقامة أحياناً فتيان هما ابنا الشيخ السدوسي -أو أحدهما- والأول منهما حبيب، والثاني غريب، اللذين استخدمها في بعض الأحيان للتحايل والكدية، ولكن ذلك لم يكن كثيراً، فلم يرد إلا في خمس مقامات[١].

وشخصية المنذر بن حمام – في مقامات السرقسطي- تنقـل الحـديث ولا تتـدخل فيه، حيث نجد عبارة «حدّث المنذر بن حمام، قال: حدثنا السائب بـن تمـام»[٢]، وأحيانـاً يقول «حكى المنذر بن حمام، قال: حدثني السائب بن تمام قال...» [٣].

وأما السائب بن تمام فلـه دوران في مقامـات السرقـسطي، فهـو راوي الحـديث، وأحد البطلين الرئيسين، ومن أهدافه الرئيسية البحث عـن العلـم، يقـول: «وهجـرت الأخدان والأصحاب، وأضمرت الانقياد والإصحاب، وجعلت أتطلّب أندية الكتّاب، ومشاهد ذوي العلم والكتاب»[٤]. ومن أهدافه أيضاً ابتغـاء صـلحاء النـاس وخيـارهم ليزداد خبرة بالحياة، يقول بعد أَنْ حَلّ بالإسكندرية: «وقد خلصْتُ إليها بـالوفر الـوافر

(١) المقامات ذوات الأرقام: ٨، ١٨، ٣٦، ٤٢، ٤٩.

(٢) انظر المقامات: ١، ٢، ٤-٩، ١٣، ١٥.

(٣) انظر المقامة الثالثة.

(٤) المصدر نفسه: ص١٦٤

والحال السّرية، وكنتُ إذا حللْتُ مثلها من حضرة التمستُ ما فيها من حُسْن ونضرة، وتتبعّت صلحاءها وزهّادها، وطالعتُ نجادها و وهادها....»[1]، يبتغي الوعاظ والقصاص والعلماء والشعراء، ففي عُمان يلتقي بقائم «يقصّ القصص والأنباء، ويحمل من الحديث الكَلَّ والأعباء، ينظم تارة وينثر، ويمر هوناً في حديثه ولا يعثر»[2].

وهو شخصية تسيطر عليها حالات الاضطراب فيغرق في اللهو، ويشكو الفقر والغربة، وهو شخصية ضعيفة تقع عليه الاحتيالات، أو تقع أمامه ولا يحرك ساكناً، ولا يحتج، و تتكرر عليه مرات ومرات.

وهو رحّالة لا يكاد يستقر في مكانه، فيوماً فارق جر جان إلى أرجان[3]، وآخر انحدر فيه إلي أرض حُلوان[4]، وقد تطرحه طوارح الزمن إلى أرض اليمن[5]، وقد يحل دمياط[6]، أو سنجار[7]، أوظفار[8]، أو اليمامة[9].

وهكذا فهو في ترحال دائم يتقلب من بلد إلى بلد[10]، ينجد في سيره ويُتْهم[11]، فما يزال يركب «الدهر حالاً على حال، من خصب و إمحال، وحلّ وترحال[12].. ». وكان

(١) المقامات اللزومية: ص١٠.

(٢) المقامات الزومية: ص٣٩، ٣٥٣.

(٣) المصدر نفسه: ص١٦.

(٤) المصدر نفسه ص٢٩.

(٥) المصدر نفسه ص٣٩.

(٦) المصدر نقسه: ٤٩.

(٧) المصدر نفسه: ص١٤٩.

(٨) المصدر نقسه: ١٦٠.

(٩) المصدر نفسه ص١٧٠.

(١٠) المقامات اللزومية ص١٣٦.

(١١) المصدر نفسه: ص١٠٢.

(١٢) المصدر نفسه: ض٧٧.

ينبغي من هذا التجوال الرزق حيث يقول:«أتتبّع الرزق وأستشيره، فيأبى عليّ قليله وكثيرة، أقاربه فيباعد، وأطالبه فلا يساعد»(١).

وقد تجرّه ملذات الحياة إلى اللهو في تلك الرحلات، يقول:«مازلت أذهب مع الجنوب والشّمال، وأرمي باليمين وبالشّمال،... ولم يزل المال ينقاد عِنانُه، ويدنو عَنانُه... فتسامت هِممي، وتجلّت غُممي... وجاريتُ كلّ لحوق في البطالة وسَبوق. أصبو إلى النّغم والملاهي، وأنا عن رشدي ساهٍ أو لاهٍ...»(٢). لكنّه لا يستمر على هذا اللهو، بل يثوب إلى رشده، ويندم عن تأخر متابه، يقول:« وأنا أَتذمَّم من تأخر المتاب، و أتلوم على تعذر الإعتاب»(٣).

أمّا البطل فهو الشيخ أبو حبيب السّدوسي، الذي يظهر في صور مختلفة، ولكنّه في أغلبها يبدو شيخاً كبير السن فيكون واعظاً في كثير من الأحيان، أو قاضياً، أو سيّد قوم، أو ناقداً، أو داعياً للبطالة، أو طبيباً، أو امرأة تلعب بالرجال، أو فقيراً، أو ماجناً، أو محتالاً يتفنّن في ضروب الاحتيال.

وهو شخصيّة رحّالة لا يستقر في مكان، بل ينتقل من بلد إلى بلد ومن جهة إلى أخرى، وهو أديب له قدرة بيانية فائقة تخلب الألباب، وكل من يستمع إلى حديثه يقترب منه، وقد استغل بلاغته لخدمة أهداف عامة، وهي تصوير مجتمع الأندلس ونقده. ولم يكن احتياله على الناس باستدرار عطفهم، وأخذ الأموال منهم إلا طريقة أخرى لنقده لظاهرة حب الناس للمال، الذي يسعون للحصول عليه بشتى الطرق المشروعة، وغير

---

(١) المقامات اللزومية: ص٧٧.

(٢) المقامات اللزومية: ص٣٨٤.

٣ المصدر نفسه: ص٢٣٢

المشروعة، وقد تبيّن أن المال في حياة الناس أصبح كلّ شيءٍ يقول للسائب:« الحب المـال والكرم بالأعمال[١]»، وهو شخصية متقلبة المزاج، ويسخّر أبناءه للخداع، ونجده يبرّر في بعض الأحيان انصرافه إلى الاحتيال، ومن ذلك قوله للسائب:

اعذر أخاك اليوم في فعله فربما ضرّ أخٌ نافـــــع[٢]

فهو لم يكن، يتحايل على صديقه بدافع الشر، لكنه مضطر إلى ذلـك، لأنــه، يعـاني من الهموم المادية، ويحمل شعوراً مأساوياً بالضّعف والفقر، فنجده شـاكياً مـن صروف الزمان وتقلّب الأيام. يقول عن نفسه : «أنحى عليه دهره، وتساوى يومه وشهره، ونبت به أعطانه، وشطّت عنه أوطانه، و نفض الزمان أغصانه، وسلب حَصانه وحِصانه[٣]».

وقد يعترف البطل للراوي بآثامه،فيقول:« فحدر عن لثامه، واعـترف بآثامـه».[٤] وبرغم شعوره بالذنب فإنه لا يتوب، وقد صرّح بذلك الرواية الـذي يـئس مـن متـاب البطل، الذي يكرّر معه التحايل برغم المال الذي يعطيه له وبرغم معرفته لـه، وكـل مـا يصدر عنه هو الاعتذار في بعض الأحيان.[٥]

ويرى أحد الباحثين أن السّرقسطي لم يتخذ للبطلين الرئيـسين في مقاماتـه اسـمي السائب وأبي حبيب اعتباطياً، ويعلّل اسم السائب بقوله: «السائب ليس سائب الاسـم فقط، بل سائب الجـسم أيـضاً؛ لأنــه رحّالـة لا يكـاد يـستقر في مكانـه ولكنـه حبـيس

---

(١) المقامات اللزومية: ص٢٩٦.

(٢) المصدر نفسه: ص٣٢٠

(٣) المقامات اللزومية: ص٣٩١

(٤) المصدر نفسه : ص١٧١

(٥) المصدر نفسه: ٢٨١

الموقف»(١). وكذلك أبو حبيب فيبدو أنه سميّ بهذا الاسم لأن ما يصدر عنه من أدب ومواعظ محبّبة إلى الناس والى الراوية لكنه بغيض بحِيَله(٢)، وقد عبّر عن ذلك السائب بقوله: «أبو حبيب لا درّ درّه من بغيض إليّ حبيب»(٣).

ومن المقامات التي نهج فيها أصحابها نهج الحريري مقامة لأبي عبد الله بن أبي الخصال، والجدير بالملاحظة أن ابن أبي الخصال لم يبتدع شخصيّتيه الخياليتين، بل اتكأ على الحريري، واختار الحارث بن همام راوية، والسّروجي بطلاً.

أمّا المقامات التي لم تقم على المعارضة فالأمر فيها مختلف فابن فَتّوح لم يسْتَتر وراء شخصية متخيلة، وإنما أعلن عن شخصّيته في صراحة ووضوح، ونصّب نفسه بطلاً للمقامة، ولم يتخذ لحديثه راوية.

ومقامة ابن الشهيد التي نصّب فيه نفسه بطلاً لا تتخذ ذلك الشكل الذي وجدناه عند البديع والحريري، فهي مجرد مشاهدات وملاحظات لم تصل إلينا كاملة، ولا نعتقد أن الجزء المفقود منها يختلف كثيراً في تكوينه عن الجزء الذي وصل إلينا. ونجد في مشهد منها الديك الذي أنطقه ابن الشهيد يقوم بدور أشبه بدور بطل المقامة، وعرف الطريق إلى خلاص نفسه من هذا المأزق المتأزم.

ومقامة ابن المعلم من مقامات المدح الخالص، ساقها في ألفاظ سهلة، وتراكيب مقبولة، كما أدخل عليها شيئاً من الحيوية حين أدارها على نفسه، وكأنه نصّب نفسه بطلاً لها(٤).

---

(١) محمود الهادي الطرابلسي: مدخل إلى تحليل المقامات اللزوميّة، حوليات الجامعة التونسية، عدد ٢٨، ص١١٦.

(٢) د. محمد سعيد محمد: دراسات في الأدب الأندلسي، ص٣٠٨.

(٣) المقامة الثانية والعشرون (القيروانية): ص٢٨١.

(٤) انظر نصّ المقامة ص٩٧-١٠٠ من دراستنا هذه

أمّا مقامة ابن مالك القرطبي، فإنها لا تكاد تحيد عن ذلك، إذ ليس لها عنوان، ولا يتبيّن فيها بطل ولا راو ولا عقدة ولا كدية مما تعرفه المقامة[١].

وكان ابن المرابع الأزدي هو البطل والراوي معاً في مقامة العيد، وهذا ظاهر من مطلع المقامة حيث قال: « يقول شاكر الأيادي، وذاكر فخر كلّ نادي، وناثر الغرر للعاكف والبادي، والرائح والغادي....»[٢].

طول المقامة:

تباينت المقامات الأندلسية في طولها، فهناك مقامات غاية في الطول، وأخرى غاية في القصر، مما يدلّ على تفنّن المقاميين الأندلسيين في كتابة مقاماتهم.

ومن المقامات الطويلة مقامة أبي محمد القرطبي، وهي مقامة مفرطة في طولها بمقاييس صاحب «الذخيرة»- فلذلك اجتزأها، واكتفى من جُملتها بفصول منها، جاءت بعد الحذف والاقتضاب في اثنتي عشرة صفحة من مطبوع كتابه.[٣]

ومقامة ابن الشهيد، أورد ابن بسام فصولاً منها، وذكر أنها طويلة، ولذلك حذف بعض فصولها. والظاهر أنها طويلة فعلاً، ذلك أن الفصول التي أوردها جاءت بعد الحذف في اثنتي عشرة صفحة من كتاب«الذخيرة[٤]». ولا ندري ماذا يمثل حجمها الحالي من النص الأصلي، الذي أنشأه المؤلف أوّل مرّة.

(١) انظر نص المقامة ص٨٧- ٩٤ من دراستنا هذه.

(٢) انظر المقامة كاملة ص١٨٨-١٩٣ من دراستنا هذه.

(٣) انظر الذخيرة: ق١ م٢ ص٧٤١- ٧٥٢.

(٤) انظر الذخيرة: ق١ م٢ ص٦٧٤ – ٦٨٥.

أمّا مقامة ابن المعلم فقد أورد ابن بسّام فصولاً منها تحت هذا العنوان: «فصول من مقامة»(١). وقد طالت هذه الفصول، وبلغ ما أورده منها ابن بسام خمس صفحات من مطبوع كتاب «الذخيرة(٢)»، وهذا يعني أن المقامة كاملة أطول مما أورده صاحب «الذخيرة»، وكأن صاحبها كان يعرض براعته في رسم مناظر متعددة، يصلح كلّ واحد منها ليكون مقامة في حدّ ذاته، ولكنه جمعها في مقامة واحدة.

ومقامتا «السياسة» و «الإشارة إلى أدب الوزارة» للسان الدين بن الخطيب، واللتان أوردهما في كتابه «ريحانة الكُتّاب» من المقامات الطويلة، ولذلك نجده يقسم المقامة الثانية على مجلسين، ويجعلها في مقامتين (٣)، لأنه اعتقد أنها لا تنتهي في مجلس واحد.

ومقامة العيد لابن المرابع الأزدي جاء الجزء الذي وصل إلينا منها في ست صفحات من مطبوع كتاب «الإحاطة»، وقد استرسل صاحبها في مديح الأمير أبي سعيد ابن نصر، ولكن ابن الخطيب اكتفى بفقرة واحدة من المديح، كما قال(٤)، وبهذا فوّت علينا فرصة الوقوف على نصّ مقامة ممتعة في الكدية.

وقد يكون للتداخل بين فنيّ الرسالة والمقامة عند الأندلسيين أثر في جعل هذه المقامات تنهج منهج الرسائل في إطنابها وطولها.

أمّا مقامات السرقسطي فإنها تمثل شكل المقامة الطبيعي، ولعل ذلك راجع إلى أنه عارض بها الحريري، والتزم فيها طريقته التزاماً وثيقاً.

---

(١) الذخيرة: ق٢ م١ ص١١٣

(٢) المصدر نفسه ق٢ م١ ص١١٣ - ١١٧

(٣) انظر دراستنا هذه ص ٢١٢-٢٣٢.

(٤) الإحاطة: ٣/ ص ٤٣٢.

ومقامة ابن أبي الخصال بالرغم من أنّه عارض بها الحريري وسار على نهجه واتخذ نفس الشخصيتين الخياليتين اللتين أجراهما الحريري في مقاماته،[١] إلاّ أنها طالت أكثر مما نجده عند الحريري، فقد بلغت ثلاثين صفحة، أكثر فيها ابن أبي الخصال من شعره الذي أورده، وأظهر ثقافته الغزيرة من خلال كثرة تضمينه للأمثال العربية، وكثرة ترديده للأسماء التي لها دور في الثقافة العربية، يضاف إلى ذلك قدرته اللغوية من خلال تعابيره واقتباساته من الشعر والقرآن الكريم.

ويرى د. إحسان عباس أنه لا يلتزم هذا المنهج، الذي التزمه ابن أبي الخصال إلا كاتب لا يودّ أن ينشئ عدة مقامات متفرقة، وإنما هو ينشئ مقامة أو اثنتين ويحاول أن يعرض براعته في رسم مناظر متعدّدة يجمعها معاً في مقامة واحدة[٢]. وتابعة في ذلك بعض الباحثين الذين رأوا أن ابن أبي الخصال حاول أن ينشئ عدة مقامات قليلة يجمعها في مقامة واحدة.[٣]

---

(١) انظر نص المقامة في رسائل ابن أبي الخصال: ص٤٢٠ – ٤٤٩، وانظر ص ١٢١-١٢٣ من دراستنا هذه.

(٢) تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين): ص٣١٧

(٣) د. محمد رضوان الداية: في الأدب الأندلسي، ص٢٥٨،و د. مصطفى السيوفي: ملامح التجديد في النثر الأندلسي: ص٢٨١.

المقامة والأنواع الأدبية الأخرى

أوّلاً: علاقة المقامة بالقصة:

أسلوب القصص من أظهر الأنواع الأدبية التي تحملها المقامة، فالمقامة المشرقية في الغالب قصة قصيرة، أو حكاية موجزة، تُساق بأسلوب يميل إلى الدعابة والسخرية. ولا يربط بين المقامات رابط، لهذا كانت كلّ حكاية مستقلة عن غيرها، وتكاد تكون موضوعاً مستقلاً يفيد منه القارئ متعة أدبية أو فنية أو اجتماعية بشكل مستقل لا يمتّ بصلة إلى المقامة التي سبقتها، أو التي جاءت بعدها، حتى إن أحد الباحثين عدّ بديع الزمان رائد القصة العربية في المشرق[(١)].

والمقامة الأندلسية نشأت بعد نشأة المقامة المشرقية، ووصول نماذج منها إلى الأندلس، وكان من الطبيعي أن تسلك المقامة الأندلسية من حيث أصلها على الأقل سبيل المقامة المشرقية في اعتمادها القصص والحكاية. وقد كان عدد من المقامات حريصاً على تحقيق هذه الصنعة، ومنها المقامات اللزومية، التي حافظت على أسلوب المقامة الفنية، مع بعض الغلو في استخدام الصنعة البديعية.

وفي مقامات السرقسطي كثير من الحكايات والقصص، فالمقامة العنقاوية[(٢)]، التي وقعت أحداثها في الصين، استمد فيها السرقسطي مادة من أقاصيص البحريّين وحكاياتهم وتصرّف بها، فقد جعل البطل في المقامة يقوم ليحدث الناس عن العجائب البحرية، التي لاقاها في سفره، فقد أخبرهم أنه كان ذات يوم يسير في قفرة ملساء: «فبينا نحن كذلك إذ انسابت تلك الأرض، واستدار بنا الطول والعرض، فطوينا المراحل،

(١) د. مصطفى الشكعة: الأدب الأندلسي (موضوعاته وفنونه)، ص٦٤١

(٢) انظر نصّ المقامة في المقامات اللزومية ص٤٨١ - ٤٩٦.

ورأينا الصحاري تمشي بنا والسواحل إلى أن رأينا البحر يسير إلينا ونسير إليه، ويعلو علينا تارة ونعلو عليه.... إلى أن خرجنا إلى جزيرة عريضة، ذات مرابع خصيبة وأرض أريضة.... واستيقظنا من تلك الغمرات، وصحونا من تلك السكرات، فعلمنا أنه حيوان بحريّ أصحر ثم أبحر». وبعد ذلك يصف كيف هبط فوقهم شيء كأنه السحابة الظليلة، وظهر لهم شيخ فأخبرهم أن السحابة الظليلة ليست سوى فرخ العنقاء، وأن الشيخ شهده وهو فرخ صغير، توفيت أمّه، فزقّه بيده وتقديراً من ابن العنقاء لهذه التربية فإنه يزور الشيخ في كل شهر «فكم جلب إليّ من ماء النيل، وخصّني من ماء دجلة والفرات بكل عذب فرات، وحباني من سيحان وجيحان بكل رزق طيب وريحان»، ثم يصف كيف تعلقوا بالطائر حتى يوصلهم إلى بر الأمان: «فمازلنا كذلك حتى جثم ذلك الطائر، وتعلق به منا كل سادر وحائر.... سار في الهواء سيراً رفيقا، وجعل السّحاب يسايرنا رفيقا، تخفق تحتنا البروق، وتتطلع إلينا المغارب والشروق، إلى أن فارقَتْنا البحار، وعَلمنا أنّه الاصطحار، ولمّا يجنّ من ليلنا الأسحار، ثم أخذ في الانصباب والانحطاط إلى واسع من الأرض مِلطاط، إلى أرض ذات أشجار وأنهار، ورياض مودقة وأزهار، فخُبِّرنا أنها من أرياف النيل وشطوطه، ومجاريه وخطوطه، فحمدنا الله على نعمائه، وتقلُّبنا بين أرضه وسمائه....»[1].

وقد تحتوي المقامة على قصّة موجزة ضمن كلام طويل وتفاصيل كثيرة، في شؤون شخصية أو اجتماعية، أو غير ذلك، على نحو ما نجده في مقامة ابن المعلم، التي بدأها بمقدّمة أشبه بالمقدّمات الطللية[2]. وبعد أن يسترسل في هذه المقدمة، يأتي إلى سرد ما

(١) المقامات اللزومية : ص٤٩٢.

(٢) انظر دراستنا هذه ص ٩٧.

يشبه الحكاية، أو القصة القصيرة، فيقول :« وكان لي أليف وعقيد شريف، من صُرحاء الإخوان، وصيَّابة الفتيان، ومصاص أعيان الزمان، وحين سوّلت لي همتي ما سوّلت، وخيّلت لي أمنيتي ما خيّلت، أجلنا قداح الرأي، وأسهمنا بين القرب والنأي.....»[١]

ثانياً: علاقة المقامة بالرسالة

إنّ الحديث عن الإطار الشكلي للمقامة الأندلسية يقودنا إلى الحديث عن علاقتها بفن الرسالة، والتداخل بين هذين الفنين. فصورة المقامة الأندلسية- باستثناء مقامات السّرقطي، وغيرها من المقامات التي نهجت نهج المقامة المشرقية- كانت تختلط بالرسالة الأدبية، حتى إنّ هذا الخلط بين المقامة والرسالة لم يغادر أذهان الأدباء والنقاد الأندلسيين، فها هو ابن بسام يورد فصولاً من نثر ابن مالك القرطبي ويعنون لها بقوله : « فصول من مقامة لأبي محمد بن مالك القرطبي»[٢].ولكنه عقبّ على تلك الفصول بقوله :« ومدّ ابن مالك في رسالته أطناب الإطناب....»[٣]. فالنص هوهو، ولكن ابن بسّام يسميه «مقامة» حيناً و«رسالة» حيناً آخر.

وقد عالج الباحثون والدارسون التداخل بين فنّي المقامات والرسائل عند الأندلسيين، وممن نبهّوا على ذلك د. إحسان عباس، وأوّل ما رآه أن المقامات الأندلسية « قد انتفت من بعضها قصّة الكدية والحيلة المقترنة بها، وأصبحت صورة من رسالة يقدّمها شخص بين يدي أمر يرجوه، أو أمل يحبّ تحقيقه، كما أن كثيراً من المقامات الأندلسية أصبح وصفاً للرحلة والتنقل في داخل بلاد الأندلس، وفي هذا أيضاً شاركت

---

(١) انظر دراستنا هذه : ص ٩٧.

(١) الذخيرة: ق١/ م٢/ ص٧٤١.

(٣) لذخيرة: ق١/ م٢/ ص٧٥٢.

الرسالة....»[1]. ويرى د. عبد العزيز عتيق أنّ كتّاب المقامة الأندلسية قد خرجوا بالمقامة إلى صورة أشبه بالرسالة، أو بما نُسَمّيه حديثاً بالمقالة[2].

وقد ترتب على التداخل بين المقامة والرسالة أن بعض المقامات لا يتوافر فيها عنصرا البطل والراوية، فلم يعودا مُلتزمين كلّ الالتزام، وكذلك فهي لا أسامي لها كمقامات البديع والحريري، لأن الأندلسيين لم يهتموا بالبناء الفني للمقامة اهتمام المشارقة، بل انصبّ اهتمامهم حول إظهار براعتهم الفنية في التعبير اللفظي والأسلوب البياني، مع محاولة الاحتفاظ بشيء من الفكاهة والتسلية.

والكثير من المقامات الأندلسية، التي لم تقم على معارضة المقامات المشرقية، مالت إلى نهج الرسالة، سواء من حيث الإطناب والإطالة، أو من حيث الاتجاه نحو وصف الرحلات، وسرد التفاصيل التي تكون فيها، ولذلك فإننا نجد من الباحثين من يعدّ تلك المقامات في الرسائل أو في أدب الرحلات. فمقامتا «خطرة الطيف» و «معيار الاختيار» وغيرهما من مقامات لسان الدين بن الخطيب - إن صحّت تسميتها بالمقامات - لم يجعلها د. شوقي ضيف في المقامات الأندلسية، لأنها أشبه بالرحلات منها المقامات[3]، ولذلك تحدّث عنها في أدب الرحلات[4]. وجعلها غيره في رسائل ابن الخطيب[5]، وقد تقدّمت الإشارة إلى ذلك في بحثنا هذا[6].

---

(١) تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف المرابطين) ص٣٠٨.

(٢) الأدب العربي في الأندلس : ٤٨٢.

(٣) تاريخ الأدب العربي (عصر الدول والإمارات) : ص٥١٧

(٤) المرجع نفسه: ص ٥٣٠ - ٥٣١

(٥) انظر : د. مختار العبادي: مشاهدات لسان الدين بن الخطيب (مجموعة من رساله): ص٢٤، ص٦٧.

(٦) انظر ص٥٥ من هذا البحث.

ولكن السؤال الآن: هل يمكننا أن نلحق مقامة ابن مالك القرطبي، ومقامة عمر ابن الشهيد، ومقامة ابن المعلم، وغيرها مما أورده ابن بسّام تحت اسم «مقامة» بفن المقامات؟ إنّ الإجابة عن هذا التساؤل قد تبدو بعيدة عن الجو المعروف لهذه المقامات، التي لم تصل إلينا كاملة، فهي تخلو من عناصر المقامة كالشخصيتين الخياليتين «الراوية والبطل»، ومن أسلوب الحوار، وغيرهما من عناصر المقامات. ومن هنا فقد تباينت آراء الباحثين فيها، فمقامة ابن مالك- كما يرى د. عبد العزيز عتيق - لا يجمعها بالمقامة غير الاسم لخلوها من تقاليدها، ولهذا فهي أقرب شبهاً بالرسالة(١).ومقامة ابن المعلم- كما يرى د. شوقي ضيف – أشبه برسالة في مديح أمير(٢)، ومقامة ابن الشهيد خرجت عن رسوم المقامة المعروفة، وكلمة «مقامة» تطلق هنا على نزهة ووصف مشاهد، وتضمين للوصف النثري بالشعر(٣). ومهما يكن فإن هذه المقامات الثلاث التي عرضها ابن بسام في ذخيرته وأسماها مقامات ليست مقامات بالمعنى الذي أراده بديع الزمان والحريري، وإنما تصف موضوعاً أو موضوعات، وهي أشبه بالرسائل منها بالمقامات.(٤)

ثالثاً: علاقة المقامة بالخطبة (الخطبة الوعظية)

يقف بطل المقامات في كثير من الأحيان خطيباً واعظاً، يذكّر الناس بالآخرة، أو ينبّههم على أمور تخصّ حياتهم، وهم عنها غافلون، ويكثر هذا في مقامات السّرقسطي، التي يتّخذ بطلها فكرة الوعظ وسيلة لخداع الناس ونيل عطاياهم. وكان للشيخ

(١) الأدب العربي في الأندلس: ص٤٩٤

(٢) تاريخ الأدب العربي (عصر الطوائف والمرابطين): ص٣١٠.

(٣) إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين): ص ٣١٠

(٤) تاريخ الأدب العربي (عصر الدول والإمارات: الأندلس) :ص٥١٧.

السّدوسي، بطل المقامات السّرقسطي، خطب ذات أسلوب جميل يستخدم فيها النداء بعبارة «أيها القوم» أو «يا أيها الناس»، كقوله في المقامة التاسعة والأربعين: «يا أيها الناس عندي في هذا الشأن سرائر، وخبايا من الحكمة وضرائر، أخذتها عن العلماء ولقّتها عن الحكماء.... أين من لحقته آفة، أين من سحره ساحر، أو دحره داحر...».(١)

وبنى السّرقسطي كثيراً من مقاماته على فكرة الوعظ، ومن مواعظه قوله في المقامة الرابعة: «يا أيها الناس، أضربُ لكم الأمثالُ، ولا أخاطب منكم الغثاء ولا الحُثال. الحكمة للمؤمن ضالّة، والموعظة على الهدى دالّة، الموت نازل، والأجل مقارب ومُنازل. والمرء بين أمل خادع، وقدر رادع، وعُمْر ذاهب، وأجل ناهب...»(٢). وفي المقامة النجومية(٣)، ينال الشيخ أبو حبيب العطايا من الراوي وجماعته بمواعظه وحسن كلامه.وفي المقامة الحمامية(٤)، يدعو الشيخ أبو حبيب الناس إلى افتداء حمامة في قفص، ويطنب في وصف أسرها حتى ترقّ قلوب الناس وتدفع أموالها وثيابها لصاحب القفص ليطلق سراح الحمامة، ولم يكن صاحب القفص إلاّ صديقاً للشيخ أبي حبيب، اتفق معه على تلك الحيلة.

وإذا استثنينا المقامتين الثلاثين والخمسين من المقامات اللزومية، وهما في الشعر والشعراء، وفي النظم والنثر، وجدنا أنّ بطل المقامات يعتمد على مهارته في الوعظ، ووعظه غالباً تذكير بالآخرة والموت، ففي المقامة السادسة يقصد ميناء عدن، ويخطب في المجتمعين، ويثني على روح المغامَرة فيهم، وحبّهم للحرية، ويقول لهم: «أذكركم بتلك

(١) المقامات اللزومية: ص٥٣٩

(٢) المصدر نفسه : ص٤٠

(٣) انظر: المقامات اللزومية: ص٣٠٦ – ٣٢٠.

(٤) انظر: المصدر نفسه: ص٤٧٢ - ٤٨٠.

البحور الزاخرة، والسفن الماخرة، والبحر العجاج. والماء الثجاج، وبالأعراف الجون، والغيابات والدجون، والغمرات المظلّة، والأهوال المطلّة، وبرنّه القواصف، وأنه العواصف..."[1] فيستعير صفات البحر، ليذكرهم بما يشبهها من أهوال يوم القيامة. وفي المقامة السابعة، وهي البحرية يقوم فيهم خطيباً، ويهوّل عليهم أمر السّفر في البحر: "وما الذي حملكم على ركوب هذا العجاج، وخرق هذا الماء الثجاج، ولكم في البر منفسح ومجال، ودونكم من صوله أوْحالٌ وأوجال... هل سُدّت عليكم المسالك، أو طُويت دونكم المهالك"[2].

ولم يقتصر الوعظ على مقامات السّرقسطي، فنرى الديك الذي جعله ابن الشهيد يقوم يدور البطل في بعض فصول مقامته واقفاً يخطب في جمع غفير من الناس الخارجين من صلاة الظهر، وقد "تواثبت إليه السّادة والوجوه". وهو يعدّد مننه عليهم، ويقول "أيها السادة الملوك، فيكم الشاب مُتّع بالشباب، والأشيب نوّر شيبه مع الكواعب والأتراب، صحبتكم مدّة، وسبحت الله على رؤوسكم مراراً عدّة، أوقظكم بالأسحار، وأؤَذن بالليل والنهار، وقد أحسنت لدجاجكم سفادا، وربّيتُ لكم من الفراريج أعدادا..."[3].. ثم يستغرب المعاملة السيّئة التي يلقاها منهم جزاء إحسانه المذكور، ولكن الأذى يبلغ القمة حين يراد به الموت في آخر عمره.

ويشتد غيظ الديك وألمه، فيسفح الدموع الساخنة، ويشتد الانفعال به فيغمى عليه...ويهرع أهل البادية الطيّبون إلى هذا المسكين "يضربون وجهه بالماء، ويخلصون له

---

(١) المقامات اللزومية: ص ٦٧ - ٦٨.

(٢) المصدر نفسه: ص ٧٨ - ٧٩.

(٣) انظر ص ٧٨ من دراستنا هذه

في الدعاء» حتى يفيق من غشيته. ويؤثر منظر الديك الباكي في الناس، فيشفقون عليه، ويتحركون لإنصافه من ظالمه فيقبلون على صاحبه باللوم والتوبيخ. ولكن البدوي يعتذر بأن ديكه، «ذو فخذ وصدرة» وأنه لا بُدّله من قضاء واجب الضيافة بلحمه، ويفتخر بهذه المناسبة بشيمة الكرم، وإقراء الضيف، المتوارثة في أسرته أباً عن جد..

ويعترف له الديك بهذه الفضائل، ويثني عليه وعلى أخلاقه، وإنما يعاتبه على غلطه حين لم يعلم بأنّ «هرمات الديوك ليست من مطاعم الملوك»، وإنما ينفع أكلها في الاستشفاء والتداوي فحسب. يقع هذا الكلام من الناس موقعاً حسناً، يستلطفونه، ويوافقونه عليه، فيتخذونه منذ ذلك اليوم حكيما.

وأبو زيد السّروجي بطل المقامة عند ابن أبي الخصال يقف خطيباً واعظاً، يستحث القوم على العطاء، ويستثير فيهم دوافع السخاء، فيقول :«أيها الجمع الأريض والسؤدد العريض، والنّفر البيض، والنائل المستفيض، والهمم السامية، والحفائظ الدامية، والسيوف الماضية، والليوث الضارية،.. يا ينابيع الندى، ومصابيح الهدى، ومفاتيح الجَدا، وحياة الحياة وردى الرّدى، ما هذا الجمود، والأكف لا تجود، ومنكم عُهِد الجود..........»[1].

(١) رسائل ابن أبي الخصال: ص٤٢٣، ٤٢٤.

رابعاً: علاقة المقامة بالقصيدة

تتكوّن المقامة الأندلسية في الغالب من قسمين: قسم نثري، ويشكل أغلبية المقامة، وقسم شعري يكون في آخر المقامة، وفي بعض الأحيان نجد شعراً يتخلّلها، وهو في الحالتين يشكّل جزءاً رئيسيّاً من تركيب المقامة. فالمقامة – وإن كان الأصل فيها النثر إلاّ أننا نجد السّرقسطي يكثر من الأبيات الشعرية في مقاماته، ونجد بين المقامات الأندلسية التي أوردنا نصوصها مقامات شعرية لا نثر فيها كالمقامة «المحسنية»(١)، كما أننا نجد أيضاً مقامات يشكل الشعر الجزء الأكبر منها كمقامة «تسريح النصال إلى مقاتل الفصال»(٢) للفقيه عمر الزجال.

والشعر في المقامة قد يكون من نظم صاحبها، كمقامة ابن أبي الخصال في معارضته الحريري، التي أورد فيها ثلاث قصائد متتابعة من شعره(٣). وكذلك مقامات السّرقسطي، فالشعر فيها شخصي من نظم السّرقسطي نفسه، ويخضع للّزوم كالنثر. وقد يكون من شعر الآخرين، حيث يعمد المقاميون إلى تضمين مقاماتهم أبياتاً أو قصائد من الشعر- كي تخدم المعنى الذي قصدوا إليه – ترد في أثنائها، أو تنتهي بها، أو تكون في مطلعها بمثابة التمهيد(٤).

وهذا يعني أنه قد يكون في المقامة أبياتٌ أو مقطعات أو قصائد تكوّن جزءاً من بنية المقامة وتكوينها، مما يدل على أن هناك علاقات بين المقامة والقصيدة. فالمقامة «هي

---

(١) انظر نصّ المقامة ص ١٨١-١٨٦ دراستنا هذه .

(٢) انظر نصّ المقامة ص ٢٤٤-٢٥١ في دراستنا هذه.

(٣) رسائل ابن أبي الخصال: ص٤٣١ – ٤٣٥ .

(٤) انظر الفصل الثاني من دراستنا هذه.

المجال الذي تعايش فيه الشعر والنثر بانسجام وتظافر في تناول الأفكار والصّور، والرؤى، والعواطف، دون أن نلمس تنافراً بينهما، طوّعهما المقاميون تطويعاً عجيباً، وجعلوهما نِدَّين متسالمين»(١).

والشعر- في مقامات السّرقسطي كثير ومطرد، لا تخلو منه واحدة، ودوره في بناء المقامة أساسي. فالسّرقسطي لا يسوقه للاستشهاد أو المجرد ترصيع فصول المقامة النثرية، بل على أنه لبنة بنيوية وفكرية تبين أنّ المقامة عنده لا تقوم إلاّ بها، ينشده الشيخ المكدي لكشف حقيقة وبيان موقف، فينسخ به الصورة التي يظهر بها في الفصول النثرية من المقامة، وكثيراً ما قامّ الشعر في آخر المقامة على موضوعين: الموضوع الأول، يتصل بمشكلة المقامة الخاصة، وفيه تحليل لوجه التصرف الذي يكون به من بكل السائب، ونقد لطبيعة المواقف الذي يتخذه منها في الحادثة المعروضة من ناحية، وتحليل لوجه التصرف الذي يكون من قبل أبي حبيب من ناحية أخرى. والموضوع الثاني يتجه فيه الشيخ المكدي إلى السائب بالوعظ والإرشاد فيما ينبغي أن يكون عليه سلوك الإنسان عامة في تجربة الحياة والأحياء وحكمة التقلب مع الأزمان لكسب القوت والمحافظة على الاتزان. ولذلك كثّرت في أشعار المقامات اللزومية أساليب الأمر والنهي، فكانت تقرّر الأشياء تقريراً، لا توحي بها إيحاءً.

وإذا كانت القصيدة تبدأ باستيقاف الصحب والبكاء على الأطلال، فإن المقامة تبدأ بـ «حدثّ»، «حكي»، أو «قال»، أو «أخبر». ويصف الشاعر بعد الاستهلال أطلال محبو بته، ويصف ذكرياته في تلك الديار، والحنين إليها، وفي المقامة أيضاً حنين واشتياق إلى الأيام الخوالي، فها هو بن المعلم يستهل مقامته بالوقوف على الأطلال، داعياً لها

---

(١) فن المقامات بالأندلس: ص١٩.

بقوله: « سقى عهدك أيتها الدمنة الزهراء كلّ عهد، وجاد قطرك أيتها الروضة الغنّاء كلّ قطر، وسال عليك من أدمعي كلّ مُلِثّ هطال، وتناوحت عليك من أضلعي كلّ جنوب وشمال، منشّرة أنوارك، لا معفّية آثارك، ومهدية أرَجَك ونسيمك، لا مغيرة أطلالك ورسومك....»[1].

فهذه المقامة تزاحم الشعر في ميدانه، بعيدا عن النمط التقليدي للمقامة، وتكاد تلتزم بناء القصيدة، والبكاء على الأطلال من خلال موضوع المدح. ويسترسل كاتبها في هذه المقدّمة التي تشبه المقدّمات الطلية في قصائد الشعر الجاهلي.

وعندما ما ينتقل الشاعر إلى وصف الرحلة في القصيدة، التي يعرض خلالها معاناته، التي تعرّض لها من خلال تلك الرحلة كبعد الطريق، وشدة الحر، وكثرة الأخطار، حتى يصل إلى ممدوحه، وكلّما كانت المعاناة أكثر كان العطاء أجزل، وفي المقامات الأندلسية وصف للرحلة، بل إن مقامة عمر بن الشهيد تدور كلّها في فلك الحديث عن التحول، والانتقال، والرحيل، حتى إنّ أحد الدارسين للنثر الأندلسي سمّاها «المقامة الانتقالية»[2] يقول فيها: «....ثم أغذَذْنا سيرا، وكأننا ننفّر طيرا، حتى نظرنا من السائمة تسرح في مروجها، كالعذارى تميس في دبابيجها...ثم رحلنا وتذكّرنا الطراد، فمشت الجياد، وتواثبت الآساد، واستُعِدّ بباز وكلاب.....».[3]

ومعالم هذا الاتجاه الشعري في المقامات تعرب عنه مقامة ابن مالك القرطبي أيضاً[4]، التي لا يتبيّن فيها كثير من عناصر المقامة، فهي أقرب إلى أن تكون قصيدة

---

(١) انظر دراستنا هذه ص ٩٧.

(٢) د. علي بن محمد: النثر الأدبي في الأندلسي (أشكاله ومضامينه، ص٥٧٥.

(٣) انظر ص٨٢ من دراستنا هذه.

(٤) انظر نصّ المقامة وتحليلها ص ٨٧-٩٧ من دراستنا هذه.

مدحّية، انصرف صاحبها إلى الاهتمام بجمع الأقوال والألفاظ بأسلوب شاعري، يقول فيها:«حتى لاح لنا من ملك الأملاك، وثالث القمرين في الأفلاك، وجه جلّى هبوة ذلك العثير والعجاج الأكدر، فحين جلت غرّته الغراء جلابيب الغُبار، لم نَدْرِ أبدر الليل أم شمس النهار....»[١]. ويقول أيضاً:«ما رأيت وجهاً أسمح، ولا حلماً أرجح، ولا سجيّة أسجح، ولا بشراً أبدى، ولا كفّاً أندى، ولا غرّة أجمل، ولا فضيلة أكمل، ولا خلقاً أصفى، ولا وعداً أوفى...مما خصّ الله به ثالث القمرين، وسراج الخافقين، وعماد الثقلين، المعتصم بالله ذي الرياستين»[٢].

الصنعة اللفظية في المقامات الأندلسية :

اعتمدت المقامة السجعّ - الذي هو عنصر من عناصر المقامة المشرقية والأندلسية على السواء –أساساً في بنائها، والسجع في النثر كالقوافي الشعر وسيلة من وسائل الإيقاع والتنغيم، يقول ابن سنان:«فأما القوافي في الشعر فإنّها تجري مجرى السجع[٣]»، ويقول أيضاً:«وكما أنّ الشعر يحسن بتساوي قوافيه، كذلك النثر يحسن بتماثل الحروف في فصوله»[٤].

حرص كتّاب المقامة الأندلسيون على فواصل الجمل والالتزام بالسجع، الذي يطول ويقصر بحسب حروفه ومعاني عباراته. وكان السجع من مقاييس الجمال الأدبي الشائعة عند الأدباء والنقاد. ولم يقتصر تأثير السجع والاحتفاء به على النثر الفني بألوانه

(١) انظر ص٨٨ من دراستنا هذه .
(٢) انظر ص٩٣ من دراستنا هذه .
(٣) سر الفصاحة: ص١٧٩.
(٤) المصدر نفسه ص١٧١.

المختلفة، وإنما تجاوز ذلك إلى النثر التأليفي. فابن بسام في كتابه «الذخيرة» استخدام السجع والتزم به في تراجمه للكُتّاب والشعراء. أما الفتح بن خاقان- وهو واحد من كتّاب المقامات – فقد بنى كتابه«قلائد العقيان» على الثناء المسجوع، إذ أورد فيه أشعار الجيل الذي سبقه، وأشعاراً لبعض معاصريه مضمّنة في ثنايا تراجم شاعرية الصياغة، مرسلة في أسلوب مسجوع.

ولسنا نقصد في هذا المقام أن نقدّم دراسة بلاغية لألوان السجع التي ظهرت في المقامات الأندلسية، فالسجع وأنواعه في مقامات السّرقسطي وحدها قد لا تستوفيه دراسة متخصصة، ولكننا نريد أن نُبَيّن عناصر الصنعة اللفظية في بعض المقامات الأندلسية، وبخاصة مقامات السّرقسطي، السجع يظهر في غير مقامات السّرقسطي عادة وتختفي، دون أن يلتزم به التزامات حرفياً، ولكنه في مقامات السرّقسطي مطّرد ولا تخلو منه مقامة ولا فقرة، ولا يعتمد فيه صاحبه على الازدواج فحسب، بل نجده ينوع في بناء السجع في مقاماته، فكان من مقاماته المزدوجة والمثلثة والموحدة السجعة، التي حافظت على الأصول الفنية للمقامة عند البديع والحريري.

وإذا كانت ومقامات السّرقسطي مبنية على السّجع، مثل مقامات الحريري، إلاّ أنه اقتدى فيها بأبي العلاء المعري فالتزم في نسجه ما لا يلزم ولذلك سميّت بالمقامات اللزومية. واللزوم الذي اتبعه السّرقسطي هو أنه التزم فيها قبل حرف السجع حروفاً أخرى تختلف عن حروف السجع، فنراه في المقامة السادسة عشرة يشترط على نفسه أن تتوالى سجعاتها ثلاثية، ولذلك سمّاها المثلثة مفتتحاً لها بقوله:«أقمت في غزنة، فترشفت من مائها أي مزنه، وتوطأت من أكنافها كلّ سهلة وحزنة.....»، وسمّى تاليتها المرصّعة لأنه لم يكتف في سجعاتها بالاتفاق في حرف واحد بل التزم فيها حرفين أو أكثر، كقوله

في مطلعها.« حننت إلى الوطن المحبوب، ونزعتُ إلى الوطن المشبوب، حيث مآرب الشباب وملاعب الأحباب....». واشترط على نفسه في المقامة الثانية والثلاثين أن يختتم كل سجعاتها بحرف الهمزة، ولذلك سمّاها الهمزية. واختتم سجعات المقامة الثالثة والثلاثين بحرف الباء ولذلك سمّاها البائية، كما في قوله: «أقمت في حلب، بين درّ من العيش وجلب، أخوض في جدّ ولعب، وأروّض كل شامس ومستصعب».

وهكذا يسير في المقامة الجيميّة التي اختتم سجعاتها بحرف الجيم، وفي المقامة الداليّة لاختتام السجعات بحرف الدال. وبالمثل صنع في المقامة السادسة ولثلاثين، التي اختتم سجعاتها بالنون وسمّاها النونية، ويظهر غير قليل من التكلف في هذه المقامات لبناء السجعات فيها على حرف واحد.

واختلفت المقامتان اللتان بناهما على نسق الحروف(١) عن المقامات السابقة فكل سجعتين تأتيان على حرف، ابتداء من الهمزة، ثم التاء، ولياء،.... إلى الياء، ومن ذلك قوله في المقامة السابعة والثلاثين، التي رتّب أواخر سجعاتها ترتيباً هجائياً:«قال: كنت زمان التكهل والاستواء، قد رأيت رأي الاعتزال والانزواء، وطويت صحف الآداب، ومحوت أثر تلك الأنداب، وطلّقتُ بنات الصبوة بتاتا، ولبست التوبة عباءة وبتاتا، وتعَوضْتُ من المثاني و المثالث، بثوان من الذكر وثوالث، أدّرع ثوب الدّياجي، وأطيل برسم البِرّ طوافي وعياجي، فبينا أنا وقد سالت غرّة الصباح، وولّت دَولَة المصباح، ورسخ في نفسي من الأكل راسخ، لم ينسخه من الموعظة ناسخ، -حتى غلبني الهجود

(١) المقامتان السابعة والثلاثون والثامنة والثلاثون.

ووقذني الركوع والسجود، فرأيت كأني في حضرة بغداذ، وقد أصابتني سحابة ظل ورذاذ، ثم أعقب وابل مطر، فقضى ما شئت من أهل ووطر...»[1].

وجاءت المقامتان التاسعة والثلاثون والأربعون مبنيتين على حروف أبجد، أي على نفس الحروف بالترتيب الأبجدي: أبجد، هوّز، حطي، كلمن....، وقد كانتا أقصر المقامات لأنهما محدّدتان بضعف عدد حروف النسّق المتّبع.

وهكذا فإن السرقسطي قد التزم ما لا يلزم من السّجع في كلّ مقاماته، وظهرت ضروب من الصنعة المعقّدة المقصودة لذاتها في تلك المقامات، فعلى امتداد خمسين مقامة للسرقسطي لا تكاد تخلو جملة مسجوعة من التزام ذلك، ولعل ذلك يرجع إلى شدة تأثره بأسلوب المعرّي، وإن كان الحريري الذي قلّده السرقسطي يُعنى بالتزام ذلك لكنه يتحرّر من أحياناً.

ومجمل القول: إنّ المقامات اللزومية حافظت على أسلوب المقامة الفنية، مع بعض الغلو في استخدام الصنعة البديعية في بعض المقامات التي أشرنا إليها، ولكن «سجعاته في المقامات الأخرى تشيع فيها العذوبة والسهولة والقدرة على التفنّن في الوعظ والوصف ونسج الكلام»[2]. ويرى أحد الباحثين في المقامات اللزومية أنّ السجع في

---

(١) المقامات اللزومية : ص٤٣٩.

البَت: كساء غليظ مهلهل، وقيل هو من وبر وصوف.

العجّ: رفع الصوت والصياح بالدعاء والتلبية في الحجّ.

الوقذ: شدة الضرب، ووقذه النعاس : إذا غلبه.

(٢) تاريخ الأدب العربي (عصر الدول و الإمارات: الأندلس): ص ٥٢٤.

مقامات السّرقسطي أكثر تعقيداً وإثراءً من القافية في الشعر وهي بذلك تقوّي قيمته الإيقاعية تقوية لا تقْدر القافية في الشعر عليها.[١]

وزخرت المقامات اللزوميّة بفنون البديع الأخرى من جناس وطباق وغيرهما، ومن أمثلة الجناس التام قول السرقسطي: «فلعلّه وعسى، أن يلين منه ما قد عسا»[٢]، فكانت الأولى تعني الفعل «عسى»، والثانية تعني «ما غلظ واشتد». وقوله في وصف الركب الذين سافر معهم البطل «كلّهم يأوي إلى صاحب ونديم..... يتمتّع بصنجه وربابه، ويأنس بزينبه وربابه»[٣] فجانس بين كلمة «ربابه»، وعنى بالأولى آلة الربابة الموسيقية، وبالثانية اسم العلم (رباب). أمّا الجناس الناقص فقد عجّت به مقامات السّرقسطي، والتزمه في مقامتيه «المرصّعة»[٤] و « المدبجة[٥]» فلا يكاد يخلو منه سطر فيهما.

وإذا كان تركيزنا على الصنعة اللفظية في المقامات اللزومية، فهذا لا يعني أنّ المقامات الأندلسية الأخرى قد خلت من الصنعة والزّخارف اللفظية، ولكن مقامات السّرقسطي لكثرة عددها من ناحية، ولأن صاحبها التزم نهج الحريري، الذي عُني بالصنعة في مقاماته عناية كبيرة من ناحية أخرى، لذلك قد توافرت فيها جميع فنون البديع .

إنّ المقامات الأندلسية، التي أوردنا نصوصها أو اكتفينا بالإشارة إليها، قد التزمت بالسجع، وهذا لا يخفى على قارئ تلك المقامات، ولكنها لم تلتزم به التزام

---

(١) محمد الهادي الطرابلسي: مدخل إلى تحليل المقامات اللزومية، حوليات الجامعة التونسية، العدد ٢٢٨، ص١٢٥.

(٢) المقامات اللزومية: ص١٧٧.

(٣) المقامات اللزومية: ص١٧٧

(٤) هي المقامة السابعة عشرة (المقامات اللزومية: ص٢١٦ – ٢٣٠).

(٥) هي المقامة الثامنة عشرة (المقامات اللزومية: ص٢٣٢- ٢٤٠).

السّرقسطي، ولم تغال في استخدامه مغالاته، ولكننا نجد فيها أمثلة كثيرة لفنون البديع الأخرى. فمن الجناس ما نجده في مقامة الوادي آشي وهو يصف فارساً يحمل فوق شماله طيراً جارحاً: «وقد احتمل فوق شماله أجمل جوارح، تميل إليه النفوس والجوارح»(١)، فجانس بين (جوارح) الأولى، التي تعني الطيور الجارحة، و(الجوارح) التي تعني جوارح الإنسان، وهي أعضاؤه وأطراف جسده كيديه ورجليه، وقوله أيضاً: «وحَلَلْتُ مدينة سَلا، وقلبي أقصَرَ عن التصابي وسلا، وسيفي ينشد: خليليّ عن عصر الشباب سلا»(٢). فورد الجناس التام ثلاث مرات، فكانت «سلا» الأولى تعني المدينة المعروفة بسلا، والثانية تعني ترك، والثالثة تعني اسألا.

الاقتباس والتضمين:

اعتمد المقاميّون الأندلسيون على جوانب كثيرة في قنوات اقتباسهم، التي طعّموا بها أسلوبهم بكل رائع جميل، فنهلوا من كتاب الله العزيز الحكيم، واعتمدوا على الحديث الشريف، وأردفوا ذلك بالحكم والأمثال، أو ما انتخبوا من أشعار يحلّونها ويدخلونها في مضمون أقوالهم، غير عابئين أن تكون لأندلسيين أو مشارقة، وكانوا يذكرون صاحب النص، أو يغفلون الإشارة إليه، هذا بالإضافة إلى ما خالط نثرهم من ذكرهم لمشاهير الرجال وعظماء التاريخ وفحول الشعراء.

يُعَدّ القرآن الكريم أساساً بنى عليه الأندلسيون ثقافتهم، فكان كتاب التعبد والتدين والتعامل، ولذا فقد حرص المقاميون على تضمين نصوصه الكريمة مقاماتهم.

---

(١) انظر ص ١٣٨ من دراستنا هذه.

(٢) انظر رسائل ومقامات أندلسية: ص٨٢.

ويرجع هذا الحرص إلى أنّ الأندلسيين – كما يقول ابن خلدون – جعلوا القرآن الكريم أصلاً في التعليم في مرحلة الكتّاب، فدخولهم الكُتّاب هيأ لهم علاقة مبكرة بكتاب الله العزيز، إذ كان القرآن أصلاً مهماً يتعلّمه الصبيان في المكتب الأندلسي[١].

وكانت تضمينات المقاميين واقتباساتهم من القرآن الكريم على شكلين:

أولها: الاقتباس باللفظ، أي أنّ المقاميّ يأتي بالنص القرآني كاملاً، ولا يغيّر فيه شيئاً، **وثانيهما**: الاقتباس بالمعنى. وهذا الاقتباس أكثر شيوعاً من سابقه، إذ يحرص المقامي على اقتباس معاني القرآن الكريم ضمن معاني النصوص النثرية، وذلك بأنه يجري بعض التحوير على محفوظه من القرآن الكريم.

ونجد هذين الشكلين من الاقتباس في مقامة الوادي آشي، وفي المقامتين «القرطبية» و «الشِّلبيّة». وما سبق من إيراد نصوص هذه المقامات وتحليلها كاف في عدم تكرار القول هنا، وقد أشرنا إلى تلك الاقتباسات في مواضعها من هذا البحث[٢].

وفي مقامة النخلة لأبي حفص بن برد، يكثر الاقتباس بالمعنى، إلى درجة يصعب معها استقصاء، مواضع تلك الاقتباسات. بل إن المتأمل في فكرة المقامة التي تقوم على البخل والشح والسخرية، وما يترتب على الشحيح والبخيل من خسران في الدنيا والآخرة، يذكر أنها لا تبعد كثيراً عن فكرة واردة في القرآن الكريم، في قصة نفر سمّاهم الله عز وجلّ أصحاب الجنة، إذ عزموا على صرمها وقطف ثمارها دون إخراج شيء لأحد من المحتاجين، فكانت عاقبتهم خسرانها بكل ما فيها، ﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ

(١) ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ، ٤/ص١٣٣٣ .

(٢) انظر الفصل الثاني من دراستنا هذه .

أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ ﴾[1]

أمّا الشِّعر فهو ديوان العرب، فيه مفاخرهم ومآثرهم وأيامهم، وقد جعل المقاميون الشعر العربي أحد المكوّنات المهمة لثقافتهم، التي استعانوا بها في إنشاء مقاماتهم. وإذا كان ابن المعلم في تضمينه للشعر يورد البيت كاملاً، فإن أبا محمد القرطبي كان يلجأ إلى حل أبيات الشعر ونثرها في مقامته، ويدخلها في مضمون عبارته ببلاغة وإتقان، ونجده يحلّ معقود الشعر بصياغة جديدة مفارقة للمنظوم[2].

لقد انصرف ابن مالك القرطبي في مقامته، التي أوردنا نصّها، إلى الاهتمام بجمع الأقوال والأمثال، وحلّ الأبيات الشعرية، وتحوير معاني الأدباء والشعراء السابقين. وقد أدرك ابن بسّام ذلك، فوصف المقامة بأنها «تُعْرِبُ عن حفظ كثير»[3] كما أنّه عقّب عليها بقوله: «ومدّ ابن مالك في رسالته هذه أطناب الإطناب، وشن الغارة فيها على عدة شعراء وكُتّاب، من جاهلين ومخضرمين ومحدثين ومعاصرين، ولو ذكرتُ من أين استلب واختطف جميع ما وصف، وانصرف إلى كلّ أحد كلامه نثره ونظامه، ليحصل هو ساكتاً، ووقف باهتا»[4].

---

(١) سورة القلم: ١٧ - ٢٦. وانظر مقامة ابن برد ص ٦٩-٧٢ من دراستنا هذه.

(٢) انظر المقامتين في الفصل الثاني من دراستنا هذه. .

(٣) الذخيرة: ق١/ م٢/ ص٧٤١.

(٤) الذخيرة: ق١/ م٢/ ص٧٥٢.

وبالإضافة إلى ما أشرنا إليه من اقتباسات ابن مالك القرطبـي، فإننـا نـورد أيـضاً بعض عباراته، التي لجأ فيها إلى حل معقـود الأبيـات الـشعرية، وإدخالهـا في تعبيراتـه، حيث يقول:«فإنّي وإن كنت الأخير زمانه، والسِّكّيت أوانه، لدلالة على الدلائل، ومخيلة على المخايل، أني آتي بما لم تستطعه الأوائل»(١). وهذا مأخوذ من قول أبي العلاء المعري:

وإني وإن كنــتُ الأخـير زمانــه لآتٍ بــما لم تــستطعه الأوائــل

أو حيث يقول:« وإن ساء ني يوماً فعلـه وخـلاّه، فـإنّ أفعالـه اللـواتي قـد سررن ألوف، وقد ألفى خلدي خلاء من غيره فاستوطن، وصادف قلبي فارغاً فـتمكّن...»(٢). وهذا القول ألفاظه محلولة من البيت:

أتاني هواها قبل أن أعـرف الهـوى فــصادف قلبــاً خالبــاً فتمكّنــا

ولجأ المقاميون الأندلسيون إلى الاقتباس من الأمثال، يقول السَّرقسطي على لسان البطل الشيخ السدوسي:«وهل مررت بالوعساء، وعجـت عـلى الأجـارع والأحـساء، فقلت: سقط السائل على الخبير»(٣). والمثل هو «على الخبير سقطت»(٤). ونجد الوادي آشي – في مقامته التي أوردنا نصّها – يقتبس المثل :«تحت الرغوة اللبن الصريح»(٥)، ويدخلـه في رسم صورة للجو يجنح نحو الهدوء بعـد شـدة الـريح. والمثـل: «يأتيـك بـالأمر مـن فصّه»(٦)، أفاد منه الفتح بن خاقان في مقامته، فقال: «واستفتشت العالم مـن وراء الزنـاد،

(١) و (٢) انظر دراستنا هذه ص٩٣ .

(٣) المقامات اللزومية : ص١٨.

(٤) مجمع الأمثال : ٢/ ص٢٤.

(٥) انظر ص ١٣٩ من دراستنا هذه. وهذا المثل اقتبسه ابـن أبي الخـصال في مقامتـه أيـضاً (انظـر رسـائل ابـن الخـصال: ص٤٤١).

(٦) مجمع الأمثال / ٢/ ص٤١٨.

واستفتيت حافظ المتن والإسناد، لأُقومَن بشرح الحديث ونصّه، ولآتينّك الأمر من فَصِّه»[١]. واستخدم الوادي آشي هذا المثل أيضاً في وصف بلاغة الرجل الذي ماشاه الراوية فتح بن ميسور وقوة حافظته، فقال: «فما سألته عن حديث إلاّ ذكره بنصه، ولا أمر إلاّ جاء به من نصّه »[٢].

واعتمد ابن المعلم في مقامته على سرد الأمثال اعتماداً كبيراً، ولذلك شبّهها د. إحسان عباس برسالة ابن زيدون الهزلية في كثير من أجزائها[٣]. أمّا ابن أبي الخصال فقد أكثر من سرد الأمثال في مقامته، التي عارض بها الحريري، إذ أورد تسعة أمثال في مقامة واحدة[٤].

وبعد، فإن نظرة سريعة إلى النصوص المقامية التي أوردناها، أو تلك التي أشرنا إليها، تُرينا أنّ الاقتباس من القرآن الكريم لم يقتصر على مقامات الوعظ والدعاء، بل امتد إلى مقامات المديح والهجاء، وغيرها من الموضوعات. وقد أشرنا إلى ما احتوته مقامتا ابن الشهيد وابن مالك القرطبي من ألوان الاقتباس اللفظي والمعنوي للحكم والأمثال والأشعار المشرقية والأندلسية.

وأمّا عن ذكرِ المقاميين لعظماء التاريخ ومشاهير الرجال فيكفي دلالة على ذلك أن نطالع مقامة الفقيه عمر الزجّال «تسريح النصال إلى مقاتل الفصّال»، التي أوردنا نصّها[٥]، بما زخرت به من حشد لأسماء الأعلام، ولا داعي للاستشهاد بأبيات منها هنا؛ لأن في ذلك ضرب من التكرار.

---

(١) انظر ص١٠٦ من دراستنا هذه.

(٢) انظر ص١٣٩ من دراستنا هذه.

(٣) تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين) : ص٣١٤.

(٤) انظر رسائل ابن أبي الخصال : ٤٢٥، ٤٣٦، ٤٣٧، ٤٤٢، ٤٤٤، ٤٤٦، ٤٤٧.

(٥) انظر ص ٢٤٤-٢٥١من دراستنا هذه .

ونختم دراستنا بالقول: إذا كانت المقامة الأندلسية قد تناولت موضوعات وأغراضاً لم تعرف في المقامات المشرقية، وإذا كانت قد خرجت عن نهج المقامة المعروف عند البديع والحريري، فإن ذلك لا يقلّل من شأنها، بل إنه قد يدل على تفوّقها، ويشكّل سمة تحديث وعلامة تجديد للمقامة الأندلسية شكلاً ومضموناً.

فهرس
المصادر والمراجع

- المصادر والمراجع المطبوعة.
- المصادر المخطوطة.
- الرسائل الجامعية.
- الدوريات

المصادر والمراجع المطبوعة

- القرآن الكريم
- ابن بسّام وكتاب الذخيرة، د. حسين خريوش، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمّان، ١٩٨٤.
- الإحاطة في أخبار غرناطة، لسان الدين بن الخطيب، أبو عبد الله محمد بن عبد الله (ت ٧٧٦هـ)، تحقيق: محمد عبد عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ١٩٧٤.
- إحكام صنعة الكلام، الكلاعي، محمد بن عبد الغفور (من أعلام القرن السادس)، تحقيق: محمد رضوان الدية، عالم الكتب، بيروت، ط٢، ١٩٨٥.
- الأدب الأندلسي، (موضوعاته وفنونه)، د. مصطفى الشكعة، دار العلم للملايين، بيروت، ط٣، ١٩٧٥.
- الأدب العربي في الأندلس، د. عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٦.
- أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، المقّري، أحمد بن محمد (ت ١٠٤١هـ)، تحقيق: مصطفى السقّا و إبراهيم الأبياري، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٣٩.
- الأمالي، القالي، أبو علي إسماعيل بن القاسم (ت٣٥٦هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٨.
- إنباه الرواة على أنباه النحاة، القفطي، جمال الدين علي بن يوسف (ت ٦٢٤هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط١، ١٩٨٦.
- الإيضاح في علوم البلاغة، القزويني، محمد بن عبدالرحمن (ت٧٣٩هـ)، مكتبة المثنى، بغداد.
- بديعات الزمان، فيكتور الكك، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٦١.

- بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، الضبّي أحمد بن يحيى (ت ٥٩٩هـ)، دار الكاتب العربي، القاهرة، ١٩٦٧.
- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، السّيوطي، جلال الدين عبد الرحمن (ت ٩١١هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ط٢، ١٩٦٥.
- البيان والتّبيين، الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت٢٥٥هـ)، تحقيق: عبدالسلام هارون، القاهرة.
- تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين)، د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ط٧، ١٩٨٥.
- تاريخ الأدب العربي (عصر الدول والإمارات: الأندلس)، د. شوقي ضيف، دار المعارف بمصر، ط٢.
- تاريخ الأدب العربي، كارل بروكلمان، نقله إلى العربية عبد الحليم النجار وآخرون، نشر الهيئة المصرية ا لعامة للكتاب، القاهرة.
- تاريخ قضاة الأندلس، النباهي المالقي، أبو الحسن بن عبد الله المالقي (ت٧٩٣هـ)، نشره ليفي بروفنسال، دار الكتاب المصري، القاهرة، ط١، ١٩٤٨.
- تاريخ النقد الأدبي في الأندلس، د. محمد رضوان الداية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٨١.
- تحفة القادم، ابن الأبّار القضاعي، أبو عبد الله محمد بن عبد الله (ت ٦٥٨هـ)، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٦.
- التكملة لكتاب الصلة، ابن الأبار القضاعي، نشر عزت العطار الحسيني، مكتبة الخانجي، مصر، ١٩٥٦.
- جذوة الاقتباس في ذكر من حلّ من الأعلام مدينة فاس، ابن القاضي، أحمد بن القاضي المكناسي (ت١٠٢٥هـ)، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٣.

- جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، الحميدي، أبو عبد الله محمد بن أبـي نـصر (ت ٤٨٨هـ)، الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٦٦.
- الحلة السيراء، ابن الآبار، تحقيق: حسين مؤنس، القاهرة، ١٩٦٣.
- خريدة القصر وجريـدة العـصر، العمـاد الأصـفهاني، أبـو عبـد الله محمـد (ت ٥٩٧هـ)، تحقيق: عمر الدسوقي وعلي عبد العظيم، دار نهضة مصر للطباعة.
- دارسات في الأدب الأندلسي، د. محمد سعيد محمـد، منـشورات جامعـة سـبها، ليبيا، ط١، ٢٠٠١.
- الديباج المذهب في معرفة أعيـان علمـاء المـذهب، ابـن فرحـون، برهـان الـدين إبراهيم بن علي (ت٧٩٩هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت.
- ديوان الرصافي البلنسي، محمـد بـن غالـب الرصـافي (ت ٥٧٢هـ)، تحقيـق: د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ط١، ١٩٦٠.
- ديوان ابن خفاجة، (ت ٥٢٣هـ)، تحقيق: د. سيد غازي، نـشر مطبعـة المعـارف بالإسكندرية، ط٢.
- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، أبن بسّام الشنتريني، علي بن بسّام (ت٥٤٢هـ)، تحقيق: د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٥.
- الذيل التكملة لكتابي الموصول والصلة، ابن عبد الملك المراكشي، أبـو عبـد الله ابن محمـد بـن محمـد، (ت ٧٠٣هـ)، تحقيـق: د. إحـسان عبـاس، دار الثقافـة، بيروت.
- رايات المبرزين وغايات المميزين، ابن سعيد المغربي، أبو الحسن علي بن موسـى (ت ٦٨٥هـ)، تحقيق: د. النعمان عبد المتعال، القاهرة، ١٩٧٣.
- رسائل ابن أبي الخصال، أبو عبد الله بن أبي الخصال (ت ٥٤٠هـ)، تحقيـق: د. محمد رضوان الداية، دار الفكر، دمشق.
- رسائل أندلسية، المؤلف مجهول، تحقيق: د. فوزي سعد عيـسى، منـشأة المعـارف بالإسكندرية، ط١، ١٩٨٩.

- رسائل ومقامات أندلسية، لمؤلف مجهول، تحقيق: د. فوزي سعد عيسى، منشأة المعارف الإسكندرية.
- الروض المعطار في خبر الأقطار، الحميري، محمد بن عبد المنعم، تحقيق: د. إحسان عباس، مكتبة البنان، بيروت، ط٢، ١٩٨٢.
- ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب، لسان الدين بن الخطيب (ت ٧٧٦هـ)، تحقيق: محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ١٩٨١.
- زاد المسافر وغرّة محيا الأدب السافر، أبو بكر صفوان بن إدريس (ت ٥٩٨هـ)، أعدّه وعلّق عليه: عبد القادر محداد، دار الرائد العربي، بيروت، ١٩٧٠.
- سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، عبد الله بن محمد (ت ٤٦٦هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٢.
- شرح مقامات الحريري، الشريشي، أبو العباس أحمد بن عبد المؤمن (ت٦١٨هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مطابع المدني، القاهرة.
- الشعر والشعراء، ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم، (ت ٢٧٦هـ)، تحقيق: د. عمر الطباع، دار الأرقم للطباعة للنشر، بيروت، ط١، ١٩٩٧.
- الصلة في تاريخ أئمة الأندلس، ابن بشكوال، أبو القاسم خلف بن عبد الملك (ت ٥٧٨هـ)، الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر القاهرة، ١٩٦٦.
- صلة الصلة، ابن الزبير، أبو جعفر، أحمد بن إبراهيم (ت ٧٠٧هـ) تحقيق: د. عبد السلام الهراس، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بالمغرب، ١٩٩٥.
- عيار الشعر، ابن طباطبا العلوي، محمد بن أحمد (ت٣٢٢هـ)، تحقيق: طه الحاجري ومحمد زغلول سلام، شركة فن الطباعة، القاهرة، ١٩٥٦.
- فن المقامات بالأندلس (نشأته وتطوره)، د. قصي عدنان الحسيني، دار الفكر، عمّان، ط١، ١٩٩٩.
- فن المقامات بين المشرق والمغرب، د. يوسف نور عوض، دار القلم، بيروت، ط١، ١٩٧٩.

- فهرسة ابن خير (ما رواه عن شيوخه)، ابن خير الإشبيلي، أبو بكر محمد بن خير (ت ٥٧٥ هـ)، مطبعة المثنى ببغداد، ١٩٦٢.
- في الأدب الأندلسي، د. محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر، ط١، بيروت، ٢٠٠٠.
- قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، ابن خاقان، أبو نصر الفتح بن محمد (ت ٥٢٩ هـ)، تحقيق: د. حسين خريوش، مكتبة المنار، عمان، ١٩٨٩.
- كتاب أدباء مالقة، ابن خميس المالقي، أبو بكر محمد بن محمد بن علي (ت.بعد ٦٣٩هـ)، حققه وقدّم له: د. صلاح جرار، دار البشير للنشر والتوزيع، عمان، ط١، ١٩٩٩.
- الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة، لسان الدين بن الخطيب، تحقيق: د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٣.
- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله (ت١٠٦٧هـ)، الأستانة، طبع بعناية وكالة المعارف، ١٩٤١.
- لسان العرب، ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرّم (ت ٧١١هـ). دار صادر، بيروت، ١٩٥٦.
- مجمع الأمثال، الميداني، أحمد بن محمد (ت٥١٨هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٧.
- مختارات من الشعر المغربي والأندلسي لم يسبق نشرها، تحقيق: إبراهيم بن مراد، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٨٦.
- مشاهدات لسان بن الخطيب في المغرب والأندلس، لسان الدين بن الخطيب، تحقيق: د. أحمد مختار العبادي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٨٣.
- المطرب من أشعار أهل المغرب، ابن دحية، أبو الخطاب عمر بن الحسن (ت ٦٣٦هـ)، تحقيق: إبراهيم الأبياري وأحمد أحمد بدوي، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩٥٣.

- مطمح الأنفس ومسرح التّأنس في ملح أهل الأندلس، الفتح بن خاقان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٣.
- المعجم في أصحاب القاضي الصدفي (أبو علي حسين بن محمد ت ٥٩٤هـ)، ابن الآبار القضاعي، أبو عبد الله محمد بن عبد الله (ت ٦٥٨هـ)، دار الكتاب اللبناني، تحقيق إبراهيم الأبياري، بيروت. ط١، ١٩٨٩.
- المعجب في تلخيص أخبار المغرب، المراكشي، عبد الواحد (ت٦٤٧هـ)، تحقيق: محمد سعيد العريان، القاهرة، ١٩٦٣.
- معجم البلدان، ياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ)، طبعة دار صادر، بيروت.
- المغرب في حلى المغرب، ابن سعيد المغربي، أبو الحسن علي بن موسى (ت ٦٨٥هـ) تحقيق: د. شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٣.
- المقامات اللزومية، السّرقسطي، أبو الطاهر محمد بن يوسف (ت ٥٣٨)، تحقيق: بدر أحمد ضيف، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٢.
- مقامات ورسائل أندلسية، فرناندودي لاجرانخا، ترجمة عبد اللطيف عبد الحليم، دار الثقافة العربية، القاهرة.
- المقتضب من تحفة القادم، اختيار وتقييد: أبي إسحق إبراهيم بن محمد البلفيقي، تحقيق: إبراهيم الأبياري، ط٢، ١٩٨٣.
- مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ)، تحقيق: علي عبد الواحد وافي، مطبعة لجنة البيان العربي، ط١، ١٩٦٠.
- مقامات الهمذاني، أبو الفضل بديع الزمان (ت٣٩٨هـ)، تقديم وشرح الشيخ محمد عبده، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩٥٧.
- ملامح التجديد في النثر الأندلسي خلال القرن الخامس الهجري، مصطفى السيوفي، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٩٨٥.
- النثر الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين، د. حازم عبد الله الأخضر، دار الرشيد للنشر، بغداد، ١٩٨١.

- النثر الأدبي الأندلسي في القرن الخامس الهجري (مضامينه وأشكاله)، د. علي ابن محمد، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٩٠.
- نشأة المقامة في الأدب العربي، د. حسن عباس، دار المعارف، القاهرة.
- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المقّري، أحمد بن محمد (ت ١٠٤١هـ)، تحقيق: د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨.
- النقد الأدبي في الأندلس (عصر المرابطين والموحدين)، د. شريف علاونه، ط١، الزرقاء، ٢٠٠٥.
- نهاية الأرب في فنون الأدب، النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، (ت ٧٣٣هـ)، نسخة مصوّرة عن طبعة دار الكتب، نشر المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر.
- الوافي بالوفيات، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت ٧٦٤هـ)، باعتناء س. ديدرينغ، ط٢، دار صادر، بيروت، ١٩٩١.
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أبو العباس، أحمد بن محمد (ت ٦٨١هـ) تحقيق: د. إحسان عباس، دار صادر بيروت، ١٩٧٨.

المصادر المخطوطة:

- ترسّل الفقيه الكاتب، محمد بن أبي الخصال (ت ٥٤٠هـ)، ميكروفلم، مكتبة الجامعة الأردنية، رقم ٩١٠.
- الزوافي في نظم القوافي، الرندي، أبو البقاء (ت ٦٨٤هـ)، نسخة خطّية بخط مغربي قديم على ميكروفلم، مركز الوثائق مكتبة الجامعة الأردنية، شريط رقم ٩٦٥.

الرسائل الجامعية المخطوطة:

- النثر الفني في الأندلس في القرن الخامس، عبد القادر داغي رسالة ماجستير جامعة دمشق، ١٩٨٣، (نسخة بمكتبة الجامعة الأردنية).

- النثر الفني في عصر الموحدين بالأندلس، أحمد أبو موسى رسالة ماجستير، جامعة تشرين، (نسخة بمكتبة الجامعة الأردنية).
- النثر الفني في عهد الموحدين بالمغرب والأندلس، يوسف عروج، رسالة دكتوراه، جامعة دمشق (نسخة بمكتبة الجامعة الأردنية).

الدوريات:

- حوليات الجامعة التونسية:
١) عدد ٢٧، ١٩٨٨، مقامة تفضيل النخلة على الكرمة، تحقيق حسناء الطرابلسي، ص ١٩٩ – ٢١٨.
٢) عدد ٢٨، ١٩٨٨، مدخل إلى تحليل المقامات اللزومية، محمد الهادي الطرابلسي، ص ١١١ – ١٤٥.
٣) عدد ٢٨، ١٩٨٨، فن المقامة بالأندلس، محمود طرشونة، ص١٤٥-١٦٥.
- مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية، عدد ٣٧، مجلد ١٨، ٢٠٠٦، المفاضلة بين الشعر والنثر في التراث النقدي الأندلسي، د. شريف علاونة، ص٤٦٣-٤٨٦.

تم بحمد الله